وقفات تربوية

في ضوء القرآن الكريم

الجزء الثالث

الرسالة الحادية عشرة : فبهداهم اقتده
الرسالة الثانية عشرة : ففروا إلى الله

بقلم
عبد العزيز بن ناصر الجليل



دار طيبة للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

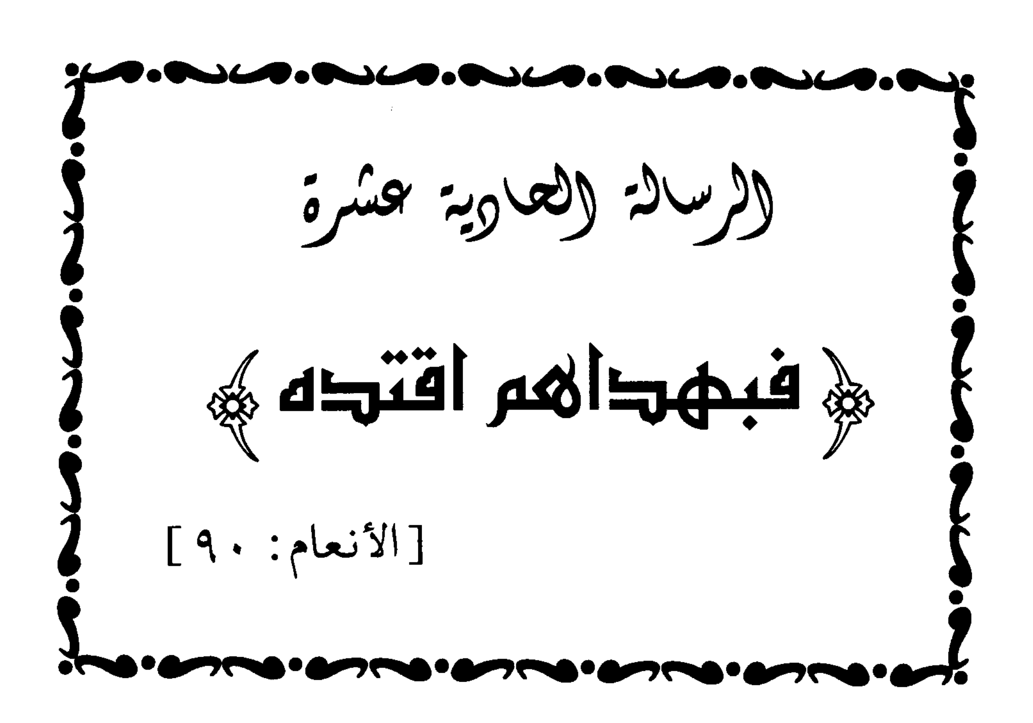
الطبعة الثانية

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق

ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧



الرسالة الحادية عشرة

﴿ فبهداهم اقتده ﴾

[الأنعام: ٩٠]

المقدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فإن الله عز وجل خلق عباده حنفاء موحدين؛ ومنذ أن أهبط أبو البشر آدم عليه السلام إلىٰ الأرض، كان معه التوحيد والإيمان، واستمر التوحيد في ذريته عدة قرون حتىٰ اجتالتهم الشياطين، وانحرفت الفطر، وتراكم الشرك في النفوس؛ فاقتضت رحمة الله عز وجل إرسال الرسل إلىٰ الناس لهدايتهم وردهم إلىٰ الهدىٰ والإيمان، والخلوص من الشرك وآثاره. قال الله عز وجل: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (٢١٣) ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ**

عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...»[١].

إذن فإن إرسال الرسل عليهم السلام قد بدأ مع ظهور آثار الشرك والانحراف في عقائد الناس، وهذا من رحمة الله عز وجل وفضله وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً تجتالهم الشياطين وتحرفهم إلىٰ الشر، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب واختار لهذه الغاية العظيمة النبيلة أفضل خلقه وصفوة عباده.

ومنذ ذلك الوقت والتاريخ البشري يمثل صراعاً بين الحق والباطل؛ بين أتباع الهدىٰ وأتباع الضلال، بين حزب الله وحزب الشيطان، وهذا ما يظهر بوضوح للمتأمل في تاريخ البشرية حيث يمثل دور الأنبياء وأتباعهم خطاً مستقلاً مرتبطاً بعضه ببعض ويشابه بعضه بعضاً؛ الدعوة واحدة، والمنهج واحد ومواقف أهل الجاهلية منهم واحدة، فالجاهليات تشكل أمة واحدة وحزباً واحداً في مقابل أمة الإسلام ودعوة الحق وحزب الله المتمثل في الرسل وأتباعهم.

وفي كل حقبة من الزمان تسيطر فيها الجاهلية فإن البشرية تصاب بالشقاء والنكد ويسود الظلم والفساد وتبتلىٰ بالمصائب والضيق، ولكن الله عز وجل برحمته الواسعة يصطفي من عباده من يشاء لإنقاذ عباده من ظلمات الشرك والتيه والشقاء؛ فيرسل رسله لإنقاذ البشرية ولنشر الخير

---

(١) صحيح مسلم رقم (٢٨٦٥) في كتاب الجنة وصفة نعيمها.

والسعادة بين الناس؛ وذلك بإرجاع الناس إلىٰ عبادة ربهم وتوحيده وتخليصهم من الشرك وآثاره، والذي هو أعظم الظلم، وكل المصائب والويلات إنما تنبع منه وترجع إليه.

إذن فإن مهمة الرسل عليهم السلام مهمة عظيمة شريفة يجب أن يعرفها الناس، ويبرزوها ويعرفوا حقوق هؤلاء الرسل الكرام، ويحتذوا حذوهم ويهتدوا بهداهم، وخاصة من نسب نفسه إلىٰ دعوة الله عز وجل حيث يتعين عليه دراسة هذه الحياة المباركة لرسل الله عز وجل؛ ليترسم هديهم إن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وأنقل بهذه المناسبة كلاماً جيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: يبين فيه الضرورة الملحة إلىٰ إرسال الرسل ومعرفة ما يدعون إليه والأعمال العظيمة الشريفة التي قاموا بها، لعلنا نقدر لهم قدرهم، كما نقدر لما يدعون إليه قدره؛ فنأخذ به، وندعو إليه، ونتواصىٰ به.

يقول رحمه الله تعالىٰ: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلىٰ معرفة الرسول، وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لاسبيل إلىٰ السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا علىٰ أيدي الرسل، ولا سبيل إلىٰ معرفة الطيب والخبيث علىٰ التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله ألبتة إلا علىٰ أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح، الذي علىٰ أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلىٰ روحه، والعين إلىٰ

نورها، والروح إلىٰ حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلىٰ الرسل فوقها بكثير» أ.هـ[١].

وإن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أن أخبار الأنبياء وصفاتهم وقصصهم مع أقوامهم وصبرهم وجهادهم، كل ذلك قد أخذ حيزاً كبيراً من القرآن الكريم كما يجد أن هذه الأخبار والقصص قد انحصر جلها في القرآن المكي - أي ما قبل الهجرة النبوية الشريفة - حيث الاستضعاف والابتلاء والتربية والتمحيص للعصبة المؤمنة في العهد المكي، وذلك حتىٰ يتأسىٰ الرسول ﷺ ومن بعده من المؤمنين بحياة الأنبياء وأتباعهم ويتعزوا بصبرهم ودعوتهم، وهذا من أهم أهداف وأغراض القصص القرآني.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: (ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقىٰ آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به، وأرسل عليه الحجارة من السماء، وأغرقه في اليم، وأرسل عليه الصيحة، وأخذه بأنواع العقوبات؛ وإنما ذلكم بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عما جاءوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٥).

واتبع غير سبيلهم؛ ولهذا أبقىٰ الله سبحانه آثار المكذبين لنعتبر بها ونتعظ؛ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ **إنا مُنزِلُون علىٰ أهْلِ هذه الْقرْيةِ رِجْزاً من السماء بِما كانُوا يفْسقُون (٣٤) ولقد تركْنا مِنْها آية بينةً لِقوْمٍ يعْقِلُون (٣٥)** ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ **ثُم دمرْنا الآخرِين (١٣٦) وإنكُمْ لتمُرُّون عليْهِم مُصْبِحِين (١٣٧) وبِالليْلِ أفلا تعْقِلُون (١٣٨)** ﴾ [الصافات: ١٣٦ - ١٣٨]، أي: تمرون عليهم نهاراً بالصباح وبالليل، ثم قال: ﴿ **أفلا تعْقِلُون** ﴾؟، وقال تعالىٰ في مدائن قوم لوط: ﴿ **... وأمْطرْنا عليْهِمْ حِجارةً من سِجِيلٍ (٧٤) إن فِي ذلِك لآياتٍ لِلْمُتوسِمِين (٧٥) وإنها لبِسبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦)** ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦]، يعني: مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها. وقال تعالىٰ: ﴿ **أو لمْ يسِيرُوا فِي الأرْضِ فينظُرُوا كيْف كان عاقِبةُ الذِين مِن قبْلِهِمْ ...** ﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذا كثير في الكتاب العزيز: يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسل ونجاة أتباع المرسلين؛ ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسىٰ وإبراهيم، ونوح وعاد وثمود، ولوط وشعيب، ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم، ثم يختم القصة بقوله: ﴿ **إن فِي ذلِك لآيةً وما كان أكْثرُهُم مُّؤْمِنِين (٨) وإن ربك لهُو الْعزِيزُ الرحِيمُ (٩)** ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة، وهو: ﴿ **الْعزِيزُ الرحِيمُ** ﴾ فانتقم من أعدائه بعزته، وأنجىٰ رسله

وأتباعهم برحمته»[(١)] أ هـ.

ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عن هذه الأهداف بعد ذكر قصص الأنبياء في سورة هود فيقول: «لقد كان هذا القصص يتنزل علىٰ رسول الله ﷺ في مكة والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق؛ ويريهم معالمه في مراحله جميعاً؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق؛ وقد بات لاحباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم علىٰ مدار التاريخ البشري؛ وبات هذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً لا موحشاً ولا مخوفاً!.. إنهم زمرة من موكب موصول في طريق معروف؛ وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلىٰ نقطة الختام وفق سنة جارية؛ ولايمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة!

هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم؛ ويحرك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة...

وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم..

إن هذه الطلائع في حاجة إلىٰ هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه. تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها؛ وتستوحيه في ما يصادف

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٧، ٩٨).

هذه الخطوات والمراحل من استجابات؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن - بهذه الصورة - لا يعود مجرد كلام يتلىٰ للبركة [فقط] ولكن كأنه يتنزل اللحظة علىٰ الجماعة المسلمة المتحركة، لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه.

وهذا ما نعنيه بأن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه!

إن هؤلاء جميعاً لن يدركوا من هذا القرآن شيئاً يذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة علىٰ هذا النحو؛ إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه.

إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية بالإسلام الحنيف؛ والذين يجاهدون البشرية الضالة لردها إلىٰ الإسلام من جديد؛ والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلىٰ العبودية لله وحده.. إن هؤلاء وحدهم هم الذي يفقهون هذا القرآن لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي نزل فيه، ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة؛ ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ما تعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع.. وهذا وحده جزاء علىٰ

كل ما يصيبهم من عذابات وآلام. أأقول: جزاء؟! كلا. والله. إنه لفضل من الله كبير.. ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾..

والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم..»أهـ[١].

ومن الآيات الواردة في ذكر الغرض من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله تعالىٰ بعد قصص الأنبياء في سورة هود: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود: ١٢٠].

واليوم قد علت رايات الباطل – من ديمقراطية واشتراكية وثورية – أكثر ديار المسلمين، حتى صارت أحوال الدعاة في هذه البلدان أشبه ما تكون بحال المسلمين في العهد المكي من حيث الغربة والاستضعاف، وعظمت محنتهم جداً، ولا عجب في هذا فتلك سنة ماضية إلى يوم القيامة، لكن وجه الزلل، والأمر الجلل أن بعض هؤلاء الطيبين، وتحت وطأة الضربات

(١) في ظلال القرآن ٤ /١٩٤٨. ط. الشروق [بتصرف يسير].

القاسية قد يفقد ما تعبده الله به من الصبر ومن ثم يحيد عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله. ولقد رأيت أن أنصح لإخواني هؤلاء فإنه وإن تباعدت بيننا الأقطار، إلا أن ديننا واحد، والدين النصيحة، فاستعنت الله عز وجل وكتبت هذه الرسالة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم لتبحث في هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والذي اكتمل وتم نوره في هدي نبينا محمد ﷺ لعل الله عز وجل أن يحشرنا في زمرتهم، ولعلنا نأخذ بهديهم الكريم ليحصل لنا ما حصل لهم من العزة والنصر والتمكين.

وقد جعلت عنوان هذه الرسالة الآية الكريمة في سورة الأنعام: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ والتي أمر فيها الرسول ﷺ أن يقتدي بهدي الأنبياء من قبله، حيث ذكر عز وجل مجموعة من الأنبياء الكرام عليهم السلام وفي نهاية الآيات قال تعالىٰ: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ...**﴾ [الأنعام: ٩٠]. والأمر موجه له ﷺ ولأمته من بعده.

هذا وسأقتصر إن شاء الله تعالىٰ في هذا البحث من الأدلة علىٰ الآيات القرآنية وما صح من الأحاديث النبوية وأعرض عما سواهما من الإسرائيليات والأخبار الباطلة. أما عن مباحث هذه الرسالة فهي كما يلي:

(١) لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

(٢) خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٣) دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة.

(٤) من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

- من هديهم في صدق الإيمان والتوحيد (وتحته مطالب) .
- من هديهم في الأخلاق والسلوك (وتحته مطالب)
- من هديهم في الدعوة والتبليغ (وتحته مطالب) .

(٥) الخـــاتمة.

هذه أهم مباحث الرسالة. وقبل الدخول في ذلك أود الإشارة إلىٰ أن التأسي بالأنبياء عليهم السلام هو في حقيقة الأمر تأسي بحياة نبينا محمد ﷺ وسيرته العظيمة. وإنما أردت التأكيد علىٰ أن ما جاء في هديه ﷺ ومنهجه إن هو إلا صورة كاملة لما تفرق في الأنبياء من قبله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلِ رجلٍ بنىٰ بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موْضع لبِنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة؛ وأنا خاتم النبيين**»[١].

أسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يحسن القصد فيها إنه سميع مجيب.

* * *

---

(١) البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦).

المبحث الأول

«لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟»

لما كانت حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي حياة الكمَّل من الناس الذين اختارهم الله عز وجل عن علم وحكمة واصطفاهم علىٰ البشر، كان لابد أن نتعرف علىٰ هذه الحياة المباركة والتي صُنعت علىٰ عين الله تبارك وتعالىٰ، كما كان لزاماً علىٰ من أراد لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة - فرداً كان أو جماعة - أن يدرس هذه الحياة المباركة، وبالذات في عصور الغربة والغرباء كعصرنا الحاضر؛ علّها أن تكون نبراساً لحياتنا، ونجاة لأمتنا مما هي فيه من ذلة ومهانة.

ويمكن إبراز أهمية دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من خلال أمور كثيرة أهمها ما يلي:

الأمر الأول:

لأننا مأمورون من الله عز وجل بالاقتداء بهم والتأسي بهديهم ، وفي ذلك طاعة لله سبحانه وعبادة له قبل كل شيء. ومن هذه الآيات ما ذكره الله عز وجل في سورة الأنعام من شأن بعض أنبيائه ورسله، ثم ختم هذه الآيات بأمر الرسول ﷺ بالاقتداء بهديهم. والأمر له ﷺ أمر لأمته.

قال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٩٠].

قال الطبري رحمه الله تعالىٰ عند الآية الأخيرة: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾: «يقول تعالىٰ ذكره: «**أُولَٰئِكَ**» هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدين الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك «**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**» يقول تعالىٰ ذكره: فبالعمل الذي عملوا ، والمنهاج الذي سلكوا وبالهدىٰ الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم «**اقْتَدِهْ**» يا محمد أي فاعمل وخذ به واسلكه فإنه عمل لله فيه رضىً، ومنهاج من

سلكه اهتدىٰ» أهـ[١].

والأمر له ﷺ أمر لأمته لقوله تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)** ﴾.

[الأحزاب: ٢١]

وقال صاحب المنار رحمه الله تعالىٰ: «فمعنىٰ الجملة علىٰ هذا: أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في الآيات المتلوة آنفاً والموصوفون في الآية الأخيرة بإيتاء الله إياهم الكتاب والحكم والنبوة، هم الذين هداهم الله تعالىٰ الهداية الكاملة، فبهداهم - دون ما يغايره ويخالفه من أعمال غيرهم وهفوات بعضهم - اقتد أيها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك، مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، والصبر علىٰ التكذيب والجحود وإيذاء أهل العناد والجحود، ومقلدة الآباء والجدود، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال، كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والإيثار والزهد، والسخاء والبذل، والحكم بالعدل» أهـ[٢].

ومن الآيات التي ورد فيها أيضاً الأمر بالاقتداء بهدي الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ**

---

(١) تفسير الطبري ت: شاكر عند الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير المنار عند الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال الشوكاني رحمه الله تعالىٰ: « وقوله تعالىٰ: ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ متعلق بأسوة أو بحسنة، أو هو نعت لأسوة، أو حال من الضمير المستتر في حسنة، أو خبر كان، و﴿ لَكُمْ ﴾ للبيان، ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ هم أصحابه المؤمنون. وقال ابن زيد: هم الأنبياء »اهـ[1].

ومن الآيات الواردة في الأمر بالاهتداء بهدي الأنبياء ما شرعه الله عز وجل في سورة الفاتحة في كل صلاة أن ندعوه سبحانه بأن يهدينا صراطهم المستقيم، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ ...اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ... ﴾ وأول من يدخل في وصف المنعم عليهم هم أنبياء الله تعالىٰ وأتباعهم؛ وذلك لقوله تعالىٰ بعد أن ذكر جملة من الأنبياء الكرام في سورة مريم: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾.

[مريم: ٥٨]

---

(١) فتح القدير (٥/ ٢٠٦).

الأمر الثاني :

لأن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي الحياة المعصومة خاصة فيما يتعلق بالعقيدة وما أمروا بتبليغه؛ ذلك لأن الله تعالىٰ اجتباهم واصطفاهم عن علم وحكمة؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** ... ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال سبحانه عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام: ﴿ **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧)** ﴾ [ص: ٤٦، ٤٧]، وقال عن نبيه موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)** ﴾ [طه: ٣٩]، وقال عن علمه سبحانه بمن يختار من رسله: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ... ﴾ [الحج: ٧٥]، والآيات في ذلك كثيرة، والحاصل منها أن من اصطفاه الله عز وجل واجتباه لرسالته هم أولىٰ بالاتباع والاقتداء؛ وذلك لحفظ الله عز وجل لهم وعصمته لهم من الزلل والانحراف، ولو وقع منهم الخطأ لم يقروا علىٰ ذلك. فحري بمن هذه صفاتهم أن يقُتدىٰ بهم، وتُدرس حياتهم، ويُتعرف علىٰ هديهم؛ وذلك لضمان الاهتداء وعدم الانحراف، لهداية الله عز وجل لهم وعصمته لهم فيتم الاقتداء من المقتدين وهم في غاية الاطمئنان علىٰ صحة ما يأخذونه ويقتدون به وسلامته من الانحراف.

الأمر الثالث:

في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكبر العظات والعبر للدعاة إلىٰ الله عز جل في كل مكان وزمان؛ سواءً ما يتعلق بالإيمان العظيم والتوحيد الصادق الذي عليه أنبياء الله عز وجل، أو فيما يتعلق بأخلاقهم وسلوكهم، أو بهديهم ومنهجهم وصبرهم في الدعوة والصراع مع الباطل وأهله. وإبراز هذه الجوانب من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو من أهم أغراض ورود قصص الأنبياء في القرآن الكريم؛ حيث لم تأت لمجرد التسلية والمعرفة التاريخية فقط، وإنما جاءت للاقتداء والتأسي بتوحيدهم والدعوة إليه، والتعزي بحياتهم وصبرهم وجهادهم حتىٰ لا تفتر عزائم الدعاة ويضعف صبرهم، فلهم في هذا السلف المبارك أكبر عزاء وقدوة في الثبات وشحذ الهمم.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

«وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلىٰ خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوىٰ إيمان المؤمنين. فبها يصح الاتساء بالأنبياء» اهـ[١].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ١٧٨).

الأمر الرابع :

وتأتي دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في عصرنا الحاضر ونحن في أشد الحاجة إلىٰ دراستها من أي وقت مضىٰ؛ وذلك لما يشهده عصرنا من غربة في أحوال المسلمين وفرقة بين دعاة الحق، وتسلط الأعداء، وكيد المنافقين وتخبط في بعض المناهج الدعوية ما بين يائس، ومداهن، ومستعجل. وهذا يبرز أهمية التعرف علىٰ حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في واقعنا المعاصر لعلَّ الدراسة المتجردة الواعية لهذه الحياة المباركة أن يقي الله سبحانه بها من التخبط والانحراف، وأن يهدينا بها إلىٰ الصراط المستقيم الذي يوحد صفوفنا، ويبطل كيد أعدائنا، ويوصلنا في النهاية إلىٰ النصر والتمكين الذي نصر الله عز وجل به أنبياءه والمتبعين لهم بإحسان.

الأمر الخامس :

في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعرف علىٰ سنن الله عز وجل في التغيير، وتعرف علىٰ سننه سبحانه في الدفع والمدافعة، كما أنها تكشف للدعاة إلىٰ الله عز وجل ذلك الصراع الطويل المرير بين الحق والباطل. وفي هذا أكبر العزاء لأهل الحق؛ وذلك لإيمانهم بحتمية هذا الصراع، وأن الدولة والعاقبة في نهاية الأمر للحق وأهله. وهذا كله لا يبرز بوضوح كما يبرز في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصراعهم مع أقوامهم: بالحجة والبيان، والهجرة والجهاد حتىٰ أتاهم الله تعالىٰ بنصره

وتمكينه؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال سبحانه عن السنن: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وإن في التعرف علىٰ هذه السنن الربانية لأعظم فائدة في تجنب الأخطاء وتوقي موارد الهلكة، ومعرفة أسباب النصر والتمكين.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره؛ كالأمثال المضروبة في القرآن »اهـ[١].

ومن السنن التي يمكن التعرف عليها من خلال دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما يلي:

---

(١) جامع الرسائل ص: (٥٥).

أ- سوء عاقبة المكذبين للرسل وإهلاكهم.

ب- نصره سبحانه لعباده المؤمنين.

جـ- مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلىٰ الرخاء.

د- زوال الأمم بسبب الترف والفساد وفشو الظلم والتجبر علىٰ الناس.

و- أن البشر يتحملون مسئوليتهم في الخير والشر.

ز- أن انهيار الأمم وهلاكها يكون بأجل.

ح- أن الابتلاء للمؤمنين سنة جارية.

ط- تقرير سنة التدافع و الصراع بين الحق والباطل.

وستأتي دراسة مفصلة لبعض هذه السنن في مبحث قادم إن شاء الله تعالىٰ. (انظر لمزيد من التفصيل كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي للدكتور السلمي (٥٨ - ٧٤).

الأمر السادس:

ولعل في دراسة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بصدق ورغبة في اتباع هديهم سبيلاً إلىٰ الانتظام في سلكهم والسير في قافلتهم المباركة، ولعل الله عز وجل أن يلحق من هذه نيته بركبهم الميمون، وأن يحشره في زمرتهم، فيصدق عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ**

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]. نسأله سبحانه أن يفيض علينا رضاه وجنته، وأن ينعم علينا باللحوق بهذه الصفوة المباركة باتباعنا لهم، وحبنا إياهم، وإن قصرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيراً كثيراً.

فعن أنس رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متىٰ الساعة؟ قال: «**وما أعددت لها ؟**» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «**أنت مع من أحببت**». قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم»(١).

يعلّق الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ علىٰ صفات عباد الرحمن الواردة في آخر سورة الفرقان – ورسل الله عليهم الصلاة والسلام أولىٰ من تصدق عليهم هذه الصفات – فيقول: «ما أعلىٰ هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكىٰ تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفىٰ هؤلاء الصفوة، وأتقىٰ هؤلاء السادة... ولله منّة الله علىٰ عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم، وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم؛ ليشتاقوا إلىٰ الاتصاف بهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منّ عليهم وأكرمهم – الذي فضْلُه في كل مكان

---

(١) البخاري (٦١٦٧) في الأدب، ومسلم (٢٦٣٩) في البر والصلة.

وزمان، وفي كل وقت وأوان - أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم، فاللَّهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولاحول ولا قوة إلا بك. لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً، ولا نقدر علىٰ مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإنا ضعفاء عاجزون من كل وجه. نشهد أنك إن وكلتنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين وكلتنا إلىٰ ضعف وعجز وخطيئة، فلا نثق ياربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك»[1].

* * *

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ٤٥٥).



المبحث الثاني

«خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم صفوة البشر وسادتهم، وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكن الله عز وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلىٰ الناس، وخصهم لذلك ببعض الخصائص والصفات التي لا يشترك معهم بقية البشر فيها. وهذه الخصائص لا تخرجهم عن بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل؛ قال تعالىٰ علىٰ لسان بعض رسله في مجادلتهم لأقوامهم: ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)** ﴾ [إبراهيم: ١١].

ولله عز وجل الحكمة البالغة في كون الأنبياء من البشر؛ فلو لم يكونوا كذلك لم يكن هناك مجال للاقتداء بهم والتأسي بأحوالهم، وما خفي علينا من الحكم أكثر.

وسأتطرق في هذا المبحث لبعض خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعلنا نعرف لهم حقهم ونقدر لهم قدرهم، فنبذل لهم من الأدب والحب والولاء ما يستحقونه وما يلزم ذلك من الاتباع والتأسي بحياتهم وهديهم.

وقبل ذكر هذه الخصائص فإنه يحسن أن نلم ببعض لوازم بشرية الرسل والتي استنكرها كل قوم علىٰ نبيهم وذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤].

وعجباً للقوم الكافرين كيف لم ينتبهوا لنعمة الله عز وجل بأن جعل الرسول بشراً من جنسهم؛ فجحدوا هذه النعمة واستغربوها مع ما فيها من اللطف والرفق بالعباد؛ حيث أرسل إليهم رسلاً من جنسهم ليفقهوا عنهم ما يبلغونهم عن الله تعالىٰ، ويتمكنوا من القيام بما يُدعون إليه، ولو بُعث إلىٰ الناس رسلٌ من الملائكة أو من غير جنسهم لما استطاع الناس الفقه عنهم والأخذ عنهم، ولقالوا: هم من جنس غيرنا فلا نقبل ولا نفقه عنهم. فرجع الإعراض في الأول والآخر إلىٰ الهوىٰ نعوذ بالله من الهوىٰ.

ومن لوازم بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام:

١- الاتصاف بما تتصف به الطبيعة البشرية من كونهم جسداً يحتاجون إلىٰ الطعام والشراب والنكاح، كما أن لهم أزواجاً وذرية وآباء وأمهات وأقارب وأصحاباً.

٢- يصيبهم ما يصيب البشر من الآفات والأمراض والمكاره والسهو والنسيان والنوم.

٣- يرضون ويغضبون ويفرحون ويحزنون.

٤- يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر؛ بل إن الأنبياء أشد الناس بلاءً.

٥- لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله عز وجل.

٦- يقومون بأعمال البشر والأشغال التي يمارسها البشر كالرعي والتجارة وصناعة السيوف والدروع وغيرها من المهن البشرية.

٧- ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية ولا الربوبية بل هم عبيد لله تعالىٰ، حققوا العبودية علىٰ أكمل وجه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واعتصموا بالله وحده، وفوضوا أمورهم إليه.

٨- ومع اشتراكهم مع البشر في صفة البشرية فلقد حققوا الكمال البشري في أرقىٰ صوره؛ لأن الله عز وجل اصطفاهم واجتباهم ورباهم علىٰ عينه؛ فجاءت قلوبهم أطهر البشر قلوباً، وعقولهم أزكىٰ البشر عقولاً وقريحة، وأخلاقهم أكمل البشر وأزكاهم أخلاقاً، ومعرفتهم بربهم وعبادتهم له سبحانه أكمل البشر معرفة وعبودية وإيماناً؛ بل حتىٰ في الصورة الظاهرة الخلقية كانوا أكمل البشر أجساماً وأجملهم صورة، وصدق الله العظيم: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴾.

[الأنعام: ١٢٤]

وهذه الصفات السابق ذكرها هي من مقتضيات البشرية التي يشتركون مع البشر فيها، ولكن الله عز جل بعلمه الشامل وحكمته البالغة خص هؤلاء الصفوة من البشر بنعمة النبوة والرسالة، وخصهم لأجلها

بصفات وخصائص تفردوا بها عن سائر البشر، وفضلوا عليهم، واستحقوا من أجلها إجلال الناس لهم، ومحبتهم إياهم، وطاعتهم لهم، واتباعهم لمنهجهم وهديهم العام، ووجب علىٰ كل قوم طاعة نبيهم في شريعته الخاصة بهم. ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يلي:

(١) اصطفاؤهم بالوحي والرسالة:

قال تعالىٰ: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾** ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...** ﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الوحي يترتب عليه أمور يتميزون بها عن الناس كتكليم الله عز وجل لبعضهم، ونزول الملائكة عليهم، وتعريف الله سبحانه لهم ببعض الغيوب الماضية أو المستقبلة، أو إطلاعه سبحانه لبعضهم علىٰ شيء من عالم الغيب كما حصل ذلك للرسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج. وهذه أكبر وأعظم صفات الأنبياء التي تفردوا بها، وأنعم الله سبحانه بها عليهم، وهذه الخاصية هي التي توجب علىٰ العباد طاعة أنبيائهم وقبول ما يأتون به ويأمرون وينهون؛ لأنه وحي من عند الله عز وجل أمر الأنبياء بإبلاغه للناس، وهذا بدوره يوجب علىٰ الناس توقير أنبيائهم وأقوالهم وتوجيهاتهم، ويمنع من التقدم عليهم بقول أو فعل.

(٢) العصمة:

وهذه خاصية ثانية انفرد بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن البشر، وهي من لوازم الوحي والرسالة التي أكرم الله سبحانه بها أنبياءه فجعلهم

معصومين فيما يبلغونه للناس من العقائد والأحكام. ولو وقع أحدهم في خطأ قولي أو عملي، فمن لوازم العصمة أن الله عز وجل لا يقرّه علىٰ هذا الخطأ بل ينبهه إلىٰ ذلك ويدله إلىٰ الصواب والحق ، فيُتدارك الخطأ في وقته ويفيء النبي من ذلك بأسرع وقت؛ ويكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل وقوعه في الذنب أو الخطأ؛ يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة علىٰ طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوىٰ امتناع الذنوب، حتىٰ حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن علىٰ براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها. هؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن علىٰ ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتدياً إلىٰ الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[1] اهـ.

والذي يعنينا هنا هو عصمة منهجهم وهديهم لأنه وحي من الله عز وجل. وهذا يكفل لسالكه السلامة من الخلل والانحراف، ويضمن له النجاة والفوز والتمكين لأنه يلقي في قلوب المتبعين له الطمأنينة والثبات والتضحية: لأنه منهج معصوم لا يعتريه ما يعتري المناهج البشرية من خلل وقصور وانحراف.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ١٥٠).

وينبغي قبل أن ننهي الحديث حول هذه المسألة التنبيه على مسألتين هامتين:

الأولىٰ: وجوب التأدب مع أنبياء الله عز وجل ومعرفة حقهم وبالأخص مع من بدر منه بعض الأخطاء التي لم يقرهم الله عز وجل عليها بل وفقهم لتركها والتوبة منها. حيث إن هذا لا ينافي عصمتهم ولا ينقص من قدرهم وكمالهم؛ لأن الله عز وجل تاب عليهم واجتباهم وهداهم، ومن ذلك قوله ﷺ عن نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام: « **لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متىٰ** »[1] فالحذر الحذر من تنقصهم وإساءة الظن بهم.

الثانية: الحذر من الروايات الإسرائيلية التي يرويها كثير من المفسرين في قصص الأنبياء في القرآن وما في بعضها من إساءة الظن والأدب بأنبياء الله ورسله ومنافاتها لعصمتهم مع أنه لا أصل لها؛ فهي مردودة سنداً ومتناً، فجميع الأخبار الماضية لا نقبل منها في تفسير القرآن إلا ما جاء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وما سواهما فمردود ومرفوض لأنه رجم بالغيب.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ: « وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو علىٰ تجويز الرواية عنهم، بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق

---

(١) البخاري (٣٣٩٥) في الأنبياء ومسلم في الفضائل رقم (٢٣٧٧).

ولا تكذب فلا يمكن اتفاقهما » أهـ[١].

(٣) تنام أعينهم ولاتنام قلوبهم :

عن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء : « **والنبي نائمة عيناه ، ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم** »[٢].

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « **إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا** »[٣] وينبني علىٰ هذه الخاصية أن رؤيا الأنبياء حق ووحي يتبع .

(٤) تخييرهم عند الموت :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة** »[٤] . وسُمع النبي ﷺ في شكواه التي قبض فيها يقول : « **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** »[٥] .

(٥) يقبر النبي حيث يموت :

صح عنه ﷺ قوله : « **لم يقبر نبي إلا حيث يموت** »[٦] ولهذا فإن

---

(١) تفسير السعدي (٢ / ١٣٠) .

(٢) البخاري في المناقب (٣٥٧٠) .

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١ / ١٧١) وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٠٥) .

(٤) البخاري في التفسير (٤٥٨٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤) .

(٥) البخاري في التفسير (٤٥٨٦) .

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠١) .

الصحابة رضي الله عنهم دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض.

(٦) لا تأكل الأرض أجسادهم:

وهذا من إكرام الله عز وجل لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقىٰ أجسادهم محفوظة من البلىٰ، وهذا قد ثبت عنه ﷺ في قوله: «**إن الله حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[١].

(٧) أحياء في قبورهم:

صح عنه ﷺ أنه قال: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»[٢]، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**مررت علىٰ موسىٰ ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**»[٣].

أما عن كيفية هذه الحياة فهذا أمر غيبي لا مجال للعقل فيه، فما دام أنه صح عن رسول الله ﷺ فيجب الإيمان به من غير تكييف، ولكن مع إيماننا بأنها حياة برزخية ليست كحياتهم التي عاشوها في الدنيا، فلا يجوز سؤالهم في قبورهم، ولا طلب المدد منهم فإنهم لا ينفعون ولا يضرون قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** ... ﴾. [يونس: ١٠٦]

---

(١) أبو داود بنحوه في الصلاة (١٠٤٧)، وهو في صحيح أبي داود (٩٢٥).

(٢) انظر السلسلة الصحيحة رقم (٦٢١).

(٣) مسلم كتاب الفضائل (٢٣٧٥).

(٨) لا يورثون بعد موتهم:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة** »[١].

والروايات التي عند البخاري ومسلم ليس فيها « إنا معشر الأنبياء » وإنما هي بلفظ: « **لا نورث ما تركنا صدقة** »[٢].

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالىٰ بعد شرحه لهذا الحديث: (وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث** » فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ « **نحن** » لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ « **إنا معاشر الأنبياء لا نورث** »[١] الحديث أخرجه عن محمد بن منصور عن ابن عيينة عنه، وهو كذلك في مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو من أتقن أصحاب ابن عيينة فيه، وأورده الهيثم بن كليب في مسنده من حديث أبي بكر الصديق باللفظ المذكور، وأخرجه الطبراني في الأوسط بنحو اللفظ المذكور، وأخرجه الدارقطني في العلل من رواية أم هانئ عن فاطمة رضي الله عنها عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ: (إن الأنبياء لا يورثون).

---

(١) رواه النسائي في الكبرىٰ من طريق محمد بن منصور (٦٣٠٩) ولكنه حديث آخر وبإسناد آخر، ورواه الإمام أحمد في المسند (٢ / ٤٦٣)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٩٩٧٣). وكلاهما بلفظ: « معشر » بدلاً من: « معاشر ».

(٢) البخاري في مواضع عديدة منها [١٢ / ٧ (٦٧٣٠) فتح]، ومسلم من حديث عمر (١٧٥٧).

قال ابن بطال وغيره: ووجه ذلك - والله أعلم - أن الله بعثهم مبلغين رسالته وأمرهم أن لا يأخذوا على ذلك أجراً كما قال تعالى: ﴿ ... قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ... ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال نوح وهود وغيرهما نحو ذلك، فكانت الحكمة في أن لا يورثوا لئلا يظن أنهم جمعوا المال لورثتهم. قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ... ﴾ [النمل: ١٦]. حمله أهل العلم بالتأويل علي العلم والحكمة وكذا قول زكريا: ﴿ ... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ... ﴾ [مريم: ٥، ٦] وقد حكى ابن عبدالبر أن للعلماء في ذلك قولين، وأن الأكثر على أن الأنبياء لا يورثون »أهـ[١].

وقال الساعاتي - رحمه الله تعالى - في الفتح الرباني: (قال العلماء: والحكمة في أنهم عليهم الصلاة والسلام لا يورثون أنهم لو وُرثوا لظن أن لهم رغبة في الدنيا لوارثهم، فيهلك الظان، أو لئلا يتمنى ورثتهم موتهم فيهلكون، أو لأن النبي ﷺ كالأب لأمته فيكون ميراثه للجميع، وهو معنى الصدقة العامة)[٢] أهـ.

(٩) إعداد الله لهم وتهيئتهم لرسالته:

لقد أكرم الله عز وجل أنبياءه ورسله وخصهم بمزيد عناية وتوفيق وأخلاق عالية لم تكتمل لغيرهم من البشر، وذلك لتهيئتهم لقيادة الأمم وسياسة الشعوب؛ فخصهم الله بأخلاق سامية وآداب عالية وحكمة بالغة وعزائم وعقيدة صحيحة. ولنأخذ مثالاً على ذلك عناية الله عز وجل بنبيه موسى عليه الصلاة والسلام وتهيئته للرسالة قبل إرساله وتأييده له بعدها،

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٨).

(٢) الفتح الرباني ١٥/ ١٩٢.

حيث يقول عز وجل عنه : ﴿ ... وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه: ٣٩].

يقول الشيخ عبدالرزاق عفيفي - رحمه الله تعالىٰ - في وصفه لحياة موسىٰ عليه السلام قبل الرسالة: «هذه حلقة أولىٰ من حياة موسىٰ، كلها عبر وعظات وآيات بينات علىٰ سنته تعالىٰ في إعداد أنبيائه قبل الرسالة فمنها:

أولاً: أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً وإلقاء بالنفس إلىٰ التهلكة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) ﴾ [القصص: ٧، ٨].

ثانياً: أن الله سبحانه كتب لموسىٰ حياة سعيدة في بيت من يخشىٰ عليه منهم، فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص: ٩].

ثالثاً: أن الله حرم عليه تحريماً كونياً أن يرضع من امرأة سوىٰ أمه، فكان ذلك فيما يرىٰ الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر كمال اللطف من الله والرحمة بموسىٰ ليرجعه إلىٰ أمه وهم لا يشعرون، فاجتمع له إلىٰ السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك، ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

وهناك سلسلة أخرىٰ من حياة موسىٰ قبل الرسالة تضمنت الكثير مما حباه الله به من العلم والحكمة، والمروءة والنجدة، ونصر المظلوم والأخذ علىٰ يد الظالم، والعطف علىٰ الضعيف، وقوة الإيمان بالله، والصدق في الالتجاء إليه والتوكل عليه، والتواضع مع عزة النفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي يُعِدُّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم، وألخص ذلك فيما يأتي:

أولاً: حفظ الله علىٰ موسىٰ صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان لم يتأثر بما يتأثر به من قضىٰ أيامه الأولىٰ من حياته في بيئة استشرىٰ فيها الفساد، وطبعت بطابع الجبروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء، ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤].

ثانياً: جبل الله نبيه موسىٰ علىٰ الحزم والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم؛ يتجلّىٰ ذلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله علىٰ الرفق بالضعيف والعطف عليه ومَدّ يدِ المعونة إليه؛ يتبين ذلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتىٰ يصْدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير فسقىٰ

لهما، فجمع له بين شدة البطش بالظالمين وكمال الرفق بالمستضعفين.

ثالثاً: كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوىٰ فيه الوعي الديني، واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه، فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان؛ لذلك فزع إلىٰ ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضىٰ القبطي نحبه من وكزته، وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ علىٰ نفسه عهداً لا يكون ظهيراً للمجرمين، شكراً لله علىٰ نعمته ووفاءً له بما غفر من ذنبه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧)** ﴾ [القصص: ١٦، ١٧].

رابعاً: فاض قلبه إيماناً بالله، وعظمت ثقته به وتوكله عليه فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل ﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)** ﴾ [القصص: ٢٢]، ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه توجه إلىٰ ربه وسأله من فضله، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يُعَرِّض لمن سقىٰ لهما بطلب الأجر ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)** ﴾ [القصص: ٢٤]، وقد استجاب الله دعاءه وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة؛ فقد عرض عليه شعيب – لما عرف عنه من القوة والأمانة – أن يزوجه إحدىٰ ابنتيه علىٰ أن يرعىٰ له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشراً كان ذلك مكرمة منه، فالتزم موسىٰ بذلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولا من رغد العيش وحياة الملوك

أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه على ذلك ﴿ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** (٢٨) ﴾ [القصص: ٢٨]، وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين، فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف »اهـ[١].

* * *

---

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٧٨ - ٨٠.

المبحث الثالث

«دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة»

قال الله عز وجل: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)** ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والإسلام دين الأنبياء جميعاً. فمنذ أن أُهبط آدم عليه الصلاة والسلام ودينه الإسلام ودعوته إلىٰ الإسلام الذي هو الاستسلام لله عز وجل وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. ثم استمر الإسلام في ذريته عشرة قرون حتىٰ ظهر الشرك أول ما ظهر في قوم نوح؛ فبعث الله نبيه نوحاً عليه السلام بالإسلام. ثم بعث الله عز وجل رسله تترىٰ مبلغة دين الإسلام إلىٰ أقوامهم كلما ظهر الشرك وانطفأت أنوار الإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ...** ﴾ [آل عمران: ١٩] إذن فإن دين الإسلام وتاريخ الإسلام معناه العام وجد مع وجود الإنسان علىٰ هذه الأرض، وهو دين الأنبياء جميعاً. أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث به محمد ﷺ جامعاً فيه بين الإسلام العام - الذي هو التوحيد ونبذ الشرك - وبين الأحكام الشرعية لهذه الأمة؛ حيث أحل لها الحلال، وحرم عليها الحرام، ووضع عنها الإصر والأغلال التي كانت علىٰ من قبلها فجاءت شريعة كاملة ميسرة شاملة خاتمة للشرائع صالحة لكل زمان ومكان، وهذا هو معنىٰ قوله ﷺ: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في**

الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد»(١) حيث يوضح هذا الحديث أن الأنبياء كالأبناء لأمهات شتىٰ وأب واحد. وذلك لاتفاقهم في التوحيد والإسلام وأصول الإيمان والأخلاق واختلافهم في الشرائع.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ:

(وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإن جميع الأنبياء علي دين الإسلام، قال تعالىٰ عن نوح: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ...** ﴾ [يونس: ٧١]، إلىٰ قوله: ﴿ ... **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)** ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال عن إبراهيم: ﴿ **وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ...** ﴾ [البقرة: ١٣٠]، إلىٰ قوله: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)** ﴾ [البقرة: ١٣١]، إلىٰ قوله: ﴿ ... **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)** ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن موسىٰ: ﴿ ... **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)** ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال في حواري المسيح: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)** ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿ ... **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ...** ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس أنها

---

(١) البخاري كتاب الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل ٤/١٨٣٧ (٣٦٥).

قـالت: ﴿ ... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤]، فـالإسـلام يتـضـمن الاسـتـسـلام لله وحـده؛ فـمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده. فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة كان كل من الفعلين حين الأمر به داخلاً في الإسلام؛ فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما تنوع بعض صور الفعل – وهو وجهة المصلي – فكذلك الرسل وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجهة والمنسك فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد) أهـ[1].

ويقول الشيخ عمر الأشقر حفظه الله:

(الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً منزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير؛ ولذلك فإنها تمثل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق، ومن خلال استعراضنا لدعوة الرسل التي أشار إليها القرآن نجد أنَّ الدِّين الذي دعت إليه الرسل جميعاً واحد هو الإسلام، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ...﴾ [آل عمران: ١٩]، والإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدّين المشترك الذي هتف به كلّ الأنبياء؛ فنوح يقول

(١) التحفة المهدية في شرح التدمرية ص ٣٢٢.

لقومه: ﴿ ... **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٧٢) ﴾ [يونس: ٧٢]، والإسلام هو الدّين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٣١) ﴾ [البقرة: ١٣١]، ويوصي كُلٌّ من إبراهيم ويعقوب أبناءَه قائلاً: ﴿ ... **فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٣٢) ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿ ... **نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٣) ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وموسىٰ يقول لقومه: ﴿ ... **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** (٨٤) ﴾ [يونس: ٨٤]، والحواريون يقولون لعيسىٰ: ﴿ ... **آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (٥٢) ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن ﴿ ... **قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** (٥٣) ﴾ [القصص: ٥٣]).

فالإسلام شعار عام كان يدور علىٰ ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلىٰ عصر النبوة المحمديّة) .[١] اهـ.

ويرد سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ من يسمون بـ(علماء الأديان المقارنة) الذين يتحدثون عن التوحيد في الإسلام بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة فيقول:

(وهذه الحقيقة.. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم علىٰ توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده.. تقودنا إلىٰ رفض

---

(١) الرسل والرسالات: ص ٢٤٣.

كل ما يخبط فيه من يسمونهم «علماء الأديان المقارنة» وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة سبقته أطوار شتىٰ من التعدد والتثنية للآلهة. ومن تأليه القوىٰ الطبيعية وتأليه الأرواح، وتأليه الشموس والكواكب.. إلىٰ آخر ما تخبط فيه هذه «البحوث» التي تقوم ابتداءً علىٰ منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة؛ يهدف إلىٰ تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها من ثم تطورت بتطورالفكرالبشري علىٰ مدار الزمان!)[1] أهـ.

وإنه حينما يتقرر أن دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي دعوة واحدة، وهي الدعوة إلىٰ عبادة الله عز وجل وتوحيده - فإننا نقصد ذلك المفهوم الشامل للتوحيد والعبادة، ألا وهو إخراج الناس من العبودية والدينونة لغير الله إلىٰ الدينونة لله وحده بكل شمولها، وليس مجرد أن يوحِّد الناس بألسنتهم، أو أن يتوجهوا إلىٰ الله سبحانه بشعائر التعبد الظاهرة فقط ثم تبقىٰ قلوبهم ومصادر تلقيهم وتشريعاتهم إلىٰ غير الله عز وجل. إن مهمة الرسل في رسالتهم ودعوتهم أشمل من هذا المفهوم القاصر للتوحيد والإيمان، ولوكانت الدعوة إلىٰ التوحيد بهذا المفهوم القاصر لما استحقت كل هذه الجهود المضنية والتضحيات الباهظة من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٨٨٢ ط الشروق .

يجلي هذه الحقيقة الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالىٰ فيقول:

(نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة علىٰ لسان كل رسول وفي كل رسالة.. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول: ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ ولقد كنا دائماً نفسر «العبادة» لله وحده بأنها «الدينونة الشاملة» لله وحده. في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإن «عبد» معناها: دان وخضع وذل. وطريق معبد طريق مذلل ممهد. وعبّده جعله عبداً أي خاضعاً مذللاً.. ولم يكن العربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية. بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره... إن توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيدالجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة... إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام علىٰ مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه، فالله سبحانه غني عن العالمين. ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة «بالإنسان» إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية

في كل جانب من جوانبها)[١] أهـ.

من كل ما سبق يتأكد لدينا أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد ودعوتهم واحدة، ألا وهي الإسلام، وأصول الإيمان، وإخراج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جورالأديان إلىٰ عدل الإسلام. كما أن هناك أموراً أخرىٰ اتفقت عليها جميع الأديان والرسالات ودعت إليها ألا وهي الأخلاق والقيم التي فطر الله الناس عليها؛ حيث نجد الدعوة إليها، والمحافظة عليها، ونبذ ما يخالفها موجود في كل رسالة، وقد تضمنتها دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن تتغير ولايعتريها تبديل ولا نسخ مثلها مثل التوحيد وأصول الإيمان، وذلك كبرِّ الوالدين، وتحريم الفواحش والظلم وقتل النفس بغيرحق، والإحسان إلىٰ اليتيم، والقسط بين الناس، وتحريم الكبر والفخر، والحث علىٰ الكرم والوفاء، وتحريم الغدر والخيانة... الخ.

وفيما عدا أصول الإيمان والقيم الثابتة جعل الله عز وجل لكل رسولٍ شريعة خاصة به لقومه شاملة وكاملة في وقتها لأهلها. وقد تختلف هذه الشرائع من نبي لآخر، وقد يتفق بعضها. حتىٰ ختم الله سبحانه جميع الشرائع بما أنزل علىٰ محمد ﷺ من الشريعة الكاملة الشاملة التي كتب الله عز وجل لها الخلود والقيام بمصالح العباد في كل زمان ومكان إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا هو المعنىٰ المأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿ ... **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً**

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٩٠٢، ١٩٠٣ باختصار.

وَمِنْهَاجًا ...﴾ [المائدة: ٤٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: (اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الملل المختلفة، أي أن الله جعل لكل ملة شريعة ومنهاجاً. حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل... وقال آخرون: بل عني بذلك أمة محمد ﷺ: وقالوا: إنما معنىٰ الكلام: قد جعلنا الكتاب الذي أنزلناه علىٰ نبينا محمد ﷺ أيها الناس لكلكم: أي لكل من دخل في الإسلام وأقر بمحمد ﷺ، أنه له نبي: شرعة ومنهاجاً...

... وأولىٰ القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعة ومنهاجاً)[١] أ.هـ.

وعن اختلاف الشرائع واكتمالها في شرعة نبينا محمد ﷺ يقول الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله تعالىٰ:

(ومن تمام رحمة الله بعباده ونعمته عليهم وكمال حكمته في إقامة الحجة والإعذار إلىٰ من سبق عليه القول منهم أن جعل شريعة كل رسول

---

(١) تفسير الطبري ت: شاكر، ١٠/ ٣٨٥ باختصار.

من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته، جامعة لما يصلح شأنها وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أودها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلىٰ في جميع شئونها، سعيدة في الدنيا والآخرة؛ قال ﷺ «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته علىٰ خير ما يعلمه لهم، وينذرهم عن شر ما يعلمه لهم**»[1]، بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل الضروريات والحاجيات والتحسينات علىٰ خير حال وأقوم طريق... والأمم الماضية لما كانت تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وكان الوحي مستمراً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرج في الأحكام، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئة للأمة وتربية لها وسداً لحاجتها، أو عقوبة لها علىٰ ظلمها وتمردها علىٰ شرائع ربها؛ قال تعالىٰ - في رسالة عيسي عليه الصلاة والسلام - ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ...**﴾[آل عمران: ٥٠]، وقال تعالىٰ - في محمد عليه الصلاة والسلام - ﴿**... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ**

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإمارة رقم (١٨٤٨).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

أما هذه الأمة المحمدية فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نبي بعده، فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلىٰ يوم القيامة كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظمة لنواحي حياتهم المختلفة، مُغْنية لهم عما سواها في جميع أمورهم وشئونهم، ولو طال بهم الأمد واختلفت أحوالهم علىٰ مر الأيام والعصور حضارة وثقافة، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوة وحالتهم قوة وضعفاً وغنىٰ وفقراً» أهـ[1].

* * *

---

(١) الحكمة من إرسال الرسل ص ٣٠، ٣١، ٣٢ للشيخ عبد الرزاق عفيفي.

المبحث الرابع

« من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »

لقد سبق في مبحث سابق بيان أهمية معرفة حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهديهم وذلك لأخذ العبر العظيمة والاقتداء بهم والتعزي بما أصابهم، والحصول علىٰ الفوز في الدنيا والآخرة باتباعهم؛ لذا فإن هذا المبحث يتطلب منا دراسة متأنية عميقة لحياة هذا الركب الكريم، لعلنا أن نخرج بالفائدة المرجوة من هذا البحث، حيث إن هذا المبحث من مباحث هذا الكتاب يعتبر أهم المباحث وأطولها. أسأل الله عز وجل أن يفتح علي بالحق، وأن يلهمني رشدي، وأن يوفقني لتجلية ولو بعضاً من هذه الجوانب العظيمة من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإن القلم ليحار والقلب يوجف والفكر يهاب من الدخول في هذا الأمر المهيب الجلل خاصة من مثلي: العبد الفقير الذي يجد بينه وبين هذه الحياة الكريمة مسافة واسعة وأمداً بعيداً. أسأل الله عز وجل بحبي لهم أن يلحقني بهم، وأن يجعل ما أكتبه عنهم عوناً لي ولوالدي وأخواني المسلمين علىٰ الاقتداء بهم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

هذا وسيكون التركيز في هذا المبحث إن شاء الله تعالىٰ علىٰ ثلاثة جوانب عظيمة من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي في نظري من أهم جوانب الاقتداء بهم عليهم الصلاة السلام، هي كما يلي:

(أ) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد وقوة العبادة.

(ب) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الأخلاق والسلوك.

(ج) من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ.

وسيكون تحت كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة تقسيمات أخرىٰ تفصل فيها بعض الصور والأمثلة الداخلة تحت كل جانب، مع محاولة الربط ما أمكن بواقعنا نحن المسلمين اليوم، وبالذات ما يتعلق بالدعوة والدعاة في هذا العصر الغريب العجيب الذي كتب الله عز جل أن نعيش فيه. موضحاً من خلال هذا الربط مدىٰ قربنا أو بعدنا من هذا الهدي الكريم في كل جانب من الجوانب الآنفة الذكر من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا هو جهد المقل؛ فما وجد فيه من صواب وحق فهو من الله عز وجل وهو المان به وحده، وما وجد فيه من خطأ وخلل فمني ومن الشيطان، ولا تنسني أخي القارئ الكريم من دعائك إن وجدت صواباً، ومن نصحك وتوجيهاتك إن وجدت خلاف ذلك.

* * *

الجانب الأول:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في قوة العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد:

إن أعلم الناس بالله عز وجل هم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهذا العلم به سبحانه وبأسمائه وصفاته العلا هو الذي أثَّر هذه الخشية العظيمة والإيمان الصادق والتوحيد الكامل لله عز وجل؛ لأنه كلما كان العبد أعلم وأعرف بربه سبحانه كان أشد خوفاً وتعظيماً وعبادة ومحبة وإخلاصاً له والعكس بالعكس.

وإن مما اختص الله سبحانه به رسله ومنَّ عليهم به هو تكميل هذا العلم النفيس في نفوسهم والذي هو أشرف العلوم وأزكاها.

وإن المسلم مطالب بطلب هذا العلم الشريف قدر استطاعته اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولو أنه لن يصل إلىٰ علمهم ولا إيمانهم لكنه بذلك يقترب منهم ويسعد بثمار هذا العلم العظيم في قلبه وسلوكه وحياته كلها.

ومن الأدلة علىٰ شرف هذا العلم وأن أولىٰ الناس به هم الأنبياء والرسل ما يلي:

قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوته لأبيه: **﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) ﴾**.

[مريم: ٤٣]

وقوله تعالىٰ عن يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ ... **وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٦٨) ﴾ [يوسف : ٦٨].

وقوله تعالىٰ عن قول يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه : ﴿ ... **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٩٦) ﴾ [يوسف : ٩٦]. وذلك بعد أن جاء البشير بقميص يوسف عليه السلام فارتد البصر إلىٰ يعقوب عليه السلام وأخبرهم أنه يعلم من لطف الله سبحانه ورحمته ما يدفع عنه اليأس ويثمر الرجاء. وهذا الأثر العظيم من آثار علم يعقوب عليه السلام بأسماء الله عز وجل وصفاته مما لم يصل إليه أبناؤه الذين استنكروا عليه أمله في رجوع يوسف عليه السلام.

وقوله تعالىٰ : عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه : ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦٢) ﴾.

[الأعراف : ٦٢]

أي وأعلم من أمر الله ما لا تعلمونه؛ فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم، وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين.

وقوله تعالىٰ عن مقالة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** (٢٨) ﴾ [هود : ٢٨].

وقوله تعالىٰ عن صالح عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا**

تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [هود: ٦٣].

وقوله تعالىٰ عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾** ﴾ [هود: ٨٨] .

وهذا موسىٰ عليه الصلاة والسلام مع ما آتاه الله عز وجل من العلم العظيم فإنه لم يرتو منه وإنما طلب المزيد . وقصة سفره عليه الصلاة والسلام إلىٰ الخضر عليه السلام ليتعلم منه معروفة، وقد قصها الله عز وجل علينا في كتابه الكريم، والشاهد منها قوله تعالىٰ: .﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾** ﴾ [الكهف: ٦٦]، وللشيخ السعدي رحمه الله تعالي عند هذه القصة كلام نفيس فليرجع إليه .

وقوله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾** ﴾ [الأنعام: ٥٧] . .

وقوله ﷺ عن نفسه عندما تنزه بعض الصحابة عن شيء رخص فيه الرسول ﷺ فبلغ ذلك إليه فخطب فحمد الله ثم قال: « **ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية** »[1] .

---

(١) البخاري رقم (٦١٠١) في الأدب، ومسلم رقم (٢٣٥٦) في الفضائل.

وبعد سرد هذه الأدلة - والتي هي علىٰ سبيل المثال لا الحصر - نأتي الآن إلىٰ آثار هذه البينات العظيمة في نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الناشئة عن هذا العلم الشريف بالله عز وجل وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، لعلنا نهتدي بهذه الآثار الإيمانية المباركة ونسعىٰ للتأسي بهم فيها.

ومن هذه الآثار مايلي:

أولاً: شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه:

إن مما يلفت الانتباه في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه علىٰ الرغم من اصطفاء الله سبحانه لهم وحبه لهم وقربهم منه سبحانه فإن هذه المزايا لم تزدهم لربهم إلا تعظيماً ومحبة وخوفاً منه سبحانه وخشية. وهذه سنة الله سبحانه؛ فكلما ازداد العبد معرفة بربه عظَّمه في نفسه وخاف منه سبحانه خوف المحب لحبيبه؛ خوفاً يقرب إلىٰ الله عز وجل وخوفاً يهضم العبد عنده نفسه ويحقرها ولا يرىٰ لها فضلاً ولا طولاً وإنما يراها أهلاً للظلم والخطيئة والضعف إن لم يوفق الله عز وجل صاحبها ويعينه عليها.

وهكذا كان شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأمثلة في ذلك كثيرة منها:

○ مناجاة نوح عليه الصلاة والسلام لربه بشأن ابنه:

وقد جاء ذلك في قصة نوح مع قومه في سورة هود حيث يقول الله

تعـالىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾ [هود: ٤٥ – ٤٧]. ويظهر من هذه الآيات علم نوح عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل والذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربه والخوف منه سبحانه؛ فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين يختتم دعاءه بقوله ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه الصلاة والسلام بأسماء الله عز وجل وصفاته وآثارها؛ لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين ولم يكن مع الناجين. ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾. كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه؛ وذلك في قوله: ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الله أكبر، هذا نوح عليه السلام الذي أمضىٰ مئات السنين في دعوة قومه وصبر وصابر وناله من الأذىٰ والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨) ﴾ [نوح: ٢٨].

فماذا نقول نحن المفرطين الظالمين الجاهلين؟! سبحانك قد ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وحري بالدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يهتدوا بهذا الهدي المبارك الذي يقرب إلىٰ الله عز وجل ويقضي علىٰ أدنىٰ شعور بالعجب والزهو بالنفس وإنجازاتها؛ فمهما كان من الدعوة والجهاد فإن المانُّ به هو الله سبحانه. والنفس لا تقوىٰ علىٰ شيء إلا بعون الله سبحانه وتوفيقه وهي محلّ الظلم والذنوب والخطايا . وإن لم يتداركها الله عز وجل برحمة منه ومغفرة فإنها هالكة وخاسرة لا محالة.

ولعل من هذا الباب أيضاً دعاء الأبوين عليهما السلام بعد ما أكلا من الشجرة ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٢٣) ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقول الله عز وجل عن دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام تلك الأدعية الخاشعة لله سبحانه والتي منها ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** (٨٢) **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (٨٣) **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ** (٨٤) **وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** (٨٥) **وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** (٨٦) **وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** (٨٧) **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ** (٨٨) **إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (٨٩) ﴾

[الشعراء: ٨٢ – ٨٩]. هذا هو إمام الحنفاء وخليل الرحمن يخاف من ذنوبه ويسأل ربه المغفرة والستر ويطلب من ربه سبحانه أن يلحقه بالصالحين،، وكأنه ليس منهم!!

إذن فما حالنا؟ ماذا عسانا أن نقول؟! إنه ليس أمامنا إلا أن نحذو حذو هذا الركب المبارك المطهر ونقول ما أوصىٰ به الرسول ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأله أن يعلمه دعاءً يدعو به في صلاته فقال ﷺ: «**قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت**

فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفورالرحيم»[١].

○ محاجة شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه ورده عليهم عندما خيروه بين الخروج من قريتهم أو العودة في ملتهم:

وقال الله عز وجل: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)** ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]

والشاهد من هذه الآيات الكريمات ذلك الثبات العظيم واليقين التام من شعيب عليه الصلاة والسلام أنه على الحق، وأنه على بيّنة من ربه، وليس عنده استعداد للتنازل عن هذا الحق مهما كانت الأحوال. ولكن شعيب عليه الصلاة والسلام مع يقينه هذا وثباته العظيم فهو لم يعتمد على قوته وإيمانه هذا بعيداً عن ربه وإنما رد الأمر إلى مشيئة الله عز وجل وإرادته النافذة ورحمته الباهرة؛ فهو الذي بيده قلوب العباد والعالم بكل شيء؛ ولذلك جاء من شعيب عليه السلام هذا الأدب العظيم والتعظيم لله عز وجل، ورد أمر الثبات على الحق وعدمه إلى مشيئته سبحانه وحكمته البالغة، ولذلك فوض أمره إلى الله عز وجل وتوكل عليه في الثبات والفتح بينه وبين قومه بالحق.

---

(١) البخاري: رقم (٨٣٤) في الأذان، ومسلم رقم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء.

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – معلقاً علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ... ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿ ... وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ... ﴾. أي: يمتنع علىٰ مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال. فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة؛ من جهة أنهم كارهون لها، مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ماهم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه، فإنهم كاذبون.

ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودتهم فيها – بعد ما هداهم الله – من المحالات، بالنظر إلىٰ حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالىٰ، والاعتراف له بالعبودية وأنه الإله وحده، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لا شريك له، وأن آلهة المشركين، أبطل الباطل، وأمحل المحال. وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدىٰ والضلال. وأما من حيث النظر إلىٰ مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه، التي لاخروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوىٰ، فإنهم لا يحكمون علىٰ أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه.

ولهذا استثنىٰ: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته وقد ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه)[1] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(قال تعالىٰ إخباراً عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ...﴾ [الأعراف: ٨٩]. وهذا يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنىٰ الأمر. فقد علمت أنه من الممتنع علىٰ الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء. ثم قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فرد الأمر إلىٰ مشيئته وعلمه؛ فإن له سبحانه في خلقه علماً محيطاً ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق؛ فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر ومشيئة أخرىٰ وراء علومنا ومشيئتنا فلذلك رد الأمر إليه) أهـ[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية أيضاً:

(ولكن شعيباً بقدر ما يرفع رأسه، وبقدر ما يرفع صوته، في مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه.. بقدر ما يخفض هامته، ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً. فهو في مواجهة ربه، لا يتألىٰ عليه ولا يجزم بشيء أمام قدره، ويدع له قياده وزمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه:

﴿.... إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ..﴾

إنه يفوض الأمر لله ربه، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين

---

(١) بدائع التفسير (٢ / ٢٦١).

معه.. إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه علىٰ عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته.. ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم.. فالأمر موكول إلىٰ هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربهم وسع كل شيء علماً. فإلىٰ علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنه أدب ولي الله مع الله. الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتألىٰ بعد ذلك علىٰ مشيئته وقدره. ولا يتأبىٰ علىٰ شيء يريده به ويقدره عليه.

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتجه إلىٰ وليه بالتوكل الواثق، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق)أهـ[1] .

○ **تعظيم موسى عليه الصلاة والسلام لربه وخوفه منه:**

وذلك عندما سأل ربه عز وجل أن يراه حباً له وشوقاً إليه، فأخبره ربه تعالىٰ بامتناع ذلك في الدنيا، وأراه آية ذلك في الجبل الذي جعله الله تعالىٰ دكاً حينما تجلىٰ الله عز وجل للجبل فخر موسىٰ صعقاً؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والشاهد من ذلك تعظيم موسىٰ عليه الصلاة والسلام لربه عز وجل

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (٨٩) من سورة الأعراف.

وتنزيهه وسؤاله ربه المغفرة والتوبة، وكل هذا الشعور العظيم من موسىٰ عليه الصلاة والسلام نابع من معرفته بربه المعرفة الحقة التي أثمرت هذا التعظيم والخوف من الله عز وجل.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ إذا تجلىٰ الله له ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ الأصم الغليظ ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أي: انهال مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها.

﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ ﴾ حين رأىٰ ما رأىٰ ﴿ صَعِقًا ﴾ أي: مغشياً عليه.

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ تبين له حينئذ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسىٰ أولىٰ أن لا يثبت لذلك. واستغفر ربّه، لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً ولذلك: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك.

﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك)أهـ[١].

○ تعظيم عيسى عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه وأدبه مع ربه عز وجل:

وذلك عند سؤال الله عز وجل له يوم القيامة وهو أعلم: ﴿ ... أَأَنتَ

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ... ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)** ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١٢٠].

والشاهد من هذا الحوار هو ذلك التعظيم والأدب الجم من عيسىٰ ﷺ لربه سبحانه، وذلك العلم العظيم من عيسىٰ عليه الصلاة والسلام لأسماء الله عز وجل وصفاته الحسنىٰ حيث اختار من الأسماء والصفات ما يناسب المقام وخاصة عند قوله ﷺ لربه عز وجل: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ فكونه ﷺ ختم كلامه هذا بقوله: ﴿ **فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ ولم يقل: (فإنك أنت الغفور الرحيم) فإن هذا يدل علىٰ معنىٰ عظيم وعلم شريف خص الله عز وجل به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام. ويدل علىٰ ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «تلقّىٰ عيسىٰ حجته، لقّاه الله في قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ قال أبو هريرة

عن النبي ﷺ : فلقاه الله : ﴿ **سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**. . . ﴾ الآية كلها)[١] .

وقد علق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ علىٰ المعاني الشريفة اللطيفة في هذه الآيات وما في رد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام من التعظيم والتنزيه والأدب لربه عز وجل فقال : « وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟ قال المسيح عليه السلام : ﴿ **إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ ولم يقل : لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر علىٰ علمه سبحانه بالحال وسره. فقال : ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي** ﴾ ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال : ﴿ **وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ ثم أثنىٰ علىٰ ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال : ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾ ثم نفىٰ أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به – وهو محض التوحيد – فقال : ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** ﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم. وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم؛ فقال : ﴿ **وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم؛ فقال : ﴿ **وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ ثم قال : ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم. وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيداً لغيرك. فإذا

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٦٤) في التفسير ، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

عذبتهم – مع كونهم عبيدك – فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم علىٰ سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلىٰ عبده ورحمته. فلماذا يعذب أرحم الرحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عُتُوِّهم وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أي هم عبادك. وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم. فإذا عذبتهم: عذبتهم علىٰ علم منك بما تعذبهم عليه. فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه. فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلىٰ محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية. وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل «الغفور الرحيم» وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالىٰ؛ فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلىٰ النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة. بل مقام براءة منهم. فلو قال: «فإنك أنت الغفور الرحيم» لأشعر باستعطافه ربَّه علىٰ أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم. فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه علىٰ مَنْ غضب الرب عليهم. فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلىٰ ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنىٰ: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم. ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم؛

وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجز عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب)[١] أهـ.

○ تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه سبحانه وخوفه منه:

ونختم هذه الأمثلة من تعظيم الأنبياء لربهم سبحانه وخوفهم منه ببعض الشواهد من تعظيم نبينا محمد ﷺ لربه وخوفه منه مع أنه سيد المرسلين، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولا غرابة في ذلك فهو كما قال عن نفسه ﷺ: «**فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[٢].

ومن ذلك ما يلي:

□ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**»[٣] ولذلك ما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط؛ إنما كان يتبسم.

□ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «**اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» قالت: وإذا تخيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة؛ فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم**

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) سبق تخريجه: ص٥٥.

(٣) البخاري رقم (٦٤٨٦) في الرقاق، ومسلم رقم (٢٣٥٩) في الفضائل.

عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...﴾. [الأحقاف: ٢٤][١]

□ وفي رواية أخرىٰ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتىٰ أرىٰ منه لهواته. إنما كان يتبسم وقالت: كان إذا رأىٰ غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: « **يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب! قد عذب قوم بالريح، وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا** »[٢].

□ عن جُبير بن مُطعِم، قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموالُ، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك علىٰ الله. فقال النبي ﷺ «**سُبحان الله، سبحان الله!**» فما زال يُسبِّح، حتىٰ عُرِف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «**ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله علىٰ أحد**» وذكر الحديث[٣].

□ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ أصحابه وهم يختصمون في القدر. فكأنما يفقأ في وجهه

(١) رواه مسلم - كتاب الاستسقاء - باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم برقم (١٥ تحت ٨٩٩).

(٢) البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة الأحقاف رقم (٤٨٢٨)، (٤٨٢٩)، ومسلم كتاب الاستسقاء رقم (١٦ تحت ٨٩٩).

(٣) أبو داود في السنن (٤٧٢٦) وصححه ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٩٥).

حب الرمان من الغضب. فقال: «**بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلكت الأمم قبلكم**»[(١)].

ثانياً: كثرة ذكرهم لله عز وجل وشدة تضرعهم ودعائهم له سبحانه مع قوة عبادتهم:

وهذا الجانب من هديهم عليهم الصلاة والسلام ثمرة من ثمار الإيمان الصادق والتوحيد الكامل النابعين من كمال حبهم لله عز جل وتعظيمهم له.

وإن المتأمل في هذا الجانب من هديهم ليأخذه العجب والإجلال والحب الخالص لهذه الصفوة المختارة من عباد الله، وهو يرىٰ إخباتهم لربهم سبحانه وكثرة ذكرهم له، وتضرعهم ودعاءهم المتواصل لربهم مع كثرة عبادتهم وطولها وتنوعها. كل ذلك وهم أولياء الله وأنبياؤه وصفوته من خلقه، وإن في هذا الهدي لعبرة لمن هو دونهم ممن يحسب نفسه من الدعاة المتبعين لهم. نعم إن في ذلك لعبرة لمن جاء بعدهم من المحبين لهم في أن يولوا هذا الجانب حقه، وأن يقتدوا بهؤلاء المصطفين الأخيار في كثرة ذكرهم لله عز وجل، وكثرة دعائهم وتضرعهم وعبادتهم له سبحانه مع ماهم فيه من هم الدعوة والجهاد والانشغال في أمر هذا الدين في الليل والنهار، ولكن كل ذلك لم يشغلهم عن الخلوة بربهم سبحانه والتفرغ لذكره ودعائه وعبادته. وفي هذا رد علىٰ ما قد يتذرع به بعضنا – إذا نبه إلىٰ هذا الجانب المهم في حياة الداعية – من ضيق الوقت وكثرة المشاغل وتعب الجسد وإجهاده في طلب العلم والدعوة إلىٰ الله عز وجل، فيدخل

---

(١) صحيح سنن ابن ماجة (٦٩) ١ / ٢١.

الشيطان إلىٰ النفس من هذا الباب - (باب التفريط) - فيجد الداعية نفسه وقد أهملها في أعظم رافد له في دعوته وأكبر زاد له في طريقه إلىٰ الله. وأورد الآن نماذج من هذا الهدي المبارك لعلها أن تشحذ الهمم وتقوي العزائم، ولعلها في الوقت نفسه أن تطامن منا بعض النفوس التي أصابها داء العجب؛ فتشعر وهي تقرأ هذه النماذج بأنها لا زالت مقصرة ومفرطة في جنب الله، فيحصل مقت النفس في ذات الله عز وجل واحتقارها؛ الاحتقارالذي يؤدي مع الاستعانة بالله عز وجل إلىٰ علاجها ويقظتها.

ومن هذه النماذج ما يلي:

○ تضرعهم عليهم الصلاة والسلام إلىٰ ربهم سبحانه وسؤاله قضاء حوائجهم:

ذكر الله عز وجل في آخر سورة الأنبياء مجموعة من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهم يسألون ربهم ويتضرعون إليه في قضاء حوائجهم، ويتوسلون إلىٰ الله عز جل بأسمائه وصفاته كما يتوسلون بفاقتهم وافتقارهم إلىٰ الله عز وجل.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ**

الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

[الأنبياء: ٨٣ – ٩٠]

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – معلقاً علىٰ هذا الدعاء الخاشع من أيوب عليه الصلاة والسلام:

(جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتىٰ وجد المبتلىٰ هذا كشفت عنه بلواه)[1] أهـ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي أن في صبر أيوب عليه الصلاة والسلام ودعائه عبرة للعابدين من بعده ليقتدوا بصبره وعبادته ودعائه ويقينه.

وفي هذه الآيات أيضاً ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأنهم من الصابرين، وأن الله عز وجل جازاهم بأن أدخلهم في الصالحين.

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – عن هؤلاء الأنبياء:

(فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصفهم الله بالصبر. فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي. ووصفهم أيضاً بالصلاح وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت. وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله. وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله

---

(١) بدائع التفسير (٣ / ١٨٩).

وكَفِّها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله في رحمته وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين وأثابهم الثواب العاجل والآجل. ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالىٰ نَوَّهَ بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفىٰ بذلك شرفاً وفضلاً »[١] أهـ.

ويتحدث الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - عند قوله تعالىٰ عن يونس عليه السلام: ﴿ ... **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٨٧) ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فيقول: (فإن فيها من كمال التوحيد: التنزيه للرب تعالىٰ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمّ والغمّ، وأبلغ الوسائل إلىٰ الله سبحانه في قضاء الحوائج؛ فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه. والاعتراف بالظلم يتضمّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلىٰ الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلىٰ ربه؛ فها هنا أربعة أمور قدوقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف)[٢] أهـ.

وقد وصف الله سبحانه: نبيه يونس عليه الصلاة والسلام بأنه كان من المسبحين في وقت الرخاء فقال تعالىٰ: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** (١٤٣) **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (١٤٤) ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالىٰ -: (﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾ أي في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت)[٣].

---

(١) تفسير السعدي (٣/ ٢٩٥).

(٢) بدائع التفسير: (٣/ ١٩٠).

(٣) تفسير السعدي (٤/ ٢٧٢).

وهذا هو دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في كثرة ذكر الله عز وجل وتسبيحه في الرخاء والشدة وفي كل حين مع دعائهم لربهم واعترافهم بظلمهم لأنفسهم، فما عسانا نحن أن نقول اليوم يا من غرقنا في بحر الذنوب والخطايا؟! فاللَّهم غفرانك ورحمتك.

ويبقىٰ في الآيات السابقة وصف زكريا ويحيىٰ عليهما السلام بقوله تعالىٰ: ﴿ ... **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)** ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله تعالىٰ -:

(﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها علىٰ الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها.

﴿ **وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضار الدارين، وهم راغبون لا غافلون، راهبون[1]، لا مدلون.

﴿ **وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ أي خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم) أ هـ[2].

هذه هي صلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بربهم: ذكرٌ، وتسبيحٌ، ودعاءٌ.

---

(١) (راهبون): في الأصل: (لاهون)، ولعل الصواب ما أثبتناه ليستقيم السياق.

(٢) تفسير السعدي (٣/٢٩٧).

○ **خشوعهم وبكاؤهم عند ذكر الله عز وجل :**

فبعد أن ذكر الله عز وجل مجموعة من الأنبياء في سورة مريم أثنىٰ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** (٥٨) ﴾ [مريم: ٥٨].

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية: (فهذه خير بيوت العالم اصطفاهم الله، واختارهم واجتباهم. وكان لهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب، وصفات علاّم الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد .

﴿ **خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم. ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله: ﴿ **خروا عليها صماً وعميانا** ﴾ وفي إضافة الآيات إلىٰ اسمه ﴿ **الرَّحْمَٰنِ** ﴾ دلالة علىٰ أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلىٰ الحق وبصرهم من العمىٰ، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة)[١] اهـ.

○ **دعاؤهم عليهم الصلاة والسلام ربهم بالثبات على الحق والموت على التوحيد والإسلام:**

ومن ذلك قول الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ ... **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ** (٣٥) ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله تعالىٰ

(١) تفسير السعدي (٣/ ٢٠٩).

عن دعائه الآخر أيضاً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) ﴾ [الشعراء: ٨٣]. وقوله تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا ... ﴾ [الممتحنة: ٥]. وقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام عندما أخذت قومه الرجفة قوله: ﴿ ... إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ... ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦]. وقوله تعالىٰ عن سليمان عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ ... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾.

[النمل: ١٩]

وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

[يوسف: ١٠١]

يقول السعدي - رحمه الله تعالىٰ - عند هذه الآية: (ينبغي للعبد أن يتضرع إلىٰ الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب لذلك: يسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلىٰ ربه أن يتمها عليه ويحسن له العاقبة. وليس هذا من «يوسف» تمنياً للموت - كما ظن بعضهم - بل هو دعاء الله أن يحسن خاتمته ويتوفاه علىٰ الإسلام، كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت)[1] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي: (٢/٤٥٢).

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالىٰ – عند هذه الآية أيضاً: (جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غير الله سبحانه، وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء)(١) اهـ.

وأختم هذه الأدعية النبوية بذلك الدعاء الذي كثيراً ما كان يلهج به الرسول ﷺ ويردده؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، فقلت: يا رسول الله قد آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»(٢).

فإذا كان هذا هو حال أنبياء الله عز وجل وصفوته من خلقه فحري بمن دونهم أن يخاف علىٰ نفسه من سوء الخاتمة، فمن ذا الذي يأمن الفتنة بعد أنبياء الله عز وجل؟

○ القوة في طاعة الله تعالى وعبادته:

هذه الصفة العظيمة من أبرز ما في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث إنهم أكثر الناس عبادة وصلاة وإخباتاً لله عز جل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالىٰ – عند قوله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾**﴾ [ص: ٤٥]. (عن عطاء

---

(١) بدائع التفسير: (٢/ ٤٧٦).

(٢) الترمذي (٢١٤١) في القدر وقال: حسن صحيح.

الخراساني: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ قال: أولو القوة في العبادة والعلم بأمر الله، وعن مجاهد، وروي عن قتادة قال: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين)[١] اهـ.

والشواهد في ذكر عبادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كثيرة منها:

- قوله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾ [إبراهيم: ٤٠].

- وقوله تعالىٰ: في مدح إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾ [مريم: ٥٥].

- وقوله تعالىٰ في مدح إسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾ [الأنبياء: ٧٣].

- وقوله تعالىٰ في وصف عبادة داود عليه الصلاة والسلام وإنابته وكثرة تسبيحه وخشوعه فيه حتىٰ أن الجبال والطير تردد معه؛ قوله تعالىٰ: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾ [ص: ١٧ - ١٩]. ووصف توبته بقوله سبحانه ﴿...وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص: ٢٤].

وقد جاء في سجدة (ص) هذه: (عن مجاهد قال: سألت ابن عباس:

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٧٠).

من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿ ... وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ... ﴾ [الأنعام: ٨٤]. إلى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ... ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فكان داود ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ)[١].

وقد وصف لنا الرسول ﷺ جانباً من كثرة عبادة داود عليه الصلاة والسلام وقوته فيها فقال: **«أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولايفر إذا لاقى»**[٢].

* أما عن نبينا محمد ﷺ وكثرة عبادته وقوته فيها فهي كثير جداً مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولا غرابة في ذلك فهو الذي امتلأ قلبه معرفة بربه سبحانه وحباً وتعظيماً له، وهو الذي قال له ربه سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④** ﴾ [المزمل: ١ - ٤]. وهو الذي قال له ربه عز وجل: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ㉖** ﴾ [الإنسان: ٢٦]. وقال له: ﴿ ... **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ㉟** ﴾ [مريم: ٦٥]. وأكتفي بشاهدين اثنين من أحواله الكثيرة في عبادته ﷺ وقوته فيها:

- فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة،

---

(١) البخاري في التفسير رقم (٤٨٠٧).

(٢) البخاري في التهجد (١١٣١)، مسلم كتاب الصيام (١٨٩).

فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضىٰ، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضىٰ، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها؛ يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده – زاد في رواية ربنا لك الحمد – ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلىٰ ، فكان سجوده قريباً من قيامه)[١] .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أفلا أكون عبداً شكورا**»[٢] .

وأخيراً فهذه أحوال المصطفين الأخيار من أنبياء الله عز وجل. وما سبق ذكره إن هو إلا جانب يسير وغيض من فيض من صلتهم بالله عز وجل ذكراً وتسبيحاً ودعاء وصلاة، فهل من مشمر للأخذ بهديهم كما أمر الله عز وجل ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾؟ وهل بقي مجال لأحد أن يعتذر بكثرة المشاغل الدعوية وطلب العلم في التفريط في هذا الزاد العظيم؟

وتبقىٰ مسألة مهمة تبرز للمتأمل في تلك الكلمات والجُمل العطرة الجامعة والتي تتألف منها أذكارهم وأدعيتهم عليهم الصلاة والسلام؛ ألا وهي تجريد التوحيد لله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده؛ (والدعاء هو

---

(١) مسلم (٧٧٢) في صلاة المسافرين.

(٢) البخاري رقم (٤٨٣٦) في التفسير، ومسلم رقم (٢٨١٩) في صفات المنافقين.

العبادة) لأنه مظهر من مظاهر العبودية لله سبحانه، والاعتراف بأنه وحده الذي يكشف الضر وترفع إليه الحاجات، وهو وحده الذي تُرجىٰ رحمته ويُخشىٰ عذابه، ولذلك وصف الله عز وجل أنبياءه ورسله بقوله تعالىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهل بقي عذر لمن يتوجه إلىٰ الأنبياء أو غيرهم في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو شأنهم مع ربهم في دعائهم له؟

ثالثاً: كمال توكلهم على الله عز وجل واستعانتهم به وحده ورضاهم بحكمه:

وهذه الصفات من هديهم عليهم الصلاة والسلام تدخل في آثار معرفتهم بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته، والبينات العظيمة التي يجدونها في نفوسهم عن ربهم سبحانه. فأثمر ذلك كله هذا التوكل الصادق والثقة العظيمة بالله عز وجل والتفويض المطلق إلىٰ الله سبحانه. وهذا كله يفسر لنا ذلك الثبات العظيم والشجاعة التي ليس لها مثيل في تاريخ البشر، والتي واجهوا بها قوىٰ الشر والطغيان وواجهوا بها كل صنوف التهديد والأذىٰ والقتل والتشريد، وكلما كان الاتِّباع لهم شديداً نال المتبع والمقتدي بهديهم من هذا التوكل والثبات والاطمئنان نصيباً يكافئ صدق توحيده وصدق اتباعه واقتدائه، جعلنا الله عز وجل من المقتدين بهم المتبعين لهديهم، وحشرنا في زمرتهم وألحقنا بركبهم، إنه علىٰ كل شيء قدير.

ونستعرض الآن شيئاً من هذه النماذج الفريدة في صدق التوكل والاستعانة بالله وحده التي أثمرت الطمأنينة والشجاعة والتسليم لأمرالله عز وجل.

١- أمثلة في الشجاعة والثبات:

● قال الله عز وجل عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١)** ﴾ [يونس: ٧١].

● وقال تعالىٰ عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام في محاجته لقومه: ﴿ ... **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)** ﴾.

[هود: ٥٤ - ٥٦]

هذان موقفان متشابهان في الشجاعة والتحدي يواجه بها كلٌّ نبي قومه الغلاظ الشداد وهو وحيد فريد، وما ذلك إلا من العلم بالله عز وجل وأسمائه وصفاته الذي أثمر هذا التوكل والثبات وحسن الظن بالله عز وجل؛ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

(ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه علىٰ صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وعطائه، وعافيته

وبلائه وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل، ووضع الثواب موضعه، والعقوبة في موضعها اللائق بها، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال، كل ذلك في أماكنه ومحاله اللائقة به، بحيث يستحق علىٰ ذلك كمال الحمد والثناء - أوجب له ذلك العلم والعرفان، إذ نادىٰ علىٰ رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب خائف بل متجرد لله: ﴿ ... إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه، وذل كل شيء لعظمته فقال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره، وهو في قهره وقبضته، وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟)[(١)] أهـ.

ويعلق محمد العدوي في كتابه «دعوة الرسل» علىٰ هذا الثبات العظيم من نوح وهود عليهما الصلاة والسلام فيقول:

(فكان من نبيّ الله بعد ذلك التهديد أن قال لهم: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا

---

(١) بدائع التفسير (٢ / ٤٣١، ٤٣٢).

تُنظِرُونِ ﴾ ومن أعظم آيات الصدق والإخلاص أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلىٰ إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، ثقة بربه أن يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم. ومثل ذلك قول نوح عليه السلام: ﴿ ... **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ** (٧١) ﴾ [يونس: ٧١]. وانظر إلىٰ قوله ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا** ﴾ يريد أنني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم عليّ، وأنتم الأشداء الأقوياء، فكيف تضرني آلهتكم، وما هي إلا جماد، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها، بأن تخبلني وتذهب بعقلي. نعم إن هذه آية من آيات الله في أنصارالحقّ، وعبرة من العبر من آيات الله فيهم أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين، وخشية المفسدين؛ لأن قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه. ولأنهم واثقون بضعف كيد الشيطان، وأنصار الباطل، وقد أرانا الله تعالىٰ أن الباطل لجلج، وأن الحقّ واضح أبلج، وأن العاقبة لأوليائه، والخذلان لأعدائه، وقدوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدىٰ، وهداة البشر؛ من اختارهم الله تعالىٰ لقيادة الناس وسعادة الإنسانية، فهم الذين يرسمون لنا طريق الدعوة، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل، وإكبار الحقّ، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوباً، وأوثقهم عقيدة، وأربطهم جأشاً؛ تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون، وتضج من هول الجبابرة والمستكبرين، وهم علىٰ دينهم دائبون، وبدعوتهم معتصمون، وعلىٰ ربهم متوكلون. وانظر إلىٰ قوله بعد ذلك التحدّي ﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ لتعلم سر هذه الشجاعة النادرة، والثقة الغالية؛ سرّها أنه متوكل علىٰ ربه، معتصم بمولاه ﴿ ... **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** (١٠١) ﴾ [آل عمران:

١٠١]. وجدير بمن يتوكل على ربه ويلجأ إلى خالقه أن يبدل خوفه أمناً وضعفه قوّة، ويرزقه عزاً لا ينقطع، وقوة لا تقف عند حدّ: ﴿ ...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨]. وما أحوج الداعي إلى الله لذلك التوكل، وتفويض الأمور إلى الله تعالى، والاستعانة بالصبر والرضا، وطلب الأجر منه تعالى. ثم وصف الربّ الذي توكل عليه ووثق به في حفظه وكلاءته بما يوجب التوكل عليه فقال: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ والناصية: منبت الشعر في مقدّم الرأس، وإذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، يريد أنه مطيع له؛ لأن كلّ من أخذت بناصيته فقد قهرته: أي ما من حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره، ثم ختم ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يريد أنه على طريق الحقّ والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به)[١] اهـ.

● ومن مواقف الشجاعة والثبات وحسن الظن بالله عز وجل ما قصه الله عز وجل علينا في كتابه عن موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه عندما تبعهم فرعون وجنوده عند البحر.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[الشعراء: ٦١ - ٦٣]

---

(١) دعوة الرسل د. محمد أحمد العدوي (ص ٢٢).

- ومثل هذا الموقف ما قصه الله عز وجل عن نبينا محمد ﷺ وصاحبه أبي بكر إذ هما في الغار.

قال تعالىٰ: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ... ﴾ [التوبة: ٤٠].

٢- أمثلة في حسن الظن بالله والرضى بحكمه:

وهذه الصفات يثمرها التوكل الصادق الذي ينبع من العلم بالله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وآثارها. ومن هذه الأمثلة:

● قوله تعالىٰ عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)** ﴾. [الصافات: ١٠١ - ١٠٦]

حقاً إن هذا لهو البلاء المبين والامتحان العظيم للثقة بالله عز وجل والرضىٰ بحكمه والاستسلام لأمره، وقد وصف الله سبحانه حالهما بقوله ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** ﴾. أي أسلم الوالد والولد لأمر الله عز وجل وحكمه. الله أكبر، ما أعظم هذه النفوس وأنبلها وأطهرها وأعظم إيمانها وتوحيدها. فاللّهم ألحقنا بهم، واحشرنا في زمرتهم يا أرحم الراحمين.

● ونموذج آخر يقصه الله سبحانه علينا عن توكل إبراهيم عليه السلام علىٰ ربه عز وجل والمسارعة في تنفيذ أمره والاستسلام لحكمه وذلك في ذهابه إلىٰ مكة مع زوجه هاجر وابنهما إسماعيل عليهم جميعاً الصلاة والسلام، ثم تركه لهما هنالك حيث لا ماء ولا طعام ولا أنيس ولا جليس.

قال الله عز وجل علىٰ لسان إبرهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه لربه سبحانه بعد أن ترك إسماعيل وأمه في وادي مكة: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾.
[إبراهيم: ٣٧]

روىٰ البخاري في صحيحه أثراً عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هاجر وابنها إسماعيل أورد بعضها – ولو أنها موقوفة علىٰ ابن عباس، لكن لما كانت هذه الأخبار مما لا مجال للاجتهاد فيه، وقد نهىٰ ابن عباس رضي الله عنهما عن الأخذ عن بني إسرائيل، وبعض أجزاء هذه القصة يرفعه ابن عباس إلىٰ الرسول الله ﷺ – فقد اخترت قطعة منها لما فيها من الشواهد الدالة علىٰ كمال توكل إبرهيم عليه السلام وزوجه هاجر وثقتهما بالله عز وجل والاستسلام لحكمه، والقصة تنطق بما فيها فلا تحتاج إلىٰ تعليق.

روىٰ البخاري رحمه الله تعالىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها علىٰ سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتىٰ وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة

يومئذ أحد وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء.

ثم قفّىٰ إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ؛فقالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتىٰ إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾.
[إبراهيم: ٣٧]

ورجعت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتىٰ إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوىٰ – أو قال يتلبط – فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتىٰ إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتىٰ جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً؛ فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « **فلذلك سعىٰ الناس بينهما** ».

فلما أشرفت علىٰ المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها. ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتىٰ ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكان زمزم عيناً معيناً**» قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله..» الحديث[١].

● ونموذج آخر من التوكل العظيم والثبات العظيم لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما قصه الله عز وجل علينا عن إلقائه في النار. قال تعالىٰ: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)**﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار. وقالها محمد حين قيل له ﴿**... إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)**﴾ [آل عمران: ١٧٣])[٢].

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤).

(٢) البخاري في التفسير (٤٥٦٣).

● ما قصَّه الله عز جل في سورة يوسف عن يعقوب عليه الصلاة والسلام وحسن ظنه بالله عز وجل والرضا بحكمه النابع من صدق توكله وثقته بربه سبحانه.

قال تعالىٰ في وصف رجائه وحسن ظنه بربه سبحانه بعدما فقد ابنه الثاني وقبله كان قد فقد يوسف عليه السلام: ﴿ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)** ﴾.

[يوسف: ٨٣ - ٨٧]

وإن هذا الرجاء العظيم من يعقوب عليه الصلاة والسلام في ربه عز وجل وحسن ظنه به واستسلامه لحكمه ليظهر من قوله: ﴿ **عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ وقد توسل عليه الصلاة والسلام إلىٰ ربه باسمه ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ و ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ وذلك لعلم يعقوب عليه الصلاة والسلام بربه وعلمه بأسمائه وصفاته ودلالاتها وآثارها فكأنه يقول: إنه هو ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وكذلك يتضح هذا الرجاء في الله عز وجل وعدم اليأس من رحمته من

قوله: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (هذا الشعاع من أين جاء إلىٰ قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء في الله، والاتصال الواثق به، والشعور بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلىٰ في قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار... فيا للقلب الموصول!!!

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾

تحسسوا بحواسكم في لطف وبصر، وصبر علىٰ البحث. ودون يأس من الله وفرجه ورحمته. وكلمة «روح» أدق دلالة وأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم علىٰ الأرواح من رَوْح الله الندي:

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم برَوْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخَية فإنهم لا ييأسون من رَوْح الله ولو أحاط بهم الكربْ واشتد بهم الضيق. وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدة ومخانق الكروب...)[1] .

وهذه المواقف العظيمة من صدق التوكل والرجاء وحسن الظن بالله عز

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٠٢٦).

وجل يفسرها قوله تعالىٰ علىٰ لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي أعلم من رحمته وإحسانه وآثار أسمائه وصفاته ما لا تعلمون.

يتحدث سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند قوله سبحانه علىٰ لسان يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ فيقول: « وهذه قيمة الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة. معرفة التجلي والشهود، وملابسة قدرته وقدره، وملامسة رحمته ورعايته، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين.

إن هذه الكلمات: ﴿ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها. وتعرض مذاقاً يعرفه من ذاق مثله فيدرك ماذا تعني هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب..

والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه - مهما بلغت - إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق! ولا نملك أن نزيد. ولكننا نحمد الله علىٰ فضله في هذا، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه »[١] أهـ.

وتبقىٰ وقفة مهمة في هذه الحياة الإيمانية ليعقوب عليه الصلاة والسلام. ألا وهي عند قوله تعالىٰ: ﴿ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾. فقد يقول قائل: ألا يتنافىٰ الحزن والغم مع الرضىٰ بقدر الله والاستسلام لحكمه؟ ويجيب العدوي علىٰ هذا السؤال فيقول:

---

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٠٢٦).

(ولا ضير في أن يتألم نبيّ الله يعقوب لهذه الشدائد، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث؛ لأن هذا طبع الإنسان واستعداده، ويمتاز الصالحون بأنهم لا يغضبون ربهم في حزنهم، ولا يخرجون به إلىٰ ما لا يحسن، ولقد بكىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ولده إبراهيم، وقال «**إن القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبرهيم لمحزونون**»[١] والأنبياء بشر يجري عليهم ما يجري علىٰ سائر الناس من الحزن والفرح، والتألم للمصائب والاستبشار بالنعم)[٢].

إذن فالحزن والهم والغم الذي يصيب الأنبياء والصالحين هو من طبيعة البشر، والذي يجعله سبحانه أجراً وتكفيراً لعباده المؤمنين وألماً وحسرة علىٰ غيرهم، ولكن إذا خرج الحزن والهم بصاحبه إلىٰ الجزع والتسخط واليأس من رَوْح الله عز وجل فإن هذا هوالذي يتنافىٰ مع الإيمان بالله عز وجل والاستسلام لحكمه، وهذا مالم يتطرق إلىٰ قلب يعقوب عليه السلام؛ بل إنا وجدناه يقول: ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا من يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ ويقول: ﴿ ... **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** (٦٧) ﴾[يوسف: ٦٧].

● وختم الله عز وجل قصة يوسف بهذا الخطاب الخاشع الواثق بالله من يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ذلك الخطاب الذي كله رقة وخضوع

---

(١) البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥).

(٢) دعوة الرسل (ص١٤٧).

وتبرؤ من الحول والقوة وإرجاع الأمر إلىٰ لطف الله وتثبيته في جميع مراحل الابتلاءات التي مر بها. قال الله عز وجل: ﴿ ... **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (١٠٠) ﴾ [يوسف : ١٠٠].

وبالتأمل فيما قاله يوسف عليه الصلاة والسلام يظهر هذا الأدب العظيم منه عليه السلام مع ربه سبحانه، ورد الفضل والإحسان إليه عز وجل في جميع ما مر به في ابتلاءاته المختلفة، كما يلاحظ في هذا الدعاء أن يوسف عليه السلام ختمه بثلاث أسماء كريمة من أسماء الله عز وجل هي: اللطيف والحكيم والعليم، وهذا من فقه يوسف عليه الصلاة والسلام ومعرفته بربه سبحانه وأسمائه وصفاته العلا وآثارها؛ فلقد ربط ما أصابه في حياته وإخراجه من السجن ومجيء أهله إليه بلطف الله عز وجل وحكمته وعلمه. وهذا من حسن ظنه بربه، والاستسلام لحكمه وتفويض الأمور إليه[١].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ في عرضه للدروس المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام:

(ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة، بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولىٰ، ليحدث

---

(١) انظر للاستزادة : رسالة: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾.

لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام:

﴿ ... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ... ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلىٰ أعلىٰ الغايات، ورفيع الدرجات)[١].

٣- أمثلة في الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول والقوة:

وهذه الصفة من أعظم ثمار العلم بالله عز وجل وتوحيده والتوكل عليه، فترىٰ حياتهم كلها قائمة علىٰ الاستعانة بالله وحده والاعتصام به سبحانه، وأنهم لا يرون لأنفسهم فضلاً ولا قوة إلا بما يمدهم الله به من توفيقه وعزته عز وجل، وهذه الصفة بارزة في هديهم جميعاً نكتفي منها بما يلي:

- قول الله عز وجل في دعاء نوح عليه السلام بعد أن كذَّبه قومه وبذل جميع الأسباب في هدايتهم: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾. [القمر: ١٠]

- قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ ... رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾[الممتحنة: ٤، ٥].

---

(١) تفسير السعدي (٢/٤٥٢).

● وقوله تعالىٰ: عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام في وصيته لقومه بعد أن هددهم فرعون بقتل أولادهم: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾ .

[الأعراف: ١٢٨]

● وقوله تعالىٰ أيضاً عن وصية أخرىٰ من موسىٰ لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾ .

[يونس: ٨٤]

● وقوله تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام عندما هدده فرعون بالقتل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾ [غافر: ٢٧].

● وقوله تعالىٰ: عن يوسف عليه الصلاة والسلام عندما تعرض لفتنة النساء: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في الفوائد المستنبطة من سورة يوسف عند هذه الآية:

(ومنها: أنه ينبغي للعبد، أن يلتجئ إلىٰ الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

﴿الْجَاهِلِينَ﴾)[١].

ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: (أي إن وكلتني إلىٰ نفسي، فليس لي من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان؛ فلا تكلني إلىٰ نفسي)[٢].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية بقوله:

(وهي دعوة الإنسان العارف ببشريته. الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، يعاونه علىٰ ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾..

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتىٰ لا يحس في نفسه أثراً منه. أو بهما جميعاً.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي يسمع ويعلم، يسمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء. وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية، بلطف الله ورعايته)[٣]اهـ.

---

(١) تفسير السعدي: (٢/٤٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير ط. الشعب (٤/٣١٣).

(٣) في ظلال القرآن (٤/١٩٨٥).

الجانب الثاني:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق

لقد خص الله عز وجل أنبياءه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك فجاءوا قدوات لمن بعدهم يُهتدىٰ بأخلاقهم ويُقتدىٰ بسلوكهم كما كان الشأن في توحيدهم وإيمانهم ومعرفتهم بربهم سبحانه. ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية وصفات نبيلة فإن هي إلا من آثار التصور الصحيح والإيمان العظيم، فالارتباط بين المعتقد والسلوك ارتباط قوي وبينهما تناسب طردي تشهد له الأدلة والتجارب، فكلما صح الاعتقاد وكان سليماً فإن الأخلاق تعلو وتنبل وتشرف والعكس بالعكس.

وإن الفكر ليكلُّ والقلم يعجر عن الإحاطة بأخلاق وسلوكيات هؤلاء الصفوة من عباد الله عز وجل، سواءً من جهة الكم أو الكيف. ولكن حسبنا أن نستعرض بعض هذه الأخلاق السامقة لتدلنا علىٰ بقيتها؛ لعل القلوب ترق والعزائم تستيقظ لتلحق بهذه الصفوة المباركة فتهتدي بأخلاقهم وتترسم سلوكهم، وخاصة في مثل زماننا المعاصر والذي يشهد أزمة أخلاق وسوء ممارسات وتعامل بين الناس، خاصة بين بعض أهل الخير منهم. فإن كنا محبين للأنبياء حقيقة فهذه أخلاقهم عليهم الصلاة والسلام، وقد أمرنا الله عز وجل بالاقتداء بهم فيها وفي غيرها: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾.

ومن هذه الأخلاق ما يلي:

(١) خلق النصح والرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله عز وجل:

لقد قص الله عز وجل علينا في كتابه الكريم من أخبار أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ما يدل دلالة واضحة علىٰ شدة نصحهم للناس ورحمتهم بهم وشفقتهم عليهم. وبذلوا في ذلك جميع الأسباب الممكنة لهدايتهم وإنقاذهم من عذاب الله سبحانه.

والأدلة علىٰ ذلك كثيرة منها:

● قوله تعالىٰ عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢)** ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

● وقوله تعالىٰ عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)** ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

● وقوله تعالىٰ عن نبيه صالح عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه: ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)** ﴾ [الأعراف: ٧٩].

● وقوله تعالىٰ عن نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام بعد هلاك قومه: ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ**

آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

● وقوله تعالىٰ عن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية: (ثم خوفهم - إن لم يطيعوه - عذاب الله فقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون علىٰ الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم)[1] أهـ.

وهذا التخوف علىٰ الناس من عذاب الله عز وجل كان عند جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ومن ذلك قول الله عز وجل عن شعيب عليه الصلاة والسلام يحذر قومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

● وقد وصف الله عز وجل نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ولقد بلغ النصح والشفقة علىٰ الناس من نبينا محمد ﷺ حتىٰ كاد هذا الأمر أن يهلكه - فخاطبه الله عز وجل قائلاً: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣]، فكان ﷺ

---

(١) تفسير السعدي (٢/ ١٢٢).

يحزن حزناً شديداً علىٰ عدم إيمانهم نصحاً لهم وشفقة عليهم.

الله أكبر، ما أعظم هذه الأخلاق، وما أزكىٰ هذه القلوب المخلصة لربها المتجردة من الأهواء والشحناء وإرادة الدنيا. ما أحوجنا إلىٰ هذه الأخلاق العظيمة والقلوب النقية. خاصة في زماننا اليوم الذي قلّ فيه الناصحون المشفقون علىٰ عباد الله سبحانه، حيث تحوّلت الدعوة عند كثير منّا - إلا من رحم الله تعالىٰ - إلىٰ خصوماتٍ وتصيّدٍ للأخطاء وفرحٍ بها. وما ذاك إلا من خلل في الإخلاص، ودخول الأهواء إلىٰ القلوب. فإذا كان شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم الكفار، هو الرحمة بهم والنصح لهم والشفقة عليهم، فلأن يكون هذا الشعور مع من أخطأ من المسلمين أو انحرف منهم أقوىٰ وأقوىٰ، ولو أنا انطلقنا في دعوتنا مقتدين بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ انطلاق الناصح الرحيم المشفق بإخوانه المسلمين من دعاة وغيرهم لكان الأمر علىٰ غير ما نراه اليوم من الشحناء والأحقاد والخصومات والأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن هذه الأخلاق النبيلة لتنبع من الإخلاص وسلامة القلوب. كما أنها في نفس الوقت تقتضي وتثمر أخلاقاً أخرىٰ لازمة له. فالناصح لعباد الله عز وجل لا تراه إلا صابراً حليماً رفيقاً يحب الرفق والأناة في الأمور كلها. لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. وهذه الأخلاق جميعها واضحة في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأدلتها كثيرة في القرآن الكريم، ولكن المقام لا يتسع لذكرها.

ويبقىٰ أمر مهم في الحديث عن خلق النصح والرحمة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ألا وهو نصحهم ورحمتهم وشفقتهم بأقاربهم

وتوجيه النصح والدعوة بادئ ذي بدء إليهم، والشواهد علىٰ ذلك كثيرة منها:

● دعوة نوح عليه الصلاة والسلام ابنه إلىٰ الإيمان والركوب معه في السفينة التي نجىٰ الله فيها المؤمنين من الغرق.

قال الله تعالىٰ: ﴿ ... **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** (٤٢) ﴾ [هود: ٤٢].

ومما يلفت النظر في هذه المناداة من نوح عليه السلام لابنه أنه حذّره بأن لا يكون مع الكافرين، ولم يقل: مع الهالكين أو المغرقين؛ لأن نهاية الغرق الموت، أما نهاية الكفر فغضب الله عز وجل والخلود في نار جهنم. وقد حقت كلمة الكفر علىٰ ابن نوح ﴿ ... **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ... ﴾ [هود: ٤٣]. ومع ذلك فقد أدرك حب الولد ورحمته نوحاً عليه الصلاة والسلام فتوجه إلىٰ ربه لعله أن يرحم ولده. وهذا من باب الرحمة والنصح والشفقة علىٰ الأقارب.

● ومن هذا الباب أيضاً وصية نوح عليه الصلاة والسلام لأحد أبنائه المسلمين وذلك حين حضرته الوفاة:

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان. مزرورة بالديباج فقال: (ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ورفع كل راع ابن راع).

قال فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «**ألا أرى عليك لباس من لايعقل!؟**» ثم قال: «**إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية؛ آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله. وسبحان الله وبحمده. فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر**» قال: قلت - أو قيل - يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ فقال: «**لا**» قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**» قلت: - أو قيل - يا رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سفه الحق وغمط الناس**»[١].

● ومن هذا الباب أيضاً تلك الدعوة التي وجهها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه والتي كلها نصح وشفقة ورحمة مع أدب جم وحلم وتلطف من الابن النبي إلىٰ أبيه الكافر.

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)**

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٩، ١٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢/ ٢٥١) فضل الله الصمد، وقال أحمد شاكر رحمه الله تعالىٰ: إسناده صحيح (٦٥٨٣).

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [مريم: ٤١ - ٤٧].

ومع أن الأب الشقي رد نصيحة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهدده وتوعده بالرجم وطالبه بالهجر والمقاطعة إلا أن الابن البار الخائف علىٰ أبيه من عذاب يمسه من الرحمن قال: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾ فلما أيس من إيمانه تبرأ منه واعتزله وترك الاستغفار له. ومع ذلك فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يحاول الشفاعة فيه يوم القيامة ولكن حقت كلمة العذاب علىٰ الكافرين.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلىٰ وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: الآن لا أعصيك . فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقىٰ في النار**»[١].

● ومن ذلك قوله تعالىٰ عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ**

(١) البخاري: كتاب الأنبياء (٣٣٥٠).

بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم: ٥٥].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالىٰ: (أي وكان مقيماً لأمر الله علىٰ أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلىٰ العبيد، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم)[١].

● ومن ذلك أمر الله عز وجل نبيه محمد ﷺ بدعوة قرابته في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ... ﴾ [طه: ١٣٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها كما قال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ... ﴾ [التحريم: ٦]) اهـ[٢].

● ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)** ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقد امتثل الرسول ﷺ الأمر فنادىٰ قرابته الأبعد ثم الأقرب فأنذرهم عذاب الله عز وجل وحذرهم من عقوبة ماهم عليه من الشرك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله تعالىٰ: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ فقال: «**يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - . اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني**

---

(١) تفسير السعدي: (٣ / ٢٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (١٣٢) من سورة طه.

عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[١].

وبعد هذه الشواهد الدالة علىٰ شدة عناية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقاربهم وخوفهم عليهم من عذاب الله عز وجل، هل بقي بعد هذا عذر لنا في إهمال أولادنا وأهلينا وأقاربنا وترك النصح والتوجيه لهم؟ نعم إن كثيراً منا اليوم قد نراه نشيطاً في دعوة الناس وإسداء النصح والخير لهم، وهذا شيء طيب ومطلوب، ولكن أين نصيب الأهل والأقارب من هذه الدعوة؟ إن الواقع خلاف ذلك إلا من وفق الله عز وجل. ولذلك وفي مثل زماننا اليوم الذي أقبلت الفتن فيه كقطع الليل المظلم وكاد طوفان الفساد أن يعم الصالح والفاسد، أتوجه باللوم الشديد لنفسي ومن يشاركني هذا الإهمال، وأدعو نفسي وإخواني الدعاة أن نبدأ بداية جادة في صفوف أهلينا وأقاربنا، نعلمهم الخير ونحذرهم الشر، والناس والحمد لله لا زال في قلوبهم الخير، ولكن يريدون من ينفض الغبار عن هذه القلوب ويجمعهم علىٰ الخير. وينبغي الحذر ممن يثبطنا عن هذا العمل بحجة تضييع الجهد أو صعوبة البداية أو غير ذلك، فهذا كله من وساوس الشيطان وصده عن سبيل الله، والأمر يسير والحمد لله ولا يحتاج إلا إلىٰ الإخلاص والصدق ثم يأتي تيسير الله عز وجل وتسخير النفوس لقبول مثل هذا المشروع الذي يحقق للداعية ثمرتين عظيمتين لا تقل إحداهما عن الأخرىٰ؛ فإما أن تثمر الدعوة في وسط الأقارب خيراً فيحصل القبول والاتعاظ وتتطهر النفوس

---

(١) البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦).

والبيوت من الفساد والمنكرات، وفي هذا أجر عظيم. وإما أن يحصل للداعية الإعذار وإبراء الذمة. وقد أخبرني من له تجربة في هذا الأمر أنه كان متهيباً في بداية الأمر، ولكنه استعان بالله عز وجل وبدأ مشروعه في لم شمل الأقارب في شكل لقاء شهري يدور بين بيوت الأقارب يجتمع فيه الكبير والصغير وتطرح فيه بعض المناصحات والاقتراحات، وقراءة بعض الفتاوىٰ في بعض المنكرات، ثم لم يقف اجتماع شمل الأقارب عند هذا الحد بل نتج عنه اجتماع شمل الشباب فيها وتعاونوا علىٰ الخير والمناصحة فيما بينهم، وأثمر ذلك برامج دعوية هادفة في وسط الأقارب. ولنتصور أن الدعاة إلىٰ الله عز وجل - وما أكثرهم - بدأ كل واحد منهم ينشط في أقاربه مثل هذا النشاط. فكم من الخيرالعظيم سيسري في هذه الأمة؟!

٢- خلق الصبر والتقوىٰ:

وهذان الخلقان العظيمان هما أساس الإمامة في الدين، وقد منّ الله عز وجل علىٰ أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بحظ عظيم منهما فحازوا قصب السبق فيهما. وقد سبق الحديث عن تقوىٰ الأنبياء عليهم السلام في ذكر خوفهم من الله سبحانه، وعبادتهم له؛ ولذلك سيكون الكلام هنا عن صبرهم.

قال الله تعالىٰ مسلياً نبيه محمد ﷺ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** (٣٤) ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالىٰ عن بعض أنبيائه قولهم: ﴿ ... **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا**

وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال عز وجل: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...** ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقال تعالىٰ عن أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)** ﴾ [ص: ٤٤].

وقال سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام بعد تلك الابتلاءات المتنوعة والتي ثبته الله عز جل فيها وتجاوزها بنجاح أنه قال: ﴿ ... **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)** ﴾ [يوسف: ٩٠] والآيات في وصف صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتقواهم وخشيتهم من الله سبحانه كثيرة لا يتسع المقام لذكرها. ومما تجدر الإشارة إليه أن من أهم أغراض قصص الأنبياء في القرآن الكريم هو أخذ العبر من صبرهم وتضحيتهم ومعاناتهم في مواجهة الشرك وإرجاع الناس إلىٰ عبادة الله عز وجل؛ وذلك حتىٰ يقتدي بصبرهم من جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين فيثبتوا ولا يضعفوا، ويستبشروا ولا ييأسوا. قال تعالىٰ: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)** ﴾ [هود: ١٢٠].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتفاوتون ويتفاضلون في الصبر؛ فصبر أولي العزم من الرسل هو أعظم الصبر لأنهم واجهوا من الأذىٰ والصد ما لم يواجهه نبي قط. وقد جاء التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالىٰ: . ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...** ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

- فنوح عليه الصلاة والسلام صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً دام

ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها دعوة وجهاد وصبر علىٰ أذىٰ قومه له وسخريتهم منه، واتهامهم له بالجنون تارة وبالسحر تارة وبالضلال تارة، وهو يقابل ذلك كله بالصبر والسماحة والحلم حتىٰ انتهىٰ بهم الأمر إلىٰ تهديده بالقتل رجماً قال تعالىٰ: ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٦]

● وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تعرض لمحن عظيمة فصبر لها صبر الموحد لربه الموقن بوعده؛ ذلك حين ألقي في النار؛ وحين أمر بذبح ابنه وفلذة كبده، وحين أمر بترك أهله بواد غير ذي زرع، وحين هاجر من موطنه وترك أباه وأقاربه.

● وهذا موسىٰ عليه الصلاة والسلام وما واجه من الأذىٰ والتهديد من فرعون وملئه، ثم ما واجه من الأذىٰ والتعنت من قومه بني إسرائيل حتىٰ أن الرسول ﷺ قال عن موسىٰ عليه الصلاة والسلام: «**يرحم الله موسىٰ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»(١).

● وهذا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، جاءه من الأذىٰ والتهم الباطلة من بني إسرائيل حتىٰ تآمروا علىٰ قتله وصلبه ، فصبرعلىٰ ذلك كله. ولكن الله عز وجل رفعه إليه

● وهذا خاتم الأنبياء محمد ﷺ تعرض للأذىٰ العظيم والاضطهاد الشديد في نفسه وفي أصحابه رضي الله عنهم؛ فقال عنه المشركون إنه

---

(١) البخاري في الأدب (٦١٠٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢).

ساحر وكاهن وشاعر ومجنون، وحُوصر مع أصحابه وقرابته في شعب أبي طالب حتىٰ أكلوا الجيف، وخرج إلىٰ الطائف فرده أهلها رداً عنيفاً ورموه بالحجارة حتىٰ دُميت قدماه الشريفتان، ولم يستطع دخول مكة - ذلك البلد الذي يأمن فيه الطير والوحش - لم يستطع دخولها إلا في جوار مطعم بن عدي، ثم تآمر المشركون علىٰ قتله فخرج مهاجراً إلىٰ المدينة وهناك بدأ الجهاد. وما يكاد يخرج من غزوة إلا ويدخل في أخرىٰ، وأصابه في بعضها القرح والآلام، وقتل من أصحابه الكثير بين يديه، واستمر على هذه الحياة الجهادية والتي كلها صبر ومصابرة حتىٰ توفاه الله عز وجل وقد أقر عينه بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، فصلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ إخوانه من النبيين والمرسلين.

وبعد هذا الاستعراض السريع لصبر بعض الأنبياء يحسن التفصيل في نموذج أو نموذجين من صبرهم عليهم الصلاة والسلام:

● فصَّل شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ في جوانب الصبر في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام والابتلاءات التي مر بها وأنه ما وصل إلىٰ تلك الحياة الكريمة في آخر حياته إلا بالتقوىٰ والصبر كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام: ﴿ ... **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠]. ولكن شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ نوه في بداية حديثه علىٰ أن هذا الصبر العظيم من يوسف عليه الصلاة والسلام لا يعني أنه فاق أولي العزم من الرسل في الصبر والتقوىٰ. فها هو يقول رحمه الله تعالىٰ: (وأما قصة نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين؛ فما فعلته الأنبياء من الدعوة

إلىٰ توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر علىٰ أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم وبما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧]. ، وقوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. و هم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر بهم)[١].

وبعد هذا التنويه من شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ يأتي إلىٰ إبراز ما في قصة يوسف عليه الصلا ة والسلام من جوانب الصبر العظيمة لتدل بدورها علىٰ من هو أعظم صبراً من يوسف عليه الصلاة والسلام. قال رحمه الله تعالىٰ: (وفي قول يوسف: ﴿ ... رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء علىٰ الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب علىٰ دينه ويصرفه

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٧ / ٣١، ٣٢.

إلىٰ طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلىٰ الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل علىٰ الله واستعانة به أن يثبت القلب علىٰ الإيمان والطاعة، وفيه صبر علىٰ المحنة والبلاء والأذىٰ الحاصل إذا ثبت علىٰ الإيمان والطاعة. وهذا كقول موسىٰ عليه السلام لقومه: ﴿ ... **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ [الأعراف: ١٢٨] لما قال فرعون: ﴿ ... **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾.

[الأعراف: ١٢٧، ١٢٨]

وكذلك قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)** ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

ومنه قول يوسف عليه السلام: ﴿ ... **فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)** ﴾ [يوسف: ٩٠]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ... ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله ﴿ ... **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)** ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)** ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فلابد من التقوىٰ بفعل المأمور والصبر علىٰ المقدور، كما فعل يوسف

عليه السلام: اتقىٰ الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر علىٰ أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه، حتىٰ يثبته علىٰ العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر علىٰ الحبس...

ومن احتمل الهوان والأذىٰ في طاعة الله علىٰ الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذىٰ قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً؛ فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذىٰ الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذىٰ مع الطاعة علىٰ الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة علىٰ العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية، بل قدم الخوف من الخالق علىٰ الخوف من المخلوق وإن آذاه بالحبس والكذب، فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته)أهـ[1].

ويشير محمد العدوي إلىٰ قوة الإرادة وعزة النفس عند يوسف عليه الصلاة والسلام واستعانته بربه سبحانه علىٰ ذلك فيقول: (﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ...** ﴾ جواب رجل أعدّه الله لأن يكون نبياً وهيأه لأن يكون زعيماً دينياً؛ جواب ما أبرده علىٰ قلب المؤمن، وأحبه

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٥ / ١٣٠ - ١٣٥ (باختصار).

إلىٰ نفسه يقول يوسف فيه مخاطباً لربه ومولاه وصاحب الفضل الأوّل عليه: إن السجن علىٰ ما فيه من شظف العيش، وخشونة الفراش، وحيلولة بين الرجل وبين الحياة، هو أحبّ إلىٰ نفسي مما يدعونني إليه؛ لأنهنّ يدعونني إلىٰ عصيانك، والخروج علىٰ طاعتك، وامتهان النفس، وضياع الخلق والكرامة، وضعف الإرادة، فأنا أفضل أن أعيش في السجن متحملاً ما فيه من تعذيب علىٰ مايدعونني إليه من عصيانك والفسوق عن أمرك)أهـ[١].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز علىٰ شأنها أكمل من صبره علىٰ إلقاء أخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضىٰ، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوىٰ معها دواعي الموافقة. فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية. وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته. وغريباً، والغريب لا يستحيي في بلد غربته مما يستحيي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله. ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس له وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلىٰ نفسها والحريصة علىٰ ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله. وأين هذا من صبره في الجب علىٰ ما ليس

---

(١) دعوة الرسل إلىٰ الله تعالىٰ محمد العدوي ص ١١١ .

من كسبه)اهـ[١].

كما يقول رحمه الله تعالىٰ في مواطن آخر: (وكذلك كان صبر نوح وإبرهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام - علىٰ ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم - أكمل من صبر أيوب علىٰ ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسبباً عن فعله، وكذلك صبر إسماعيل الذبيح، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام علىٰ تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب علىٰ فقد يوسف)اهـ[٢].

هذا هو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذه هي تضحياتهم، وإذا أردنا أن نقتدي بهم في هذا الخلق العظيم وأن ننتفع به كما انتفعوا فلابد في هذا الصبر من شروط ثلاثة:

(١- أن يكون الصبر بالله. والمراد بذلك الاستعانة بالله سبحانه ورؤيته أنه هو المصبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ... ﴾ [النحل: ١٢٧].

٢- أن يكون لله؛ وهو أن يكون الباعث له علىٰ الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلىٰ الخلق وغير ذلك من الأغراض.

٣- أن يكون الصبر مع الله؛ وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه؛

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٦٩.

ومع أحكامه الدينية سائراً بسيرها مقيماً بإقامتها؛ أي يجعل نفسه وقفاً علىٰ أوامره ومحابه)أهـ[١] .

وفي ختام الكلام عن هذا الخلق العظيم من خلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنقل مقتطفات مما كتبه سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عن هذا الجانب العظيم بعد معاناة وتجارب واجهها وقاساها في دعوته وابتلاءاته المريرة؛ يقول رحمه الله تعالىٰ: (والدعوة إلىٰ الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة وتكررت لكل رسول ولكل مؤمن يتبع الرسول، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية موصولة بالهدف البعيد منطلقة كذلك إلىٰ الأفق البعيد . والصبر حتىٰ يحكم الله في الوقت المقدر ما يريد : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ... ﴾ [القلم: ٤٨] . . إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله حتىٰ يأتي موعده في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات التكذيب والتعذيب، ومشقات الالتواء والعناد، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون، ثم مشقات إمساك النفس عن هذا كله، راضية مستقرة مطمئنة إلىٰ وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلىٰ عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق: ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** ⑤ ﴾ [المعارج: ٥] والصبر الجميل هو الصبر المطمئن الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة،

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢ / ١٥٧ (باختصار) .

الراضي بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء الموصولْ بالله، المحتسب كل شيء عنده مما يقع به.. وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة؛ فهي دعوة الله، وهي دعوة إلىٰ الله، ليس له هو منها شيء، وليس له وراءها من غاية؛ فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله، وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله. فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ومع الشعور بها في أعماق الضمير.. والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون، وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون. يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله.. ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير فيستعجلون، وإذا طال عليهم الأمد يستريبون. وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعود.. عندئذ يأتي التثبيت من الله ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً** ﴾ تثبيتاً للقلب علىٰ ما يلقىٰ من عنت المناوأة والتكذيب.. (اصبر).. إنها الإشارة إلىٰ الطريق المطروق في حياة الرسل عليهم صلوات الله. الطريق الذي يضمهم أجمعين؛ فكلهم ساروا في هذا الطريق.. كلهم عانىٰ. كلهم ابتلي. وكلهم صبر. وكان الصبر هو زادهم جميعاً. وطابعهم جميعاً. كل حسب درجته في سلم الأنبياء.. لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات مفعمة بالآلام. لكأنما كانت تلك الحياة المختارة – بل إنها كذلك – صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية علىٰ الآلام والضرورات وكيف تستعلي علىٰ كل ما تعتز به في الأرض، وتتجرد من الشهوات والمغريات، وتخلص لله وتنجح في امتحانه، وتختاره علىٰ كل شيء سواه.

ثم لتقول للبشرية في النهاية: هذا هو الطريق.. هذا هو الطريق إلىٰ الاستعلاء وإلىٰ الإرتفاع. هذا هو الطريق إلىٰ الله. فالصبر هو طريق الرسالات وطريق الدعوات: ﴿ ... **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].. الدعوة إلىٰ الصبر.. الصبر علىٰ التكذيب، والصبر علىٰ الأذىٰ، والصبرعلىٰ نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان، والصبر علىٰ طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا وهناك، والصبر علىٰ النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال، والصبر علىٰ أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء..﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** ... ﴾ [الروم: ٦٠]. مهما يطل الأمد ومهما تتعقد الأمور ومهما تتقلب الأسباب) أهـ[١].

٣- خلق الكرم والوفاء والشجاعة:

إن خلق الكرم والشجاعة والوفاء ثلاثة أخلاق لا ينفك أبداً بعضها عن بعض؛ فقل أن يوجد شجاع وهو غير كريم أو وفي. وقل أن يوجد كريم وهو جبان أوخائن؛ فالجبن والبخل والخيانة قرناء سوء يولد بعضها بعضاً، كما أن الكرم والشجاعة والوفاء قرناء خير يولد بعضها بعضاً. وقد سبق الحديث عن تلك الشجاعة العظيمة والثبات الشديد عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك في الحديث عن صدق توكلهم علىٰ الله عز وجل ومعرفتهم بربهم سبحانه وأسمائه وصفاته.

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن (ص ٢٠٣، ٢٠٤).

ولذلك سيكون الكلام في هذه الفقرة عن خلقي الكرم والجود والوفاء عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والذين ضربوا أروع الأمثلة في ذلك؛ فمن ذلك ما يلي:

(١) الكرم الذي كان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأضيافه من الملائكة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦)** ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦] .

ويتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية عن كرم إبرهيم عليه الصلاة والسلام وحسن ضيافته فيقول:

(قوله: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧)** ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] متضمن وجوهاً من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف.

- منها قوله: ﴿ **فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلىٰ إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد علىٰ ضيفه ثم يبرز بمرأىٰ منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأىٰ منه ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه. فلفظة ﴿ **رَاغَ** ﴾ تنفي هذين الأمرين.

- وفي قوله تعالىٰ: ﴿ **إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من

جيرانه ولا يذهب إلىٰ غير أهله، إذ قرىٰ الضيف حاصل عندهم.

- وقوله: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الذاريات: ٢٦] يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه؛ فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال؛ ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

- وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن المدح وآداباً أخرىٰ؛ وهو إحضار الطعام إلىٰ بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

- وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فيه مدح وآداب أخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا)أهـ[١].

(٢) وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل علىٰ لسانه وهو يخاطب إخوته: ﴿ ...أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ [يوسف: ٥٩]. أي خير المضيفين لأنه أحسن ضيافتهم[٢].

---

(١) بدائع التفسير: (٤/٢٤٣).

(٢) انظر تفسير القرطبي عند هذه الآية.

(٣) أما إذا جئنا إلىٰ كرم الرسول ﷺ وجوده فهو الكرم الذي لا يضاهىٰ والجود الذي لا يبارىٰ. ويكفينا في ذلك قول ذلك الأعرابي الذي جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فوجد عنده من الكرم والسخاء ما يبهر العقول حتىٰ قال مقولته المشهورة لما رجع إلىٰ قومه وقد أعطاه الرسول ﷺ غنماً بين جبلين فقال: (يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشىٰ الفاقة)[١].

وليس المراد في هذا البحث الإحاطة بتفاصيل كرم الأنبياء وكرم نبينا محمد عليه وعلىٰ جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام. وإنما أردت في الحديث عن هذا الخلق العظيم التنبيه علىٰ أهميته في أخلاق الداعية؛ لأنه علامة علىٰ الزهد والترفع علىٰ حب الدنيا. وهذا له أثر في كسب القلوب والتأثير علىٰ الناس. فإنه لايصلح بل لا يمكن أن تصدر إمامة الدين ودعوة الناس من إنسان بخيل شحيح. وبالنظر في حياة الأنبياء والمصلحين والمجددين نجد أن صفة الكرم والبذل والسخاء ظاهرة بارزة عند الجميع.

● أما صفة الوفاء فهي بارزة في حياة الأنبياء عليهم السلام الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وجاهدوا في الله حق جهاده؛ فمنهم إبراهيم عليه السلام الذي قال عنه ربه تعالىٰ: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٧]. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (قال سعيد بن جبير والثوري: أي بلّغ جميع ما أُمر به، وقال ابن عباس ﴿ وَفَّىٰ ﴾ ما أمر به، وقال قتادة: ﴿ وَفَّىٰ ﴾ طاعة الله وأدىٰ رسالته إلىٰ خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذي قبله)أهـ[٢].

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل (٢٣١٢).

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (٣٧) من سورة النجم.

وقد ربط بعض المفسرين بين هذه الآية في مدح إبرهيم عليه الصلاة والسلام وبين الآية التي في سورة البقرة وهي قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ... ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (يقول تعالىٰ منبهاً علىٰ شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالىٰ جعله إماماً للناس يقتدىٰ به في التوحيد، حتىٰ قام بما كلفه الله تعالىٰ به من الأوامر والنواهي ولهذا قال: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ** ﴾ أي: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملَّة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين - اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ **فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾، أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** ﴾، أي: وَفَّىٰ جميعَ ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه... وقال عبدالرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ** ﴾. قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفَرْق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء.

قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن سعيد بن المسيب، ومجاهد، والشعبي والنَّخَعي، وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك.

قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة - رضي

الله عنهـا – قـالت: (قـال رسـول الله ﷺ: «**عَشْرٌ من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البَرَاجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**». ونسيت العاشرة إلا أن تكون: المضمضة[١]) أهـ[٢].

● وعودة مرة أخرىٰ إلىٰ إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في نموذج آخر من نماذج الصدق والصبر علىٰ الوفاء بالعهد والوعد مع الله عز وجل؛ وذلك في قصته عليه الصلاة والسلام عندما أُمر بذبح ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)** ﴾.

[الصافات: ١٠٢ – ١٠٦]

يقول العدوي – أثابه الله – في كتابه دعوة الرسل: (من عادة القرآن أن يحذف من القصة ما لا تدعو إليه العبرة، ولا يتوقف عليه الفهم اعتماداً علىٰ فطنة السامع؛ فيرينا الله تعالىٰ أنه بعد أن بشره بغلام ووهبه ذلك الغلام، ثم نشأ وترعرع حتىٰ وصل إلىٰ سنٍّ يستطيع معه أن يسعىٰ قال له: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** ﴾ وهي استشارة

---

(١) مسلم كتاب الطهارة (٢٦١).

(٢) تفسير ابن كثير. ط الشعب (١/٢٣٧).

تحمل في حناياها لواعج الألم ومثيرات الحزن والأسىٰ، استهلها نبي الله بقوله: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وكأنه يقول: يا بنيّ، ويا فلذة كبدي، الذي وهبك الله لي بعد دعائي إياه أن يهب لي ذرية صالحة، تعاونني في الدعوة وتناصرني في إقامة دين الله، إني أرىٰ في المنام أني أذبحك، فما الذي أنت فاعل في ذلك البلاء؟ وبأيّ عزيمة تلقىٰ تلك المحنة؟ وإنها لمحنة ما أشدها علىٰ نفسي الوالد والولد فماذا. كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموجعة؟ ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا بعث إلىٰ رجل من رعيته برسوله له يبلغه أن ذلك الملك المطاع أمر أن تصادر أملاكه ويعيش صفر اليدين، أو أمر أن ينفىٰ من بلده ويحال بينه وبين مواطنيه. لو أن رجلاً من الناس بلغه ذلك علىٰ لسان رسول لا يكذب لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة، فكيف بصبيّ يبلغه عن ربه، بواسطة أبيه – وأبوه رسول لا يكذب، مطيع لا يعصي – أن يحرمه من هذه الحياة، ويحول بينه وبين أن يعيش؟ كيف بصبيّ يبلغه أبوه رؤياه المنامية أنه يذبحه؟! ماذا تكون نفسه التي بين جنبيه في ذلك الحين؟ وماذا يكون قلبه؟ وماذا تكون إجابته؟ [وقد استشير]، ولو أن الأمر كان من طريق القسر لكان أهون علىٰ النفس وأخفّ في الاحتمال. كان جواب ذلك الصبيّ أن يقول قالة الراضي المطمئن: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ وكأنه يقول لأبيه: إنني أقدّر قيمة ألمك لتلك التضحية، وجهاد نفسك في ذلك العمل الشاق، لأني قطعة منك، ولكن حقّ الله عليك فوق حقّ الأبناء والأحفاد، وإجابتك لداعيه أهمّ من إجابتك لدواعي الفطرة، فأجب داعي الله، وتغاض عن داعي الشفقة والحنان،

واصدع بأمر الله إرغاماً للشيطان. فإذا كنت قد ناديتني بقولك: ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ فإني أناديك بقولي لك: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾، وأقول لك قول الراضي بقضاء الله وحكمه: ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ وسوف لا تراني ممتعضاً بذلك البلاء: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾. فلم يكن من نبيّ الله إبراهيم وولده سوىٰ استسلامهما لأمر الله، فأخذ إبراهيم ينفذ أمره، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه. فحينما أسقطه علىٰ التلّ، ناداه الله: أن يا إبراهيم قد حققت الرؤيا؛ فاغتبط وأبشر بالفرج بعد الشدّة، واليسر بعد العسر، ولا تعجب من ذلك، فإن هذه سنتنا فىٰ جزاء المحسن) أهـ[١].

ولذلك مدح الله سبحانه نبيه إسماعيل عليه الصلاة السلام بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) ﴾ [مريم: ٥٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (وقال بعضهم: وإنما قيل له ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ لأنه قال لأبيه: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ فصدق في ذلك)أهـ[٢].

● ومنهم موسىٰ عليه الصلاة السلام وما وفىٰ لربه سبحانه في تبليغ بني إسرائيل دعوة الله عز وجل وصبره علىٰ أذاهم وتعنتهم وسوء أدبهم، وقد كان له موقف وفاء قبل بعثته، ألا وهو موقفه عليه الصلاة والسلام مع شيخ مدين حينما آجر نفسه عشر سنين وهي أتم الأجلين عند الشيخ والد

---

(١) دعوة الرسل محمد العدوي ص ٦٠، ٦١.

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية (٥٤) من سورة مريم.

البنتين حتىٰ يتزوج إحداهما، وكان قد خيره بين الثمان سنين والعشر فاختار أكمل الأجلين.

عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ فقلت: لا أدري حتىٰ أقدم علىٰ حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: (قضي أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل)[١].

٤- التأسي بهم في الهدي الظاهر:

يحسن بمناسبة الحديث عن خصال الفطرة التي وفىٰ إبراهيم عليه السلام بها الإشارة إلىٰ الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الهدي الظاهر كما هو مشار إليه في عناية إبراهيم عليه الصلاة والسلام بجسده ونظافته وخاصة بعد ما جاء ذلك علىٰ لسان نبينا محمد ﷺ من التأكيد علىٰ هذه الخصال الحسنة من خصال الفطرة. ومن هذا: الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في نظافة مظهره، ومراعاة مصالح بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزاله ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود وسخ أو قلح .

كما أذكر بهذه المناسبة استنباطاً لطيفاً للشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ ذكره في تفسير سورة طه عند الآية (٩٤)؛ وذلك في التدليل علىٰ أن إعفاء اللحية من هدي الأنبياء عليهم السلام، وأن له دليلاً من القرآن الكريم، قال رحمه الله تعالىٰ: عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ **قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ...** ﴾ [طه: ٩٤]: (هذه الآية الكريمة بضميمة

---

(١) البخاري: (٢٦٨٤) في الشهادات.

آية «الأنعام» إليها تدل علىٰ لزوم إعفاء اللحية؛ فهي دليل قرآني علىٰ إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالىٰ: ﴿ ... **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ** ... ﴾ [الأنعام: ٨٤]. ثم إنه تعالىٰ قال بعد أن عد الأنبياء الكرام المذكورين: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ [الأنعام: ٩٠] فدل ذلك علىٰ أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمرٌ لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما بينا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة «المائدة»، وقد قدمنا هناك أنه ثبت في صحيح البخاري أن مجاهداً سأل ابن عباس: من أين أخذت «السجدة» في «صۤ» قال: أو ما تقرأ ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ** ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ... ﴾ فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ[(١)]. فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم في سورة «الأنعام»، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة. وعلمت أن هارون كان موفراً شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿ ... **لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي** ... ﴾ [طه: ٩٤]. لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته؛ تبين لك من ذلك بإيضاح: أن إعفاء اللحية من السمت الذي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم)اهـ[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه ص ٧٨.

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٠٦).

الجانب الثالث:

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ

إن هذا الجانب من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن أهم جوانب الاقتداء الذي ينبغي دراسته والوقوف عنده والتركيز عليه من قبل الدعاة اليوم، لأن النصر والتمكين الذي ينشده كل مسلم مرهون باتباع المعالم الأساسية لدعوتهم والذي اكتمل وتم تفصيله في سيرة نبينا محمد ﷺ. وما أحوجنا إلىٰ هديهم عليهم الصلاة والسلام بخاصة في واقعنا المعاصر حيث التفرق والاختلاف والتخبط والاضطراب ، كل ذلك بسبب الغفلة أو البعد عن المنهج المعصوم : منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتمثل في الثوابت والمعالم المشتركة لهم جميعاً في الدعوة والتبليغ . ويمكن إجمال أهم هذه المعالم والثوابت فيما يلي :

١- العقيدة أولاً : علماً وعملاً ودعوة وتضحية .

٢- الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والمفاصلة والتميز علىٰ ضوئها .

٣- الإخلاص في الدعوة وعدم ابتغاء الأجر إلا من الله عز جل .

٤- التعرض للأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصارالباطل .

٥- التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد وقواعد الترجيح عند التعارض .

٦- السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وتفصيل ذلك فيما يلي:

المعْلَم الأول:

العقيدة أولاً: علماً وعملاً ودعوة وتضحية.

إن مصطلح العقيدة يطلق ويراد منه ما يعقد عليه القلب من تصديق وإذعان وقبول بما جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الإيمان بربوبية الله عز وجل، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وإفراده وحده لا شريك له بالعبادة والطلب والقصد، والتبرؤ من كل ما يعبد من دون الله تعالىٰ، كما تشمل العقيدة أيضاً الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب والجنة والنار وكل ما أخبر به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أمور الغيب، وانقياد كل قوم لما جاء به رسولهم من الأوامر والنواهي، وقبول حكم الله تعالىٰ ورفض ما سواه، والموالاة والمعاداة علىٰ أساس ذلك كله حسب ما جاءنا عن نبينا ﷺ بفهم السلف الصالح.

وإذا تأملنا في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنا نجد أن أول شيء دعوا إليه وضحوا من أجله وكان هو همهم وشغلهم الشاغل هو أمر هذه العقيدة من: إفراد الله بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر، والتصديق بالوحي والرسالة. ولقد واجههم في ذلك من الأذىٰ ما تشيب له الرؤوس، ولكنهم صبروا وصابروا حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل، ولقد علموا من ربهم سبحانه أن أول أمر يجب أن يدعىٰ الناس إليه هو أمر التوحيد وإفراد الله سبحانه بالعبادة بكل شمولها، وأن البدء في الدعوة بغيرذلك مخالف لأمر الله تعالىٰ، العليم بما يصلح عباده، والحكيم فيما يأمر به وينهىٰ وفيما يقضيه ويقدره.

وفيما يلي بعض الآيات من القرآن الكريم تدل على أن أول شيء دعا إليه أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام هو التوحيد وإفراد الله عز وجل بالعبادة والإيمان باليوم الآخر؛ قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)** ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)** ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...** ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)** ﴾.

[العنكبوت: ٣٦]

وقوله عز وجل: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)** ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ **... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)** ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله تعالى لخاتم النبيين محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا**

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

ولقد كان القرآن الكريم طيلة الفترة المكية يتحدث عن العقيدة علماً وعملاً مرة من خلال قصص - الأنبياء عليهم السلام - ودعوة أقوامهم إلىٰ التوحيد، ومرة من خلال المحاجة المباشرة مع المشركين وهلهلة عقيدتهم وتسفيهها، وغير ذلك من الأساليب المختلفة. فإذا كان هذا هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشغلهم الشاغل في الدعوة إلىٰ العقيدة بادئ ذي بدء، وكان أيضاً هو الهم الأول في دعوة الرسول ﷺ وخاصة في الفترة المكية، إذن فلا بد من الوقوف عند هذا المعلم من معالم الدعوة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولماذا كان أول أمر دعوا الناس إليه هو توحيد الله وعبادته.

أورد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: في كتاب التوحيد باب (الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله) وذكر فيه الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** - وفي رواية -: **إلىٰ أن يوحدوا الله** ... الحديث»)[١].

ثم ذكر في مسائل الباب قوله: (كون التوحيد أول واجب وأنه يبدأ به قبل كل شيء حتىٰ الصلاة)[٢].

---

(١) البخاري في مواضع منها: ك الزكاة (١٤٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٩).

(٢) فتح المجيد: ص ٧٢.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالىٰ في شرحه لهذا الحديث: (وفيه دليل علىٰ أن التوحيد - الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام)أهـ[١].

ولقد كان في مقدور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام البدء مع أقوامهم من غير هذا الطريق الشاق الذي كلفهم العناء والبلاء، والذي قد يبدو ولأول وهلة أنه الأسهل، كأن تبدأ الدعوة في جمع الناس علىٰ أهداف قبلية وعصبية، أو أهداف اجتماعية طبقية، أو أهداف أخلاقية سلوكية؛ فإذا اجتمعوا علىٰ هذه الرايات بلغوهم العقيدة وطالبوهم بالتزامها ورفض ما سواها!! هذا هو تصور البشر القاصر الجاهل ولكن رب البشر سبحانه والذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، والذي هو أعلم بخلقه وما يصلح لهم وهو اللطيف الخبير. لم يرد هذا الطريق، ولو بدا لأول وهلة أنه الأيسر والأسهل. إنه سبحانه أراد البدء بدعوة الناس إلىٰ عبادته وتوحيده سبحانه وخلع كل ما يعبد من دون الله حتىٰ إذا امتلأت القلوب بمعرفة الله وتوحيده والخوف منه جاءت الأوامر والنواهي والأحكام والنظم وقد استعدت النفوس لقبولها وأذعنت لتنفيذها. إذن فلابد من حكمة عظيمة في دعوة الناس إلىٰ العقيدة بادئ ذي بدء ينبغي الوقوف عندها. ولقد حاول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالىٰ الإشارة إلىٰ هذه الحكمة وهويرد علىٰ من يرىٰ البدء بغير العقيدة تيسيراً عليهم بزعمه، حتىٰ إذا اجتمعوا علىٰ راية معينة طرح أمر العقيدة بعد ذلك عليهم!!

---

(١) فتح المجيد: ص ٦٤.

يقول رحمه الله تعالىٰ: (فلمَّا تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي تركن إليها هذه العقيدة.. لَمَّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده.. لَمَّا تحررالناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء..لَمَّا تقررت في القلوب «لا إله إلا الله».. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون.. تطهرت الأرض من «الرومان والفرس».. لا ليتقرر فيها سلطان «العرب». ولكن ليتقرر فيها سلطان «الله».. لقد تطهرت من سلطان «الطاغوت» كله: رومانياً، وفارسياً وعربياً، علىٰ السواء، وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام «النظام الإسلامي»، يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ويسميها راية «الإسلام». لا يقرن إليها اسماً آخر، ويكتب عليها: «لا إله إلا الله»!

وتطهرت النفوس والأخلاق وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر حتىٰ للحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر، ولأن الطمع في رضىٰ الله وثوابه والخوف من غضبه وعقابه، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات.

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلىٰ القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام.

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي

حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد وُعِدُوا علىٰ إقامة هذا الدين وعداً واحداً لا يدخل فيه الغلب والسلطان.. ولا حتىٰ انتصار هذا الدين علىٰ أيديهم.. وعداً واحداً لايتعلق بشيء في هذه الدنيا.. وعداً واحداً هو الجنة. هذا كل ما وعدوه علىٰ الجهاد المضني والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان وهو: « لاإله إلا الله » .

فَلَمَّا أن ابتلاهم الله فصبروا، ولَمّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولَمَّا أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض – كائناً ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة علىٰ أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم – ولَمَّا لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت.. لَمَّا أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا – إذن – أمناء علىٰ هذه الأمانة الكبرىٰ.. أمناء علىٰ العقيدة، التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر، وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال.. وأمناء علىٰ السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به علىٰ شريعة الله ينفذونها، وعلىٰ عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم، ولا لقومهم، ولا لجنسهم. إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله، ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، وهو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق علىٰ هذا ا لمستوىٰ الرفيع

إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء. وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها.. راية لا إله إلا الله.. ولا ترفع معها سواها. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره، المبارك الميسر في حقيقته)أهـ[١].

ولا يفهم من الكلام السابق أن نترك الدعوة إلىٰ الالتزام بالأحكام الشرعية والتي اكتملت بموت النبي ﷺ كلا؛ فالدعوة إلىٰ الإسلام شاملة للعقيدة والانقياد للأوامر والنواهي الشرعية. وإنما كان المقصود الاهتمام بالعقيدة وعدم إهمالها في الدعوة لأنها هي الأساس في التزام الأحكام الشرعية الأخرىٰ.

وفيما سبق رد علىٰ من يستعجل في إقامة الدولة الإسلامية قبل استقرار العقيدة في القلوب وتخلصها من ركام الشرك بشتىٰ صوره، لأنه لا قيمة لنظام إسلامي يقوم - إن قام - والناس الذين سيحكمهم النظام الإسلامي لم يستعدوا بعد لقبوله ولم يتخلصوا من رواسب الجاهلية وأدران الشرك. إنه يجب أن تستقر العقيدة في قلوب الداعين إليها أولاً ثم يدعون الناس إليها علماً وعملاً لا مجرد عقيدة نظرية لا رصيد لها في القلوب ولا في الواقع. ولا شك أن هذا الأمر يحتاج إلىٰ وقت طويل وجهد مرير وصراع مع الباطل وأهله حتىٰ تتهيأ النفوس لنصر الله عز وجل في وقته الذي يختاره الله سبحانه. إن ميزة عقيدة الإسلام أنها عقيدة حية إيجابية ما إن تستقر في القلب حتىٰ تحوله إلىٰ شعلة وحركة وجهاد وتضحية، وهذا هو الذي يظهر للمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

---

(١) معالم في الطريق ص ٣٣ - ٣٦.

حيث علموا العقيدة، وعملوا بمقتضاها ،ودعوا إليها، وصبروا على الأذى في سبيلها، وضحوا من أجلها بكل نفس ونفيس.

تنبيه:

هناك من يفهم من الكلام السابق أن مسألة الحاكمية وتوحيد الطاعة والاتباع لم يكن له ذكر في بداية الدعوة حيث التركيز على العقيدة فقط، وهذا فهم خاطئ نشأ من الخلط بين الدعوة إلى أن يكون الحكم لله وحده وبين إقامة الحكم الإسلامي، والنظر إلى أنهما سواء. وهذا غلط؛ فتوحيد الحكم لله وحده مسألة عقدية خوطب بها الناس في أول الأمر وطولبوا بأن لا يشركوا في حكم الله أحداً كما طولبوا بأن لا يعبدوا مع الله أحداً؛ قال تعالى في سورة الكهف - وهي مكية -: ﴿ ...**وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال سبحانه في السورة نفسها: ﴿ ... **وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] فتوحيد الحكم وهو توحيد الطاعة والاتباع ركن ركين من التوحيد، ويجب أن يكون في أول ما يُدعى الناس إليه مع توحيد النسك والعبادة سواء بسواء؛ لأنه يعني رد الأمر إلى الله عز وجل في كل شيء وتوحيد مصدر التلقي في الله وحده.

أما موضوع الدعوة إلى إقامة النظام والحكم الإسلامي فهو شيء آخر، وهو الذي سبق الحديث عنه وأنه لا بد أن يسبقه فهم العقيدة وتعلمها واستسلام القلوب لها والولاء والبراء على أساسها. ولذلك يخطئ خطأً بالغاً من يقول إن رسول الله ﷺ والأنبياء من قبله لم تتوجه دعوتهم إلا لمحاربة الأصنام والأوثان. وأمرهم بعبادة الله وحده بالصلاة والذبح والنذر

والاستعانة ... إلىٰ آخر أنواع العبادة، وأنهم لم يتطرقوا للحكم والتحاكم! إن هذا غلط فاحش ولا أدل علىٰ ذلك من ورود ذكر الحكم والتحاكم ، وردّ الحكم إلىٰ الله تعالىٰ في كثير من السور المكية والتي نزلت في أول الدعوة إلىٰ العقيدة. ومن ذلك:

قوله تعالىٰ في سورة الأنعام – وهي مكية بالإجماع – : ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ...** ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالىٰ في السورة نفسها : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)** ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي أن استحلال الميتة التي حرمها الله عز وجل وطاعة غير الله في ذلك هو شرك أكبر لأنه رد لحكم الله وقبول حكم غيره .

يقول الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ: (فهي فتوىٰ سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله تعالىٰ)[١].

وقوله تعالىٰ في سورة القصص وهي مكية: ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)** ﴾ .

[القصص: ٧٠]

وقوله تعالىٰ في نفس السورة: ﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ**

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٠).

﴿ ... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص: ٨٨].وقوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام وهو يدعو صاحبي السجن إلىٰ التوحيد ﴿ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله تعالىٰ عن يعقوب عليه السلام قوله: ﴿ ... إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال تعالىٰ في سورة الشورىٰ - وهي مكية -: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وعندما نقول عن السورة أنها (مكية) فإنما نقصد أن هذه الآيات قد نزلت ولم يقم بعد للمسلمين نظام ولا حكم ولا دولة.

أبعد هذا يجوز لقائل أن يقول إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخاتمهم نبينا محمد ﷺ لم يضمنوا دعوتهم إلىٰ العقيدة، بادئ ذي بدء مسألة الحكم والتحاكم؟! إن رد الأمور إلىٰ حكم الله عز وجل وحده هو أخصّ خصائص العقيدة، بل إن انحراف الناس عن التوحيد ووقوعهم في الشرك بشتىٰ صوره لم ينشأ إلا لعدم رد الأمر إلىٰ حكم الله عز وجل وأمره ونهيه؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾. [المائدة: ١٠٤]

فبين عز وجل في هذه الآية أن منشأ كفرهم وشركهم أنهم ردوا أمرهم إلىٰ حكم آبائهم وعاداتهم ولم يردوه إلىٰ الله عز وجل ورسوله.

الخـلاصـة:

نخلص من كل ما سبق إلىٰ أن أمر العقيدة شأنه عظيم، وأنه أول ما دعىٰ إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن علىٰ من جاء بعدهم أن يهتدي بهديهم ويقتدي بمنهجهم، بالتركيز علىٰ موضوع العقيدة بكل شمولها، فيتعلمها الدعاة إلىٰ الله عز وجل، ويعملوا بمقتضاها، ويدعوا الناس إليها، ويربوهم عليها، ويصبروا علىٰ ما يصنعه الباطل وأهله من عراقيل تصد الناس عنها، وأن يضحوا من أجلها ويصبروا علىٰ ما يصيبهم في سبيلها فإن العاقبة للمتقين.

إن إدراك هذا المعلم المهم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهم جداً وبخاصة في مثل زماننا اليوم، الذي يشهد كثرة المناهج الدعوية وتباين أهدافها ووسائلها. إن غياب هذا المعلم أو الغفلة عنه عند البعض نشأ عنه عدة مشارب ومدارس دعوية مختلفة، نظر كل منها إلىٰ واقع الأمة فشخص مرضها وانطلق من تشخيصه هذا في العلاج؛ ومع أن كل هذه النظرات كان لها دور إيجابي في دعوتها ولا يجوز بحال أن نبخسها حقها أو أن نتجاهل ما تقدمه من خير ودعوة لهذا الدين، إلا أن واجب النصح بين المسلمين، وواجب التعاون علىٰ البر والتقوىٰ يقتضي توجيه النصح لكل هؤلاء بالانتباه إلىٰ أصل المرض قبل العَرَض؛ وذلك بالتأكيد علىٰ العقيدة بكل شمولها وضرورة البدء بها في الدعوة إلىٰ الله عز وجل، وضرورة تعلمها وفهمها الفهم الذي يريده الله سبحانه، والذي بعث به رسله عليهم الصلاة والسلام وبلغوه لأقوامهم. ولا نريد من تعلم

العقيدة وفهمها ذلك العلم النظري والفهم العقلي فحسب، كلا وإنما نريد ترجمة هذا الفهم وهذا العلم إلىٰ صورة حية تستقر في القلوب وتتحرك في الواقع. نعم لا نريد هذه الصور المؤسفة التي يسير عليها تعليم العقيدة في كثير من بلدان المسلمين إليوم من شحن الأذهان بمعلومات ومعارف كثيرة يتنافس الطلاب علىٰ إخراجها في الامتحانات، ثم تطوىٰ وتنسىٰ ولا يكون لها أثر في الضمائر والواقع. إن أخذ العقيدة بهذا الأسلوب لا يحتاج إلىٰ أكثر من عدة شهور حتىٰ تمتلئ الأذهان بها وينتهي الأمر. أما أخذ العقيدة لتعقد عليها القلوب وتتغير بها الأعمال والمواقف ويجاهد في سبيلها حتىٰ تتغير النفوس ويكون الدين كله لله؛ فإن مثل هذا المأخذ سيحتاج إلىٰ وقت طويل وصبر مرير. وهذا ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلىٰ هذه العقيدة وتربية الناس عليها حتىٰ أن أولهم نوح عليه الصلاة والسلام لبث يدعو قومه إليها ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها صبر ومعاناة وتضحيات. فهلا اعتبرنا بذلك في عدم العجلة وعدم استطالة الطريق؟ وهلا وطنًا أنفسنا علىٰ الصبر والتضحية؟!

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ: (هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة وأن تتم خطوات البناء علىٰ مهل، وفي عمق وتثبت.. ثم هكذا ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة – أولاً بأول – في صورة حية، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي....، يعبر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها، متمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك، لتتمثل العقيدة حية، وتنمو

نمواً حياً في خضم المعركة.

وخطأ أي خطأ - بالقياس إلىٰ الإسلام - أن تتبلور العقيدة في صورة «نظرية» مجردة للدراسة الذهنية.. المعرفية الثقافية) أ. هـ[1].

وقد يقول قائل: إننا ولله الحمد في زماننا اليوم نختلف عن حالة الناس قبل بعثة الرسل إليهم، فالتوحيد منتشر بين الناس اليوم، والدعوة قائمة والصلاة تؤدىٰ، .. إلخ فلماذا البدء في الدعوة اليوم من العقيدة، والعقيدة موجودة؟

والجواب علىٰ ذلك: صحيح أن الوضع يختلف من حيث بقاء أصل الخير وبقاء طائفة تدعو إلىٰ الحق حتىٰ ياتي أمر الله تعالىٰ، وأن الجاهلية المطلقة في الزمان قد انتهت بعد مبعث الرسول ﷺ. ولكن هذا لا يعني أن الشرك لم يخرج في هذه الأمة بل إن كثيراً من صورالشرك قد خرجت اليوم بشكل يعلمه القاصي والداني، وعادت غربة الإسلام التي أخبر بها النبي ﷺ في قوله: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**»[1].

والدليل علىٰ ذلك ما يلي:

● ألم تظهر في كثير من بلدان المسلمين صور صارخة من الشرك الصريح الذي يهدم التوحيد من أساسه، كالطواف حول القبور والاستغاثة

---

(١) معالم في الطريق: ص ٤٤ (باختصار).

(٢) رواه مسلم (١٤٥) في الإيمان باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً.

بالأولياء، وطلب شفاعتهم، ورفع الحوائج إليهم، والذبح والنذر لهم.. إلىٰ آخر أنواع العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله الواحد القهار؟!

● ألم يظهر في كثير من بلدان المسلمين ما يسمىٰ بالطرق الصوفية وما يعتقد في مشائخها من عصمة وكشف وعلم للغيب، ناهيك عن البدع الشنيعة التي عمت وطمت عندهم؟!

● ألم ينتشر بين كثير من المسلمين اليوم الذهاب إلىٰ الكهنة والسحرة وأهل الشعوذة واستجابة الناس لمطالبهم الشركية الشيطانية؟!

● ألم يُنح شرع الله عز وجل في أكثر بلدان المسلمين، حتىٰ أصبح شرع الطاغوت الظالم الجاهل هوالذي يحكم في دماء المسلمين وعقولهم وأموالهم وأعراضهم، وظهر الشرك في الحكم وتوجهت الطاعة في التحليل والتحريم إلىٰ غير الله تعالىٰ؟!

● ألم ينجم النفاق وتظهر الزندقة - العلمانية - في زماننا اليوم من أناس هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، يرفعون عقيرتهم بأنه لا دخل للإسلام في الحياة والسياسة والاقتصاد وغير ذلك؟!

● ألم تستمر الفرق الضالة القديمة تبث بدعها اليوم وتلبس علىٰ الناس دينهم وعقيدتهم من رافضة ومعتزلة ومرجئة وخوارج وأشعرية... إلخ.

● ألم تقم ولاءات أكثر الناس اليوم علىٰ غير العقيدة؛ إما علىٰ أساس الجنس أو الوطن أو القوم أو.... إلخ .

• بل ألم يُوال أعداء الله من اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أهل الشرك والإلحاد؟!

فهل بعد هذا مجال لقول من يقول: إن عقيدة الأمة لازالت بخير، وإن الحديث حول مسائل العقيدة أمر مبالغ فيه؟!

تنبيه ثان:

إن القول بضرورة التركيز علىٰ العقيدة والبدء بها مع الناس لا يعني إهمال جوانب الدين الأخرىٰ في الدعوة إلىٰ الله عز وجل. بل لابد أن يكون لها اهتمامها الخاص، ولابد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس أحكام دينهم من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك من أحكام العبادات والمعاملات، وتحذيرهم من الفساد في الأخلاق والسلوكيات. كل هذا ينبغي أن يسير جنباً إلىٰ جنب مع الدعوة إلىٰ العقيدة وإفهام الناس لها. والقلوب لا زال فيها خير إن شاء الله تعالىٰ، فلذلك ينبغي إيقاظ هذا الخير وإزالة الركام عنه. وهذا هو الفرق بين الدعوة إلىٰ العقيدة في أمة أطبق عليها الشرك كما هو الحال قبل بعثة كل نبي، وبين أحوالنا اليوم حيث لازالت آثار الإسلام باقية.

* * *

المَعْلَم الثاني:

الولاء والبراء علىٰ أساس العقيدة والتميز علىٰ ضوئها

وهذا المعلم لا ينفك عن سابقه؛ لأنه لا عقيدة ولا توحيد لله عز وجل بدون ولاء وبراء. بل إن كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد إلىٰ الإسلام إلا بها هي ولاء وبراء؛ فنصفها ولاء والنصف الآخر براء: فـ (لا إله) براءة من كل شيء يعبد من دون الله عز وجل و(إلا الله) ولاء وعبودية لله وحده؛ فيكون معناهما جميعاً: لا معبود بحق إلا الله تعالىٰ.

وإن المتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلىٰ التوحيد لَيلْمَسْ هذه الحقيقة واضحة جلية في دعوتهم وقلوبهم وواقعهم ومواقفهم؛ فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء يقول الله عز وجل عنه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)** ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]. وقد وصانا الله عز وجل بالاقتداء بإمام الحنفاء في ولائه وبرائه هذا فقال تعالىٰ: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...** ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال الله عز وجل لنبيه نوح عليه الصلاة والسلام عندما دعا ربه لابنه الهالك: ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)** ﴾ [هود: ٤٦]

وهذا من نوح عليه السلام ليس تجاهلاً منه لعقيدة الولاء والبراء ،فحاشاه ولكنها عاطفة الأب مع ابنه في أن لا يكون من المعذبين. ولكن الله عز وجل عاتبه علىٰ ذلك وعزّاه في ذلك بأن لا يحزن عليه فليس بينه وبين ابنه وشيجة ولا صلة مادام أن وشيجة العقيدة قد انبتت وانقطعت بينهما.

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه الآية فيقول: (إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب؛ وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة.. إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد؛ كما قال الله سبحانه وتعالىٰ لعبده نوح عليه السلام وهو يقول: ﴿ **رب إن ابني من أهلي** ﴾.. «﴿ **يانوح إنه ليس من أهلك** ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه.. ليس من أهله.. ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾.. إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يانوح: ﴿ **فلا تسألن ماليس لك به علم** ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهذا هو الْمَعْلَم الواضح البارز علىٰ مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلىٰ الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة.. إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب؛ وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم

والعشيرة، وآناً هي اللون واللغة، وآناً هي الجنس والعنصر، وآناً هي الحرفة والطبقة! تجعلها آناً هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشترك.. وكلها تصورات جاهلية - علىٰ تفرقها و تجمعها - تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي!

والمنهج الرباني القويم - ممثلاً في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ﷺ - وهي من هذا القرآن وعلىٰ نسقه واتجاهه - قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية علىٰ ذلك الأصل الكبير.. والْمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ضرب أمثاله لشتىٰ الوشائج والروابط الجاهلية الأخرىٰ ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ..)أهـ[١].

● وهذا هود عليه السلام يقول الله عز وجل عنه: ﴿... **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾**﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]، وقال تعالىٰ عن نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام مع زوجيهما: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾**﴾ [التحريم: ١٠].

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٨٨٦).

والآيات في ذكر مواقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم وبراءتهم منهم ومن شركهم كثيرة جداً كما أن الآيات التي نهىٰ الله عز وجل فيها المؤمنين عن موالاة الكفار كثيرة أيضاً. وليس المقصود هنا استقصاء جميع الأدلة والشواهد علىٰ عظم هذا الركن العظيم من أركان التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن المقصود هنا الإشارة إلىٰ أن هذا المعلم المهم من معالم العقيدة قد كان من صميم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا أساس تميزهم والمؤمنين معهم تجاه أقوامهم ومفاصلتهم لهم.

إن الولاء والبراء في هذه العقيدة ليس كلمة تقال باللسان؛ ولكنها حقيقة عظيمة يلزم عليها لوازم كثيرة، ويترتب عليها تبعات وتضحيات باهظة.

- فهي التي من أجلها أوذي الأنبياء وأتباعهم تارة بالسجن وتارة بالطرد وتارة بالقتل.

- وهي التي من أجلها هجر الأنبياء أوطانهم وأهليهم فراراً بدينهم وبغضاً وعداوة للكفر وأهله،؛قال تعالىٰ عن إبرهيم عليه الصلاة والسلام بعد إنجائه من النار: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ** (٩٩) ﴾ [الصافات: ٩٩]، وقال تعالىٰ عنه أيضاً: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** (٧١) ﴾ [الأنبياء: ٧١].

- وهي التي من أجلها حوصر الرسول ﷺ وصحابته الكرام في شعب أبي طالب حتىٰ بلغ منهم الجهد مبلغه.

وهي التي من أجلها هاجر الرسول ﷺ والمسلمون معه إلىٰ المدينة وتركوا أموالهم وأوطانهم التي أحبوها ونشأوا فيها - وهي التي من أجلها قام سوق الجهاد مع أعداء الله تعالىٰ.

- وهي معنىٰ قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله**»(١).

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: «وهذا من أعظم ما يبين معنىٰ (لا إله إلا لله)؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقراربذلك، بل ولا كونه لايدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع)(٢).

إن علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان أن لا يغفلوا في دعوتهم عن هذا الجانب العظيم من العقيدة، وأن يولوه الاهتمام الشديد في أنفسهم، وبرامجهم ومناهجهم وتربيتهم فهو الجدار الصلب والسور المنيع الذي يحمي الله به المجتمعات المسلمة من الذوبان في ثقافات الكفار وأفكارهم ونظمهم وعاداتهم.

ولقد فطن الأعداء إلىٰ خطر عقيدة الولاء والبراء عليهم؛ فما فتئوا منذ زمن طويل يسلطون معاولهم لتكسيرها، ذلك ليقينهم بعدم جدوى

---

(١) مسلم في الإيمان (٢٣).

(٢) فتح المجيد ص ٨٧.

خططهم ومكرهم ما دام هذا الحاجز المنيع من الشعور ببغض الكافر وعداوته موجوداً عند المسلمين، ولقد نجحوا إلىٰ حد بعيد في إضعاف هذه العقيدة، والتهوين من شأنها. وصرنا نرىٰ صوراً من تقليد الكافر في مظهره وأفكاره وعاداته وأعياده، وأصبحنا نسمع أصواتاً كفحيح الأفعىٰ تنادي تارة بالتسامح الديني، وتارة بزمالة الأديان، وتارة بالتعايش السلمي واحترام حقوق الإنسان، ومن آخر تقليعاتهم ما يسمىٰ بالنظام العالمي الجديد حيث (زعموا) أن العالم سيسوده السلام في ظل هذا النظام الطاغوتي الكافر وفي ظل ما يسمونه بالشرعية الدولية.

إنه والله حكم الطاغوت الدولي الأكبر الذي يجب علىٰ كل مسلم - بما تفرضه عليه عقيدته - أن يكفر به ويقول ما قاله إبراهيم عليه الصلاة السلام لقومه: ﴿ ... كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ... ﴾[الممتحنة: ٤].

إن علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يترسموا هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا المعلم العظيم من معالم التوحيد؛ بداية في أنفسهم وأولادهم، ثم في دعوة الناس وتربية النشء عليه، ومقاومة وفضح ما ينقضه في مجتمعات المسلمين اليوم. وما أحسن ما أوصىٰ به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ أبناء عصره - ونحن في عصرنا إلىٰ هذه الوصية أحوج - قال رحمه الله تعالىٰ:

(إن الواجب علىٰ الرجل أن يعلم عياله وأهل بيته الحب في الله والبغض في الله، والموالاة في الله والمعاداة فيه، مثل تعليم الوضوء والصلاة؛

لأنه لا صحة لإسلام المرء إلا بصحة الصلاة، ولا صحة لإسلامه أيضاً إلا بصحة الموالاة والمعاداة في الله)أهـ[١].

ويبقىٰ في هذا المعلم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن نشير إلىٰ بعض الصور الخطيرة من صور موالاة الكفار والتي ظهرت في زماننا الحاضر؛ وبعضها يخرم أصل الإيمان، وبعضها يخرم كماله الواجب والتي يجب التحذير منها والتخلص منها[٢].

ومن ذلك ما يلي:

١- محبة الكفار محبة قلبية لأجل دينهم ونحلتهم. فهذا والعياذ بالله يخرم أصل الإيمان، وهذا هو التولي الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿ ...**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ...﴾ [المائدة: ٥١].

٢- ومن صور التولي نصرة الكفار علىٰ المسلمين سواء بمال أو سلاح أو رأي أو حتىٰ تمني نصرهم بالقلب. وهذا أيضاً يخرم الإيمان من أصله.

٣- محبة أحكام الكفار ونظمهم المحادة لشرع الله عز وجل والرضىٰ بالتحاكم إليها أو الحكم بها بين المسلمين مع العلم بما فيها من تحليل ما حرمه الله عز وجل أو تحريم ما أحله. وهذا أيضاً من التولي الذي يخرم أصل الإيمان ويخرج بصاحبه عن دائرة الإسلام.

---

(١) الرسائل الشخصية للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ: ص ٣٢٣.

(٢) يراجع للمزيد من هذه الصور وتفصيلاتها كتاب الولاء والبراء للدكتور محمد سعيد القحطاني، وكتاب الموالاة والمعاداة للدكتور محماس الجلعود.

وأوضح مثالٍ لذلك تلك الدساتير والتشريعات الطاغوتية التي يُحكم بها في أكثر بلدان المسلمين اليوم، ومن خضع من الناس لهذه الأنظمة أو عمل بها وأحبها مختاراً عالماً فإن ذلك الصنيع منه موالاة صريحة لهذه الدساتير وهذه الأنظمة وبراءة صريحة من الإسلام.

إن عقيدة الولاء والبراء تفرض علىٰ كل مسلم المفاصلة الكاملة بينه وبين من ينهج غير منهج الإسلام. كما تفرض عليه التميز بعقيدة التوحيد بكل شمولها، وأن يعيش بعقيدته قوياً متميزاً معتزاً بدينه بعيداً عن المصانعة والمداهنة وأنصاف الحلول.

٤- التشبه بالكفار وعاداتهم السيئة سواء كان ذلك في الملبس أو المأكل أو في العادات والأعياد والمناسبات الخاصة بهم. كل ذلك من صور الموالاة للكفار، وما أكثرها اليوم في بلدان المسلمين، لكن إن كان التقليد والتشبه لا يصل إلىٰ حد التعظيم للكفار وعاداتهم السيئة فإن هذا محرم ويقدح في كمال الإيمان الواجب. أما إذا كان التشبه نابعاً من محبة وتعظيم وتفضيل للأشياء التي تشبه بها علىٰ ما يضادها من أخلاق الإسلام فهذا يؤول بصاحبه إلىٰ التولي الذي يقدح في أصل الإيمان إذا كان الفاعل لذلك عالماً.

٥- الانحياز إلىٰ صف الأنظمة التي تحكم بأنظمة الكفر التي تستحل ما حرم الله عز وجل مقابل الصف المؤمن الذي يقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظل هذه الأنظمة. إن من يضع نفسه في صف الأنظمة المحادة لشرع الله عز وجل مقابل الدعاة إلىٰ الله عز وجل الذين

قامت العداوة بينهم وبين هذه الأنظمة؛ إن من يفعل ذلك عالماً مختاراً قد أعطىٰ ولاءه لأعداء التوحيد الذين أشركوا بالله في حكمه، وفي المقابل أعطىٰ عداءه وبراءته لدعاة التوحيد؛ شعر بذلك أم لم يشعر. وفي هذا خلل عظيم في أصل عقيدة من هذا فعله وصنيعه.

إن أعداء الدعاة إلىٰ الله عز وجل يمارسون بما يملكون من وسائل الدعاية والإعلام تشويهاً مستمراً لأهل الخير، ويصفونهم للناس بصفات عديدة تنفر الناس منهم. وقد ينخدع بهذا الزخم الإعلامي المتواصل بعض الطيبين من الناس. خاصة إذا صدرت من المنتسبين إلىٰ الدعوة بعض الأخطاء والممارسات المغلوطة.

فالحذر الحذر من أن يعطي المسلم ولاءه ومحبته وعاطفته للأنظمة المحادة لله عز وجل ورسول الله ﷺ بحجة أن بعض أهل الخير وقع في خطأ أو اثنين أو أكثر. وسبحان الله العظيم، فماذا تساوي نسبة أخطاء الدعاة غير المقصودة بجانب الانحرافات العظيمة لهذه الأنظمة التي شرعت من الدين مالم يأذن به الله؟!

يقول العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: (وكل دولة لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب علىٰ أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله وتحرم عليهم مودتها وموالاتها حتىٰ تؤمن بالله وحده وتحكّم شريعته)أهـ[١].

---

(١) مجموع فتاوىٰ ومقالات الشيخ عبد العزيز بن باز (نقد القومية العربية) ١/٣٠٩.

ويقول د. محمد عبد الهادي المصري حفظه الله: (إن الولاء لله عز وجل هو من أهم ما يوزن به إيمان الإنسان بربه؛ ولا يكون المرء من حزب الله إلا إذا حرر ولاءه ومودته؛ فلم يعط أحدهما لعدو الله مهما كان نوعه؛ بل يعطي ولاءه لله ورسوله والمؤمنين بهذا الدين؛ وهذه هي الصفة الأولىٰ للمؤمنين؛ فلا ولاء في الإسلام إلا علىٰ أساس هذا الدين ومنطلقاته النظرية والعملية: وكل آصرة جاهلية يعطي الناس ولاءهم علىٰ أساسها هي آصرة باطلة فاسدة؛ بل المؤمنون وحدهم هم الذين تجب موالاتهم. فالمسلم يجب عليه وجوباً شرعياً أن يناصر المسلمين، ويهتم بأحوالهم، ويشاركهم في آمالهم وآلامهم مشاركة مادية ومعنوية... إن الأفراد والتجمعات والجماعات الإسلامية التي تعمل في الساحة الإسلامية اليوم داخل دائرة أهل السنة والجماعة؛ وتجاهد وتضحي بكل غال ونفيس من أجل إقامة دين الله في الأرض - إن هؤلاء جميعاً يمثلون حزب الله في الأرض - معسكر الحق والإيمان -. وإن الحكومات العلمانية التي تحكم في أكثر البلدان اليوم تمثل اليوم - مع أسيادها في الغرب: اليهودية والصليبية والعلمانية الدولية - حزب الشيطان ومعسكر الباطل.

وعلىٰ كل من ينتسب إلىٰ الإسلام اليوم أن يراجع قلبه ويتبين موقفه، ويتحسس موقعه: من يوالي اليوم؟ معسكر الإيمان أم معسكر الشيطان؟ أين قلبه ومودته مع أهل الحق أم أهل الباطل؟ من يظاهر ويعين ويناصر ويؤيد ويكثر سوادهم؟ حزب الله أم حزب الشيطان؟

إن أضعف الإيمان، والذي ليس وراءه حبة خردل من إيمان - أن يخلع المرء ولاءه عن هذه الأنظمة الفاجرة الظالمة، يكرهها بقلبه ويتمنىٰ زوالها

ووراثة حكم الله لها، لا يعينها علىٰ مسلم بقول أو بفعل - وإلا حشر معهم. وعليه في الوقت نفسه أن يحب أهل الحق ويوادهم بقلبه ويتمنىٰ أن ينصرهم الله علىٰ عدوهم، ويرفع بهم راية التوحيد والإيمان في الأرض. وعلىٰ الذين يقفون في صف هذه الأنظمة - وخاصة من أهل الأجهزة القمعية والإعلامية التي تعتمد عليها هذه الأنظمة في تثبيت دعائمها والبطش بخصومها من أهل الحق - علىٰ هؤلاء أن يسارعوا في مراجعة أنفسهم؛ لأن الموت أقرب إلىٰ أحدهم من شراك نعله؛ ويومها ستتوفاهم الملائكة - كما توفت أسلافهم - ظالمي أنفسهم، وسيُسألون: فيم كنتم؟ في معسكر الحق والإيمان؟ أم في معسكر الكفر والطغيان؟ ويومئذ لن تنفعهم معذرتهم بحجة الاستضعاف أو الخوف علىٰ النفس والمال والولد كما لم ينفع ذلك أسلافهم)[١].

ولعله الآن قد تبين لنا بعد كل ما سبق أهمية هذا المعلم العظيم من معالم التوحيد والذي دعا إليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول ما دعوا، وأنه لم يكن كلمة تقال باللسان بل كان عقيدة حية فاصلوا علىٰ أساسها قومهم وأهليهم المشركين وانبتت كل وشيجة بينهم إلا وشيجة هذه العقيدة، وقد كانت هذه المفاصلة في البداية شعورية قلبية تميز بها أهل التوحيد، وذلك بالبراءة من قومهم وما يعبدون من دون الله، واستمرت دعوة الأنبياء مع الصبر علىٰ هذا الأمر حتىٰ تميزت الصفوف إلىٰ حزبين لا

---

(١) (فيم كنتم) د. محمد عبد الهادي المصري ص (١٤٩ - ١٥٢) باختصار وتصرف يسير.

ثالث لهما، ولا قربىٰ ولا علاقة بينهما؛ حزب الرحمن وحزب الشيطان، وعندئذ يجيء الفتح من الله عز وجل فيأخذ الظالمين المستكبرين وينجي جنده الطائعين المستسلمين. وبهذا جرت سنة الله عز وجل؛ فلا فصل ولا فتح للمؤمنين قبل هذا التميز بين الحزبين. وهذا ما تشهد به دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولذلك يخطئ اليوم من يستعجل نصر الله عز وجل والصفوف المسلمة لا زالت غير متميزة، وعقيدة الولاء والبراء لا زالت غير واضحة أو متميعة في بعض النفوس المسلمة، كظهور كثير من الصور الصارخة لموالاة الأعداء ومحبتهم وتقريبهم. بل إن صفوف الدعاة إلىٰ الله عز وجل هي الأخرىٰ لا زالت بحاجة إلىٰ تطبيق هذا المعلم، والتحرك علىٰ ضوئه والتحرر من الحزبية المقيتة التي يعقد عليها البعض ولاءهم وبراءهم إلىٰ أن يكون الولاء والبراء علىٰ أساس الإسلام وعقيدة التوحيد. ولو تم هذا لاختفت هذه الصور المكروهة من التعصب والتحزب والشحناء والأهواء، ولتمت الوحدة المنشودة بين الدعاة والمصلحين.

إذن فكيف يطلب المستعجلون نصر الله عز وجل وقيام حكم الله عز وجل وهذه العقيدة العظيمة لم ترسخ بعد في قلوب بعض الدعاة فضلاً عن عامة الناس الذين لم يكن لهم حظ من دعوة ولاتربية، بل إن مبلغهم من العلم هو ما تبثه وسائل الإعلام والتعليم في أكثر بلدان المسلمين لزعزعة هذا المعلم وهدم هذا الجدار.

إذن فإن علىٰ دعاة الحق الذين منّ الله سبحانه عليهم بفهم عقيدة الولاء والبراء وتميزوا بها أن يبذلوا قصارىٰ جهدهم للتحرك بهذه العقيدة

والدعوة إليها والصبر علىٰ تبعاتها، وأن لا يُسْتطول الطريق ولا الوقت الذي يمضي في تقريرها. وقد يفنىٰ جيل كامل وهو يدعو إليها ويتحمل ما يتحمل من الآلام والمعاناة والتضحيات في نشرها وتقريرها في قلوب الناس، ولكن هذه المعاناة والتضحيات تهون في سبيل نشر التوحيد وتميز الناس علىٰ أساسه؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة.

ولا يطمع في نصر الله عز وجل وتمكينه قبل أن تأخذ هذه الدعوة حظها من الدعوة وقبول الناس لها ؛ وخاصة في صفوف الدعاة إلىٰ الله عز وجل والقناعة بالوحدة والائتلاف علىٰ ضوئها، هذا ما يُستوحىٰ من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسنة الله عز وجل في نصرهم ﴿ ... **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣)** ﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *

المعْلَم الثالث:

الإخلاص في الدعوة وابتغاء الأجر من الله وحده

إن الدعوة إلىٰ الله عز وجل وإلىٰ توحيده وعبادته إن لم يصاحبها الإخلاص لله سبحانه، وابتغاء وجهه عز وجل، وعدم الطمع في الأجر من الناس أو نيل أي عرض من الدنيا فإنها دعوة منزوعة البركة عديمة الأثر علىٰ الناس؛ فوق ما فيها من فوات الأجر والثواب من الله عز وجل. وهذا أمر يجب أن يتفطن إليه الدعاة إلىٰ الله سبحانه أفراداً وجماعات، والحذر من أن تتلوث النيّات بهذه الدنيا الفانية، سواءكانت هذه الدنيا مالاً أو جاهاً أو منصباً أو ثناء وشهرة أو غير ذلك. ويجب أن يكون لنا الأسوة الحسنة في أنبياء الله عز وجل وأصفيائه حيث أعلنوها في بداية دعوتهم: انهم لا يبتغون من الناس أجراً ولا مالاً علىٰ دعوتهم لهم، وإنما أجرهم علىٰ الله عز وجل. ولقد قالها كل نبي لقومه فصارت معلماً مهماً من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب الوقوف عنده ومحاسبة النفوس علىٰ ضوئه وهديه.

ولقد قص الله عز وجل في سورة الشعراء خبر بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وما قالوه لأقوامهم. ومن هؤلاء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام. وقد أخبر الله سبحانه عنهم جميعاً وبصيغة واحدة اتفقت في حروفها ومعانيها. فما قاله نوح قاله هود وصالح ولوط وشعيب عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. وأكتفي بما قاله سبحانه عن نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذي قاله بقية الأنبياء، قال الله

عـزوجل: ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾** ﴾ [الشعراء: ١٠٥ – ١٠٩]، والشاهد من هذه الآيات اتفاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على قول: ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ بعد اتفاقهم على التوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده.

وقال الله عز جل على لسان الرجل الصالح في وصفه للمرسلين: ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، وأخبر الله عز وجل عن نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾** ﴾ [يوسف: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾ [ص: ٨٦]. والآيات في هذا كثيرة جداً.

والشاهد منها: إخلاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لربهم، وترفعهم على الدنيا وزخرفها، وإرادتهم وجه الله عز وجل في كل حركة وسكنة من حياتهم. ولذلك اتسمت حياتهم بالزهد والتعفف عن ما في أيدي الناس، وكان كسبهم من عمل أيديهم؛ فموسى ومحمدعليهما الصلاة والسلام عملا بالأجرة في رعي الغنم، وزكريا كان نجاراً، وداود كان يعمل في الحديد وصناعة الدروع وأثنى عليه الرسول ﷺ بقوله: « ... **ولا يأكل إلا من عمل يده** »(١).

---

(١) البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٧).

وفي هذا عـزة النفس وحـريتـهـا، وقطع الطريق علىٰ من يريد المسـاومة والضغط عن طريق المال للتخلي عن الحق أو قول الباطل، فوق أنه يعين علىٰ الإخلاص لله عز وجل. وهذا أمر مهم يجب محاسبة النفوس عليه وأطرها عليه أطراً. فهو دليل علىٰ صدق الداعية وأنه صاحب عقيدة ومبدأ حق يعمل بما يدعو إليه ولا يسأل الناس أجراً علىٰ دعوته، ولا يربط رزقه بما في أيديهم وإنما يرجو رضىٰ ربه سبحانه ويخاف عذابه.

وإن الحذر من الدنيا وفتنتها يجب أن يكون علىٰ أشده في مثل زماننا اليوم الذي انفتحت فيه الدنيا علىٰ الناس وتعرّض بعض الدعاة لفتنة المال والمناصب وأصبح بعضهم يطلب العلم للوظيفة ويدعو إلىٰ الله من أجل الوظيفة!!

وإن الحديث عن هذا المعلم من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلىٰ إطالة الكلام حوله. ولكن أختم الكلام فيه بموقف نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من ملكة سبأ عندما أرسلت إليه المال كهدية تختبره بها ،فإن كان من ملوك الدنيا الذين لا هم لهم إلا المال قَبلها، وإن كان ملكاً مؤيداً من الله تعالىٰ ردها. قال تعالىٰ: **﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾** [النمل: ٣٦، ٣٧].

يعلق الشيخ العدوي أثابه الله علىٰ هذا الموقف الحازم من سليمان عليه السلام وترفّعه علىٰ الدنيا فيقول: (أي فلما جاء رسول بلقيس سليمان

يحمل الهدية غضب سليمان وقال منكراً لذلك العمل: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ وهل أنا من طلاب المال الذين يفتنون به؟ وذلك هو المنتظر من نبيّ كنبيّ الله سليمان، لا يقبل رشوة في سبيل سكوته عن مطالبتها بالإسلام، وتركها بدون أن يدعوها إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لأن الله أعطاه ملكاً ونبوّة أما هم فأعطوا ملكاً لم يكن معه نبوّة، أو المعنىٰ: فما آتاني الله من فيض رحمته وواسع فضله في العلم والحكمة: خير مما آتاكم من المال؛ لأن المال عرض زائل، أما ذلك الفضل الوافر، والرحمة الواسعة ورزق الله المعنوي فهو خير من رزقكم الحسي، وقد فتن الناس بالمال منذ خلقه الله، وظنت بلقيس أن سليمان ممن فتن كبقية الناس ولذلك أرسلت إليه بهدية لتنظر ماذا تترك في نفسه من الأثر، وإلىٰ أيّ حدّ تؤثر عليه وعلىٰ دعوته، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة، وإعراضه عن الفتح الذي أرسل الكتاب تمهيداً له، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية؛ يقابله بالرفض والتعفف، والإباء والعظمة، كلّ ذلك من أغراض ملكة سبأ.

فلم تجد من سليمان سوىٰ هذه الكلمة الغالية ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾.

ويحق لكل مصلح أن يقول هذه الكلمة كلما عرضت عليه رشوة ، أو تقدّم المبطل إليه بعرض من الأعراض الزائلة، فإذا عرض الناس عليه منصباً ليتلهىٰ به عن دعوته، ويسكت به عن مبادئه، ويطيع به داعي الهوىٰ فليقل كما قال سليمان: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ لأنه أعطي

خلقاً عظيماً، وعقيدة صالحة وأصبح مناراً يهتدي به السائرون، ويستضيء به الضالون، أعطي علماً قد جهله الناس، وخلقاً قوياً متيناً، نعم إذا طولب المصلح أن يسكت عن إصلاحه وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه في سبيل وظيفة أو مال، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخصه أو بأحد أولاده وأسرته - إذا طولب المصلح بشيء من ذلك فلا ينسىٰ ما قاله سليمان لأمراء بلقيس: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾.

وكثيراً ما يلجأ المستعمرون إلىٰ ذلك النوع من الرشوة، وهذا الأسلوب من تملك قلوب الناس، فيتفرسون القوم ويتعرفون العنصر المتحرّك الذي من شأنه أن يقض مضاجعهم، ويؤلب عليهم فيساومونه علىٰ الوظيفة ويبتاعون شرفه وكرامته بدراهم معدودة؛ فإن كان همه المال أجابهم إلىٰ ما طلبوا، ومن كانت دعوته خالصة آثر الفقر علىٰ الغنىٰ وأبىٰ أن يقبل ذلك، وقدوته الصالحة، وأسوته الحسنة: نبيّ الله سليمان، إذ يقول لملكة سبأ: ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾[1].

* * *

(١) دعوة الرسل ص (٣٠٩ - ٣١٠)

المعْلَم الرابع

التعرض للأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أعداء الدعوة وأنصار الباطل

يعد هذا المعْلم من الثوابت في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل إنه سنة من سنن الله سبحانه في عباده المؤمنين؛ فما من نبي ولا داعية مخلص إلا وتعرض للأذىٰ والاستهزاء ووقوف المفسدين في طريق دعوته يصدون عنها ويشوهونها ويؤذونه بصنوف الأذىٰ والابتلاء، وصدق الله العظيم: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)** ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ولما جاء الرسول ﷺ إلىٰ ورقة بن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها وأخبره بما رأىٰ في غار حراء من نزول الوحي قال له ورقة: (هذا الناموس الذي نزَّل الله علىٰ موسىٰ. يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرج قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم**»، قال نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً)[١].

إذن فالأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل من قبل أنصار الباطل هو من السنن الثابتة في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبالتالي في كل

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي الحديث رقم (٣).

دعوة خير وإصلاح علىٰ مدار التاريخ إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإن إدراك هذا المعلم وهذه السنة مهم جداً للمصلحين وأنصار الحق في دعوتهم إلىٰ الله عز وجل؛ وذلك حتىٰ يتم توطين النفوس علىٰ هذه السنة والاستعداد لها بالصبر واليقين والاستعانة بالله عز وجل، وأن لا يستغرب الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ هذه السنة ويفاجأوا بها؛ فيحصل ما يحصل عند البعض من اليأس أو الخوف أو وهن العزيمة وإيثار السلامة.

ونستعرض الآن بعض صور الأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل والتي تعرض لها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام؛ وذلك حتىٰ يعلم الدعاة في هذا الزمان وفي كل زمان أن لهم أسوة من الأنبياء في ما يتعرضون له من أذىٰ وصد عن سبيل الله عز وجل فيقتدون بصبرهم، ويهتدون بهديهم، ويتسلّون بما أصابهم. وسأحاول إن شاء الله تعالىٰ عقد التشابه بين صور الصد والأذىٰ في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين تلك الصور التي يتعرض لها دعاة الخير وأنصار الحق في كثير من بلدان المسلمين اليوم. ومن هذه الصور مايلي:

١- السخرية من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام ورميهم - من قِبل الباطل - تارة بالسحر، وتارة بالجنون والسفاهة وتارة بالكذب والضلالة.

والشواهد من القرآن علىٰ هذا كثيرة منها:

● قوله تعالىٰ عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠)** ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقوله أيضاً عنهم: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ**

رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقال عز وجل عن قوم هود عليه السلام: : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

[الأعراف: ٦٦]

وقوله تعالىٰ عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

ونفس هذه المقوله قالها قوم شعيب لنبيهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

وقال تعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس: ٧٦].

وقال تعالىٰ عن مشركي العرب مع رسول الله ﷺ: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

[الأنبياء: ٥]

وقال عز وجل مخبراً عن هذا الموقف الموحد من المشركين مع أنبيائهم عليهم السلام: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

[الذاريات: ٥٢، ٥٣]

وصدق الله العظيم، فإن هذا الأسلوب الرخيص من الأذىٰ والسخرية

يتكرر في كل زمان يتواجه فيه الحق والباطل؛ حيث نجد سخرية الطواغيت وأتباعهم من أهل الحق وأتباع الأنبياء فيرمونهم بسفاهة العقل، وسذاجة التفكير، وسطحية الرؤية.. إلخ هذه التهم التي يقذفونهم بها زوراً وبهتانا ويملأون بها وسائل إعلامهم المختلفة؛ ليشوهوهم عند الناس وينفروهم منهم. وذلك ما تطفح به الصحف الخبيثة بأقلام أعداء هذا الدين من علمانيين وغيرهم؛ فهذا أحدهم يستهزئ في مقال له بالحجاب، ويصف عقول الداعين له بالانحطاط الفكري، ويصف من يدعو إلىٰ ترك نحت التماثيل والصور المجسمة خوفاً من عبادتها والرجوع إلىٰ الوثنية، بأنه ذو عقل خرافي. ويصف كاتب آخر علماءَ الإسلام بضيق الأفق والهمجية.. إلىٰ غير ذلك من الترهات والمسائل الجاهلية التي واجه بها المشركون الأولون أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام. فما علىٰ دعاة الحق الا أن يصبروا ويهتدوا بهدي سلفهم الكريم من الأنبياء والمرسلين الذين واجهوا مثل هذا الأذىٰ بل أشد.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

٢- اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم بأنهم طلاب دنيا وملك وليسوا مخلصين فيما ينادون به.

ومن ذلك:

قوله تعالىٰ عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا: ﴿ ... مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ

مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقوله تعالىٰ عن فرعون وقومه مع موسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾ [يونس: ٧٨].

وقوله تعالىٰ أيضاً عن مقولة فرعون لموسىٰ عندما رأىٰ معجزة العصىٰ: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) ﴾.

[طه: ٥٧]

هذا ما يقوله الأفَّاكون عن صفوة الناس ، وأزهد الناس، وأخلص الناس لرب العالمين!!!، لكنه الأذىٰ، ولبس الحق بالباطل، وإثارة الدهماء علىٰ أنصار الحق بمثل هذه الافتراءات التي يعلم أصحابها أن الأنبياء وأتباعهم أبعد ما يكونون عنها. وهذا الأسلوب الاستهلاكي الرخيص هو نفسه الذي يُتّبع من أعداء الحق في كل زمان ومكان؛ فكم سمعنا وقرأنا عن مثل هذه التهم الباطلة التي يروجها زنادقة العصر بوسائلهم الإعلامية المختلفة من أن الدعاة إلىٰ الله عز وجل والمنادين بتحكيم شرعه يستترون بالدين لمآرب يخفونها، أو أنهم طلاب حكم وسلطة فحسب!!! وكم تردد في وسائل الإعلام الظالمة في أكثر بلدان المسلمين مثل هذه الافتراءات، وهذه تهويشات يراد منها التشويه وإثارة دهماء الناس علىٰ أهل الخير ودعاة الحق. وهي بعينها تلك التي قالها الجاهليون الأولون لأنبيائهم من قبل.

يعلق الشيخ العدوي علىٰ قول الملأ من قوم فرعون: ﴿ ... وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ ... ﴾ [يونس: ٧٨]. فيقول: (وهذه الكلمة

من ملأ فرعون هي إذكاء لشعور الرفعة وأبهة السلطان، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسىٰ وصاحبه؛ لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه، ويقضي علىٰ نفوذه وعظمته، وهي دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الرؤساء، وتعوّدناها من حواشي السوء إذا كرهوا رجلاً دسوا عليه تلك الدّسيسة، واتهموه بتلك التهمة؛ لأنهم يعلمون أن الرؤساء لا تتأثر بشيء تأثرها بما يمس سلطانها، ويتعلق بسلطانها، فإذا لقنوهم تلك الكلمة فإنهم لا يناقشونهم فيها، ولا يطلبون عليها دليلاً ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الدسّاس، وهي طبيعة من طبائع التسلط وخُلق من أخلاقه لا تخصّ رجلاً دون آخر ولا تتعلق بجيل دون جيل.

وقد يعلم ملأ فرعون أن موسىٰ عليه السلام وأخاه هارون لا يريدان ملكاً وإنما يريدان إصلاحاً في الأرض وإنقاذاً لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه، ولكن بطانات السوء تأبىٰ إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لبّ فرعون ومن علىٰ شاكلته من الظلمة المستبدين، لذلك لجأوا إلىٰ تلك الدسيسة: دسيسة أنهما يريدان ملكاً ولا يريدان رسالة)أهـ[١].

٣- اتهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالفساد والإفساد وإثارة الفتن:

ويتضح هذا جلياً من قوله تعالىٰ عن المقولة الجائرة لفرعون اللعين:

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٢١ (بتصرف).

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال تعالىٰ عن الملأ من قوم فرعون: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ... ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

يعلق صلاح الخالدي حفظه الله علىٰ آية غافر فيقول:

(ما هي الأسباب التي سيقدمها فرعون إلىٰ قومه؟ ويبرر بها قَتل موسىٰ؟ إنها في قوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾.

هما سببان: **الأول**: الحفاظ علىٰ الدين ، فموسىٰ عدو للدين، وفرعون حريص عليه. **الثاني**: الحفاظ علىٰ الأمن فموسىٰ ضد الأمن وفرعون هو حامي الأمن!!!

فرعون الكافر، الذي قال لقومه: ﴿ **أنا ربكم الأعلىٰ** ﴾ وقال لهم ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ أصبح غيوراً علىٰ الدين، حارساً له من التغيير والتبديل الذي يتهدده علىٰ يد موسىٰ!!! وفرعون المفسد بطغيانه وكفره المخرب بتجبره وتكبره أصبح داعية إصلاح وخير وأمن ورفاه !!!

وهذا التعليل الفرعوني هو الذي يلجأ إليه الظالمون في محاربة الحق وأهله؛ يقدم الظالم نفسه للناس علىٰ أنه: المؤمن المتدين، الحريص علىٰ الإيمان، الحريص علىٰ الفضائل، الغيور علىٰ الأخلاق، الراغب في التعمير والتقدم والأمن والازدهار. بينما يقدم هذا الطاغيةُ الدعاةَ إلىٰ الله علىٰ

أنهم: مفسدون مخربون، ضالون مضلون، أعداء الله والأمة والوطن، وحلفاء الشيطان ورؤوس الفتنة، ودعاة الضلال، ولهذا يجب القضاء عليهم قبل تحقيق أهدافهم الشيطانية)أ.هـ[١].

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ عند هذه الآية:

(أليست هي بعينها كلمة كل ظالم مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد يتكرر كلما التقىٰ الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان علىٰ توالي الأزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكرورة، تُعرض بين الحين والحين)[٢].

أما آية الأعراف فيعلق الشيخ العدوي أثابه الله عليها بقوله:

قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ...** ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

لما لم ينجح الملأ من قوم فرعون في دسيستهم الأولىٰ؛ وهي أن موسىٰ ساحر عالم بالسحر يريد بسحره أن يخرج فرعون وملأه من أرضه، وتبين أن ما أتىٰ به ليس سحراً وإنما هو مبطل للسحر، ثم كان من وراء

---

(١) مع قصص السابقين صلاح الخالدي ص ١٠٤، ١٠٥ (بتصرف يسير).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨٧) (بتصرف يسير).

ذلك إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسىٰ، ثم تبع السحرة في الإيمان حزب. لما كان ذلك كله لجأوا إلىٰ أسلوب جديد يؤلّبون به فرعون علىٰ موسىٰ وشيعته فقالوا لفرعون: أتترك موسىٰ وقومه؟ وهم الذين تبعوا السحرة في الإيمان ليفسدوا في الأرض وليتركك وآلهتك كالشيء المهمل فيظهر للمصريين عجزك؟! يستفزون بذلك الأسلوب فرعون المستبدّ ليحول بين بني إسرائيل وبين موسىٰ: إما بحبسه وإما بقتله.

وانظر إلىٰ قوله: ﴿ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ وكيف يعدّون دعوة موسىٰ إلىٰ التوحيد، وإنقاذ الناس من ظلم فرعون وبطشه إفساداً في الأرض، وبالتالي يعدّون ما هم عليه من باطل صلاحاً! ولا ندري أقالوا ذلك ممالأة لفرعون وإرضاء لشهوته، وقضاء للباناتهم هم؛ لأن أعوان المستبدّ وبطانات الظالم التي تنتفع من ظلمه واستبداده، وتعيش علىٰ حساب بطشه وسلطانه، يظهرون جمهرة الشعب أمام ذلك الظالم بمظهر غير مظهره الحقيقي؛ فيسمون الإصلاح فساداً، والدَّعوة إلىٰ الحقّ تهريجاً - أو أن ذلك الملأ بلغ من حمقه وغباوته أن كان الإصلاح الذي يدعو إليه نبيّ الله موسىٰ في نظره إفساداً في الأرض!!!

والذي تميل إليه النفس أن ذلك القول وأمثاله شأن بطانة السوء التي تلتفّ دائماً حول الظالمين وتعيش في أحضان المستبدّين؛ لاقتناعها أنها لا تستطيع أن تعيش إلا في أولئك الأوساط المظلمة، ولا تستطيع أن تصيد إلا في الماء العكر، فليس لها من المؤهلات ما تستطيع أن تعيش به علىٰ

حساب نفسها ، ولا من الأخلاق ما يسمح لها بقول الحقّ والاعتراف بالأمر الواقع. وقد ساعدهم علىٰ ذلك أنهم رأوا من أسيادهم استعداداً لذلك القول ، ولولا علمهم أن ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم ما قالوه، فهم إنما يصارحون الناس بما يجيش في صدره، وما يتناسب مع أطماعه وشهواته، فهو شريكهم في الجرم، ورئيسهم في الإثم، عليه وزره ووزرهم.

لذلك صوّر الملأ من قوم فرعون موسىٰ وحزبه بتلك الصورة البشعة؛ صورة المفسد في الأرض. ويعلم الله أن إفساد موسىٰ في الأرض هو إنقاذ بني إسرائيل من استبدادهم، والحيلولة بين الشعب وبين بطشهم، فإذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم وإحباط تدبيرهم، وتفلت الجمهور من أيديهم ،وذلك ما يخشاه فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون علىٰ حساب غيرهم، وينعمون بشقاء أمتهم، ويثرون بإفقار إخوانهم، ويرقون مناصب الدّولة ووظائفها الكبرىٰ علىٰ حساب إذلال بني جلدتهم. ألا قاتل الله قوما ذلك حالهم، وبعداً لطائفة تلك أخلاقهم) أهـ[١].

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة، ألا ما أشبه مقولة الصادين عن سبيل الله عز وجل في هذا العصر بمقولة إخوانهم الجاهليين الغابرين. إنها نفس التهم والأباطيل لكنها تلبس في عصرنا لبوساً يفتن السذج من الناس . كيف لا وقد جُنّدت لها وسائل الإعلام ومكر الليل والنهار الذي لا يفتأ يصف دعاة التوحيد والخير والصلاح بأنهم أصحاب فتنة، ودعاة

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٢١ - ٢٢٢.

إرهاب وتطرف وفرقة.

إن مما يعزي الدعاة إلىٰ الله عز وجل ويصبرهم علىٰ هذه التهم أنها قيلت لسلفهم الطاهر من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فصبروا علىٰ ما كذبوا وأوذوا حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل.

٤- إثارة الفرقة بين أبناء الأمة وجعلها أحزاباً وشيعاً:

وهذا واضح من قوله تعالىٰ عن فرعون مصر: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤].

وكذلك ما حاوله اليهود زمن الرسول ﷺ من إثارة النعرات بين الأوس والخزرج بعد إسلامهم ولكنهم باءوا بالفشل، وعصم الله سبحانه الأنصار بوجود الرسول ﷺ.

وسار علىٰ هذه السياسة اليهودية العالمية أرباب الأنظمة العلمانية والتي تسمي نفسها «ديمقراطية»؛ حيث فرقت الأمة إلىٰ أحزاب وتكتلات يحارب بعضها بعضاً؛ وذلك من باب: (فرّق تسد). ولم تقف هذه السياسة عند هذه الأحزاب الأرضية، بل حاولوا إثارتها بين الدعاة إلىٰ الله عز وجل وتفريق صفوفهم ومحاولة اختراقهم لهذا الغرض؛ ولذلك فإنه لا يستبعد أن يكون أعداء الدعوة من وراء الفرقة الحاصلة اليوم بين الدعاة والمصلحين. فعلىٰ أهل الخير التفطن لذلك وعدم السماح لهذه السياسة الفرعونية اليهودية أن يكون لها وجود بين

الداعين إلىٰ الله عـز وجل.

٥- اعتماد أساليب الضغط الخسيسة علىٰ الدعاة في أهليهم الأبرياء:

وهذا واضح في آية القصص السابقة حيث ذكر الله عز وجل عن فرعون اللعين أنه كان يقتل أبناء المسلمين ويستحيي نساءهم. وفي هذا من الضغط النفسي علىٰ الآباء الشيء العظيم؛ لأن الداعية قد يتحمل الأذىٰ في نفسه، ولكن القليل هم الذين يتحملونه في أبنائهم وبناتهم، وهذا من أخس أساليب الجاهلية في أذىٰ الدعاة والصد عن سبيل الله. ومع خستها ومخالفتها لكل دين وعرف ومروءة وإنسانية إلا أنا نجدها اليوم تجري علىٰ أيدي الطواغيت وأتباعهم الممسوخين. فكم سمعنا عن ممارسات هابطة يُضغط بها علىٰ الداعية في أولاده أو زوجته أو بناته أو غيرهم من الأبرياء.

يقول صلاح الخالدي حفظه الله: (وهم يفعلون هذا ليضغطوا علىٰ المؤمنين ضغطاً مؤلماً، ومن النقطة التي تؤلمهم أكثر من غيرها، والتي يظنونها نقطة ضعف عندهم، وقد تقودهم إلىٰ التخلي عن الدعوة والداعية. إنها نقطة الأسرة والعائلة والأولاد والبنات. وهي نقطة ضعف حقاً، والضغط عليها مؤلم جداً، وقد يفضي بأناس إلى التخلي عن الحق فعلاً. لكن اتجاههم لمحاربة أناس أبرياء - هم الأولاد والنساء - يمثل ظلماً وعدواناً منهم؛ لأنهم يأخذون الأبرياء بشيء لم يفعلوه. كما يمثل حقداً وكيداً وقسوة؛ لأنهم يحاربون أطفالاً صغاراً ضعافاً لا طاقة لهم بالحرب،

ولم يستعدوا لها.

ألم نقل إنها وسيلة خالية من كل معاني الرحمة والإنسانية، وإنها لا تتفق مع عرف أو حق أو مبدأ أو قانون؟ ولكن متىٰ كان أصحاب الباطل يلتزمون بالقوانين والمبادئ في محاربة الحق وأهله؟

بقي أن نقول: إن وسيلة: ﴿ ... **اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ** ... ﴾ [غافر: ٢٥] ليست خاصة بفرعون وقومه، ولكنها وسيلة دائمة مطَّردة، يستخدمها أصحاب الباطل دائماً في مواجهة أصحاب الحق. وكم وعىٰ التاريخ، وسجل في ذاكرته - في القديم والحديث - من نماذج شديدة أليمة لهذه الوسيلة الشيطانية الحاقدة!)أهـ[١].

وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ في المسألة الرابعة والتسعين من مسائل الجاهلية قوله: (إن من دينهم أخذ الرجل بجريرة غيْره، فأنزل الله: ﴿ ... **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ... ﴾ [الإسراء: ١٥])[٢]، وقال في المسألة التاسعة عشر: (وهي قدحهم في بعض الصالحين بفعل بعض المنتسبين إليهم)أهـ[٣].

ومن مظاهر وجودها اليوم ما يقوم به الحكام العلمانيون من مطاردة المتمسكين بدينهم في تلك البلاد التي يحكمونها، فما تكاد تقع حادثة

---

(١) مع قصص السابقين صلاح الخالدي ص ١٠٢.

(٢) مسائل الجاهلية ص ٢٤٣ (ضمن مجموعة التوحيد).

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٩.

إلا ويلصقونها بالإسلاميين، ثم يستتبع ذلك مطاردة من لم يكن له علاقة بالحادث أصلاً. وكذلك ترىٰ المناوئين للدعاة اليوم يبرزون بعض الأخطاء التي تقع من بعض المنتسبين إلىٰ الدعوة ثم يعرضون هذه الأمور علىٰ وجه التعميم، فيزعمون أن كل من تمسك بدينه فهو علىٰ هذا المنوال؛ ولذلك نجد بعض الكلمات التي تطلق علىٰ سبيل التعميم نحو: إرهابي متطرف.. إلىٰ آخر هذه التهم الباطلة. وأسوق بهذه المناسبة قصة تنسب إلىٰ الحجاج ليدرك البصير الفرق الكبير بين الحجاج علىٰ ظلمه وبين طواغيت العصر؛ فقد جاء عن الهيثم بن عدي قال: (جاء رجل إلىٰ الحجاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب علىٰ اسمي في الديوان، ومُنعت العطاء، وقد هدمت داري. فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

فلرُب مأخوذٍ بذنبِ قريبهِ ونجا المقارفُ صاحبُ الذنبِ

فقال الرجل: أيها الأمير إني سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق من هذا؛ فقال: وما قال؟ قال: إنه يقول: ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)** ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩] قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان، وابنوا داره وأعطه عطاءه، ومر منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر)[١].

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٣٠.

٦- التضييق علىٰ الأنبياء وأتباعهم في الرزق وانتهاج سياسة التجويع والحصار الاقتصادي:

ويتضح هذا مما قام به المشركون في مكة من مقاطعة الرسول ﷺ ومن آمن معه مقاطعة اقتصادية في البيع والشراء وغيرذلك، ومحاربتهم في شعب أبي طالب حتىٰ مسهم الضر وبلغ منهم الجوع مبلغاً شديداً. وكذلك ما نادىٰ به المنافقون في المدينة من محاولة لتضييق سبل الرزق لمن حول الرسول ﷺ حتىٰ يتفرقوا عنه وينشغلوا في طلب المعاش. قال تعالىٰ عنهم: ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** (٧) ﴾.
[المنافقون: ٧]

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالىٰ علىٰ هذه المقولة من المنافقين فيقول: (وهي قولة يتجلىٰ فيها خبث الطبع ولؤم النحيزة[١]؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين...، وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله عز وجل من قديم الزمان إلى هذا الزمان ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية ﴿ **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ** ﴾[٢].

---

(١) النحيزة: نحيزة الرجل: طبيعته.

(٢) الظلال: ٦/ ٣٥٧٩ بتصرف واختصار.

٧- القتل والسجن والإخراج من الأرض:

وهذا هو آخر ما في جعبة الباطل وأقصىٰ ما يملكونه من إيذاء أنبياء الله عز وجل وأوليائه وذلك حين تعوزهم الحجة وتبطل كل وسائلهم السابقة في إسكاتهم أو إضعاف عزائمهم؛ عندئذ يلجأون إلىٰ التصفية الجسدية، أو تغييبهم في السجون، أو إخراجهم من ديارهم وأبنائهم. وهذا كله عاناه أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام: ﴿ ... **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)** ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. والشواهد علىٰ هذا كثيرة في كتاب الله عز وجل منها ما يلي:

- إخباره تعالىٰ عن تهديد قوم نوح لنوح عليه السلام بقوله: ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)** ﴾ [الشعراء: ١١٦].

- وقوله تعالىٰ: عن قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨)** ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

- إخباره تعالىٰ عن تهديد قوم شعيب لنبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ... ﴾ [الأعراف: ٨٨].

- وقول قوم لوط لنبيهم عليه الصلاة والسلام وأهله في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)** ﴾ [النمل: ٥٦].

- ولما قص الله عز وجل علينا خبر قوم نوح وهود وصالح مع رسلهم في

سورة إبراهيم قال بعد ذلك: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...** ﴾ [إبراهيم: ١٣].

- وقوله تعالىٰ عن تهديد فرعون لموسىٰ عليه الصلاة والسلام بالقتل: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ...** ﴾ [غافر: ٢٦].

- وقوله تعالىٰ عن التسعة الذين تآمرو علىٰ قتل صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)** ﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]..

- وما تعرض له الرسول ﷺ من التهديد بالسجن أو الإخراج أو القتل والذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)** ﴾.

[الأنفال: ٣٠]

هذه صور من إيذاء الجاهلية لأنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام وهذا هو هديهم عليهم الصلاة والسلام في مقابلة ذلك بالصبر والعزائم القوية، وقبل ذلك وبعده بالاستعانة بالله وحده. فلقد قال موسي عليه الصلاة والسلام بعد تهديد فرعون له بالقتل: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)** ﴾.

[غافر: ٢٧]

وقال نوح عليه الصلاة والسلام عندما هُدد بالرجم: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ**

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام عندما هدد بالإخراج من بلده: ﴿ ... عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال لوط عليه الصلاة والسلام بعد أن هدد بالإخراج: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

[الشعراء: ١٦٨، ١٦٩]

وهذه المواقف الإيمانية العظيمة من أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم السلام يجب أن تحتذىٰ، ويستنار بهديها من كل داعية يواجه بمثل هذا الأذىٰ والصد عن سبيل الله عز وجل. إنه ليس له إلا الله سبحانه ولا ينجي من الشدائد إلا هو. إنه ينبغي أن يردد كل داعية ما قاله موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر: ٢٧].

يقول العدوي أثابه الله:

(وقد يلجأ المبطل إلىٰ القوّة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ويعذب بعضاً آخر، بعد أن تعوزه الحجة، وينقصه البرهان والدليل؛ فيكون التجاؤه إلىٰ التعذيب والتقتيل عنوان خذلانه وعلامة علىٰ نصر أعدائه، وربّ معذّب أو قتيل كتب الله له النصر، ولدعوته الظفر والتأييد، وربّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذلّ وسجل عليه الخذلان؛ فكان الأوّل حياً في موته منتصراً في قبره، وكان الثاني ميتاً في حياته، مكبوتاً في جبروته وكبريائه، فهو نصر معنوي، يظفر فيه الحق بالباطل، وتظهر فيه الحجّة علىٰ التقليد،

والبرهان على الشبهة، وقوّة الروح على قوّة المادّة، وقد يكون مع النصر المعنوي نصر مادّي، كإنجاء الله موسى ومن معه من الغرق وإغراق فرعون وجنود فرعون ، وكإنجاء الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا، وصنعوا له ما صنعوا، وإنجاء نبينا محمد ﷺ من تدبير قريش قتله ، كلّ ذلك نصر مادّي معه نصر معنوي)أهـ[١].

وبعد ذكر النماذج السابقة من صور الأذى والصد، التي تعرض لها صفوة البشر وأحبهم إلى الله تعالى هل لقائل أن يقول: إنه يجب الابتعاد في الدعوة إلى الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر على الداعية الأذى والمحن؟ إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسى سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص؛ قال تعالى: ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣** ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ۝١١** ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١]. نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد العناء والمشقة؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذى يعترض في الطريق ولو كان قليلاً؛ فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشط ومتحرك فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص

---

(١) دعوة الرسل. محمد العدوي ص ٢٤١.

آثر السلامة والراحة وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد.

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذىٰ والابتلاء؛ كلا. فالمطلوب سؤال الله العافية وعدم تمني البلاء. كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلىٰ التهور والطيش. معاذ الله فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات، لكن المراد أن لانغفل عن سنة الله سبحانه وتعالىٰ في ابتلاء المؤمنين وأن توطن النفس علىٰ هذه الأمور؛ لأنه لا بد منها لكل من ادعىٰ الإيمان، وتصدر الدعوة والجهاد، ولا بد منها لتمييز الخبيث من الطيب، ولابد منها لتمحيص القلوب، والصفوف. ومن خلال الدراسة السابقة لحياة الأنبياء عليهم السلام، وتقليبنا لتاريخ المجددين والمصلحين نرىٰ ذلك المعلم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً، حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذىٰ والمحن والابتلاء، بل لم يحصل التمكين لهم وإقامة دين الله سبحانه في الأرض علىٰ أيديهم إلا بعد الصبر والمصابرة علىٰ صنوف الأذىٰ والمحن في سبيل الله سبحانه؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** (٣٤) ﴾ [الأنعام: ٣٤] وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه: «**لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه** ... الحديث»[1].

* * *

(١) البخاري في كتاب الإكراه (٦٩٤٣)، انظر رسالة: (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ص ٨٣ - ٨٦.

المعْلَم الخامس:

التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد وقواعد الترجيح عند التعارض

إن المتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بدايتها إلىٰ نهايتها يرىٰ أنها كانت تمر في مراحل متدرجة، كل مرحلة تؤدي إلىٰ الأخرىٰ حتىٰ أتاهم نصر الله عز وجل. كما يرىٰ المتأمل فيها أيضاً أن تلك المراحل وما فيها من مواقف وتصرفات وأحكام كانت مبنية علىٰ فهمهم لواقعهم الذي يدعون فيه، وأن مراعاة المصالح والمفاسد كان له وزن كبير في تحديد معالم كل فترة؛ فجاءت دعوتهم محكمة مثمرة منصورة.

وكيف لايكون ذلك وهي تسير بوحي الله عز وجل وأمره ونهيه، وما دام الأمر كذلك في صحتها وعصمتها، فتحتم علىٰ من يروم نصر الله عز وجل وتمكينه لعباده المؤمنين أن يهتدي بهذا الهدي المعصوم، وأن يطيل النظر فيه علىٰ ضوء مستجدات العصر وفهم الواقع المحيط. وإنه ليس بالأمر الهين الكلام عن هذا المعلم المهم لكن أسأل الله عز وجل أن يعينني علىٰ تجلية هذا المعلم من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأن يهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنه إنه يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

عقد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ فصلاً في زاد المعاد عنون له بقوله ‹فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين، من حين بعث إلىٰ أن لقي الله عز وجل› رأيت من المناسب أن أبدأ به في هذا المقام لأنه تضمن تلخيصاً سريعاً لهديه ﷺ في الدعوة والتدرج فيه من مرحلة إلىٰ

أخرىٰ ، وهو الهدي الذي سار عليه الأنبياء من قبل؛ غير أن مرحلة الجهاد والمصادمة المسلحة لم تكن في الأنبياء الذين كانوا قبل موسىٰ عليه الصلاة والسلام. إذن فهديه ﷺ في الدعوة والجهاد تضمن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وزاد عليه، فكان الكمال فيها والشمول.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (أوَّل ما أوحىٰ إليه ربُّه تبارك وتعالىٰ: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق؛ وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ②** ﴾ [المدثر: ١، ٢]، فنبأه بقوله: ﴿ **اقْرَأْ** ... ﴾ [العلق: ١] وأرسله بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾ ثم أمره أن يُنذرَ عشيرتَه الأقربِينَ، ثم أنذر قومَه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يُقاتِلَ من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتىٰ يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة؛ فأُمِر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا علىٰ العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يُقاتلهم حتىٰ يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمر ه فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة

عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم، وهُم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم. وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلىٰ مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يُحاربوه أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ **فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ...** ﴾ [التوبة: ٢]، وهي الحُرُمُ المذكورة في قوله: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ...** ﴾ [التوبة: ٥]. فالحرم ها هنا: هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرُها العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ...** ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجبٌ، وذُو القَعدة، وذو الحِجة، والمحَرَّمُ. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يُمكن لأنها غيرُ متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم فقتل الناقض لعهده، وأجَّل مَنْ لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتمَّ للموفي بعهده عهدَه إلىٰ مدته، فأسلم هؤلاء كُلُّهم ولم يُقيموا علىٰ كفرهم إلىٰ مدتهم، وضَرَبَ علىٰ أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة علىٰ ثلاثة أقسام: محاربينَ له وأهل عهد، وأهل ذمة ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلىٰ الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلىٰ الله، وأن يُجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويُغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلىٰ نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقومَ علىٰ قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين)أهـ[1] .

هذا هو خط سير دعوته ﷺ وجهاده منذ أن بعثه الله سبحانه إلىٰ أن مكن له في الأرض ونصره.

ويهمنا من هذه الفترات فترة ما قبل الهجرة والإذن بالقتال وذلك لاعتبارين:

الأول: لأنها محل اتفاق بين الأنبياء جميعاً؛ حيث إن هديهم عليهم الصلاة والسلام قد اتفق في هذه الفترة مع هدي الرسول ﷺ في مكة قبل الهجرة حيث الاستضعاف والصبر وكف، اليد أما بعد الهجرة فكان الجهاد الذي نصر الله به نبيه ﷺ، وبما أيده به من المعجزات. أما الأنبياء الذين لم

---

(١) زاد المعاد: (٣/١٥٩ - ١٦١) ت. الأرناؤوط.

يشرع في حقهم الجهاد وقتال الأعداء فكان نصر الله عز وجل ينزل عليهم بعد أن يكونوا قد تجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء بنجاح، وذلك النصر يجيء بمعجزة منه سبحانه وآية من آياته؛ فينصر الله سبحانه به أنبياءه ويهلك به أعداءه، كما نصر نوح بالطوفان، وهود بالريح، وصالح بالصاعقة، وشعيب بعذاب يوم الظلة... الخ.

الثاني: أن هذه الفترة هي أقرب ما يكون إلىٰ أحوال المسلمين اليوم من جهة الغربة التي يعيشونها في دينهم وعقيدتهم حيث ظهر كثير من الشركيات في بلدان المسلمين وضُيّع كثير من الفرائض، وحُكِّم في أكثر بلدان المسلمين شرع الطاغوت وحكم البشر، وأهمل جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعطل الجهاد، وانتشر الفساد في بلاد المسلمين بشكل لم يسبق له نظير، وصاحب ذلك تسلط الأعداء وكيدهم وإفسادهم في بلدان المسلمين، ونجم النفاق، واشتدت الغربة علىٰ أهل الحق فاستضعفوا وأوذوا.

ولكن من رحمة الله عز وجل أنه يهيئ لدينه أنصاراً لا يخلو منهم زمان حتىٰ يأتي أمر الله. ثم إنه لا يزال والحمد لله في الأمة خير تحتاج إلىٰ من يزيل الركام عنه.

إذاً فهناك أوجه شبه بين ما يعيشه المسلمون في هذا الزمان وبين تلك المرحلة التي عاشها أنبياء الله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام قبل أن يأتيهم نصر الله سبحانه، وبالتحديد تلك المرحلة التي عاشها الرسول ﷺ في العهد المكي قبل الهجرة. مع الانتباه إلىٰ أننا في هذا الزمان نعيش

اكتمال أحكام الإسلام، وبالتالي فنحن ملزمون بها كلها؛ بينما كان التشريع في مكة في بدايته، وكان التركيز علىٰ بناء العقيدة وتربية النفوس عليها.

فنحن مطالبون إذن في هذا الزمان بالتزام أحكام الدين كلها، مع التأسي بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في مرحلة الاستضعاف والتي حُدّدت ملامحها وفُصّلت في سيرة نبينا محمد ﷺ في تلك الحقبة. ويمكن تلخيص الملامح الدعوية في مرحلة الاستضعاف كما هي في هديه ﷺ فيما يلي:

١- نشر عقيدة التوحيد وأحكام الإسلام والانقطاع إليها بكل الجهد والطاقة:

وهذا ما قام به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم لأقوامهم واستمروا علىٰ ذلك يصلون ليلهم بنهارهم وانقطعوا إليه بجميع ما يملكون من جهد. وانطلقوا ناصحين مشفقين علىٰ الناس من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وهذا هو الذي قام به الرسول ﷺ في مكة، يدعو أهل بيته وأقاربه وأصحابه ويدعو بطون قريش في نواديهم وتجمعاتهم، ويطوف علىٰ الناس في الأسواق، ويمر علىٰ وفود العرب إلىٰ بيت الله الحرام: يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويخوفهم من عذاب الله عز وجل. واستمر علىٰ ذلك بكل صبر وقوة، لا يكلّ ولا يتوقف. وهذا هو الذي ذكره ابن القيم رحمه الله تعالىٰ في هديه ﷺ في دعوته للكفار منذ أن بعث إلىٰ حيث لقي الله عز وجل كما سبق بيانه.

وقد واجه الأنبياء في دعوتهم صنوف الأذىٰ والاستهزاء والصد عن سبيل الله عز وجل ولكنهم صبروا علىٰ ذلك ولم يزدهم ذلك إلا إصراراً علىٰ الدعوة وهداية الناس. وقد اتصفوا عليهم الصلاة والسلام أمام أقوامهم بقوة الحجة، والحلم، والحكمة، والصفح، والمجادلة بالتي هي أحسن، وطول النفس، وقوة التحمل. وهذا ما يطالب به الدعاة اليوم من دعوة الناس إلىٰ عقيدة الإسلام وإزالة ما تراكم عليها من ركام الشرك والبدع، وأن تكون هي الهم الشاغل للدعاة إلىٰ الله عزجل ويفرغوا لها الأوقات وينقطعوا إليها مع الصبر والتحمل وضبط النفس، وأن تأخذ هذه الدعوة حظها من الجهد والوقت حتىٰ تتسع قاعدة الدعوة ويسمع بها الناس، وتظهر آثارها في المجتمع، وأن تراعىٰ قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد قدر الإمكان، وأن لا يستعجل في قطف الثمار(١).

٢- الاهتمام بالتربية والبناء والتزكية:

وهذا أمر يزيد علىٰ الدعوة والتعليم لأحكام الإسلام؛ حيث لا بد من العناية بالفئة الجادة التي يظهر عليها حب الإسلام، والرغبة في الدعوة إليه والحرص علىٰ تعاليمه. فمثل هؤلاء ينبغي أن تكون لهم عناية ورعاية يخصّون بها لتربيتهم علىٰ هدي الإسلام، والعمل علىٰ تزكيتهم وتكوينهم علىٰ العلم الصحيح والعمل الصالح والدعوة إلىٰ الإسلام وصبغ حياتهم بذلك مع تعميق معاني الأخوة ورابطة العقيدة بينهم، والتواصي

---

(١) يرجع إلىٰ المعلم الأول من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الا وهو: (العقيدة أولاً ص ٦١).

بالحق والتواصي بالصبر، واحتساب ذلك عند الله عز وجل. وهذا النوع من التربية ضروري في هذه المرحلة؛ وذلك لبناء القاعدة الصلبة التي يحمي بها الله عز وجل دينه، ويهيئها الله سبحانه لتقود الأمة بعد ذلك، وتكون بمثابة أئمة الهدىٰ للناس في العلم والعمل والدعوة والصبر. وهذا ما يلمس من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين كانوا يعتنون بمن يؤمن من أقوامهم تعليماً وتربية وإعداداً، ويتضح هذا بجلاء في دعوة النبي ﷺ في مكة حيث كان يربي أصحابه رضي الله عنهم في دار الأرقم فيعلمهم ما ينزل من الوحي ويصبرهم ويشاركهم في مصاباتهم وابتلاءاتهم، حتىٰ تخرّج من هذه الدار الرجال العظام من السابقين الأولين الذين قامت علىٰ كواهلهم رسالة الإسلام بعد ذلك، وفتحوا الدنيا مع إخوانهم الأنصار والتابعين لهم بإحسان. ومن أهم جوانب التربية والتزكية ما يلي:

أ- الفهم الصحيح لعقيدة الإسلام بفهم السلف الصالح وخير القرون وتعميق المعنىٰ الشامل للتوحيد وآثاره وتعميق الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له. وتعميق مفهوم الموالاة والمعاداة علىٰ أساس الإسلام.

ب- شحذ الهمم لدعوة الناس إلىٰ هذا الفهم الصحيح للعقيدة وتوسيع قاعدة الدعوة.

جـ- تزكية النفوس بتقوية الصلة بالله عز وجل، والإكثارمن ذكره ودعائه وعبادته والاستعانة به وحده. وهذا أمر واضح تشهد له التوجيهات القرآنية في تلك المرحلة؛ حيث أمر الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بقيام الليل والصلاة وقراءة القرآن، وكثرة التسبيح والاستغفار والذكر، ومن ذلك

قـوله تعـالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ... ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) ﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦].

ويدخل في التزكية أيضاً جوانب العبادات الأخرىٰ من صيام وصدقة وبر وإحسان كما يدخل فيه كل جوانب التقوىٰ التي تقوم علىٰ فعل الواجبات وترك المحرمات ابتغاء وجه الله عز وجل. كل هذا مما ينبغي العناية به فىٰ التربية والتزكية.

د- تقوية الرابطة الإيمانية المبنية علىٰ الولاء والمحبة والنصرة لكل مؤمن ودعم أواصر الأخوة والألفة بين الدعاة إلىٰ الله عز وجل، وهذه بدورها تقتضي البراءة من المشركين والتميز عنهم ظاهراً وباطناً. وهذا ما نراه واضحاً في حياة المؤمنين من أتباع الرسل الذين يكونون بترابطهم ومحبتهم حزب الله أمام حزب الشيطان المتمثل في كل عقيدة تخالف الإسلام. وإن هذا الجانب من التربية والتزكية يجب أن يأخذ حظه من الاهتمام وأن تكون له العناية الشديدة من الدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان الذي نشهد فيه الفرقة والمعاداة بين المؤمنين الداعين إلىٰ الله عز وجل. إنه ما لم توجد المحبة والألفة والتناصر بين أهل الحق أمام أهل الباطل فلا يطمع في نصر الله عز وجل وتمكينه؛ لأنه قد فُرِّط في سبب يُعّد من أهم أسباب النصر والتوفيق؛ قال تعالىٰ: ﴿ ... وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ [الأنفال: ٤٦]. لذا فإن الدعوة إلىٰ

وحدة الصف وتآلف القلوب علىٰ الإسلام من أهم الواجبات والأولويات في هذه المرحلة.؛وذلك لتأثيرها سلباً وإيجاباً علىٰ الدعوة والتربية. وكذلك لما في التآلف من أثر في طهارة القلوب وسلامتها من الأمراض التي يجب أن تكون خالية منها، وخاصة في مثل هذه المرحلة، كأمراض الحسد والشحناء والأهواء.. إلخ.

هـ- شحذ الهمم والعزائم للإنفاق في سبيل الله عز وجل ودعم مجالات الدعوة والتضحية في سبيل الله عز وجل بكل نفيس خاصة في هذه المرحلة حيث الاستضعاف وقلة ذات اليد وقلة الموارد الاقتصادية.

٣- الصفح والصبر علىٰ الأذىٰ وكف اليد:

وهذا من أهم ملامح الدعوة في فترات الاستضعاف والذي يتضح من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم في تلك المرحلة مع الصبر والاستعانة بالله عز وجل علىٰ كل وسائل الأذىٰ والصد والاستفزاز الذي يقوم به أهل الباطل وأعداء الدعوة.

- فهؤلاء أنبياء الله نوح وهود وصالح والذين من بعدهم عليهم السلام عندما هددهم أقوامهم بالقتل أو الإخراج من الأرض قابلوهم بالصبر والاستعانة بالله عز وجل، قال تعالىٰ عنهم أنهم قالوا: ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** (١٢) ﴾ [إبراهيم: ١٢]

- وهذا شعيب عليه السلام لما هدده قومه بالإخراج أو الرجوع في

ملتهم قال: ﴿ ... **عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** (٨٩) ﴾ [الأعراف: ٨٩].

– وهذا موسىٰ عليه السلام لما هدد فرعون قومه بقتل الأبناء واستحياء النساء قال لقومه فيما يخبر الله عز وجل: ﴿ ... **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨) ﴾.

[الأعراف: ١٢٨]

وهذا خاتم النبيين محمد ﷺ أمره ربه والمسلمين معه في مكة بكف اليد والصبر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. قال تعالىٰ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ... ﴾ [النساء: ٧٧].

حيث لم يؤذن لهم في القتال واعتماد المواجهة المسلحة، بل أمروا بالصفح والصبر والاستعانة بالله عز وجل، ولم يؤذن لهم في القتال إلا بعد الهجرة إلىٰ المدينة حيث توفر المكان الذي تأوي إليه الدعوة وتحتمي فيه، وحيث قويت شوكة المسلمين وكثر عددهم؛ وذلك كما مر بنا في سرد ابن القيم رحمه الله تعالىٰ لمراحل الدعوة والجهاد التي مر فيها الرسول ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ يطوف بالكعبة المشرفة وبداخلها الأصنام وشعارات الشرك ولم يغير شيئاً منها. وكان يمر علىٰ أصحابه وهم يُعذبون أمام عينيه كآل ياسر وغيرهم فلا يملك إلا أن يقول: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»(١). مع أنه ﷺ أكثر الناس غيرة علىٰ محارم الله عز وجل وحرمات المسلمين.

---

(١) الحاكم (٣/ ٣٨٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٤) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

واستعمال السلاح في تلك المواقف له عواقب سيئة علىٰ الدين وأهله، وهو من باب تغيير المنكر بمنكر أكبر منه، وهذا يتعارض مع قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد والتي هي من القواعد العظيمة المعتبرة في كثير من المواقف والأحكام. فمراعاة هذه القاعدة في ضوء إمكانات الدعوة وقدراتها، وما يقابل ذلك من قوة الأعداء وقدراتهم، أمر واجب يؤيده الشرع والعقل. بل هو الذي يتفق مع السنن الربانية في الدعوة والجهاد، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: (وهذا باب التعارض باب واسع جداً، ولا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم؛ فأقوام قد ينظرون إلىٰ الحسنات فيرجحون هذا الجانب، وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلىٰ السيئات فيرجحون الجانب الآخر، وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يعنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[١])اهـ[٢].

---

(١) في تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨): قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين، وفيه حفص بن عمر العدني: ضعفه الجمهور.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/٥٧، ٥٨.

ويقول أيضاً: (فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقُدِّم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة. وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنىٰ في هذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر)[1] أ هـ.

وقد ذكر سيد قطب رحمه الله تعالىٰ بعض الحِكَم من كف اليد في مكة والتي لم يجزم بها وإنما ذكرها علىٰ وجه الاحتمال فقال بأنها: (ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة. ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات، تربية نفس الفرد العربي علىٰ الصبر علىٰ ما لا يصبر عليه عادة من الضيم علىٰ شخصه أو علىٰ من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته. وتربيته كذلك علىٰ ضبط أعصابه فلايندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج، وليتم الاعتدال في طبيعته وحركته. وتربيته علىٰ أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجرالأساس في إعداد شخصية العربي، لإنشاء (المجتمع المسلم) الخاضع لقيادة موجهة، المترقي المتحضر،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٠/٥٧.

غير الهمجي أو القبلي!

● وربما كان ذلك أيضاً، لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف؛ والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه المرحلة - إلىٰ زيادة العناد وإلىٰ نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء وحرب البسوس، أعواماً طويلة تفانت فيها قبائل برمتها. وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام. فلا تهدأ بعد ذلك أبداً. ويتحول الإسلام من دعوة إلىٰ ثارات وذحول تنسىٰ معها وجهته الأساسية وهو في مبدئه، فلا تذكر أبداً!

● وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته... ألم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من بين هؤلاء؟

● وربما كان ذلك، أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلىٰ بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف علىٰ الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتىٰ ترىٰ ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة، إلىٰ قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتىٰ ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقىٰ الشرك وتنمحي الجماعة المسلمة ولم يقم في الأرض للإسلام نظام، ولا وجد له كيان واقعي.. وهو دين جاء

ليكون منهاج حياة، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة)أهـ[١].

ويبقىٰ سبب آخر يدعو إلىٰ الصبر وكف اليد يخص الدعوة في هذا الزمان، ألا وهو التضليل والنفاق الذي يتعرضٰ له أكثر المسلمين اليوم في أكثر البلدان من وسائل الإعلام المختلفة، والتي تشوه صورالدعاة في أذهان الناس وأنهم إرهابيون ومخربون وفي الوقت نفسه تحسن لهم صورةالأنظمة الظالمة وأنهـا تحب الإسلام وتحميه. وفي هذه الحال تختلط الأوراق، وقد ينخدع بعض المسلمين بهذه الدعايات فينحازوا إلىٰ الظلمة، فلو حصل إطلاق اليد والحالة هذه لنجم من ذلك فساد وفتنة عظيمة بين المسلمين لعدم حصول التمايز وإقامة الحجة.

تنبيهان:

الأول: إن القول بالصفح والصبر في الدعوة وكف اليد لا يعني أبداً ترك الجهر بالدعوة إلىٰ التوحيد، وتبصير الناس بدينهم وتصحيح مفاهيمهم، وتوعيتهم بكيد أعدائهم. كما أنه لا يعني بحال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للناس بتحذيرهم من الفساد وعواقبه وتعرية الباطل لهم. وإنما المقصود تجنب أي شكل من أشكال المواجهة بالقوة مع الباطل وأهله للأسباب المذكورة سابقاً. وما سوىٰ ذلك يجب أن يبقىٰ علىٰ أشده في الدعوة والبلاغ والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الضوابط الشرعية وحسب الاستطاعة، وقدر ما يُملك من

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٣٨ - ١٤٣٩ باختصار.

فعل الأسباب وأن توطن النفوس علىٰ تحمل الأذىٰ والابتلاءات التي تترتب علىٰ دعوة الناس وتبليغهم دينهم، حتىٰ إذا جاءت العقبات من الباطل وأنصاره فإذا العزائم قوية تتحمل الأذىٰ وتثبت ولا تضعف وتتضعضع أمام تهويش الباطل وتخويفه أو أمام ترغيبه ومساوماته. ثم إنه ينبغي أن لا ننسىٰ واقع المجتمعات في هذا العصر وما تفترق به عن الواقع الذي بدأت فيه دعوة الأنبياء حيث إن الدعوة تملك في هذا العصر رصيداً من الخير في قلوب الناس ورصيداً من التجربة ورصيداً من الدعاة وطلبة العلم والعلماء، كل ذلك من شأنه أن يساعد علىٰ انطلاقة الدعوة وقبول الناس لها أكثر مما كان في العصور التي بدأ فيها الأنبياء دعوتهم حيث الجاهلية المطلقة والغربة المستحكمة. وهذا يحتم المسؤولية ويثقل الأمانة، نسأله سبحانه العون والتوفيق السداد.

وإن مما يؤسف له أشد الأسف ما نراه ونسمعه في زماننا اليوم ممن يرفع في وجه كل مصلح يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ويحذر أمته من مغبة الفساد في الدنيا والآخرة بأنه داعية فتنة وخروج علىٰ الأمة. فبالله أين الفتنة في من يشفق علىٰ أمته من عذاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة ويحذرها من أسباب عقوبته سبحانه. إن الفتنة بحق تكمن في هذا الخلط والتلبيس والذي نتيجته استمراء الفساد وتثبيط الآمرين بالخير والناهين عن الشر. وهذا شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ بعد أن ذكر المفاسد التي تنجم عن الخروج علىٰ الأمة بالسيف وما في ذلك من الشرور والفتن العظيمة عقب بقوله: (ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السُنَّة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب

الإمكان: كما دَلَّ علىٰ وجوب ذلك الكتابُ والسنةُ وإجماع الأمة.

وكثيرٌ من الناسِ قد يرىٰ تعارض الشريعة في ذلك؛ فيرىٰ أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعاً أو يُنهىٰ عنهما جميعاً. وليس كذلك، بل يؤمر وينهىٰ ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ ... وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ... ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشطِنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألاَّ ننازع الأمر أهلَه، وأن نقوم - أو نقول - بالحق حيث ما كُنَّا، لا نخافُ في الله لَوْمَة لائم)(١)، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله وأمرهم بالقيام بالحق. ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري - لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من المتروك - ما يفعل؛ إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه)أهـ(٢).

الثاني: كما أن القول بالصبر والصفح وكف اليد لا يعني أبداً الركون إلىٰ الدعة والإحباط والاستسلام للأمر الواقع بل يجب إعداد النفوس والأمة بأسرها للجهاد في سبيل الله عز وجل وتقوية العزائم وشحذ الهمم، والأخذ بجميع الأسباب المشروعة ولاستكمال جانب القدرة الإيمانية والمادية حتىٰ يأذن الله عز وجل بنصره في الوقت الذي يعلم فيه سبحانه أن عباده المؤمنين قد بذلوا ما في وسعهم من البناء والإعداد والأخذ بالأسباب.

---

(١) البخاري (٧٠٥٦) في كتاب الفتن، مسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة بنحوه.

(٢) الاستقامة ١/٤١، ٤٢.

وقد يقول قائل: إذا كان المأمور به في هذا الزمن هو الصفح والصبر وكف اليد والتركيز علىٰ الدعوة ونشرها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر فماذا يعني الجهاد الأفغاني والجهاد في البوسنة وكشمير وغيرها؟

والجواب علىٰ ذلك: أن الجهاد في بلاد الأفغان والبوسنة وغيرها جهاد مشروع ومطلوب لأن أغلب شروط الجهاد في تلك البلدان قد توفرت وأهمها: وضوح العدو الكافر لكل مسلم فهو في بلاد الأفغان شيوعي ملحد لا يختلف أحد من المسلمين في كفره وإلحاده، وهو في بلاد البوسنة نصراني حاقد. إذن فالراية متميزة والحجة قائمة والمسلمون مجمعون علىٰ وجوب مساعدة هؤلاء المجاهدين ضد أعدائهم الملحدين. كما أن شروط القدرة المادية للمسلمين في جهادهم لهؤلاء الكفرة قد توفرت في أغلبها، وتهيأت لهم المساعدات من إخوانهم المسلمين الغيورين، كما أن المكان الذي يأوي إليه المجاهدون ويحتمون به وينطلقون منه قد تهيأ لهم في تلك البلدان.

إذن، فعندما نتحدث عن وجوب الصفح والصبر وكف اليد فإنما يكون ذلك حين لا توجد القدرة، وحين تكثر الفُرقة ولا توجد الصفوف الموحدة، وحين لا يوجد التمايز الذي يظهر فيه الكفر وأهله ويظهر فيه المسلمون ويعرفون، وبدون ذلك يكون البغي والفتنة والفساد. وهذا معنىٰ كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ حين يقول: (والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين، فقال: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال: ﴿ ... وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣].

وذلك أن المظلوم، وإن كان مأذوناً له في دفع الظلم عنه بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ [الشورىٰ: ٤١] فذلك مشروط بشرطين:

أحدهما: القدرة علىٰ ذلك.

الثاني: ألا يَعْتدي.

فإذا كان عاجزاً، أوكان الانتصار يفضي إلىٰ عدوان زائد لم يجز. وهذا هو أصل النهي عن الفتنة)أهـ[١].

خلاصة القول: إن الأمر بالصبر وكف اليد مبني علىٰ قاعدة تعارض المصالح والمفاسد؛ فهو إذن مسألة اجتهادية تتعلق بظروف المكان والواقع الذي تكون فيه الدعوة والدعاة من حيث قوتهم وضعفهم، ومن حيث وضوحهم ووضوح ما يدعون إليه ومن حيث وضوح راية الكفر من عدمها، ومن حيث القدرة الإيمانية والأخذ بالأسباب الممكنة. ومن حيث اجتماع القلوب ووحدة الصف وسلامة القلوب من كبائر الذنوب. والناظر اليوم لأول وهلة في أحوال العالم الإسلامي يرىٰ - والعلم عند الله - عدم تحقق هذه الأمور، فصار المتعين حينئذ الصبر وكف اليد مع التركيز علىٰ الدعوة والأمر والنهي والأخذ بأسباب النصر الذي وعده الله سبحانه عباده المؤمنين.

ويبقىٰ سؤال أخير حول هذه المعالم ألا وهو: إلىٰ متىٰ يستمر الصبر والصفح، ومتىٰ يأتي نصر الله عز جل وكيف؟

---

(١) الاستقامة (١ / ٤٠، ٤١).

والجـواب علىٰ ذلك في علم الله عـز وجل؛ فـالدين دينه، والدعـوة دعوته، والأمر له من قبل ومن بعد، ونحن عبيده لا ندري متىٰ يحصل النصر والتمكين، ولا ندري الكيفية التي يأتي بها. وإنما كل الذي ندريه من تأملنا في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونصر الله عز وجل لهم هو أن الله سبحانه وتعالىٰ ينزل نصره علىٰ عباده المؤمنين بعد أن يعلم سبحانه أن دعاته وأنصار دينه قد حققوا الإيمان وبذلوا ما في وسعهم من الدعوة والبلاغ وصبروا علىٰ ابتلاءات الطريق وثبتوا، وفعلوا كل ما يستطيعونه من الأسباب المأذون بها والمتاحة لهم، وأن الحجة قامت علىٰ الناس بدعوتهم، وتميز الناس إلىٰ فسطاطين فسطاط فيه حزب الله تعالىٰ وفسطاط فيه حزب الشيطان، وصارالولاء والبراء علىٰ أساس الإسلام. عندئذ يأتي نصر الله عز جل، ويفتح الله بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين وهوخير الفاتحين. أما الكيفية التي ينزل بها نصر الله عز وجل فهذا أيضاً لا نحيط به علماً، فللّه جنود السماوات والأرض، وهو قادر سبحانه أن ينصر عباده بما يشاء. فهذا نوح نصر بالطوفان، ونصر هود بالريح، وصالح بالصاعقة، وحبست الشمس ليوشع بن نون حتىٰ فتح بيت المقدس كما جاء في قوله ﷺ: **«إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلىٰ بيت المقدس»**[1]. ونصر الرسول ﷺ بالريح في قوله: **«نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»**[2]، كما نصره الله عز وجل بالملائكة وبأصحابه

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٥ (٨٢٩٨).

(٢) البخاري في مواضع منها: كتاب الاستسقاء (١٠٣٥)، ومسلم في الاستسقاء (٩٠٠).

=

جاء بعد الأخذ بالأسباب وإعداد النفوس للتضحية والجهاد في سبيل الله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالىٰ معلقاً علىٰ نجاة نوح ومن آمن معه من الطوفان: (إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلىٰ إفراد الله سبحانه بالعبادة. كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلىٰ قوىٰ الجاهلية فيظن الله تاركه لهذه القوىٰ وهو عبده الذي يستنصر به حين يغلب فيدعوه: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر: ١٠].

إن القوىٰ في حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة.. إن الجاهلية تملك قواها.. ولكن الداعي إلىٰ الله يستند إلىٰ قوة الله. والله يملك أن يسخر له بعض القوىٰ الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - وأيسر هذه القوىٰ يدمر علىٰ الجاهلية من حيث لا تحتسب!

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله.. ولقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً قبل أن يأتي الأجل الذي قدره الله. ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثني عشر مسلماً.. ولكن هذه الحفنة من البشر كانت في ميزان الله تساوي تسخير تلك القوىٰ الهائلة والتدمير علىٰ البشرية الضالة جميعاً، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها..

إن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة - وفق مشيئة الله الطليقة - ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرىٰ تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها. وقد تدق بعض الخوارق علىٰ بعض العقول فلا تدركها؛

ولكن الموصولين بالله يرون قوته دائماً ويلابسون آثارها المبدعة.

والذين يسلكون السبيل إلىٰ الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً، بكل ما في طاقتهم من جهد؛ ثم يدَعوا الأمور لله في طمأنينة وثقة. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا إلىٰ الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ .. ثم ينتظروا فرج الله القريب. وانتظار الفرج من الله عبادة؛ فهم علىٰ هذا الانتظار مأجورون)أهـ[١].

* * *

(١) في ظلال القرآن (٤/١٨٩٣) (بتصرف يسير).

المعْلَم السادس

مراعاة السنن الربانية في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

إنه لمن الواجب علىٰ الدعاة إلىٰ الله عز وجل أن يقفوا عند تلك السنن الربانية المسْتوحاة من دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذلك لأن في معرفتها والسير علىٰ هداها أخذ بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تخبط وشقاء، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة، وإعراض عن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله عز جل، الذين هم أعرف الناس بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته؛ وبالتالي فهم أعرف بسننه سبحانه وعاداته وأيامه وهم ألزم الناس لها وللسير علىٰ ضوئها.

ويحسن قبل التعرض لبعض هذه السنن أن نلم إلمامة سريعة بالسنن الربانية من حيث تعريفها ودلالتها ووقت ظهورها.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** (١٣٧) ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال عز وجل: ﴿ ... **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الدكتور محمد السلمي حفظه الله: (والتاريخ بما يحتوي من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد علىٰ كشف هذه السنن التي

هي غاية في الدقة والعدل والثبات. وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة حتىٰ لو لم نقدرعلىٰ تفادي حدوثها والنجاة منها؛ حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث؛ فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق)اهـ(١).

ويعرف الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ السنة ودلالتها فيقول: (والسنة: هي العادة في الأشياء المتماثلة، (وسُنَّة) هنا تجري علىٰ ‹سَنَه› هذا في الاشتقاق الأكبر. و ‹السنن› و ‹أسنان المشط› ونحو ذلك بلفظ ‹السنة› يدل علىٰ التماثل، فإنه سبحانه وتعالىٰ إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول، بل هو سبحانه لا يفوِّت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. كما أن من سننه التفريق بين المختلفين كما دل علىٰ ذلك القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** (٣٥) ﴾ [القلم: ٣٥] ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة)اهـ(١).

أما عن وقت ظهورها وتحققها فهو إلىٰ الله عز وجل الذي جعل لكل أجل كتاباً بعلمه وحكمته البالغة. وقد يبدو للناس أن أسباب تحقق سنة الله عز وجل قد انعقدت ومع ذلك لم يأذن الله عز وجل بظهورها عن علم

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي: ص ٦٠.

(٢) جامع الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام (١ / ٥٥).

وحكمة، فسبحان من له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا.

قال الله تعالىٰ: **﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾** [الحج: ٤٧]وقال عز وجل: **﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾** [الأنعام: ٦].

قال سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية: (هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكّن الله لهم في الأرض. ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه؛ أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده، أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدّعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون علىٰ غير سنة الله. ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف.. ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون حتىٰ يستوفي الكتاب أجله ويحق وعد الله. ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية، فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام.. ومرة بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضها بعضاً ويدمر بعضهم بعضاً. ويسلط الله عليهم عباداً له - طائعين أو عصاة - يخضدون شوكتهم. ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السنة؛ فالسعيد من وعاها، والشقي من غفل

عنها، وإنه لَـمـمَّا يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون، إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق؛ لأن السنة تستغرق وقتاً طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ)أهـ[١].

ويقول الدكتور السلمي حفظه الله: (والسنة الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترىٰ متحققة في حين أن عمر الفرد محدود؛ ولذلك فلا يمكنه رؤية السنة متحققة، بل قد يرىٰ الإنسان جانباً من السنة الربانية ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما قد يدفعه إلىٰ عدم إدراك السنة أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لابد أن تقع ولكن لَمَّا كان عمرها أطول من عمر الفرد - بل ربما أطول من أعمار أجيال - فإنها ترىٰ متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سنة الله ثابتة لا تتبدل كما قال تعالىٰ: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** (٦٢) ﴾ [الأحزاب: ٦٢])أهـ[٢].

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها عن السنة الربانية، نأتي الآن للتعرف علىٰ بعض هذه السنن الثابتة من خلال دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنها ما يلي:

١- العاقبة للمتقين والهلاك للمكذبين المعاندين:

والشواهد من الأدلة والوقائع علىٰ هذه السنة كثيرة جداً، فمن ذلك

---

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١٣٠٧ - ١٣٠٨.

(٢) منهج دراسة التاريخ الإسلامي ص ٦١.

قوله تعالىٰ عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود: ٤٩].

وقوله تعالىٰ عن وصية موسىٰ عليه الصلاة والسلام لقومه بعد أن هددهم فرعون بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالىٰ عن هود عليه الصلاة والسلام مع قومه: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾.
[الأعراف: ٧٢]

وقال عن نبيه صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾
[هود: ٦٦، ٦٧]

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾.
[الروم: ٤٧]

وما جرىٰ من تحقق هذه السنة في الماضي سيجري مثله إن شاء الله تعالىٰ في الحاضر والمستقبل إذا تحققت أسبابها من ظهور المتقين الذين

يستحقون نصر الله عز وجل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: (فإن كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد فإن الذنب كان لهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ ... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾[الأحزاب: ٦٢]، [الفتح: ٢٣] فعم كل سنة له..)أهـ[1].

٢- إن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

تعتبر هذه السنة من السنن الخالدة التي يتحمل البشر في ضوئها مسؤوليتهم فيما يقع لهم من خير أو شر؛ لأن الله عز وجل قد منح الإنسان قدراً من الحرية والاختيار، وشرح له أسباب النجاة وأسباب الهلاك، وأنزل عليه الكتب، وأرسل إليه الرسل. منه يبدأ التغيير: سواء إلىٰ الشر أو إلىٰ الخير. فإن كان الناس في شر وبلاء فإن الله عز وجل لا يزيل هذا الشر عنهم إلا بأن يأخذوا بأسباب النجاة فيغيروا ما بأنفسهم بطاعة الله عز وجل وترك معاصيه التي هي أصل الشر والمصائب. وعلىٰ العكس من ذلك: لو كان الناس في خير ونعمة ورخاء فإن حرمانهم من هذا الخير وحصول الشر لهم بعده إنما يأتي من أنفسهم حين يفرطون في طاعة الله ولا يشكرونه قال تعالىٰ: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)** ﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) جامع الرسائل والمسائل ١ / ٥٤.

وإنه لجدير بالدعاة إلىٰ الله عز وجل في هذا الزمان وفي كل زمان أن يقفوا طويلاً عند هذه السنة؛ فهي الأساس المهم والمنهج الصحيح للدعوة والتغيير، بل هي أم السنن الربانية في البناء والتغيير.

٣- الابتلاء سنة جارية للمؤمنين.

وهذه السنة من الوضوح بحيث لاتحتاج إلىٰ تعليق، حيث تواردت بها الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وحيث الوقائع والتجارب في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم تشهد بذلك. ويكفي قوله تعالىٰ: ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)** ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلىٰ الرجل علىٰ حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي علىٰ حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة**»[١].

---

(١) الترمذي: (٢٤٠٠) في كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء. وقال: حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٣).

وحكمة هذا الابتلاء عظيمة وفوائده في التربية والتمحيص وتمييز الصفوف معروفة، وعلىٰ هذا ينبغي أن توطن النفوس علىٰ هذه السنة مع سؤال الله عز وجل العافية والثبات[١].

كما يدخل تحت هذه السنة سنة المداولة بين الناس من الشدة إلىٰ الرخاء ومن الرخاء إلىٰ الشدة ومن إدالة الكفار علىٰ المسلمين للتمحيص والابتلاء.

قال تعالىٰ: ﴿ ... **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ** ... ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤- انهيار الأمم الظالمة وزوالها يكون بأجل:

يقول الدكتور السلمي عن هذه السنة: (قد يرىٰ الناس موجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من الأمم ثم لا يرون زوالها بأنفسهم. وقد أوضحنا في أول الكلام عن السنن أن سنة الله لا تتخلف. لكن عمرها أطول من عمر الأفراد ولا تقع إلا بأجل محدد لا بد من استيفائه. قال تعالىٰ: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** (٣٤) ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ** (٤) **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** (٥) ﴾ [الحجر: ٤، ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** (٥٩) ﴾ [الكهف: ٥٩])اهـ[٢].

---

(١) انظر للمزيد حول هذه السنة (المعلم الرابع) ص ١٦١.

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٦٦.

٥- سنة التدافع وسنة الصراع بين الحق والباطل:

وهذه السنة أيضاً من أهم السنن الربانية التي يجب الوقوف عندها وعدم نسيانها أو الغفلة عنها. والمتأمل في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم يلمس هذه السنة بوضوح وجلاء؛ قال الله تعالىٰ بعد أن انتصر المسلمون بقيادة طالوت وقتل داود جالوت (الكافر): ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)** ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالىٰ بعد إذنه سبحانه للمؤمنين بالقتال: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)** ﴾.
[الحج: ٣٩، ٤٠]

والصراع والمدافعة بين الحق والباطل وجد منذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام علىٰ هذه الأرض ومعه إبليس - الملعون - أعاذنا الله منه. واقتضت حكمة الله عز وجل أن يستمر هذا الصراع إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها بين حزب الله عز وجل وحزب الشيطان. وليس بالضرورة أن تكون المدافعة أو أن يكون الصراع بالقتال والسلاح. بل إنه يكون بغير ذلك، وما القتال إلا مرحلة من مراحل هذا الصراع. فإقامة الحجة علىٰ الباطل وأهله مدافعة، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر مدافعة، والصبر علىٰ ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة وصراع. ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله عز وجل علىٰ رأس وذروة هذه المدافعة والصراع فيقذف الله بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. ومادام هناك حق وباطل فالصراع موجود والمدافعة حتمية. وهذا الصراع لصالح البشرية وخيرها ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره؛ فإن هذه المشقات كلها تهون وتصغر عند المفاسد العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع الباطل. كما مر بنا في قوله تعالىٰ: ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ... ﴾ [البقرة: ٢٥١] وهذا يفرض علىٰ أهل الحق السير علىٰ هذه السنة، وبذل الجهد الجهيد في مدافعة الباطل وأهله، وإحقاق الحق وتمكين أهله، ورد البشرية الشاردة إلىٰ عبودية الله عز وجل وتوحيده، وإنقاذها من الشرك ومفاسده، وهذا هو التدافع الذي يعنيه القرآن وقام به أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام. إنه الصراع الذي يزيل الفتنة بكل أشكالها، ويحرر البشر من عبادة غير الله عز وجل، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور. قال تعالىٰ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء: ٧٦].

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون هذه السنة - أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد - إنهم يتنكبون منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ الله عز وجل الذي ارتضاه واختاره لهم. وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله. إنهم بهذا التصرف لا

يسلمون من العناء والمشقة - بل إنهم كما مر بنا سابقاً - يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم. وهذه هي ضريبة السكوت وفساد التصور وإيثار الحياة الدنيا؛ لأن الباطل والفساد لا يقبل في الأصل وجود الحق وأهله المصلحين ولا يطيق وجودهم معه ولو كانوا معتزلين له. فهو يفرض المعركة(١) والصراع عليهم فرضاً، ولا يقبل منهم إلا الدخول معه في باطله - عياذاً بالله تعالىٰ - أو الخروج من أرضه وعدم معايشته. كما قص علينا ربنا عز وجل قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه وصراعه معهم. قال الله تعالىٰ عن شعيب عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿ **وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)** ﴾.

[الأعراف: ٧٨ - ٨٩]

وحول المعاني المطروحة سابقاً وفي ضوء هذه الآيات الكريمات يتحدث

---

(١) عندما يطلق لفظ (الصراع) أو (المعركة) مع الباطل وأهله فلا يعني بالضرورة صراع القتال والصدام، بل إنه يعني أول ما يعني الثبات علىٰ الحق والصدع به والصبر علىٰ أذىٰ الباطل وأهله فيه حتىٰ يحكم الله عز وجل. والناظر في صراع الأنبياء مع أقوامهم يجده من هذا القبيل في الغالب، وخاصة في مراحل الاستضعاف وعدم القدرة.

سيد قطب رحمه الله تعالىٰ فيقول: (لقدعاهم إلىٰ أعدل خطة. ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة.. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذىٰ، وترك كلٌ وما اعتنق من دين، حتىٰ يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت.. إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لا تدين إلا لله ولاتعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه.. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت – حتىٰ لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي موعده.

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً علىٰ الجماعة المسلمة – حتىٰ لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة – إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنها سنة الله لا بد أن تجري..

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ...﴾ [الأعراف: ٨٨].

هكذا في تبجح سافر، وفي إصرار علىٰ المعركة لا يقبل المهادنة والتعايش!

إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد.. لقد

وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة.. نقطة المسالمة والتعايش – على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء؛ وأن يدين للسلطان الذي يشاء: في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت..وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه.. فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله:

﴿ ... قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ومذاقه في نفوس أهله، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه. كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع.. مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه.

﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾

يستنكر تلك القولة الفاجرة: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ . . .

يقول لهم: أتجبروننا علىٰ ما نكره من ملتكم التي نجانا الله منها؟!

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

إن الذي يعود إلىٰ ملة الطاغوت والجاهلية، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله.. إن الذي يعود إلىٰ هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق، وهداه إلىٰ الحق وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدي شهادة كاذبة علىٰ الله ودينه. شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلىٰ ملة الطاغوت! أو مؤداها - علىٰ الأقل - أن لملة الطاغوت حقاً في الوجود، وشرعية في السلطان؛ وأن وجودها لا يتنافىٰ مع الإيمان بالله. فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله.. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدىٰ، ولم يرفع راية الإسلام. شهادة الاعتراف براية الطغيان. ولا طغيان وراء الاعتداء علىٰ سلطان الله في الحياة!

وكذلك يستنكر شعيب عليه السلام ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلىٰ الملة التي أنجاهم الله منها:

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾

وما من شأننا أصلاً؛ وما ينبغي لنا قطعاً أن نعود فيها.. يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة التي تعلن

خروجها عن سلطانه، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه.

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة علىٰ الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته. فهذه ‹الإنسانية› لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟!.. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ورضاه أو غضبه عليه؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوىٰ إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

علىٰ أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة.. إنه يهبط ويهبط حتىٰ يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء علىٰ ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها، فيذبحهم علىٰ مذبح هواه، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه! ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية.. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع علىٰ نطاق واسع علىٰ مدار التاريخ - أو في صورة تنشئتهن علىٰ

تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار.. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله. إنما يعيش في وهم، أو يفقد الإحساس بالواقع!)اهـ[١].

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٣١٨، ١٣١٩.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة في حياة أكرم البشر، وأحبهم إلىٰ الله تعالىٰ صلىٰ الله وسلم عليهم أجمعين، فإني أسجل اعترافي بالقصور الشديد نحوهم، فما وفيتهم حقهم، ولا قدرتهم حق قدرهم، وأسأل الله عز وجل أن يغفر لي بعدي عن هديهم وحياتهم، وأن يتجاوز عني كل ما زلّ به القلم أو اللسان في هذا البحث نحوهم. كما نسأله جميعاً أن يعيننا علىٰ التأسي بهم، واللحوق بركبهم الكريم، ثم إني لا أدعي أني أحطت بكل هديهم، ومن ذا الذي يقدر علىٰ ذلك؟! وإنما كل الذي ذكرته، إنما هو غيض من فيض، وقطرة من بحر هديهم صلىٰ الله عليهم وسلم. ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع المهم والتذكير به، لعل بعض علمائنا الكرام، ودعاتنا الأفاضل أن يكملوا ما نقص في هذه الرسالة ويعدلوا ما اعوجّ منها، أو يضيفوا إليها ما غفل الذهن عنه.

وفي ختام هذا البحث يمكن تلخيص أهم المسائل التي مرت بنا في النقاط التالية:

(١) ضرورة الاهتمام بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ سواءً في صلتهم بالله عز وجل وقوة عبادتهم وكثرة دعائهم وتضرعهم وهضمهم لأنفسهم، أو في قوة توكلهم واستسلامهم لله عز وجل، أو في أخلاقهم وسلوكهم، أو في دعوتهم وتبليغهم لدين الله عز وجل؛ لأن الاهتمام بذلك يورث التأسي بهم، وهذا يفيد في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إن في التأسي بهم والاقتداء بهديهم عصمة في الدنيا من الزلل والتخبط والانحراف؛ وذلك لعصمة منهجهم لأنه وحي من الله عز وجل، مع ما في ذلك من التسلية والتعزي والثبات لمن يواجه ما واجهوا من الأذىٰ والابتلاء.

الأمر الثاني: إن في التأسي بهم ومجاهدة النفوس في اللحوق بهم دليلاً علىٰ محبتهم. وذلك من أعظم الأسباب في الحشر معهم، ومرافقتهم في الجنة، وحسن أولئك رفيقا.

الأمر الثالث: إن في دراسة هذه الحياة المباركة هضماً للنفس واحتقاراً لها؛ وذلك عندما يرىٰ هؤلاء الرسل الكرام وهم صفوة الناس وأحبهم إلىٰ الله عز وجل، وقد ضمنت لهم الجنة، ومع ذلك فهم يهضمون أنفسهم وهم علىٰ هذا المستوىٰ العظيم الرفيع في صلتهم بالله عز وجل وفي توكلهم عليه سبحانه وفي صبرهم.. إلخ. كل هذا يؤدي بدوره إلىٰ قمع مرض العجب والغرور ورؤية النفس.

(٢) لقد برز من خلال هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قوة عبادتهم ودعائهم وكثرة ذكرهم لله عز وجل أهمية هذا الجانب في حياة الداعية المصلح، وأنه لا بد له من هذا الزاد العظيم الذي يقربه إلىٰ الله عز وجل، ويؤنسه في غربته، ويثبته الله به في شدائده وبلائه. وأنه لا عذر لنا في إهمال هذا الرافد العظيم والزاد المتين مهما كانت المشاغل والمطالب. فمن ذا الذي يكون أكثر شغلاً وهماً وعملاً ودعوة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟.

(٣) كما برز لنا من خلال هديهم عليهم الصلاة والسلام في الأخلاق والسلوك أهمية هذا الجانب في حياة الداعية، وأن ضعف هذا الجانب أو إهماله سبب لقلة البركة وتباطؤ الناس وقلة استجابتهم؛ وذلك لرؤيتهم التناقض بين ما يدعو إليه الداعية وبين أخلاقه وسلوكياته الخاطئة. فحريٌّ بالدعاة في كل مكان أن يولوا هذا الجانب اهتماماً عظيماً في أنفسهم ودعوتهم وتربيتهم.

(٤) كما برز لنا أيضاً من خلال هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله عز وجل أهمية العقيدة والدعوة إلىٰ التوحيد والموالاة والمعاداة علىٰ أساسها، وبالتالي فإن أي دعوة لم تول هذا الجانب اهتماماً في دعوتها أو أنها لم تجعله أول ما تدعو إليه وتربي الناس عليه؛ فإنها دعوة فاشلة؛ لأنها خالفت منهج الأنبياء وهديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ. كما ظهر لنا أهمية التربية الطويلة علىٰ ذلك وبناء القاعدة الصلبة وتربيتهم علىٰ ضوئها ولو طال الطريق والوقت في ذلك.

(٥) كما برز لنا من دراسة هذه الحياة المباركة ذلك الجهد الجهيد والصبر المرير والعمل الدؤوب من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام في هداية الناس وتعبيدهم لرب العالمين والشفقة عليهم من عذاب الله تعالىٰ، وهكذا ينبغي أن يكون شأن الدعاة في كل زمان وخاصة في أزمنة الغربة وكيد الأعداء المتواصل بالليل والنهار؛ فطريق الدعوة طريق الابتلاءات والشدائد. وهذا ما ظهر لنا من معاناة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ولكنه محمود العاقبة في الدنيا والآخرة.

(٦) وقد ظهر لنا أيضاً من خلال هذه الدراسة: الضرورة القصوىٰ

لائتلاف الدعاة إلىٰ الله عزجل، وعقد الولاء والبراء بينهم علىٰ أساس الإسلام وعقيدته السامية لا علىٰ عصبيات وحزبيات وأهواء، وأنه بدون ذلك فلا يطمع في نصر الله عز وجل ولا تمكينه؛ لأن اجتماع القلوب وتآلفها علىٰ أساس الإسلام أمر ضروري للتمكين والنصر. ولذا ينبغي العمل المستمر علىٰ تحقيق هذه الفريضة والصبر عليها وعدم الالتفات إلىٰ من يهوّن من شأنها أو يصرُّ علىٰ هوىً في نفسه يلبسه لبوساً شرعياً يبرر به تبديعه أو تفسيقه لإخوانه الدعاة؛ وبالتالي يبرر به مفارقته لهم وجعله نفسه في صف الظالمين ضدهم.

(٧) كما ظهر لنا من خلال هذه الدراسة خطورة الاستعجال في قطف الثمار قبل أوانها والمفاسد الكبيرة التي تترتب علىٰ الاستعجال ولمّا تستقر بعد العقيدة في نفوس أهلها الداعين لها فضلاً عن عامة الناس. وأن المتعين هو الصبر والصفح، ومواصلة الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل الوسع في ذلك، حتىٰ إذا تهيأ الجو والحال الذي يعلم الله سبحانه فيه استحقاق عباده للنصر فسيأتي الله عز وجل بنصره متىٰ شاء وكيفما شاء وهو العليم الحكيم القوي العزيز.

(٨) كما ظهر لنا قبل ذلك وبعده: أثر الإخلاص لله عز وجل في الدعوة إليه سبحانه وعدم ابتغاء الأجر إلا منه سبحانه وهذا يفرض علىٰ الدعاة الحذر من إرادة الدنيا بدعوتهم، كما يفرض الحذر من مساومات أعداء الدعوة ومكرهم وإغراءاتهم بالمناصب وغيرها ليترك الدعاة ما هم عليه من الحق أو يتنازلوا عنه، أو يحرفوه عن مواضعه ويتأولوه؛ انسياقاً مع شهوة النفس وهواها.

(٩) وأخيراً أتوجه بالنصيحة لنفسي ولكل مسلم، بعامة وكل داعية بخاصة إلى أن نكون من أنصار الله عز وجل وحزبه الكريم، وأن نوقن بأن الصراع والمدافعة بين الحق والباطل من السنن الربانية التي لا تتخلف والتي تظهر اليوم بشكل جلي لا مرية فيه، وإن المسلم بتخلفه عن هذه المدافعة لن يضر إلا نفسه ولن يضر دين الله سبحانه؛ لأن المدافعة ماضية ومستمرة به أو بغيره، ولكن السعيد من فاز بنصيب وافر من نصرة دين الله وحزبه المؤمن، والمخذول من تخاذل أو خذل حزب الله سبحانه، أو وقف موقف المتفرج المتربص.

وبعد

نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، كما نسأله سبحانه بحب أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، أن يحشرنا في زمرتهم ويكتب لنا مرافقتهم في جنات النعيم ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)** ﴾ [النساء: ٦٩]. وهذا هو جهد المقل الظالم القاصر فما كان فيه من صواب فمن الله سبحانه فهو المانُّ به وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ليلة الثلاثاء

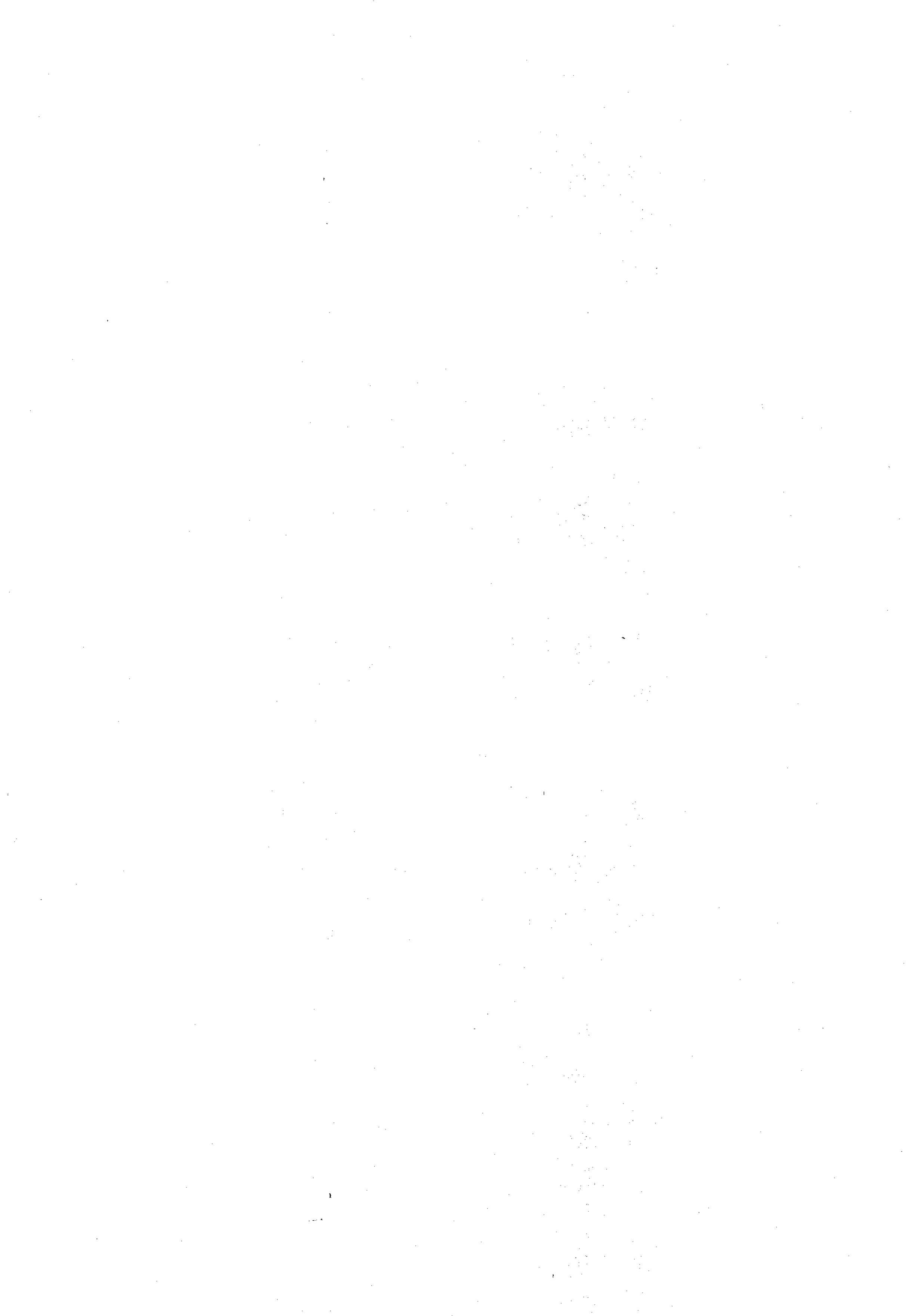
٢٩/٢/١٤١٧هـ



الرسالة الثانية عشرة



[الذاريات : ٥٠]



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً. **أما بعد:**

فإن الناظر اليوم بعين البصر والبصيرة في واقع الأمة الإسلامية وما حلَّ بها من مصائب وويلات وفتن عظيمة على مستوى الأفراد والمجتمعات ليأخذ به الأسى والتوجع مأخذاً بعيداً، حتى إن اليأس يوشك أن يحيط به لولا عظيم الأمل في وعد الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[1].

ومما يُذْهبُ اليأس ويعزي النفوس أيضاً معرفة المسلم لسنن الله - عز وجل - في عباده، وإدراك أن ما أصابنا من المصائب والفتن العظيمة إنما هو من عند أنفسنا وبسبب ذنوبنا وما طرأ على حياتنا من بعد عن الله - عز وجل - ونسيان للآخرة، وانغماس في الملذات، وإقبال على الدنيا، والجري

---

(١) البخاري ٦/ ٦٣٢ الفتح، مسلم ١٣/ ٦٦ النووي.

وراءها للحصول على شيء من متاعها، الأمر الذي انتشر بسببه كثير من المعاصي والمنكرات والفتن المحيرة التي انجرف فيها الكثير منا؛ فنسينا ما وراءنا من الحياة الأخروية، وغفلنا عن الاستعداد لها. وما دام أن الداء قد عرف والمرض قد شُخِّص فلا يبقى أمام من ينشد النجاة لنفسه ولأمته إلا مباشرة العلاج؛ وذلك بالفرار إلى الله – عز وجل – والإنابة إليه، والاعتصام به سبحانه كما أمر في كتابه العزيز بقوله: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾. [الذاريات: ٥٠].

وهذا الفرار يعني ترك أسباب سخطه إلى أسباب مرضاته، والفرار من موجبات عقوبته إلى معافاته ومنه إليه سبحانه كما جاء ذلك في دعاء سيد المرسلين والمتقين ﷺ حيث قال: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)[١].

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة الجديدة من سلسلة الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم لتعالج هذا الموضوع الهام في ضوء قوله تعالى: (**ففروا إلى الله**). وقد وقع الاختيار على هذا الموضوع في هذا الوقت بالذات لأمور منها:

(١) انفتاح الدنيا الشديد، وتغلب الجانب المادي على حياة أكثر الناس، وما ترتب على ذلك من لهث وتكالب على حطامها دون تمييز بين

---

(١) مسلم في الصلاة (٤٨٦).

حلال وحرام، وطيب وخبيث؛ فحصل التنافس الشديد على متاعها الزائل، وصار الحب والبغض من أجلها، بل والقتال عليها.

وحصلت الغفلة الشديدة عن الآخرة والغاية التي من أجلها خلقنا وتحولت هذه الدنيا الخسيسة الفانية من كونها خادمة ومملوكة إلى أن تكون مالكة مخدومة. لذا فمن واجب النصيحة: التحذيرُ من فتنة الدنيا وغرورها والفرارُ منها إلى الله - عز وجل - والدار الآخرة، وتنبيه الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد للرحيل إلى دار البقاء والحياة السرمدية.

(٢) ظهور المنكرات وانتشار الفساد بشكل ينذر بالخطر والعقوبة إن لم يتدارك الله - عز وجل - عباده ويرحمهم بالرجوع إليه وإحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك ببعث الناصرين لدينه والصابرين على ما أصابهم في ذلك ابتغاء رضوان الله - عز وجل - ودفع عقوبته عن الناس بالفرار إليه، والدعوة إلى سبيله.

(٣) ظهور الفتن المتلاطمة في هذا الزمان والتي يرقق بعضها بعضاً، ورؤية المتساقطين فيها ما بين هالك فيها بقلبه أو بلسانه أو بيده حتى أصبح المسلم يخشى على نفسه في أي لحظة أن يزل فيها ويسقط، وصار هجيراه قول (ربِّ سلِّمْ سلِّمْ) و: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾.

[هود: ٤٣]

وغدت هذه الفتن من الكثرة بحيث أصبح من يريد لنفسه النجاة لا يدري بأيها يبدأ بالمقاومة، ولا يدري من أيها يفر إلى الله - عز وجل - أمِن فتنة الدنيا وزينتها ومناصبها، أم من الفتنة بالعلم وآفاته ومبطلاته، أم من

فتنة الشرك بأنواعه والبدع والمعاصي التي طمت وعمت، أم من الفتنة العمياء التي تدور رحاها اليوم بين المسلمين؛ حيث دب فينا داء الأمم من الفرقة والشحناء والأهواء والحزبيات الكريهة، حتى صار كل حزب بما لديهم فرحين.

ومما زاد هذه الفتنة عمى وشدة: أنها في صفوف الفرقة الناجية والطائفة المنصورة: طائفة أهل السنة الجماعة، وإن لم يتداركنا الله عز وجل برحمته؛ ثم يسعى المخلصون من أهل السنة في إخماد هذه الفتنة فإن أمام الأمة ليلاً طويلاً ثقيلاً يفرح به أعداء الإسلام ويستبشرون بذلك في مزيد من التسلط والاستعلاء. ولعل في هذه الرسالة مساهمة متواضعة في التماس أسباب النجاة من هذه الفتنة الصماء والداهية الدهماء، وغيرها من الفتن.

(٤) الغربة الشديدة على الإسلام وأهله في أكثر بلدان المسلمين، حيث نُحِّيَ شرع الله تعالى، وتسلط الأعداء على أهل الغربة بالنكال والأذى فقلَّ النصير والمعين، ونجم النفاق حتى استوحش أهل الغربة من هذه الحال فكان لا بد من التواصي معهم على الحق والصبر، لعل الله عز وجل أن يثبت القلوب، وينجي من الفتن، ويكشف الكربة، وينصر حزبه المؤمنين.

(٥) التأكيد على الرجوع إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبينا محمد ﷺ في التماس سبل النجاة من الفتن والمهلكات، ولفت الأنظار إليهما بعد أن ابتعد كثير من الناس عنهما، والتأكيد من خلال هذه الرسالة أنه ما من خير إلا دلاً عليه، وما من شر إلا حذرا منه. قال تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، كما أن السنة النبوية ما تركت من

فتنة ولا شر يأتي على هذه الأمة إلى قيام الساعة إلا وألمحت إليه وحذرت منه وحددت سبيل النجاة منه، قال ﷺ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله)[١].

وشيء آخر يتعلق بهذا الأمر ألا وهو لفت الأنظار من خلال هذه الرسالة إلى ذلك الانقياد العظيم من سلفنا الصالح لهدي الكتاب والسنة في الفرار من الشرور والفتن، وإلى ضرورة الاطلاع الدائم على تلك المواقف العملية الموفقة من سلفنا الصالح إزاء الفتن والزوابع، وضرورة الاقتداء بهم في تلك المواقف النبيلة المهتدية بالكتاب والسنة، وهذا ما سيرد ذكره في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

وأكتفي بهذه الأمور الخمسة التي تؤكد أهميه هذا الموضوع. وأسأل الله - عز وجل - أن يحسن القصد فيه، وأن يتقبله مني، ولعلّي بهذا الجهد المقل أن أكون قد ساهمت مع من ساهم في البحث عن المخرج والفرار إلى الله - عز وجل - من هذه الشرور والفتن المتلاطمة، وأن تكون هذه الرسالة بمثابة النصيحة والصيحة المنبهة لنفسي وإخواني الدعاة؛ لنكون مفاتيح للخير والسنن، ومغاليق للشرور والفتن.

---

(١) الموطأ: في القدر باب النهي عن القول في القدر، وقال الأرناؤوط: يشهد له حديث ابن عباس عند الحاكم ١/ ٩٣ بسند حسن فيتقوى به (جامع الأصول ١/ ٢٧٧).

هذا وسيكون تناول الموضوع من خلال المباحث التالية:

- **المبحث الأول**: تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾ وما ورد في معناها من الآيات والأحاديث.

- **المبحث الثاني**: الفتنة وأسبابها.

- **المبحث الثالث**: في أنواع من الفتن التي يجب الفرار إلى الله - عز وجل - منها وذكر شيء من صورها: فتنة الغربة - الفتنة في العقيدة - فتنة الدنيا - فتنة المعاصي وفشو المنكرات وترك إنكارها - فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين - الفتنة بالعلم - فتنة المصائب والمكاره - فتنة المسيح الدجال - فتنة الممات.

- **المبحث الرابع**: سبل الفرار من الفتن ومنارات النجاة منها.

- **الخاتمة**.

وفي نهاية هذه المقدمة أود الإشارة إلى ما قد يلتبس على بعض القراء من أن مضمون الرسالة قد تغير عما يوحي به عنوان البحث: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾ إلى أن يصبح حديثاً عن الفتن والفرار منها. وأقول: بأن لا تعارض بين عنوان الرسالة ومضمونها؛ حيث إن كل ما يسخط الله - عز وجل - فهو من الفتن التي يجب الفرار منها إليه - سبحانه - والاعتصام به في النجاة منها، والتوبة إليه من مقارفتها.

المبحث الأول

تفسير قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

قال الله عز وجل في سورة الذاريات: **﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** [الذاريات: ٥٠]. يقول الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - عند تفسير هذه الآية:

(لما تقدم ما جرى من تكذيب الأمم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد؛ أي قل لقومك: **﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** أي فروا من معاصيه إلى طاعته.

قال ابن عباس: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه: فِروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: **﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾**: اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شيء دون الله؛ فمن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورّاق: فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل؛ ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِروا مما سوى الله إلى الله. **﴿إِنِّي لَكُم**

مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية)[١] ا. هـ.

وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى معلقاً على الآية نفسها:

(فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته، والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه. أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً؛ إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فراراً من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر. فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية المراد والمطلوب. وسمَّى الله الرجوع إليه: فراراً؛ لأن في الرجوع إلى غيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحابّ والأمن، والسرور والسعادة والفوز. فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خِفْت منه فررت منه إلى الله - تعالى - فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه)[٢] ا. هـ.

● ويقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في (منزلة الفرار):

(قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء. وهو نوعان: فرار السعداء. وفرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله - عز وجل - وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

---

(١) تفسير القرطبي عند الآية (٥٠) من سورة الذاريات.

(٢) تفسير السعدي عند الآية (٥٠) من سورة الذاريات.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾: فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة)[1] ا.هـ

وأغلب أقوال المفسرين لا تخرج عن هذه المعاني السابقة في تفسير الآية.

فكلها ترجع إلى معنى واحد، وهو أن «**الفرار إلى الله**» هو: الفرار من المعصية إلى الطاعة؛ أي: الفرار من أسباب غضب الله - تعالى - إلى أسباب رحمته. والمراد منه: الفرار من غضب الله - عز وجل - وما يترتب عليه من العقوبة، إلى رحمته وما يترتب عليها من المعافاة، ومن أول ما يدخل في ذلك الفرار من الفتن ومضلاتها.

ومن الآيات التي تدخل في معنى الفرار واللجوء إلى الله - عز وجل -:

• قوله - تعالى - عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

﴿**حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ**﴾ [التوبة: ١١٨].

• وقوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [العنكبوت: ٢٦].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤٦٩.

• وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فاللجوء إليه سبحانه والذهاب والهجرة إليه. والمسارعة إلى مغفرته وجناته: كلها من معاني الفرار والهجرة إليه - سبحانه - وذلك بتوحيده والسعي إلى مرضاته وجنته هرباً من سخطه وعقوبته، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وله في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار في كل نَفَس إليه، وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب لله ومرضاته)[١].ا.هـ

ومن الأحاديث الواردة في معنى الفرار إلى الله عز وجل واللجوء إليه:

• قوله ﷺ: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢]. يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الدعاء العظيم:

(فليس هناك أسبابٌ مخلوقةٌ لغيره يستعيذُ منها المستعيذ به كما يستعيذ من رجل ظلمه وقهره برجل أقوى أو نظيره. فالمستعاذ منه هو

---

(١) مقدمة طريق الهجرتين: ص٩. ط دار الحديث.

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

الذنوبُ وعقوباتُها، والآلامُ وأسبابُها. والسببُ من قضائه، والمسبَّبُ من قضائه. والإعاذةُ بقضائه. فهو الذي يُعيذ من قضائه بقضائه. فلم يُعذْ إلا بما قدّره وشاءه. قدّر الاستعاذة منه وشاءها، وقدّر الإعاذةَ وشاءها.

فالجميعُ قضاؤه وقدره وموجَب مشيئته. فنتجتْ هذه الكلمةُ التي لو قالها غيرُ الرسول لبَادر المتكلمُ الجاهلُ إلى إنكارها وردّها. إنه لا يملكُ الضرَّ والنفعَ والخلقَ والأمرَ والإعاذة غيرُك. وإن المستعاذَ منه هو بيدك وتحت تصرفك ومخلوقٌ من خلقك. فما استعذت إلا بك، ولا استعذت إلا منك؛ وهذا نظير قوله في الحديث الآخر: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»[1].

فهو الذي يُنجي من نفسه بنفسه، ويعيذ من نفسه بنفسه. وكذلك الفرارُ، يفرُّ عبدُه منه إليه؛ وهذا كله تحقيقٌ للتوحيد والقدر، وأنه لا ربَّ غيرُه ولا خالقَ سواه، ولا يملكُ المخلوقُ لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، بل الأمرُ كله لله ليس لأحد سواه منه شيء. كما قال - تعالى - لأكرم خلْقه عليه ﷺ وأحسنهِم إليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

---

(١) جزء من حديث دعاء النوم، وأوله عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فلان! إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك. الحديث، رواه البخاري (٦٣١٣) في الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ومسلم برقم (٢٧١٠) في الذكر والدعاء.

وقال جوابًا لمن قال: هل لنا من الأمر شيء: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

[آل عمران: ١٥٤]

فالملك كله له، والأمرُ كله له، والحمدُ كله له، والشفاعةُ كلها له، والخيرُ كله في يديه؛ وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية. فلا إله غيره، ولا ربَّ سواه. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فاستعذ به منه، وفرَّ منه إليه، واجعل لجاك منه إليه؛ فالأمر كله له. لا يملك أحدٌ معه منه شيئاً؛ فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يَذهبُ بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سمّ ولا سحرٌ ولا شيطان ولا حيوان ولا غيرهُ إلا بإذنه ومشيئته؛ يصيب بذلك من يشاء ويَصرفه عمن يشاء.

فاعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه: «وأعوذ بك منك» فليس للخلق مَعاذ سواه، ولا مستعاذٌ منه إلا وهو ربُّه، وخالقه ومليكه، وتحت قهره وسلطانه.

ثم ختم الدعاءَ بقوله: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» اعترافاً بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته أعظم وأجل من أن يحصيها أحدٌ من الخلق، أو يبلغ أحدٌ حقيقة الثناء عليه غيره سبحانه؛ فهو توحيدٌ في الأسماء والصفات والنعوت، وذاك توحيدٌ في العبودية والتأله وإفراده تعالى بالخوف والرجاء والاستعاذة. وهذا مضادُّ الشرك، وذاك مضادُّ التعطيل. وبالله التوفيق)[١] ا.هـ

وفهماً وتطبيقاً لهذا الدعاء الجامع العظيم رأينا عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - يوم استشار الصحابة - رضي الله عنهم - في دخول الشام وقد حل بها وباء الطاعون يقول قولته الحكيمة التي ماخرجت إلا من فقه عظيم، وفهم دقيق لهذا الدعاء الجامع السابق بيانه.

وإتماماً للفائدة أسوق هذه القصة بتمامها كما رواها الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه:

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى بعد أن ساق سند الحديث:

(عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراءُ الأجناد ـ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ـ فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. قال ابن عباس: فقال عمرُ: ادْعُ لي المهاجرين الأولين، فدعاهم، فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجنا

---

(١) شفاء العليل ٢/ ٢٦٥ ت: مصطفى الشلبي

لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه. قال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدِمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعوا لي الأنصار؛ فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني. ثم قال: ادعُ لي من كان هاهنا من مَشيَخة قريش من مُهاجرةِ الفتح، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجُلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمرُ في الناس: إني مُصبِّحٌ على ظهر، فأصبِحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عُمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، **نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله**. أرأيت إن كانت لك إبلٌ هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيباً في بعض حاجته ـ فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» قال: فحمد الله عمرُ، ثم انصرف[١].

● ومن الأحاديث الواردة أيضاً في الفرار إلى الله عز وجل ما رواه الإمام البخاري – رحمه الله تعالى – في صحيحه عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم

---

(١) البخاري في الطب (٥٧٢٩) ومسلم في السلام (٢٢١٩).

غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[١].

وسيأتي شرح الحديث عند الكلام عن العزلة وضوابطها - إن شاء الله تعالى -.

* * *

(١) البخاري في كتاب الفتن (٧٠٨٨).

المبحث الثاني

الفتن وأسباب السقوط فيها

وقوع الفتن سنة ربانية لا تتبدل كما في قوله – تعالى –: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

وقد كتبها الله – عز وجل – على عباده لحكم عظيمة: منها تمييز المؤمنين من غيرهم، ومنها تكفير السيئات ورفع الدرجات، ومنها غير ذلك مما لا نعلم.

فعن حذيفة – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فاي قلب أُشْرِبها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر مرباداً، كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»[١]. والحديث عن الفتن وأسبابها يتطلب إفراد كلمة (الفتن) بالتعريف، والشرح، وتوضيح الفرق بين مدلولاتها.

(**فالفتن**): وهي بكسر الفاء وفتح التاء، جمع فتنة، قال الأزهري: (جامع معنى الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان، وأصلها مأخوذ من

---

(١) مسلم. ك. الإيمان (١٤٤).

قولك: «فتنت الفضة والذهب» أذبتهما بالنار ليتميز الرديّ من الجيد، ومن هذا قول الله – جل وعز –: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يحرقون بالنار، وقال ابن الأنباري: فتنت فلانة فلاناً، قال بعضهم: أمالته .... قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي يميلونك ... فتنت الرجل عن رأيه أي أزلته عمّا كان عليه ... والفتنة: الإثم في قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا...﴾ [التوبة: ٤٩].

وأما قول النبي ﷺ: «إني أرى الفتن خلال بيوتكم»(١) فإنه يكون القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين إذا تحزبوا. ويكون ما يبلون به من زينة الدنيا وشهواتها؛ فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها... والفتنة الإضلال في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] يقول: ما أنتم بمضلين إلا من أضله الله... والفتنة العذاب نحو تعذيب الكفار ضعفى المؤمنين في أول الإسلام ليصدوهم عن الإيمان. وأخبرني المنذري عن ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: الفتنة الاختبار، والفتنة المحنة، والفتنة المال، والفتنة الأولاد، والفتنة الكفر، والفتنة اختلاف الناس بالآراء، والفتنة الإحراق، وقيل الفتنة: الغلو في التأويل المظلم، يقال: فلان مفتون بطلب الدنيا أي قد غلا في طلبها. وجماع الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان)(٢) ا.هـ.

---

(١) البخاري كتاب المناقب (٣٩٥٧).

(٢) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩٧ – ٢٩٩ (باختصار).

مما سبق بيانه يتحصل لدينا أن الفتنة تطلق ويراد منها معان كثيرة يدل على كل معنى منها، ويعرف حسبما ورد بالسياق والقرائن، ومن هذه المعاني:

١ – الابتلاء والامتحان .

٢ – الميل عن الحق.

٣ – الإثم.

٤ – القتل والحرب.

٥ – الاختلاف والفرقة.

٦ – الإضلال.

٧ – الكفر.

٨ – العذاب.

٩ – الغلو. وغير ذلك من المعاني المذمومة.

والآن وبعد أن تبين لنا معنى الفتنة وما يتفرع عنها من المعاني، وبعد أن تبين لنا خطرها وذم الشرع لها، وجب الحذر منها ،والهرب والفرار والفزع إلى الله – عز وجل – من شرورها.

ومما يساعد على البعد عنها أو النجاة منها إذا وقعت معرفة أسبابها والطرق المؤدية إليها؛ لأن معرفة أسباب السقوط فيها تعين على الوقاية منها قبل وقوعها، أو النجاة منها بعد وقوعها بإذن الله – عز وجل –. وسيأتي إن

شاء الله تعالى تفصيل أسباب النجاة من الفتن في المبحث الأخير.

أسباب السقوط في الفتن أعاذنا الله منها:

الأسباب المؤدية إلى ملابسة الفتن والسقوط فيها كثيرة؛ لكنها لا تخرج في مجموعها عن سببين هامين يرجع إليهما جميع الأسباب.

وقد ذكر هذين السببين الإمامان الجليلان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالى - وعبرا عن ذلك بأسلوبين مختلفين لفظاً لكنهما متفقان في المعنى.

وأبدأ بما ذكره الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن هذين السببين، ثم أُثَنِّي بما ذكره الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -. وأختم هذا المبحث إن شاء الله تعالى بما تلخص من كلام الإمامين حول هذه الأسباب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -:

(ولا تقع فتنة إلا من تَرْك ما أمر الله به، فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر. فالفتنة: إما مِنْ تَرْك الحق، وإما من ترك الصبر.

فالمظلوم المحق الذي لا يقصِّر في عمله يؤمَر بالصبر، فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور. وإن كان مجتهداً في معرفة الحق ولم يصبر، فليس هذا بوجه الحق مطلقاً، لكن هذا وجه نوع حق فيما أصابه، فينبغي أن يصبر عليه. وإن كان مقصراً في معرفة الحق، فصارت ثلاثة ذنوب: أنه لم يجتهد في معرفة الحق، وأنه لم يصبه، وأنه لم يصبر.

وقد يكون مصيبا فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه، ولم يكن مصيباً في معرفة حكم الله في غيره؛ وذلك بأن يكون قد علم الحق في أصل يُختلف فيه بسماع وخبر، أو بقياس ونظر، أو بمعرفة وبصر، ويُظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار بذلك الحق عاص أو فاسق أو كافر. ولا يكون الأمر كذلك؛ لأن ذلك الغير يكون مجتهداً، قد استفرغ وُسْعَهُ ولا يقدر على معرفة الأول؛ لعدم المقتضى، ووجود المانع.

وأمور القلوب لها أسباب كثيرة، ولا يعرف كلٌّ أحد حالَ غيره من إيذاءٍ له بقول أو فعل. قد يحسب المؤْذَى ـ إذا كان مظلوماً لا ريب فيه ـ أن ذلك المؤذي محض باغٍ عليه، ويحسب أنه يدفع ظلمه بكل ممكن. ويكون مخطئاً في هذين الأصلين، إذ قد يكون المؤذي متأولا مخطئا. وإن كان ظالماً لا تأويل له فلا يحلّ دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة، وبما فيه شر أعظم من ظلمه. بل يؤمر المظلوم ها هنا بالصبر، فإن ذلك في حقه محنة وفتنة.

وإنما يقع المظلوم في هذا لجزعه وضعف صبره، أو لقلة علمه وضعف رأيه. فإنه قد يحسب أن القتل ونحوه من الفتن يدفع الظلم عنه، ولا يعلم أنه يضاعف الشر كما هو الواقع، وقد يكون جزعه يمنعه من الصبر.

والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين، فقال: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ٣][١] اهـ.

---

(١) الاستقامة ١ / ٣٩، ٤٠.

وهذا الكلام من شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - وإن كان متوجهاً إلى فتنة البغي والاختلاف بين المسلمين لكننا نجده يعمم ذلك على كل فتنة حيث يقول فيما سبق: (فالفتنة: إما من ترك الحق، وإما من ترك الصبر).

أما الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - فيحيل أسباب الفتن إلى الشبهات أو الشهوات وهما نفس ما ذكره شيخ الإسلام من الأسباب. فالشبهة إنما تنشأ من ترك الحق والجهل به، بينما تنشأ الشهوة من ترك الصبر وضعفه. يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

«والفتنة نوعان: فتنةُ الشبهات. وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات.

وقد يجتمعان للعبد. وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البَصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصد، وحصول الهوى؛ فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقُل ما شئت في ضلال سيِّئ القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ**﴾.

[النجم: ٢٣]

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيل الله، فقال:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدَع، على حسب مراتب بدعهم. فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دِقّ الدين وجلِّه، ظاهرة وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وما يُثبته لله من الصفات والأفعال، والأسماء، وما ينفيه عنه، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نُصُب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يُتلقى إلا عنه، ولا يُؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال.

فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول ﷺ، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه ردَّه، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة.

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات.

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ**﴾ [التوبة: ٦٩].

أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها. والخلاق هو النصيب المقدَّر، ثم قال: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾ فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار – سبحانه – في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين: إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول: هو البدع وما والاها، والثاني: فسق الأعمال.

فالأول فساد من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه». وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فدل على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك.

قال ابن عباس: «أولي القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله».

وقال الكلبي: «أولي القوّة في العبادة، والبصر فيها».

وقال مجاهد «الأيدي: القوّة في طاعة الله، والأبصار: البصرُ في الحق».

وقال سعيد بن جُبير: «الأيدي: القوّة في العمل، والأبصار: بصرُهم بما هم فيه من دينهم».

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»[١] فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة ـ والله المستعان»[٢] ا.هـ.

وبعد هذا الكلام النفيس من هذين الإمامين الجليلين والذي لا مزيد عليه في ذكر أسباب الفتن نجد التطابق التام في كلاميهما من ناحية المعنى والمضمون، بل في بعض الألفاظ أحياناً. ويمكن تلخيص هذه الأسباب فيما يلي:

(١) ترك الحق وعدم السعي للعلم به أو عدم إصابته بسبب شبهة أو تأول فاسد؛ ومن هنا تنشأ الفتنة بسبب الجهل أو الفهم الفاسد.

وهذا ما عبر عنه شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – بقوله: (ترك الحق)، وعبر عنه الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – بقوله: (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم) وقوله في موطن آخر من النقل السابق: (وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به) ويقول أيضاً عن هذه

---

(١) ضعفه العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣٨٥٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٦٥ – ١٦٧).

الفتنة: (وأصل كل فتنة إنما هو تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة).

(٢) ترك الصبر: وهذا هو السبب الثاني من أسباب الفتن، ولكن أصل الفتنة هنا لم يأت من الجهل بالحق، أو تقديم الرأي على الشرع، أو الشبهة المشوشة على الحق وإنما أصل الفتنة في هذا السبب هو عدم الصبر على الحق. فصاحب هذه الفتنة لا ينقصه العلم بالحق، بل يعلمه ولا يجهله ولكنه تركه ضعفاً وشهوة وهو يعلم من نفسه أنه تارك للحق، وهذا ما عبر عنه شيخ الإسلام بقوله: (فالمظلوم المحق الذي لا يقصر في علمه يؤمر بالصبر، فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور) أما الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - فعبر عن هذا السبب بقوله: (وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات) وقال عن هذه الفتنة أنها تدفع بالصبر، وقال عن أصل هذه الفتنة بأنه تقديم الهوى على العقل. ثم استدل كلا الإمامين على هذين الأصلين وكيف يدفعان بقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي تواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات.

كما أنهما استدلا بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر تدفع الشهوة والهوى، وباليقين تدفع الشبهة والجهل بالحق.

وبالتأمل في الفتن صغيرها وكبيرها ما كان منها على مستوى الأفراد وما كان فيها على مستوى الطوائف نجد أنها لا تخرج أبداً عن هذين

السببين، بل لو تأمل الإنسان نفسه وما يقع فيه من الآثام؛ فإن ما وقع فيه لا يخرج في سببه عن شبهة أو شهوة، أو مزجٍ بين شبهة وشهوة، أعاذنا الله من ذلك كله بمنه وكرمه، والشيطانُ لا يدخل على العبد إلا من باب الشبهة أو الشهوة ولا يبالي من أيهما دخل.

* * *

المبحث الثالث

ذكر بعض أنواع الفتن التي يجب الفرار منها إلى الله - عز وجل -

وفي هذا المبحث سأتعرض إن شاء الله - تعالى - إلى ذكر بعض أنواع الفتن التي يجب الانتباه لخطرها والحذر منها والفرار منها إلى الله - عز وجل -. ومنشأ الفتن كلها من فتنة الشيطان الذي حذرنا الله عز وجل منه بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧] ولذا فلن أفرد فتنة الشيطان بحديث مستقل؛ لأن الحديث عن أنواع الفتن المختلفة إنما هو في الحقيقة حديث عن فتنة الشيطان - أعاذنا الله منه ومن شرور الفتن ما ظهر منها وما بطن -.

وسأحاول إن شاء الله - تعالى - أن أربط الموضوع بواقعنا المعاصر؛ وذلك بذكر بعض الصور والمظاهر لكل نوع من أنواع الفتن في زماننا اليوم. أما ما يتعلق بسبل الفرار منها وأسباب النجاة منها فسأفرد المبحث الأخير - إن شاء الله تعالى - للحديث عن هذه الأسباب بشكل مفصل.

ولا بد في هذا المبحث الذي يتضمن ذكرَ بعض أنواع الفتن وذكرَ شيء من صورها أن يتخلله ذكرٌ شيءٍ من أسباب النجاة منها، خاصة عند ذكر النقولات التي يصعب فيها الفصل بين المظهر والعلاج.

ومن أنواع الفتن التي سيتناولها هذا المبحث ما يلي:

١ - فتنة الغربة.

٢ - الفتنة في العقيدة.

٣ - فتنة المعاصي وترك إنكارها.

٤ - فتنة الدنيا وزخرفها.

٥ - فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين.

٦ - الفتنة بالعلم.

٧ - فتنة المصائب والمكاره.

٨ - فتنة المسيح الدجال.

٩ - فتنة الممات.

أولاً: فتنة الغربة

إن البدء بالحديث عن هذه الفتنة يأتي من كونها نتيجة تراكم مجموعة من الفتن تنشأ الغربة بسببها. ويحسن بنا في بداية الكلام عن هذه الفتنة أن نتطرق لحديث الغربة والغرباء الذي ثبت عن النبي من عدة طرق، ثم نعرج على كلام السلف في شرحهم لهذا الحديث، ونختم الموضوع بذكر بعض مظاهر الفتنة في عصور الغربة وخاصة في زماننا اليوم.

روايات حديث الغربة:

(١) عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء» قال: قيل: ومن الغرباء؟ قال: «النُّزَّاع من القبائل»[(١)].

(٢) عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً؛ فطوبى للغرباء» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الذين يُصْلِحون إذا فسد الناس»[(٢)].

(٣) عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرِزُ بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»[(٣)].

(٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «طوبى للغرباء» فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[(٤)].

---

(١) الترمذي ٥/١٨، أحمد ١/٣٩٨، والبغوي في شرح السنة ١/١٨ وصححه.

(٢) أخرجه ابو عمر الداني في (السنن الواردة في الفتن) (٣/ ٦٣٣) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة ٣/ ٢٦٧.

(٣) مسلم شرح النووي ٢/٧٦.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧، ٢٢٢) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٦٦٥٠).

من خلال هذا السرد للروايات الصحيحة لحديث الغربة يتضح لنا وصف حال أهل الغربة، وأنهم نُزَّاع من القبائل، وهذا يشير إلى قلتهم. وأنهم يُصلِحُون إذا فسد الناس ،وأنهم أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم.

وتدلنا هذه الأوصاف المذكورة للغرباء أنهم أهل غيرة ودعوة وإصلاح ولم يكونوا صالحين يائسين مستسلمين لواقعهم الفاسد. كما تدلنا هذه الروايات على بقاء المصلحين مهما اشتدت الغربة ولو كانوا قلة ونزاعاً من القبائل. ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحق حتى يأتي أمر الله عز وجل.

ولذلك - والله أعلم - صدر الإمام الهروي رحمه الله تعالى منزلة الغربة بقوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ [هود: ١١٦].

وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في شرحه لمنازل السائرين عند هذه الآية: (استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن، فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله، (وساق حديث الغرباء السابق براوياته المختلفة) ثم قال: وقال نافع بن مالك: دخل عمر بن الخطاب المسجد فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبي ﷺ وهو يبكي. فقال له عمر: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ هلك أخوك؟ قال: لا، ولكن حديثاً حدثنيه حبيبي ﷺ وأنا في هذا المسجد، فقال: ما هو؟ قال: «إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا

لم يُفتقدوا، وإذا حضروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يَخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة»[١].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم في الناس جداً سُمُّوا: (الغرباء) فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فيهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم... إلى أن قال: وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم)[٢].

كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على حديث الغربة:

يعلق – رحمه الله تعالى – على الحديث فيقول:

(لا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً يجوز تركه ـ والعياذ بالله ـ بل هو كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ**

---

(١) أخرجه الآجري في (صفة الغرباء) (٣٨) وضعفه الألباني في الضعيفة (١٨٥٠).

(٢) مدارج السالكين ٣/ ١٩٤ – ٢٠٠ باختصار.

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]... ولا يقتضي هذا أنه إذا صار غريباً أن المتمسك في شر، بل هو أسعد الناس، كما قال في تمام الحديث: «فطوبى للغرباء».

(وطوبى) من الطيب؛ قال تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]. فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريباً. وهم أسعد الناس. أما في الآخرة؛ فهم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء - عليهم السلام -.

وأما في الدنيا؛ فقد قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

أي: أنَّ الله حَسبك وحسب متبعك... فالمسلم المتبع للرسول ﷺ، الله حسبه وكافيه، وهو وليه حيث كان ومتى كان، ولهذا يوجد المسلمون المتمسكون بالإسلام في بلاد الكفر لهم السعادة كلما كانوا أتم تمسكاً بالإسلام...

إلى أن قال: وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع، وكلَّ، وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر، والتوكل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار.

وقوله ﷺ: «ثم يعود غريباً كما بدأ»؛ يبين شيئين:

أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريباً بينهم ثم يظهر؛ كما كان في أول الأمر غريباً، ثم ظهر، ولهذا قال: «سيعود غريباً كما بدأ».

وهو لَمَّا بدأ غريباً، لا يُعرف، ثم ظهر، وعُرف، فكذلك يعود حتى لا يعرف، ثم يظهر ويعرف؛ فيقل من يعرفه في أثناء الأمر؛ كما كان من يعرفه أولاً.

ويُحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلماً إلا قليلٌ، وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثم تقوم القيامة.

وأما قبل ذلك؛ فقد قال ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة».

وهذا الحديث في «الصحيحين»[١]، ومثله من عدة أوجه...

وهذا الحديث يفيد المسلم أنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الإسلام ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدأ... وقد تكون الغربة في بعض شرائعه وقد يكون في بعض الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريباً...)[٢] ا.هـ.

---

(١) البخاري (٦/ ٦٣٢، ١٣/ ٤٤٢ الفتح) مسلم (١٣/ ٦٦ – ٦٧ النووي).

(٢) مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٩١ – ٣٠٥ (باختصار).

كلام الشاطبي - رحمه الله تعالى - على حديث الغربة:

تحدث الإمام الشاطبي عن حالة الإسلام في أول أمره والغربة التي مر فيها حتى ظهر وعلا على الدين كله فانقمع الشرك وأهله، ثم عرَّج على ظهور البدع بعد ذلك وانتشارها حتى رجعت غربة جديدة على الإسلام وأهله، ثم شرع يصف نفسه مع أهل زمانه وكيف آثر اتباع السنة مع كثرة المخالف والخصوم على اتباع البدعة والضلال فقال - رحمه الله تعالى - وهو يصف غربته وغربة أهل السنة بين أهل زمانه:

(فتردد النظر بين أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، لا سيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها؛ إلا أن في ذلك العبء الثقيل ما فيه من الأجر الجزيل، وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال؛ عائذاً بالله من ذلك؛ إذا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين، لا من المخالفين.

فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئاً، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت عليَّ القيامة، وتواترت عليَّ الملامة، وفوَّق إليَّ العتابُ سهامه، ونُسبتُ إلى البدعة والضلالة، وأُنزلتُ منزلة أهل الغباوة والجهالة.

وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجاً؛ لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعباً، وضيق عليَّ مجالاً رحباً، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات لموافقات العادات،

أوْلى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول.

وربما ألموا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستُكتب ويُسألون عنها يوم القيامة.

فتارة نُسبت إلى القول بأن الدعاء لا ينفع، ولا فائدة فيه؛ كما يعزي إليَّ بعض الناس؛ بسبب أني لم ألتزم الدعاء بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة، وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة، وللسلف الصالح، والعلماء.

وتارة نُسبت إلى الرفض وبغض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص؛ إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب.

وقد سئل أصبغ عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين فقال: «هو بدعة، ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة».

قيل له: فدعاؤه للغزاة والمرابطين؟

قال: «ما أرى به بأساً عند الحاجة إليه، وأما أن يكون شيئاً يصمد له في خطبته دائماً؛ فإني أكره ذلك».

ونص أيضاً عز الدين بن عبد السلام على أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة.

وتارة أضيف إليَّ القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكرهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة حمل عليَّ التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل على مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذاً في المذهب الملتزم أو في غيره، وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك، وللمسألة بسط في كتاب «الموافقات».

وتارة نسبت إلى معاداة أولياء الله؛ وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين - بزعمهم - لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نُسبت إلى مخالفة السنة والجماعة؛ بناء منهم على أن الجماعة التي أُمِرَ باتباعها - وهي الناجية - ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان، وسيأتي بيان ذلك بحول الله.

وكذبوا عليَّ في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد لله على كل حال.

فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه؛ إذ حكى عن نفسه فقال:

«عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين،

والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقاً أو مخالفاً، دعاني إلى متابعته على ما يقوله، وتصديق قوله، والشهادة له.

فإن كنت صدقته فيما يقول، وأجزت له ذلك ـ كما يفعله أهل هذا الزمان ـ سمّاني موافقاً.

وإن وقفت في حرف من قوله، وفي شيء من فعله؛ سماني مخالفاً.

وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد؛ سماني خارجيًّا.

وإن قرئ عليَّ حديث في التوحيد سماني مشبهاً.

وإن كان في الرؤية؛ سماني سالمياً.

وإن كان في الإيمان؛ سماني مرجئاً.

وإن كان في الأعمال؛ سماني قدرياً.

وإن كان في المعرفة؛ سماني كرَّامياً.

وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر؛ سماني ناصبياً.

وإن كان في فضائل أهل البيت؛ سماني رافضياً.

وإن سكت عن تفسير آية أو حديث، فلم أجب فيهما إلا بهما؛ سماني ظاهرياً.

وإن أجبت بغيرهما؛ سماني باطنياً.

وإن أجبت بتأويل؛ سماني أشعرياً.

وإن جَحَدتُهما؛ سماني معتزلياً.

وإن كان في السنن مثل القراءة؛ سماني شفعوياً.

وإن كان في القنوت؛ سماني حنفياً.

وإن كان في القرآن؛ سماني حنبلياً.

وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد منهم إليه من الأخبار ـ إذ ليس في الحكم والحديث محاباة ـ قالوا: طعن في تزكيتهم.

ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون عليَّ من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي؛ ومهما وافقت بعضهم؛ عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم؛ أسخطت الله - تبارك وتعالى - ولن يغنوا عني من الله شيئاً، وإني مستمسكٌ بالكتاب والسنة؛ وأستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم». هذا تمام الحكاية.

فكأنه - رحمه الله - تكلم على لسان الجميع، فقلَّما تجد عالماً مشهوراً، أو فاضلاً مذكوراً؛ إلا قد نُبِذَ بهذه الأمور أو بعضها؛ لأن الهوى قد يداخل المخالف، بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها، والهوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك؛ حمل على صاحب السنة أنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه، والتقبيح لقوله وفعله، حتى يُنسب هذه المناسب.

وقد نُقِلَ عن سيد العُبَّاد ـ بعد الصحابة ـ أويس القرني أنه قال:

«إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لم يدعا للمؤمن صديقاً: نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين، حتى ـ والله ـ لقد رموني بالعظائم، وايم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه».

فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريباً كما بدأ؛ لأن المؤالف فيه على وصفه الأول قليل، فصار المخالف هو الكثير، فاندرست رسوم السنة حتى مدّت البدع أعناقها، فأشكل مرماها على الجمهور، فظهر مصداق الحديث الصحيح)[١] ا.هـ.

من أقوال السلف في الغربة وأهلها:

• قال الأوزاعي – رحمه الله – في قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً... الحديث»: (أما إنه ما يذهب الإسلام ولكن يذهب أهل السنة حتى ما يبقى في البلد منهم إلا رجل واحد)[٢].

• وقال يونس بن عبيد – رحمه الله تعالى –: (ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها من يعرفها)[٢].

• وعن سفيان الثوري – رحمه الله تعالى – قال: (استوصوا بأهل السنة فإنهم غرباء)[٢].

---

(١) الاعتصام ١/ ٩٧ – ١٠١.

(٢) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة لابن رجب ص٢٨، ٢٩.

● وقال ابن رجب - رحمه الله تعالى -: (وهؤلاء الغرباء قسمان: أحدهما: من يصلح نفسه عند فساد الناس، والثاني: من يُصلح ما أفسد الناس وهو أعلى القسمين وهو أفضلهما)[١].

● وقال الحسن - رحمه الله تعالى -: (المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، له شأن وللناس شأن)[٢].

● وقال ابن رجب رحمه الله تعالى:

(ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكي ـ وكان من كبار العارفين في زمان أبي سليمان الداراني ـ يقول:

(إني أدركت من الأزمنة زماناً عاد فيه الإسلام غريباً كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريباً كما بدأ، إنْ ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتوناً بحب الدنيا، يحبُّ التعظيم والرئاسة، وإن ترغب فيه إلى عابدٍ وجدته جاهلاً في عبادته مخدوعاً صريعاً غدره إبليس، وقد صَعَدَ به إلى أعلى درجة من العبادة وهو جاهل بأدناها فكيف له بأعلاها؟ وسائرُ ذلك من الرعاع، همج عوج وذئابٌ مختلسة، وسباع ضارية وثعالب ضوارٍ، هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة).

خرَّجه أبو نعيم في «الحلية»[٣].

---

(١) كشف الكربة ص٣٢.

(٢) كشف الكربة ص٤٧.

(٣) الحلية لأبي نعيم ٩/ ٢٨٦.

فهذا وصفُ أهل زمانه فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهي التي لم تخطر بباله ولم تدر في خياله؟.[١] ا .هـ.

● روى الذهبي – رحمه الله تعالى – في السير عن أبي الحسين العتكي قال: (سمعت إبراهيم الحربي يقول لجماعة عنده: من تعدون الغريب في زمانكم؟ فقال رجل: الغريب: من نأى عن وطنه. وقال آخر: الغريب: من فارق أحبابه. فقال إبراهيم: الغريب في زماننا: رجل صالح عاش بين قوم صالحين، إن أمر بمعروف آزروه، وإن نهى عن منكر أعانوه، وإن احتاج إلى سبب من الدنيا مانوه ثم ماتوا وتركوه)[٢].

وخلاصة النقولات السابقة حول الغربة وأهلها:

(١) أن الغربة المطلقة في كل الأرض لا تكون إلا قبيل قيام الساعة، أما قبل ذلك فلن تخلو الأرض من قائمين بالحق ولو كانوا قلة، ولكن قد توجد غربة تامة في مكان دون مكان وفي جانب من الشريعة دون جانب. والله أعلم.

(٢) أن أهل الغربة الممدوحين في كل مكان وزمان هم الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة، أهل السنة والجماعة المتمسكة بالكتاب والسنة وفهم الصحابة –رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان.

(٣) أهل الغربة في كل مكان قليلون ولكن أثرهم على الناس عظيم؛

---

(١) كشف الكربة لابن رجب ص٣٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٢.

لأن من أهم أوصافهم أنهم يدعون إلى الله - عز وجل - ويصلحون ما أفسد الناس ويجددون لهم دينهم.

(٤) المخالف لأهل الغربة كثير، والأذى الذي يتعرضون له عظيم؛ لكنهم بالحق الذي يحملونه، والمهمة الشريفة التي يؤدونها، والصبر الجميل الذي يتحلون به ثابتون مطمئنون.

(٥) في حديث الغربة معنى لطيف أشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بقوله: (وهو لما بدأ غريباً لا يُعرف ثم ظهر وعرف؛ فكذلك يعود حتى لا يُعرف ثم يظهر ويُعرف)[1] ا. هـ.

وفي هذا رد على من يفهم من أحاديث الغربة انحسار الإسلام وعدم الأمل بعودته. وهذا ما يفهمه كثير من اليائسين من هذا الحديث. وفي كلام شيخ الإسلام السابق رد على هذا الفهم الخاطئ. وذلك أن الإسلام إذا عاد غريباً كما بدأ فإنه سيعود قوياً ظاهراً كما حصل ذلك بعد غربة الإسلام الأولى.

وهذا الفهم الصحيح هو الذي تشهد له أحاديث صحيحة كثيرة منها قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[2]، وقوله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز

---

(١) انظر ص ٣٨.

(٢) رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٩).

عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»[١].

(٦) الغربة في شدتها وعظم أجر أهلها ليست على رتبة واحدة وإنما هي متفاوتة، فهناك غربة أهل الإسلام بين أهل الأديان الكافرة، وأشد منها غربة أهل السنة والإيمان بين أهل الإسلام والفرق الضالة من أهل القبلة. وأشد منها غربة أهل العلم بين عامة أهل السنة. وأشد منها غربة العلماء المجاهدين الصابرين بين أهل العلم القاعدين. وهؤلاء هم الذين قال عنهم ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (هم أهل الله حقاً فلا غربة عليهم)[٢] وهم الذين قال عنهم النبي ﷺ: «إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قالوا: يا نبي الله أو منهم. قال: بل منكم»[٣].

(٧) أهل الغربة وإن كانوا قلة فهم السعداء حقاً ولا وحشة عليهم، وإن خالفهم أكثر الناس؛ فحسبهم راحة وطمأنينة أنهم في قافلة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) رواه ابن حبان بنحوه (٦٦٩٩ إحسان)، وصححه الألباني في السلسلة ١/٧.

(٢) انظر ص ٣٦.

(٣) أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير (٣٥٠٨) وصححه الألباني في السلسلة (٤٩٤).

مظاهر الغربة في زماننا اليوم:

وهي كثيرة ومتنوعة حتى إنها لتكاد تشمل جوانب الدين كله، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيل ذلك في الفقرات القادمة عند الحديث عن أنواع الفتن وصورها المختلفة مما سبق سردها في أول هذا المبحث.

ولكن يمكن إجمال أهم مظاهر الغربة في الأزمنة الحاضرة اليوم فيما يلي:

١ - غربة في العقيدة، فلا يوجد مَنْ هو متمسك بعقيدة السلف من جميع جوانبها إلا القليل من الناس؛ حيث تنتشر الخرافة والشركيات والبدع في أكثر بلدان المسلمين.

٢ - غربة في تطبيق الشريعة والتحاكم إليها، فلا يُحكم اليوم في أكثر بلدان المسلمين إلا بأحكام الإفرنج الكافرة.

٣ - غربة في الالتزام بأحكام الإسلام، سواء ما كان منها بين العبد وربه، أو بين العبد وبين الخلق؛ فلا يوجد الملتزم بها إلا القليل.

٤ - غربة في السلوك والأخلاق الفاضلة، وتزامن ذلك مع انفتاح الدنيا وكثرة الشهوات.

٥ - غربة أهل الحق ودعاة الإسلام، وتسلط الأعداء عليهم، وإيذاؤهم لهم بأشد أنواع الأذى والنكال.

٦ - غربة في عقيدة الولاء والبراء؛ حيث مُيِّعَتْ هذه العقيدة عند

كثير من الناس، وأصبح ولاء أكثرهم وحبهم وبغضهم للدنيا فحسب.

٧ - غربة في أهل العلم؛ حيث قلَّ أهل العلم الشرعي الصحيح، وانتشر الجهل وكثرت الشبهات.

مظاهر الفتنة في أزمنة الغربة:

إن من أشد ما يخشى على أهل الإسلام في أزمنة الغربة أربعة مظاهر من الفتن يمكن إجمالها فيما يلي: (والتفصيل يأتي في الحديث عن بقية أنواع الفتن كل في بابه) - إن شاء الله تعالى.

(١) - الفتنة التي تنشأ من الوقوع في الشبهات والتأثر بأهلها الذين هم الأكثرية في عصور الغربة، مما يحصل معه السقوط في فتن الشبهات سواء ما يتعلق منها بالعقائد أو الأعمال أو المخالفات الشرعية الأخرى، وتسويغ ذلك بشبهة شرعية تبرز عادة في غيبة الحق وفشو الجهل.

(٢) - الفتنة التي تنشأ من الوقوع في الشهوات التي تطمُّ وتنتشر عادة في عصور الغربة وقلة أهل الحق وانفتاح الدنيا بزخرفها على الناس؛ فلا يكاد يثبت ويستقيم على أمر الله - عز وجل - مع كل هذه الضغوط إلا القليل الذين يعتصمون بالله، ويقومون بأمره، ويدعون إلى سبيله. أما الكثرة الكاثرة الذين ضعف صبرهم، فتراهم يتنازلون عن دينهم شيئاً فشيئاً أمام مظاهر الغربة الفاتنة؛ سواء كان ذلك التنازل في العقيدة أو السلوك أو التزام الأحكام.

(٣) - فتنة اليأس والقنوط من ظهور الحق وانتصاره أمام تكالب الأعداء وتمكنهم وتسلطهم على أهل الخير بالأذى والابتلاء مما قد يؤدي

ببعض أهل الغربة إلى اليأس وترك الدعوة حين يرى (إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا وتصفق لهم الجماهير، وتتحطم في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة، وهو مهمل منكر لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً... فإذا طال الأمد وأبطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله)[١].

وإن فتنة اليأس والإحباط وترك الدعوة إلى الله - عز وجل - في عصور الغربة لا يقف عند حد؛ بل قد تؤدي بصاحبها - والعياذ بالله - إلى الضعف والنقص في دينه شيئاً فشيئاً أمام فتن الشبهات والشهوات؛ ذلك لأن أيامَ الغربةِ أيامُ فتنٍ وإغراءات وفشو منكرات وظهور وتمكين لأهل الباطل والفساد. فإن لم يكن للمسلم فئة صالحة - ولو كانت قليلة - يأوي إليها ويدعو معها إلى الله - عز وجل - حسب الوسع والطاقة فإنه لا بد وأن يتأثر بالفساد وأهله إلا من رحم الله - عز وجل - ومن غير المقبول عقلاً وشرعاً وحساً أن يبقى المسلم محافظاً على دينه أمام الغربة وهو تارك للدعوة بعيد عن أهلها، فإما أن يؤثرٌ أو يتأثر.

نعم! يمكن أن يترك المسلم الدعوة ويبقى محافظاً على دينه في حالة الاعتزال التام عن الناس في شعف من الجبال، ولا إخال هذا متيسراً في هذا

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧١٩، ٢٧٢٠ (باختصار).

الزمان، ثم لو كان ذلك ممكناً: فمن ذا الذي يدعو إلى الله - عز وجل - ويواجه الفساد. وعلى آية حال فالعزلة الشرعية لها أحكامها وضوبطها والتي سنأتي عليها إن شاء الله تعالى في مبحث (سبل النجاة من الفتن).

إذن: فلن ينجو من فتنة الغربة في أي زمان أو مكان إلا أحد رجلين:

- إما مجاهد في سبيل الله - عز وجل - داع إلى الخير آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر.

- أو رجلٌ معتزلٌ عن الناس في مكان من الأرض يعبد ربه، ولا يخالط الناس.

وما سواهما فهو على شفا هلكة، ولعل هذا مما يفهم من الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «مِنْ خَيْرِ معاش الناس لهم: رجل ممسك عنان فرسه يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يلتمس الموت، والقتل مكانه. أو رجل في رأس شعفة من الشعاب، أو بطن واد من هذه الأودية: يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»[1].

(٤): فتنة العجلة وقلة الصبر على الأذى في الغربة؛ مما يؤدي ببعض من يقاسي ضغوطها إلى التسرع والاصطدام مع أهل الفساد دون مراعاة للمصالح والمفاسد؛ فينشأ من جرَّاء ذلك فتنة أشد وفساد أكبر على أهل الغربة.

---

(١) مسلم في الإمارة (٣/ ١٥٠٣، ١٥٠٤) (١٨٨٩).

ثانياً: الفتنة في العقيدة

ومن أهم مظاهر الفتنة في العقيدة ما يلي:

ا ـ فتنة الشرك والمشركين.

ب ـ فتنة النفاق والمنافقين.

جـ ـ فتنة البدعة والمبتدعين.

ا ـ فتنة الشرك والمشركين

سمى الله - عز وجل - الشرك في كتابه العزيز بالفتنة، فقال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] وقال عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنة هنا في الآيتين بمعنى الشرك كما ذكر ذلك المفسرون.

والشرك هو أعظم الفتن في الدين والذي تهون في جنبه الفتن الأخرى وبخاصة الشرك الأكبر الذي يحبط جميع الأعمال، ويخرج صاحبه من الملة، ويخلده في نار جهنم؛ ولذلك وجب على المسلم أن يتقي هذه الفتنة بكل وسيلة، وأن يقدم ماله ونفسه دون دينه؛ فعن يونس بن جبير قال: شيَّعنا جندباً فقلت له: أوصنا قال: (أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن؛ فإنه نور بالليل المظلم وهدى بالنهار؛ فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عرض بلاء، فقدِّم مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاء،

فقدم مالك ونفسك دون دينك، فإن المخروب من خرب دينه، والمسلوب من سلب دينه، واعلم أنه لا فاقه بعد الجنة، ولا غنى بعد النار)[١].

ويحكي لنا التاريخ قصص الباحثين عن الحق الهاربين من الشرك وغضب الله - عز وجل - وندم بعضهم على بقائه في الشرك فترة من عمره ولم يسابق إلى التوحيد والدخول في ذلك مبكراً ومن هؤلاء:

سلمان الفارسي - رضي الله عنه - وبحثه عن الحق حتى اهتدى بعد رحلة طويلة وشاقة إلى الإسلام والتوحيد، ونبذ الشرك والمجوسية والقصة بطولها موجودة في كتب الحديث والسير[٢].

ومنهم: حكيم بن حزام - رضي الله عنه - حيث تأخر إسلامه إلى فتح مكة، وحسن؛ ومع ذلك بقي نادماً على تباطئه عن الإسلام وبقائه على الشرك. وقد بكى - رضي الله عنه - مرة فسأله ابنه: ما يبكيك يا أبة؟ قال: (خصال كلها أبكاني: أما أولها فبطء إسلامي؛ حيث سُبِقْتُ في مواطن كلها صالحة)[٣]. وكان رضي الله عنه إذا اجتهد في القَسَم قال: (لا والذي نجاني يوم بدر)[٤].

ومن هؤلاء أيضاً: زيد بن عمر بن نفيل حيث إن له قصة شبيهة بقصة سلمان الفارسي - رضي الله عنه - وقد ساق البخاري - رحمه الله تعالى - حديث زيد بن عمرو من نفيل في صحيحه فقال:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر القصة بطولها في مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٤١.

(٣) تهذيب الكمال ٧/ ١٨٣.

(٤) المصدر السابق ٧/ ١٨٥.

(قال موسى: حدثني سالم بن عبد الله ـ ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر ـ أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدِّين ويتبعه، فلقيَ عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلّي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكونُ على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيدٌ: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنَّىٰ أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبُدُ إلا الله. فخرج زيدٌ فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنَّىٰ أستطيع؟ فهل تدلُّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله؛ فلما رأى زيدٌ قولهم في إبراهيم ـ عليه السلام ـ خرج، فلما برزَ رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم)[1].

وقصص الباحثين عن التوحيد الهاربين من الشرك كثيرة وكثيرة، والمقصود بيان خطورة الشرك، وأنه رأس الفتن وأعظم المصائب، كيف لا وهو أصل الفساد في الأرض وهو الذنب الذي لا يغفره الله عز وجل، وصاحبه مخلد في النار. يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ: (فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره أو مطاع غير الرسول

---

(١) البخاري (٣٨٢٧ الفتح) كتاب مناقب الأنصار.

ﷺ، هو أعظم الفساد في الأرض؛ والإصلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ)[١] ا. هـ.

ومن أهم مظاهر فتنة الشرك ما يلي:

(١) الشرك في العبادة والنسك:

لا يزال هذا النوع من الشرك ضارباً بأطنابه في كثير من بلدان المسلمين، حيث عبادة الأضرحة والقبور والتعلق بالموتى استعانة واستغاثة وخوفاً ورجاءً ودعاؤهم من دون الله - عز وجل - ويتولى كبر هذه الفتنة رؤوس المتصوفة وأئمتهم الضالون المضلون برعاية من قبل الحكومات العلمانية التي تنشر فيها هذه المظاهر الشركية. وإن مما يحز في النفس ويبعث على الأسى أن هذه الفتن العظيمة وهذه المظاهر الخطيرة من الشرك والخرافة مع كثرتها وانتشارها، إلا أن جهود الدعوة والدعاة قليلة في مقابلها والتحذير منها وإنقاذ الناس من عقوبتها في الدنيا والأخرة، ولكي تتحقق النجاة من فتنة الشرك فإنه يجب التركيز في دعوة الناس على التوحيد أولاً، وإيضاح ما يضاده ويناقضه، وأن يكون لهذه الدعوة الأولوية عند الدعاة إلى الله - عز وجل - في كل مكان، وأن يجند لها كل وسيلة، وأن لا يطغى عليها أي جانب من جوانب الدعوة الأخرى؛ لأن فتنة الشرك فتنة عظيمة يهون عندها ما دونها من الفتن والمعاصي.

وثمة مسألة مهمة تتعلق بفتنة الشرك في العبادة والنسك يجب علينا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٤، ٢٥.

أن نهتم بها ونحذر من الوقوع فيها ألا وهي فتنة الخوف الشركي من المخلوق، أو الرجاء والرغبة والتعلق به تعلقاً لا يصلح إلا لله – عز وجل – فنحن نعلم أن الخوف والرجاء والرغبة والرهبة من أنواع العبادة التي لا يُتعبد بها إلا لله – عز وجل – فمتى ما حل بالقلب خوف التعظيم والسر من المخلوق أو التعلق به ثقة واعتماداً، وتفويضاً؛ فإن مثل هذا يعد من السقوط في فتنة الشرك سواء كان الأصغر منه أو الأكبر على تفصيل في ذلك(١).

(٢) فتنة الشرك في الطاعة والاتباع:

هذه الفتنة من فتن الشرك لا تقل عن سابقتها خطورة وشناعة، بل قد تكون أشد منها؛ وذلك لقلة من ينتبه من الناس لهذا النوع من الشرك؛ حيث لم تحصل الكفاية في التحذير منه وبيانه للناس. وأكثر الناس قد يحصر الشرك في شرك العبادة والنسك، فلا يراه إلا في السجود والركوع والذبح والنذر والاستعانة... إلخ فحسب. ولا يدور في الذهن أن العبد قد يقع في الشرك الأكبر بمجرد الطاعة والاتباع لشخص أو هيئة بدلت شرع الله – عز وجل – واستحلت ما حرم الله – عز وجل – وشرعت ما لم يأذن به الله – عز وجل – بشرط أن يعلم المتبع والمطيع أن المتبوعين قد استحلوا في شرعهم ما هو معلوم من الدين بالضرورة تحريمه، أو حرموا ما هو معلوم من الدين بالضرورة حله، فوافقهم على ذلك عالماً بأن التشريع من خالص

---

(١) انظر للفائدة فتح المجيد. باب قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾. وباب قول الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

حقوق الربوبية، وكان مختاراً غير مكره الإكراه الشرعي المعتبر؛ فإنه بهذا الصنيع يصير مشركاً بالله - عز وجل - في حكمه؛ حيث اعتقد أحقية التشريع والحكم لغير الله - عز وجل - وأطاعهم على ذلك قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي إن أطعتم المشركين في حل الميتة، واتبعتموهم على ذلك تاركين شرع الله - عز وجل - في تحريمها فإن هذا من فاعله شرك أكبر؛ كمن سجد أو ركع لصنم. وقد وصف الله - عز وجل - أهل الكتاب المطيعين لأحبارهم ورهبانهم في تشريع ما لم يأذن به الله - وصفهم بالشرك فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وإن هذه الصورة من صور الشرك لتظهر بشكل جلي في عصرنا اليوم؛ حيث نُبِذَ شرع الله - عز وجل - في أكثر بلدان المسلمين، وجاء الطواغيت بحكم الغرب الكافر ليُحكم به في دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم. فالحكم بتشريع البشر المناقض لشرع الله - عز وجل - هو شرك أكبر من فاعله العالم المختار، والمتبع الراضي بهذه التشريعات الطاغوتية هو الآخر قد وقع في فتنة الشرك إذا كان عالماً مختاراً.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً؛ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل؛ فيعتقدوا تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع

علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر؛ وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم؛ فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دونما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالم من أهل الذنوب[1]. ا. هـ.

وما دام أن الأمر بهذه الخطورة فقد وجب الحذر الشديد من هذه الفتنة وتحذير الناس منها وذلك بتفهيمها للناس، وتكثيف الكلام والكتابة حولها، ووجوب رفضها والبراءة منها وأنها تناقض الرضا بالله - عز وجل - رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً.

وإن مما يكرس هذه الفتنة من فتن الشرك ذاك المفهوم المنحرف للعبادة والذي يتولى كبره العلمانيون في كل مكان؛ وذلك بمساعدة الغزو الفكري الذي سُلِّطَ على ديار المسلمين إبان الاستعمار وبعده، فانحرفت كثير من المفاهيم الإسلامية الصحيحة، ومن بينها مفهوم العبادة الذي حصر في مجرد الشعائر التعبدية وما يلحق بها من ذكر ودعاء؛ ولا دخل للعبادة بعد ذلك في شؤون الحياة الأخرى فنشأ من ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة والدين والدولة، وأصبح بالإمكان عند بعض الناس أن يتلقى عبادته الشخصية من الإسلام، ولا مانع لديه أن يتلقى بقية شؤون حياته من

---

(١) كتاب الإيمان: (ص ٦٧).

الغرب أو الشرق الكافرين.

وقد سبق بيان أن ذلك شرك في الطاعة والاتباع والتلقي ولقد أسهمت بدعة الإرجاء التي تفصل العمل عن الإيمان بسهم وافر في تكريس مثل هذ الانحرافات والفتن؛ فانتشر الفساد من جراء هذا المعتقد الهدام وأصبح المبدلون لشرع الله عز وجل والمشرعون لأحكام الكفر الحاكمون بها في الناس في نظر هؤلاء بمنأى عن أن يقعوا في أنواع الشرك مهما عملوا؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله، ولم يستحلوا هذا التبديل!! ويرد هذا القول العلامة ابن عثيمين – حفظه الله تعالى – فيقول: (... وفي ظني أنه لا يمكن لأحد أن يطبق قانوناً مخالفاً للشرع يحكم به في عباد الله إلا وهو يستحله ويعتقد أنه خير من قانون الشرع، هذا هو الظاهر، وإلا فما الذي حمله على ذلك؟) ا.هـ[١].

(٣) فتنة الشرك في الولاء:

قال الله – تعالى –: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وقال – تعالى –: عن إمام الحنفاء إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٨].

---

(١) عن كتاب: فتنة التكفير (حاشية ص: ٢٨).

والآيات في ذكر توحيد الولاء لله - عز وجل - وما يلزم عليه من البراءة من الشرك وأهله كثيرة ومتنوعة. والمقصود هنا الإشارة إلى فتنة الشرك في الولاء والتحذير من خطرها والسقوط فيها؛ ذلك لأنها لم تعط الاهتمام الكافي الذي يليق بهذا الركن الركين من التوحيد وما يضاده من الشرك المتمثل بتولي أعداء الله المشركين، أو تولي نظمهم وأفكارهم الكفرية محبة ونصرة وتفضيلاً.

إن كلمة التوحيد تقوم على ركنين عظيمين لا تصح إلا بهما:

الأول: الولاء لله - عز وجل - المتمثل في توحيده وإخلاص العبادة والتوجه له - سبحانه - وموالاة من يحبه سبحانه من أنبيائه وعباده الصالحين كما قال تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** [المائدة: ٥٥، ٥٦].

الثاني: البراءة من كل ما يُعبد من دون الله - تعالى - والكفر به ومعاداته وبغضه. ولا تقوم كلمة (لا إله إلا الله) إلا على هذين الركنين الذين هما أيضاً ركنا الكلمة التي جعلها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - باقية في عقبه **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾** وقد جاء هذا المعنى في قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»[1]. ويعلق الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - على هذا الحديث بقوله: (فإنه لم يجعل

---

(١) صحيح مسلم. الإيمان (٢٣)، أحمد ٣/ ٤٧٢.

التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونـه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله؛ فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها!)[٢] ا.هـ.

إذن: فإن فتنة الشرك في الولاء وتولي أعداء الله المشركين بمحبتهم لدينهم أو محبة مذاهبهم الكفرية، أو نصرتهم على المسلمين بيد أو مال أو مشورة: كل ذلك من الشرك الأكبر الذي يجب على كل مسلم أن يحذر من السقوط فيه، كما يجب أن يحذّر غيره منه، وأن يعطى الحظ الأوفر من الكلام والكتابة حوله رحمة بالناس من أن يقعوا في شره وفتنته، وبخاصة في زماننا هذا؛ حيث تسلط الكفار على ديار المسلمين إما عسكرياً أو فكرياً، وتداعت الأمم الكافرة على الأمة المسلمة من كل حدب وصوب حتى انخدع بهم كثير من المسلمين وانبهروا بما عندهم من الإمكانيات المادية، ووافق ذلك جهلاً عند أكثر المسلمين، فسقط من سقط في هذه الفتنة العمياء، فتنة محبة الكافر ونظمه، وسقط ذلك الحاجز المنيع الذي وقف شامخاً في تاريخ المسلمين تتحطم عليه محاولات الكفار في غزوهم لقلوب المسلمين. فلم يكن للكفار طيلة ذلك التاريخ إلا البغض والجهاد والبراءة منهم.

أما اليوم وبعد أن ضعفت هذه العقيدة أصبحنا نسمع من ينادي بنبذ التعصب الديني والسلام مع الكافر، وأن يُحالَف بدل أن يُخالَفَ، ويعاهَد

---

(٢) كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (باب تفسير لا إله إلا الله) مسائل الباب.

بدل أن يجاهَد، وأن يعيش العالم الجديد في محبة وسلام... إلى آخر هذه الصيحات الخطيرة التي ما نبعت إلا من فتنة الشرك في الولاء وسقوط الركن الثاني من كلمة التوحيد ألا وهو الكفر بالطاغوت والبراءة من الشرك والمشركين، وما أعظمها من فتنة، وما أشنعها من مصيبة.

وبقيت مسألة أرى أنها جديرة بالذكر في هذا المقام؛ لأنها من الفتن أيضاً: وهذه المسألة هي ما نراه اليوم في أكثر ديار المسلمين من تجاهل لهذا الركن العظيم من أركان التوحيد ألا وهو الكفر بالطاغوت والبراءة من المشركين، بل قد يذهب بعضهم ـ ويا للأسف ـ إلى توجيه التهم الجائرة لكل من يثير هذا الأمر ويؤكد على خطره، ويحذر الناس من الوقوع في فتنته؛ ولا ندري ما سبب هذه التهم وهذا التشنيع: ألأنه حديث عن الطواغيت والكفر بهم وما أكثرهم في زماننا اليوم؟ أم هي ردة فعل لبعض التصرفات غير المنضبطة من بعض المتحمسين والمتسرعين؟ وفي جميع الأحوال لا يوجد أي مبرر لتجاهل هذا الركن العظيم لكلمة التوحيد، الذي ما شرع الجهاد إلا من أجله، وما أوذي الأنبياء وأتباعهم إلا بسببه، ويكفي المرء أن يستعرض ولو على وجه السرعة كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأحفاده وأئمة الدعوة بعده ـ رحمهم الله جميعاً ـ ليجد كم لهذا الأمر من شأن عظيم عندهم بحيث لا يخلو منه كتاب من كتبهم ولا رسالة من رسائلهم.

ألا فليتق الله أولئك الذين يُغفلون الحديث عن الكفر بالطاغوت عندما يتحدثون عن التوحيد. وليتقوا الله أيضاً في إخوانهم الذين يدعون إلى الله ـ عز وجل ـ ويدعون إلى التوحيد بشموله وأركانه ولا يطلقون التهم

الظالمة عليهم بجريرة الكلام على التوحيد والبراءة من المشركين؛ فهذا في حقيقة الأمر اتهام يتجاوز إلى أئمة السلف من القديم والحديث الذين كانوا دائماً يؤكدون في شرحهم لكلمة التوحيد على عبادة الله وحده والكفر بالطاغوت وبكل ما يعبد من دون الله – عز وجل – وما أحسن ما قاله ابن عقيل صاحب الفنون – رحمه الله تعالى –: (إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بـ «لبَّيك» وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة)[1] ا.هـ.

٤ – فتنة الشرك الأصغر:

والفتنة بهذا النوع من الشرك من أكثر الفتن انتشاراً على مستوى الأفراد – أعاذنا الله منه – ولا يسلم منه إلا من رحم الله – عز وجل –، وسمي أصغر بالنسبة للشرك الأكبر المخرج من الملة، وإلا فهو من أعظم الكبائر وأشنعها.

ولقد حذرنا ﷺ من شره وسماه الشرك الخفي، وأنه أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، وأنه من أمراض القلوب الخطيرة التي تؤول بصاحبها إلى الهلكة والبوار. ومن مظاهر هذا الشرك: الرياء والسمعة في الأقوال والأعمال، وإرادة العبد بعمله الدنيا، والعُجب بالنفس والعمل.

---

(١) الآداب الشرعية ١/ ٢٦٨.

وأسوق في هذا الموضوع آية من كتاب الله - عز وجل - لعلها توقظ القلوب الحية، وتنبهها على خطورة هذا المرض وشدة فتنته وفتكه بالأعمال، يقول الله عز وجل:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الآية في الباب الذي ترجم له في كتاب التوحيد بقوله: (باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا) وساق الطبري - رحمه الله تعالى - بسنده إلى مجاهد - رحمه الله تعالى - أنه كان يقول في هذه الآية: (هم أهل الرياء، هم أهل الرياء)[١].

كما ساق بسنده حديثاً عظيماً مروعاً عند هذه الآية غشي على أبي هريرة - رضي الله عنه - عند تحديثه به، وبكى معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - عند سماعه بكاءً شديداً، وقد جاء هذا الأثر في بعض كتب الحديث مختصراً، لكن رواية ابن جرير الطبري أتم وأشد تأثيراً. قال - رحمه الله تعالى -:

(... قال أخبرنا ابن المبارك، عن حيوة بن شريح قال: حدثني الوليد ابن أبي الوليد أبو عثمان: أن عقبة بن مسلم حدثه: أن شُفَيّ بن ماتع

---

(١) انظر تفسير الطبري عند الآية (١٥، ١٦) من سورة هود.

الأصبحي حدثه: أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة! فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدِّث الناس، فلما سكت وخلا، قلت: أنشدك بحق، وبحق، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلتَه وعلمتَه. قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ! ثم نشغ نشغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما فيه أحد غيري وغيره! ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، واشتد به طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية. فأول من يدعى به، رجلٌ جمع القرآن، ورجل قُتِلَ في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى، يا رب! قال: فماذا عملت فيما عُلِّمْت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار! فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان قارئ»، فقد قيل ذلك! ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب! قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جواد»، فقد قيل ذلك! ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال له: فيما ذا قُتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قُتلت. فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة:

كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جريء»، وقد قيل ذلك! ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة.

قال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة أن شفيّاً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيَّافاً لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبي هريرة، فقال أبو هريرة: وقد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس! ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هلك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ! ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، فقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١٥] وقرأ إلى: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦][1].

هكذا كان خوف السلف - رحمهم الله تعالى - من الشرك الخفي وفتنته وكان بعضهم ينصح بعضاً في هذا الأمر. (قال أبو بكر بن عياش للحسن بن الحسين بالمدينة: ما أبقت الفتنة منك؟ فقال: وأي فتنة رأيتني فيها؟ قال: رأيتهم يقبلون يدك ولا تمنعهم)[2].

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره عند الآية (١٥، ١٦) من سورة هود وعزاه (شاكر) إلى الترمذي في كتاب الزهد (باب الرياء والسمعة). وقال الترمذي: حسن غريب. لكن (شاكر) رحمه الله تعالى قال: إن هذا المتن له شواهد صار بها من جملة الحسن.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٠٠.

وهنا مسألة يجب الانتباه إليها ألا وهي الحذر من ترك أعمال الخير والدعوة إلى الله – عز وجل – بدعوى الخوف من الرياء وسلامة القلب من آثاره؛ فإن في هذا فتنة ومدخلاً شيطانياً لترك الصالحات وفشو المنكرات. يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

(ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى، أو قيام ليل، أو غير ذلك، فإنه يصليه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس، إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سراً لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء، ومفسدات الإخلاص..

... ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياء فنهيه مردود عليه من وجوه:

(**أحدها**): أن الأعمال المشروعة لا يُنهى عنها خوفاً من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياء، فالمنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢] فهؤلاء كان النبي ﷺ والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين، ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء؛ ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس.

(**الثاني**): لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم». وقد قال عمر بن الخطاب: من أظهر لنا خيراً أحببناه، وواليناه عليه، وإن كانت سريرته بخلاف ذلك. ومن أظهر لنا شراً أبغضناه عليه، وإن زعم أن سريرته صالحة.

(**الثالث**): أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشرك والفساد ينكرون على أهل الخير والدين إذا رأوا من يظهر أمراً مشروعاً مسنوناً، قالوا: هذا مُراءٍ، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة، حذراً من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشرك شوكة يظهرون الشر، ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد...)[1] ا.هـ.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ١٧٤، ١٧٥.

ب : فتنة النفاق والمنافقين

النفاق داء عضال، وفتنة عمياء تأكل الأخضر واليابس، بل تأكل الدين من جذوره. نعوذ بالله من النفاق وفتنته، ومن فتنته (أن يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر ... وكثيراً ما يخفى على من تلبَّس به" فيزعم أنه مصلح وهو مفسد)[1]. ويتناول الحديث عن هذه الفتنة جانبين مهمين:

١ - الفتنة التي تنشأ من تمكن النفاق من القلب.

٢ - الفتنة التي تنشأ من تمكن المنافقين وظهورهم .

أولاً: الفتنة التي تنشأ من تمكن النفاق من القلب:

النفاق على قسمين:

أحدهما: النفاق الاعتقادي: ويسمى النفاق الأكبر. وهو إبطان الكفر، وبغض الإسلام وأهله، وإظهار الإسلام ومحبة أهله. وهذا النوع من النفاق يعد أعظم فتنة يبتلى بها العبد؛ وذلك لأنه ينقل صاحبه من الملة، ويؤول بصاحبه إلى الخلود في الدرك الأسفل من النار؛ وأي فتنة أعظم من ذلك؟ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾ [النساء: ١٤٥] لأن المنافق اعتقاداً أشد جرماً وفتنة وذنباً من الكافر الصريح المظهر كفرَه. ويكفينا في ذكر شناعته وأهله وعظيم فتنتهم

---

(١) انظر مدارج السالكين ١/ ٣٤٧.

ما ذكر الله - عز وجل - عنهم في صدر سورة البقرة، وما ذكره الله - عز وجل - عن أوصافهم في سورة التوبة التي فضحت النفاق وأهله، وما جاء عنهم في سورة المنافقون.

والآيات في ذكر المنافقين وأوصافهم والتحذير من فتنهم كثيرة، وما ذكر عن فتنة الشرك وأنواعه في الفقرة السابقة فإنه من باب أوْلى ينطبق على هذا النوع من النفاق بل هو أشد؛ لأن مظاهر الشرك السابق ذكرها تظهر على أصحابها فيعرفهم الناس فيحذروهم أما المنافق الذي يبطن هذه الشركيات والكفريات ويظهر خلافها فإن فتنته على نفسه وغيره أشد.

ومن أول من يصدق عليه أوصاف المنافقين في عصرنا الحاضر أولئك الباطنيون الزنادقة من رافضة وإسماعيلية ودروز ونصيريين، وعلمانيين وغيرهم؛ ممن يظهرون الانتساب إلى الإسلام وهم يبطنون الكفر به وبغضه والسعي لهدمه وإطفاء نوره.

الثاني: النفاق العملي: (ويسمى النفاق الأصغر).

وهذا النوع من النفاق لا ينقل صاحبه عن الإسلام ما دام أصل الإيمان في القلب، لكنه سمي نفاقاً لتلبُّس صاحبه ببعض أعمال المنافقين التي يخالف فيها الظاهر ما في الباطن كالكذب والخيانة والغدر.. إلخ.

ولا شك أن هذه ذنوب عظيمة وصاحبها على خطر شديد، وقد عرض نفسه لفتنة النفاق الأكبر فيما لو تمكنت منه جميعها. وهذا النوع من النفاق هو الذي ورد ذكره في قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من نفاق حتى

يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[١].

وهذا النوع من النفاق هو الذي خافه السلف وأشفقوا من فتنته الكبرى؛ وحري بمن بعدهم أن يكونوا أشد خوفاً على أنفسهم من هذه الفتنة؛ فما يخافها إلا مؤمن، ولا يامنها إلا منافق. ومن هذه المواقف السلفية ما يلي:

- ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قوله:

(باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق. وما يُحذَر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [**آل عمران**: ١٣٥])[٢].

وإتماماً للفائدة أسوق شرح ابن حجر - رحمه الله تعالى - لهذه الآثار حيث يقول:

---

(١) البخاري ك. الإيمان (٣٤) (فتح ١/ ١١١) مسلم ك الإيمان ١/ ٧٨ واللفظ له (٥٨).

(٢) البخاري ك الإيمان (١/ ١٣٥فتح).

(قوله: (وقال إبراهيم التيمي) هو من فقهاء التابعين وعبادهم، وقوله «مكذباً» يروى بفتح الذال يعني: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي؛ فيقول: لو كنت صادقاً ما فعلت خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس. ويروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر، ومعناه أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل. وقد ذم الله من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ۝٣﴾ [الصف: ٣] فخشي أن يكون مكذباً أي مشابهاً للمكذبين، وهذا التعليق وصله المصنف في تاريخه عن أبي نعيم وأحمد ابن حنبل في الزهد عن ابن مهدى كلاهما عن سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن إبراهيم المذكور.

قوله: (وقال ابن أبي مليكة.. إلخ) هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد. وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولاً في كتاب الإيمان له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصراً كما هنا، والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلّهم: عائشة وأختها أسماء، وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجلّ من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع؛ وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى – رضي الله عنهم –. وقال ابن

بطال: إنما خافوا لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغير ما لم يعهدوه ولم يقدروا على إنكاره، فخافوا أن يكونوا داهنوا بالسكوت.

قوله: (ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل) أي لا يجزم أحد منهم بعدم عروض النفاق لهم كما يجزم بذلك في إيمان جبريل، وفي هذا إشارة إلى أن المذكورين كانوا قائلين بتفاوت درجات المؤمنين في الإيمان، خلافاً للمرجئة القائلين بأن إيمان الصدّيقين وغيرهم بمنزلة واحدة. وقد روي في معنى أثر ابن أبي مليكة حديث عن عائشة مرفوع رواه الطبراني في الأوسط لكن إسناده ضعيف.

قوله: (ويذكر عن الحسن) هذا التعليق وصله جعفر الفريابي في كتاب (صفة المنافق) له، من طرق متعددة بألفاظ مختلفة. وقد يستشكل ترك البخاري الجزم به مع صحته عنه، وذلك محمول على قاعدة ذكرها لي شيخنا أبو الفضل بن الحسين الحافظ - رحمه الله - وهي: أن البخاري لا يخص صيغة التمريض بضعف الإسناد، بل إذا ذكر المتن بالمعنى أو اختصره أتى بها أيضاً، لما علم من الخلاف في ذلك، فهنا كذلك؛ وقد أوقع اختصاره له لبعضهم الاضطراب في فهمه فقال النووي: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق» يعني الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]. وكذا شرحه ابن التين وجماعة من المتأخرين، وقرره الكرماني هكذا، فقال: ما خافه، أي: ما خاف من الله، فحذف الجار وأوصل الفعل إليه. قلت: وهذا الكلام وإن كان صحيحاً لكنه خلاف مراد المصنف ومن نقل عنه. والذي أوقعهم

في هذا هو الاختصار وإلا فسياق كلام الحسن البصري يبين أنه إنما أراد النفاق فلنذكره. قال جعفر الفريابي: حدثنا قتيبة حدثنا جعفر بن سليمان عن المعلى بن زياد: سمعت الحسن يحلف في هذا المسجد بالله الذي لا إله إلا هو: ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قط ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن. وكان يقول: من لم يخف النفاق فهو منافق)[1] ا.هـ.

● (عن مجاهد أن رجلاً قدم على ابن عمر فقال له: كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يُحِبُّ، وإذا ولَّينا عنه قلنا له غير ذلك، قال: ذاك ما كنا نعد ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)[2].

● كان أبو الدرداء (رضي الله عنه) إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال: دعنا عنك؛ فوالله إن الرجل ليقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيخلع منه[3].

● (عن خالد بن صفوان، قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرني عن حَسَن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام

---

(١) فتح الباري ١/ ١١٠، ١١١. (٢) المطالب العالية (٣/ ١٨٥) (٣٢٠٥).
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٨٢.

على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم؟)[١].

● عن أبي جعفر الحذاء قال: سمعت ابن عيينة يقول: (إذا وافقت السريرة العلانية فذلك العدل، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور)[٢].

وبعد هذه النقولات السريعة من مواقف السلف من فتنة النفاق وخوفهم على أنفسهم منها فإنه يمكن حصر أهم مظاهر النفاق في مظهر واحد ألا وهو:

مخالفة الظاهر للباطن ومناقضة العلانية للسريرة.

وهذا أهم مظهر من مظاهر النفاق، وقد يكون سبباً للنفاق الاعتقادي والخروج من الملة إذا وصل إلى حد إبطان الكفر وإظهار الإسلام - عياذاً بالله - وقد يكون نفاقاً عملياً إذا كان أصل الإيمان موجوداً ولكنه يبطن الكذب أو الغدر أو الخيانة، أو غير ذلك، ويظهر أضدادها؛ وهذا هو الذي يهم العبد المؤمن لكثرة من يقع فيه من المسلمين - أعاذنا الله منه - ولهذا النوع من النفاق صور عديدة منها:

(١) إظهار الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع أن الأمر في الباطن خلاف ذلك؛ حيث يكون حب الدنيا قد تمكن من القلب وسافر في

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٦.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٢٣٤).

أوديتها: يفرح بإقبالها، ويحزن لفواتها.

(٢) الاتصاف بخصلة أو أكثر من خصال المنافقين الواردة في الحديث من الكذب أو الخيانة أو الغدر وإخلاف الوعد.

(٣) إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه وأنه الهمُّ الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعدى اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى؛ لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم الأولوية. وهذه الصورة عادة ما تظهر عند بعض الوعاظ أو الخطباء أو الكتاب الذين يظهرون الحرقة والألم على الإسلام والمسلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلننتبه لخطر هذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة؛ فهي من صفات المنافقين التي ذكرها الله عز وجل عنهم بقوله: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وعندما اعتذر المنافقون عن تخلفهم يوم الحديبية بانشغالهم بالأموال والأولاد أكذبهم الله عز وجل بقوله: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١١].

وبين لهم أن الذي في قلوبهم هو سوء الظن بالله عز وجل: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١٢ ﴾ [الفتح: ١٢].

(٤) إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع مخالفة ذلك في غفلة الناس من غير عذر في ذلك قال عز وجل: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].

(٥) مخالطة الكفار أو الظلمة والفسقة ومدحهم أو موافقتهم فيما يقولون ويعملون من مخالفات ثم ذكرهم بالسوء بعد مفارقتهم، وهذا هو الذي كان أصحاب محمد ﷺ يعدونه من النفاق ويخافون منه.

(٦) إظهار المحبة والشفقة للناس وسلامة القلب نحوهم مع تلبُّس القلب بأمراض كثيرة تناقض هذا الادعاء؛ كأمراض الحسد والحقد والشحناء وغيرها.

(٧) ترك الاهتمام بأمر هذا الدين وأهله، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخذلان أهله، وعدم الاهتمام بأحوال المسلمين وشئونهم، وجعل مدار الاهتمام حول النفس ومصالحها الدنيوية من أموال وأولاد وغيرها. فمَنْ هذه حاله لا يدور إلا في فلك نفسه ودنياه؛ فإذا سلمت له المآكل والمشارب ومتع الدنيا فلا يهمه بعد ذلك شيء، بينما لو حصل له ما ينقص من دنياه لما قر له قرار ولا هدأ له بال حتى يدفع هذا النقص ويزيله بأي وسيلة كانت. قال تعالى عمَّن حضر غزوة أحد من طائفة المؤمنين، وطائفة المنافقين: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فوصف طائفة المنافقين بأنهم مهتمون بأنفسهم، ويخافون عليها الموت، ولا يهمهم وراء ذلك شيء.

(٨) الكسل عن الطاعات والتثاقل فيها، والمراءاة في بعضها، وقلة ذكر الله. وقد ذكر الله – عز – وجل هذه الأوصاف في قوله: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ**

النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٢] هذا وإن كانت هذه الآية في النفاق الاعتقادي لكن لا يمنع من الاستدلال بها في ذكر أعمال المنافقين والتحذير منها، وأن المسلم قد يتلبس ببعض أعمال الكفار أو المنافقين مع بقائه على أصل الإيمان لكن هذا ينقص إيمانه الواجب، ويخشى على صاحبه المصرّ عليها من سوء العاقبة – عياذاً بالله تعالى –.

يقول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: (من أصر على نفاق المعصية خُشِيَ عليه أن يفضي به إلى نفاق الكفر)[1].

ثانياً: الفتنة التي تنشأ من تمكن المنافقين وظهورهم:

عندما يتمكن الكفار الصرحاء ويظهرون على المسلمين فإن في هذا فتنة ومصيبة ولا شك، ولكن أعظم منها فتنة عندما يتمكن المنافقون المبطنون للكفر والزندقة والمظهرون للإسلام والانتساب إليه كما هو الحال في تمكن العلمانيين في أكثر بلدان المسلمين، أو تمكن دولة الرفض الخمينية التي تخدع الناس الجهلاء بحب آل البيت وحب الإسلام وهي تبطن كره الإسلام الحق، وتبغض السنة وأهلها، وتتمنى ذلك اليوم الذي تظهر فيه على أهل الإسلام؛ فلا ترقب فيهم إلاً ولا ذمة، وأوضح مثال لذلك ما قصه التاريخ الموثَّق علينا عن دور الرافضة في دخول التتار إلى ديار المسلمين والأفاعيل الشنيعة التي فعلت بالمسلمين في بغداد وغيرها؛ وكان من أسباب ذلك ممالأة ابن العلقمي الرافضي وطائفته لرئيس التتار وخيانته

---

(١) فتح الباري ١/ ١١١.

للخليفة العباسي الذي كان قد استوزره وقربه.

والسبب في كون فتنة المنافقين أشد من الكفار هو أن الكافر يعرفه الناس ويأخذون الحذر منه، ويبقى في النفوس بغضه وترقب اليوم الذي يزول فيه. أما المنافق المخادع للناس باسم الإسلام فقد يحبه أكثر الناس وينخدعون به فلا يبقى في النفوس بغضه وتمني زواله، فينشأ من ذلك فتنة وفساد كبير.

ومن أخطر صور الفتنة بالمنافقين صورة رئيسية واحدة تنبثق منها كل أشكال الفتنة بالمنافقين ألا وهي:

فتنة الخداع والتلبيس[١]:

وهي من أشد أنواع الفتن وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي تسلط فيه المنافقون على أكثر ديار المسلمين، وتمكنوا من وسائل التأثير والإعلام التي تعمل ليل نهار في خداع الناس باسم الإسلام والاحتفالات بمناسباته، وهم الذين أقصوا الإسلام عن الحكم والتحاكم، وهم الذين يسعون لتشويهه وإظهاره للناس بأنه صلة بين العبد وربه ولا دخل له بعد ذلك في شئون الحياة الأخرى.

ومن صور فتنة الخداع والتلبيس ما يلي:

١ - تسويغهم عزل الإسلام عن الحياة الاقتصادية والسياسية وغيرها من شئون الحياة بقولهم: إن دين الإسلام دين الصدق والنظافة والتقوى،

---

(١) انظر لمزيد من الفائدة رسالة: (ولا تلبسوا الحق بالباطل) للمؤلف.

وكل هذا لا يتفق مع ألاعيب السياسة ومهاترات السياسيين وأكاذيبهم؛ فلهذا ينبغي أن يُترفع بالإسلام عن دهاليز السياسة المتلوثة؛ كل ذلك بزعمهم حماية للإسلام ومحافظة عليه من هذه اللوثات. ومع ذلك فقد يوجد من ينخدع بمثل هذا الكلام الفارغ الفاجر، وبالتالي يسقط في فتنة التضليل والتلبيس.

٢ ـ ومن صور الخداع والتلبيس التي قد ينخدع بها بعض السذج من الناس ويسقطون في فتنتها: ما يرفعه المنافقون في أكثر بلدان المسلمين في وجه أهل الخير والإصلاح من أنهم دعاة شر وإرهاب وفساد، وما تجلبه وسائل الإعلام المختلفة وتدندن به على وصفهم ورميهم بهذه الأوصاف الظالمة حتى تأثرت بذلك بعض الأدمغة المخدوعة، فسقطت في فتنتهم، ورددت معهم هذا الظلم والخداع، وبالتالي تعرض أهل الخير للأذى والنكال باسم المصلحة الشرعية ومكافحة الإرهاب والفساد؛ وذلك بعد أن تهيأت أذهان المخدوعين من المسلمين لهذا الخداع والتلبيس.

وصور التلبيس والتضليل من المنافقين كثيرة جداً؛ والمقصود الحذر من فتنتها والسقوط في شباكها، والتفطُّن إلى أن المنافقين يستخدمون الإسلام دائماً ويتترسون به في تمرير ما يريدون من أغراضهم الخبيثة؛ فهذا شأنهم دائماً: التحريف، والتلبيس، وإثارة الشبهات؛ مستخدمين وسائل الإعلام الرهيبة في خداع الناس وتضليلهم. ورضي الله عن عمر بن الخطاب حيث قال: (لست بالخب ولا الخب يخدعني) ويعلق ابن القيم – رحمه الله تعالى – على هذه المقالة فيقول: (فكان عمر – رضي الله عنه – أورع من

أن يَخْدَعَ، وأعقل من أن يُخْدَع)[١].

٣ ـ اهتمام الحكومات العلمانية ببعض المناسبات الإسلامية كالاحتفال بمولد الرسول ﷺ وهجرته، أو ليلة النصف من شعبان، أو الإسراء والمعراج... إلى آخر هذه المناسبات التي لا أصل للاحتفال بها شرعاً وإنما هي من البدع المحرمة؛ ومع ذلك ينخدع بهذا التلبيس كثير من دهماء المسلمين، وتتحسن صورة أولئك المنافقين الذين يضللون الناس بهذا الخداع ويبدون في أعين المخدوعين أنهم يحبون الإسلام ويغارون عليه وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام وأهله، وهل يحب الإسلام ويعتز بالانتماء إليه من يرفض الحكم به والتحاكم إليه ويبدل شرع الله المطهر بنحاتات الأفكار وزبالات الأذهان الجاهلة الظالمة؟ لا، والله! إن مثل هذا يكذب في ادعائه حبَّ دين الإسلام؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ٣١] فهل يعي هذا المخدوعون المضلَّلون؟

● ومما يدخل في هذه الصورة أيضاً من صور التلبيس ما يقوم به بعض المنافقين المحادِّين لشرع الله ـ عز وجل ـ من إقامة بعض المؤتمرات أو الندوات الإسلامية، ويدعون إليها بعض العلماء والدعاة فيستجيب من يستجيب، ويرفض من يرفض، وكل هذا من ذر الرماد في العيون وتخدير دعاة المسلمين بمثل هذه الصروح الخبيثة التي هي أشبه ما تكون بمسجد الضرار الذي بناه المنافقون في عهد الرسول ﷺ، وادعوا أنه للصلاة وإيواء

---

(١) الروح ص٢٤٤.

المسافرين في الليلة الشاتية المطيرة، فأكذبهم الله - عز وجل - وفضح نياتهم بقرآن يتلى إلى قيام الساعة نهي فيه الرسول ﷺ عن دخوله والقيام فيه بل أمر بتحريقه قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

فهل آن الأوان أن نعي مثل هذه الفتنة والخداع فلا نستجيب لمثل هذه الدعوات، ولا نقوم في مثل هذه المؤتمرات أبداً؟ بل قد آن الأوان إلى أن تفضح مثل هذه اللافتات ويحذر الناس من شرها والوقوع في فتنتها؛ ويبين لهم أنها ضرب من الخداع وصورة من صور النفاق الماكر الخبيث.

٤ - إظهارهم لفسادهم بمظهر الإصلاح وارادة الخير بالأمة كما قال الله عـز وجل عنهـم: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾ [البقرة: ١١].

يقول سيد قطب - رحمه الله تعالى - عن هذه الآية:

(إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء: « **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** ».. لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير: « **قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ». والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جداً في كل زمان. يقولونها؛ لأن الموازين مختلة في أيديهم؛

ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية)[١].ا.هـ.

● ومما يدخل في هذه الصورة من صور الخداع والتلبيس ما يستخدمه منافقو زماننا من تحريف لنصوص الشريعة وتأويلات باطلة لها في تسويغ فسادهم ومواقفهم الجائرة؛ فهم مع جهلهم بأحوال الشريعة نراهم يخوضون فيها بلا علم إلا ما أشربوا من هواهم؛ فنراهم يسوِّغون الترخص بل التحلل من الشريعة بقواعد التيسير ورفع الحرج، وتغير الفتوى بتغير الحال والزمان.. إلى آخر هذه القواعد التي هي حق في ذاتها لكنهم خاضوا فيها بجهل وهوى فاستخدموها في غير محلها، فهي حق أريد بها باطل. ومع جهلهم بالشريعة وظهور القرائن التي تدل على خبث طويتهم إلا أن هناك من ينخدع بهذه الشبه والتحريفات الباطلة؛ ومن عجيب أمر القوم أنهم يرفضون الحكم بما أنزل الله - عز وجل - والتحاكم إليه، ولا يذعنون له، ومع ذلك نراهم في أحيان قليلة يرجعون إلى بعض الأدلة الشرعية ليمرروا ويبرروا من خلالها بعض فسادهم أو مواقفهم الباطلة؛ فما حاجتهم إلى الشرع في هذه المرة وهم كانوا يكفرون به من قبل؟ إنه الهوى والخداع والتلبيس على الناس قال تعالى في فضح هذا الصنف من الناس: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١١) من سورة البقرة.

لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

فينبغي لكل مسلم أن يحذر من شبه المنافقين وخداعهم وأن يقول لهؤلاء الذين يسوِّغون فسادهم بتحريف الأدلة الشرعية: ادخلوا في السلم كافة، وحكِّموا في الناس شرع الله - عز وجل - وارفضوا ما سواه؛ أما أن تنحُّوا شرع الله - عز وجل - عن الحكم حتى إذا كان لكم هوى في تمرير فسادكم بشبهة دليل رجعتم إليه؛ فهذا الذي قال الله - عز وجل - عن أهله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

٥ - موالاة المنافقين للكفار، وبخاصة اليهود والنصارى، والإعجاب بنظم الغرب وتقاليده، وفتح الباب لفسادهم وأفكارهم. وهذه من أعظم فتن المنافقين التي طمت وعمت في أكثر بلدان المسلمين، مستخدمين في ذلك الخداع والتلبيس على الناس في ذلك بدعوى المداراة وتحقيق المصلحة ودرء المفاسد.. إلى آخر هذه التأويلات التي يخادعون بها الناس لتسويغ توليهم للكفار؛ وقد ذكر الله - عز وجل - في كتابه الكريم أن هذه صفة لازمه للمنافقين قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١]، وقال عز وجل: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩] فهل بقي بعد كلام الله - عز وجل - عذر لأحد في انخداعه بالمنافقين الذين يتولون الذين كفروا من أهل الكتاب أو غيرهم؟ إن خطر المنافقين على الأمة في القديم والحديث كبير وفتنتهم شديدة؛ فما تمكن الكفار من بلدان المسلمين سواءً من الناحية العسكرية أو الفكرية إلا عن طريق المنافقين المخادعين الخائنين لدينهم وأمتهم، فالواجب فضحهم والتحذير من شر فتنتهم.

٦ - خداعهم لبعض المتحمسين لشرع الله وتطبيقه؛ وذلك بدعوتهم إلى مشاركات وطنية ومجالس نيابية يتعاون الجميع فيها على ما فيه صالح الوطن والمواطن كما زعموا! فيستجيب بعض الدعاة لهذا، وتجمعهم مع المنافقين الرافضين لشرع الله - عز وجل - مظلة واحدة، فيعرض الإسلاميون فيها مطالبهم كما يعرض العلمانيون والرافضة والشيوعيون مطالبهم الكفرية؛ ومعلومٌ ما في ذلك من مداهنة وتعاون على الإثم والعدوان، واستجابة لداعي الخداع والتلبيس الذي يتولى كبره المنافقون الذين يريدون من استجابه الإسلاميين لهم إضفاء صفة الشرعية على مجالسهم ونظمهم التي يحكمون بها ؛وبالتالي يتخدر الناس ويستنيم المطالبون بتحكيم شرع الله - عز وجل - ما دام أن للمسلمين صوتاً في هذه المجالس النفاقية الماكرة، ويا ليت أن هناك مصلحة قطعية يمكن تحقيقها للمسلمين تربو على المفاسد التي تنشأ من المشاركة، إذن لهان الخطب؛ لكن الحاصل من هذه التجارب هو العكس؛ حيث إن المستفيد الأول والأخير هم العلمانيون المنافقون. وقد لا يكون المشارك من المسلمين غافلاً عن هذا الخداع، ولكنه يدخل بغرض إقامة الحجة والدعوة إلى تطبيق الشريعة ومعارضة كل ما

يخالفها، ولكن هل هذا ممكن؟ وهل يسمح أهل الكفر والنفاق بذلك؟!!

الذي يغلب على الظن أن أعداء الشريعة لن يسمحوا إلا بالكلام فقط؛ وإذا تجاوز الإسلاميون ذلك إلى العمل، وتجاوزوا الخطوط الحمراء المرسومة لهم جاء دور الحديد والنار؛ وما تجربة الجزائر وتركيا عنا ببعيدتين.

٧ ـ فتنة المنافقين داخل الصف الإسلامي:

وهذا شأن المنافقين في كل زمان؛ فعندما تخفق جهودهم في الوقوف في وجه أهل الخير والصلاح، وعندما ينشط الدعاة ويظهر أثرهم في الأمة؛ فإن المنافقين يلجأون إلى وسيلة ماكرة وفتنة شديدة ألا وهي التظاهر بالحماس للدعوة والدخول في أوساط الدعاة مظهرين التنسك والغيرة على الدين، والحرص على العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى ينخدع بكلامهم المعسول بعض الطيبين من الدعاة، فتحصل الثقة بهم حتى إذا تمكنوا من مراكز التوجيه والدعوة بدأوا فتنتهم الكبرى على الدعوة وأهلها؛ مع استمرارهم في إظهار الخير والحماس لهذا الدين وتسويغ ما يقومون به من الممارسات بالحرص على مصلحة الدعوة وتميزها وصلابتها.

ومن أخطر صور الفتن التي تنشأ من هذا الصنيع ما يلي:

أ ـ فتنة التفريق وإثارة العداوات بين دعاة الإسلام:

وهذه من أعظم فتن المنافقين داخل الصف الإسلامي وفي أوساط الدعوة إلى الله - عز وجل - وقد فضح الله - عز وجل - المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار، وأظهر أهدافهم الخبيثة بقوله سبحانه: ﴿ **وَتَفْرِيقًا بَيْنَ**

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] قال المفسرون لهذه الآية: (لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء؛ فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الخلاف وافتراق الكلمة)[١].ا.هـ.

وهذا الضرب من الفتن لا يحتاج إلى تدليل فالواقع المر شاهد بذلك، ومع أن للافتراق أسباباً كثيرة كالجهل والهوى... إلخ؛ إلا أن أثر المنافقين الذين يدخلون في صفوف الدعاة لا يجوز إغفاله والتهوين من شأنه، وكون الفرقة تحصل بين أهل طريقتين مختلفتين في الأصول، فإن هذا الأمر واضح ومعقول ومقبول. أما أن يفترق أهل الطريقة الواحدة - طريقة أهل السنة والجماعة وطريقة سلف الأمة - فهذا أمر لا يعقل ولا يقبل، ولا يكون إلا وهناك يد خبيثة خفية وراء هذا الافتراق؛ فينبغي على الدعاة الحذر من هذه الأيدي والتفتيش عنها وفضحها وتطهير الصف المسلم منها. (وسيأتي الكلام عن فتنة التفرق والاختلاف في بحث قادم وبشكل مفصل -إن شاء الله تعالى-).

ب ـ فتنة التخذيل والتشكيك:

وهذه أيضاً من أعمال المنافقين المندسين في الصف المسلم حيث يسعون إلى بث فتنة التخذيل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك بدعاوى وشبه شرعية خادعة مؤداها توهين عزائم الدعاة وإضعاف هممهم، وبث الخوف في النفوس من الباطل وأهله، وتهويل قوة الأعداء

---

(١) تفسير البغوي ٤ / ٩٣ ط. دار طيبة.

وخططهم بصورة تبث اليأس في النفوس الضعيفة.

ج ـ فتنة الإيقاع بالدعوة والدعاة:

لا تقف مساعي المنافقين في إيصال الشر والأذى للدعوة وأهلها عند حد. فمن هذه المساعي الخبيثة التي يقومون بها داخل صفوف الدعاة بعد إظهار الحماس وبعد كسب الثقة والسماع لأقوالهم كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** ﴾ [المنافقون: ٤] وتحت ستار الغيرة على الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله - عز وجل - فإنهم يبدأون في دفع بعض الدعاة إلى مواجهات مع الباطل وأهله والزج بالدعوة في أعمال خطيرة تفتقد المستند الشرعي من جهة، وتؤدي بالدعوة وأهلها إلى الضمور والانكماش من جهة أخرى، إن لم يُقض عليها قضاءً مبرماً. وهذا هو ما يريده المنافقون المخادعون الذين قال الله - عز وجل - عن أمثالهم: ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ [التوبة: ٤٧]. يقول الإمام البغوي - رحمه الله تعالى - عند تفسير هذه الآية:

﴿ **لَوْ خَرَجُوا** ﴾ يعني المنافقين ﴿ **فِيكُم** ﴾ أي معكم، ﴿ **مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً** ﴾، أي: فساداً وشراً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿ **وَلأَوْضَعُوا** ﴾، أسرعوا، ﴿ **خِلالَكُمْ** ﴾، وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة، ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿ **وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ** ﴾ أي: أسرعوا فيما يخلُّ بكم. ﴿ **يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ** ﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون، وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك. وقال

الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العيب والشر. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بُغاءً إذا التمسته له، يعني: بغيت له.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]. ا.هـ.

* * *

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٦ ط. دار طيبة.

ج ـ فتنة البدعة والمبتدعين

عقد الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - باباً مستقلاً في كتابه النفيس (الاعتصام) ذكر فيه ذم البدع وسوء منقلب أصحابها والفتنة التي يتعرضون لها، وبين - رحمه الله تعالى - ذمها من وجوه كثيرة يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: بيان ذمها من جهة النظر: وذلك من وجوه:

ا ـ أنه قد علم بالتجارب أن العقول غير مستقلة بمصالحها استجلاباً لها أو مفاسدها استدفاعاً لها. بل لا بد لها من الوحي الذي ينير العقول والبصائر.

ب ـ أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

ج ـ أن المبتدع معاند للشرع ومشاق له، بل قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع.

د ـ أنه اتباع للهوى؛ لأن النقل إذا لم يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة.

ثانياً: ذمها من جهة النقل: وذلك من وجوه:

أ ـ ما جاء في القرآن الكريم مما يدل على ذم من ابتدع في دين الله في الجملة من ذلك قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [**آل عمران**: ٧] وقد ذكر بعض المفسرين أن أهل البدع داخلون في أهل الزيغ المذكورين في الآية؛ لأن أبا أمامة ـ رضي الله عنه ـ جعل الخوارج داخلين في عموم الآية.

ومن الآيات كذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

[الأنعام: ١٥٣]

ب ـ ما جاء في الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ وهي كثيرة جداً يكتفى بأصحها وأصرحها وهو قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١) وقد عد العلماء هذا الحديث ثلث الإسلام.

ج ـ ما نقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ في ذم البدع وأهلها والتحذير من فتنتها، وهي كثيرة جداً، وقد ذكروا فيها من الأوصاف المحذورة والمعاني المذمومة والآراء الخطيرة في الدنيا

---

(١) البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية (١٧١٨).

والآخرة على أصحابها)[١].

مظاهر الفتن التي يتعرض لها المبتدع في نفسه:

١ ـ عدم قبول العمل المبتدع؛ وذلك لأن من شروط قبول العمل الاتباع فيه للرسول ﷺ، وعدم الابتداع وقد قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢] وهل بعد إحباط العمل من فتنة؟ والإحباط هنا يخص العمل المبتدع فيه فقط، إذا كانت البدعة دون الكفر. أما إذا كانت بدعة كفرية تنقل صاحبها عن الإسلام فإن الحبوط يشمل الأعمال كلها عياذاً بالله تعالى لقوله عز وجل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٢ ـ التعرض لفتن أخرى أشد كفتنة الكفر أو النفاق لقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية: (أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو ﴿يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك)[٣] اهـ.

٣ ـ لم يعرف عن أكثر المبتدعين توبة ورجوع عن بدعتهم؛ ذلك للشبه الشديدة التي يتعلقون بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ فالإصرار على البدعة من الفتن أيضاً.

---

(١) بتصرف واختصار شديد عن كتاب الاعتصام ١/ ٤٦ – ٨٩.

(٢) مسلم في كتاب الأقضية (١٧١٨).

(٣) تفسير ابن كثير. الآية ٦٣ من سورة النور.

٤ ـ الخشية على المبتدع المصرّ على بدعته من حرمانه من شفاعة الرسول ﷺ أو الورود على حوضه الشريف يوم القيامة. فعن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت قال النبي ﷺ: «إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليَّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يا رب مني ومن أمتي. فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»[١]. فكان ابن أبي مليكة (راوي هذا الحديث عن أسماء) يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، وأن نفتن عن ديننا.

٥ ـ إن على المبتدع إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. [النحل: ٢٥].

ولقوله ﷺ: (... ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)[٢].

يقول الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: (فليتق الله امرؤ ربه، ولينظر قبل الإحداث في أي مزلة يضع قدمه في مصون أمره، أم يثق بعقله في التشريع ويتهم ربه فيما شرع، ولا يدري المسكين ما الذي يوضع له في ميزان سيئاته مما ليس في حسابه، ولا شعر أنه من عمله. فما من بدعة يبتدعها أحد فيعمل بها من بعده، إلا كتب عليه إثم ذلك العامل زيادة إلى إثم ابتداعه أولاً ثم عمله ثانياً)[٣].

---

(١) البخاري ك. الرقاق (٦٥٩٣).

(٢) مسلم في العلم (٢٦٧٤).

(٣) الاعتصام ١/ ١٦١.

٦ ـ الذلة والاحتقار وسوء العاقبة في الدنيا للمبتدعة ولو ظهروا في بعض الأحايين أنهم أعزة بلوذهم بالسلاطين وأهل الدنيا، والتاريخ يشهد بهذه النهاية البائسة لأهل البدع.

ولعلنا بعد هذا السرد المجمل لأخطار البدعة وشرورها ندرك أثر المنهج السلفي في النجاة من هذه الشرور، كما ندرك ونقدر تلك المواقف الحاسمة من سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – تجاه أهل البدع وهجرهم، والحذر الشديد من المبتدعة واعتزالهم وعدم مجادلتهم أو تمكين الأسماع منهم، كل ذلك حماية للقلوب من هذه الشرور والأخطار الآنفة الذكر.

وإكمالاً للفائدة أسوق فيما يلي بعض النقولات عن السلف الصالح التي تشهد على ذلك:

● كان الحسن رحمه الله تعالى يقول: (لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم)[١].

● عن سعيد بن عامر قال: سمعت أسماء يحدث قال: دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا. قال: تقومان عني وإلا قمت. فقام الرجلان فخرجا. فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأ آية؟ فقال: (إني كرهت أن يقرأ آية فيحرفانها فيقر ذلك في قلبي)[٢].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١/ ١٥٠.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٥٠.

• عن أيوب السختياني قال: قال لي أبو قلابة: يا أيوب: احفظ عني أربعاً: (لا تقولن في القرآن برأيك، وإياك والقدر، وإذا ذكر أصحاب محمد ﷺ فامسك، ولا تمكّن أصحاب الأهواء من سمعك)[١].

• عن معمر قال: كان ابن طاووس جالساً فجاء رجل من المعتزلة قال: فجعل يتكلم قال: فأدخل ابن طاووس أصبعيه في أذنيه قال: (وقال لابنه: أي بني: أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد لا تسمع من كلامه شيئاً، قال معمر: يعني أن القلب ضعيف)[٢].

• عن الفضيل بن عياض قال: (من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام، واحذروا الدخول على أصحاب البدع فإنهم يصدون عن الحق)[٣].

• عن عبد الرزاق قال: قال لي إبراهيم بن أبي يحيى: إني أرى المعتزلة عندكم كثيراً! فقلت: نعم، وهم يزعمون أنك منهم، قال: أفلا تدخل معي هذا الحانوت حتى أكلمك؟ قلت: لا. قال: لِمَ؟! قلت: (لأن القلب ضعيف وإن الدين ليس لمن غلب)[٤].

* * *

(١) المصدر السابق ١/ ١٥٢.

(٢) مصدر السابق ١/ ١٥٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٥٥.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٢.

مظاهر الفتن التي تنجم عن أهل البدع :

في الفقرة السابقة تبين لنا بعض مظاهر الفتنة التي يتعرض لها المبتدع في نفسه ودينه، وفي هذه الفقرة أذكر - إن شاء الله تعالى - بعض مظاهر الفتنة التي تحصل من المبتدعين ويُخشى على الناس أن يُفتنوا بها، وبخاصة من تلك الطوائف الضالة التي تمثل رؤوس البدع وأصولها، وهي وإن كانت جذورها قديمة إلا أن لها من يمثلها ويتبناها في زماننا اليوم.

ومن أشهر طوائف المبتدعة التي أجمع السلف على ذمهم ومفارقتهم لأهل السنة والجماعة :

١ - الخوارج. ٢ - الرافضة. ٣ - المرجئة. ٤ - القدرية. القدرية.
٥ - بدعة الجهمية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - :

(والبدعة التي يُعَدُّ بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتُها للكتاب والسنة، كبدعة : الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة... وقد قال عبد الرحمن بن مهدي: هما صنفان فاحذرهما : الجهمية والرافضة؛ فهذان الصنفان شرار أهل البدع)[١].

وهناك طوائف المعتزلة والأشاعرة وما هما إلا تطور وتفريع لتلك البدع التي أشار إليها شيخ الإسلام بأنها رؤوس البدع.

كما يدخل في طوائف البدع أيضاً الفرق المتعددة للصوفية الغالية التي

---

(١) مجموع الفتاوى ج٣٥ ص٤١٤.

قد يصل بعضها إلى البدع المكفرة المخرجة من الملة كالقبوريين والمدعين لأئمتهم ما لا يصلح إلا الله - عز وجل -.

ومقام البحث هنا ليس من هدفه التفصيل في بدع كل طائفة ومفارقتها للحق والرد عليها، وإنما المقصود الإشارة إلى بعض هذه الطوائف ومظاهر الفتنة التي تفرزها كل طائفة ويخشى على الناس منها، وذلك فيما يلي:

أ - فتنة الخوارج:

بدأت فتنتهم في منتصف خلافة علي - رضي الله عنه - على إثر الخلاف الذي تعرض له بعض الصحابة - رضي الله عنهم - باجتهاد منهم، وذلك في الفتنة التي جرت بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - فظهرت الخوارج أثناء هذه الفتنة سنة ٣٧ هـ حيث اعترضوا على قبول التحكيم مع أنهم هم الذي أكرهوا علياً - رضي الله عنه - على قبوله، وزعموا أن علياً رضي الله عنه حكَّم الرجال في دين الله - عز وجل - وناظرهم علي - رضي الله عنه - وحاول أن يزيل ما لُبِّسَ عليهم من الشبهات، فرجع ثلثهم، وأصر بقيتهم على ضلالهم حتى انتهى بهم الأمر إلى قتاله ومقاتلته لهم.

وآل الأمر بالخوارج إلى تكفير أكثر الصحابة - رضي الله عنهم - بل وتكفير كل من خرج عن عقيدتهم، وأصبحت بعد ذلك تحكم على كل مرتكب للكبيرة بأنه كافر حلال الدم والمال ومخلد في النار يوم القيامة إن لم يتب منها في الدنيا. هذا هو مجمل فكر الخوارج المنحرف وكيف نشأوا.

والآن يمكن إجمال أهم أشكال الفتنة التي يجب الحذر منها في هذا الفكر المنحرف فيما يلي:

١ - فتنة تكفير المسلم الذي ظهرت عليه دلالات الإسلام ولم يأت بناقض من نواقض الإيمان؛ وإنما لأنه لم يكن في صفهم ومن جماعتهم أو أنه في معسكر السلطان أو أنه مرتكب لكبيرة من الكبائر. وبذلك حكموا على السواد الأعظم من المسلمين وعلمائهم الذين لا يرون رأيهم بالكفر والبراءة منهم. ويلحق بالخوارج أولئك الذين يتوقفون في الحكم على الأشخاص الذين ظهرت عليهم دلالات الإسلام ولم يتلبسوا بناقض، بحجة علو رايات الكفر في ديارهم.

٢ - ترتب على الحكم السابق فتنة أخرى لازمة لها ألا وهي استباحة دماء المعصومين من المسلمين وأموالهم، وهذا أمر لازم ونتيجة طبعية للتكفير، وهذا شأن الفتن؛ فإنها لا تقف عند حد، بل يولد بعضها بعضاً أعاذنا الله منها.

٣ - المروق من جماعة المسلمين، ومفارقة ما عليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة، واتباع غير سبيل المؤمنين الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان. ولذلك كان السلف - رحمهم الله تعالى - يستدلون على أهل البدع من الخوارج وغيرهم بقوله - تعالى -: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ [النساء: ١١٥].

ويرون أن الخوارج هم الذين عناهم الرسول ﷺ بقوله: « تمرق مارقة

عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق»[١].

٤ – إثارة الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وإثارة الشحناء والبغضاء ووضع السيف بينهم، والانشغال بذلك عن جهاد أهل الكفر والإشراك الذين أُمِرَ أهل الإسلام بمجاهدتهم والغلظة عليهم.

٥ – تقنيط المسلم من رحمة الله، والتالي على الله – عز وجل – بعدم المغفرة لأصحاب الذنوب التي هي دون الشرك، وحرمانهم من الجنة.

وبقي في هذه الفتنة أن أشير إلى وجود أصحاب هذه الفتنة في زماننا اليوم كجماعات التكفير في مصر وغيرها وكطائفة الإباضية في شمال إفريقيا وعُمان: الذين يقولون بقول المعتزلة في القرآن وفي مرتكب الكبيرة وفي القدر والأسماء والصفات ونفي الرؤية... إلخ.

أسأل الله عز وجل أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهنا ينبغي الإشارة إلى أمر جدير بالانتباه ألا وهو ضرورة معرفة الوقت والحال التي تبرز فيه هذه الفتنة، فإن كانت في حال تمكن لأهل السنة وولاتهم سواء كانوا ولاة عدل أو جور؛ فإن المتعين منابذة الخوارج ولزوم جماعة المسلمين وإمامهم. أما لو كانت المواجهة بين الخوارج وبين أئمة الكفر والزندقة والخارجين على الإسلام فإن الأمر والحالة هذه يحتاج إلى

(١) انظر تمام الحديث عند مسلم. ك الزكاة (١٠٦٥).

تمحيص وتدقيق وموازنة بين مفسدة الخوارج ومفسدة الكفرة المواجهين لهم، وأن يُحذر من أن يجد أهل السنة أنفسهم في صف الكفرة المارقين بحجة مواجهة فكر الخوارج والفرار من فتنتهم. فإما أن يصرح بالبراءة من الفريقين مع بيان أن الكفر أشد من البدعة إن كان هذا ممكناً. وإلا فليحذّر من بدعة الخوارج بصورة لا تصلح أن تستغلها الأنظمة الكفرية في محاربة الدعاة في شخص الخوارج وكسب ولاء العامة في صفهم.

ولا بد هنا من التنبيه على أمر آخر ألا وهو أن باب المصالح والمفاسد وتقديرهما والترجيح بينهما مقام عظيم لا يصلح لكل أحد أن يقتحمه؛ بل لا بد من عرضها على الفقيه المجتهد الذي يجمع بين العلم الواسع بشرع الله عز وجل والعلم بأحوال النوازل ولديه من الدين والورع ما يحميه من كتم الحق أو لبسه بالباطل. ولذلك فإني أنصح نفسي وإخواني الدعاة عدم الجرأة والتسرع في تقدير المصالح والمفاسد والترجيح بينهما. وأن تترك للفقهاء المجتهدين الورعين ولا سيما في مثل هذه القضايا التي تتعلق بالدماء والأموال والأعراض، فكم من المظالم والانتهاكات ارتكبت بدعوى تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

فتنة الشيعة الروافض:

(التشيع لعلي رضي الله عنه - كان في أول أمره معتدلاً حيث كان بعض الصحابة من شيعته وأنصاره يوم الجمل وصفين من غير تعرُّض لأحد من الخلفاء قبله بسب أو تجريح، ثم ظهر رجل يهودي هو عبد الله بن سبأ ادعى الإسلام، وزعم محبة آل البيت، وغلا في علي - رضي الله عنه -

وادعى له الوصية بالخلافة ثم رفعه إلى مرتبة الألوهية.

ثم تعددت بعد ذلك فرق الشيعة وأقوالها إلى عشرات الفرق والأقوال وهكذا ابتدعت الشيعة القول بالوصية والرجعة والغيبة بل والقول بتأليه الأئمة)[١].

والمتأمل في أصول الشيعة الرافضة يرى الكفر والزندقة سواء ما يتعلق بغلوهم في أئمتهم أو سبهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أو اعتقادهم بتحريف القرآن... إلخ ومع ذلك فهم في عصرنا الحاضر يخفون هذه الكفريات، ويظهرون التَّقِيَّة ويخدعون الناس الجهلاء تحت شعار حب آل البيت أو مقارعة الظالمين أو رفع راية الجهاد في سبيل الله أو نصر المستضعفين من المسلمين إلى آخر هذه الشعارات البراقة التي يفتنون بها الناس. وقد زاد الأمر فتنة وتلبيساً بعد أن قامت لهم دولة وكيان، فأصبحوا يفتنون الناس بهذه الضلالات من موقع القوة المادية والمعنوية.

وقد سبق الإشارة إلى هذه الفتنة عند الحديث عن فتنة المنافقين الباطنيين فهم في الحقيقة أقرب وألصق بالنفاق الاعتقادي منهم إلى البدعة والمبتدعين. وقد بلغ من ضلالهم وخداعهم أن وجد من بعض دعاة أهل السنة من انخدع بفتنتهم وأخذ يدعو إلى التقارب معهم[٢].

---

(١) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١ / ٣٥ بتصرف واختصار.

(٢) انظر للرد على دعاة التقريب كتاب (مسألة التقريب بين السنة والشيعة) للدكتور ناصر القفاري ــ حفظه الله تعالى.

وبحكم تمكنهم وقيام دولتهم الآن فهم يفتنون إخواننا أهل السنة عندهم سجناً وقتلاً، ولا يعلم بذلك إلا القليل من المسلمين.

فتنة المعتزلة:

أصل المعتزلة يرجع إلى واصل بن عطاء الذي اختلف مع الإمام الحسن البصري – رحمه الله تعالى – في مرتكب الكبيرة؛ حيث قال الحسن فيها برأي أهل السنة بأن مرتكب الكبيرة: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وقال واصل: إنه بمنزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. وترتب على هذه المخالفة أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن؛ فسُمُّوا بذلك المعتزلة، ثم تطورت وتفرعت أفكارهم بعد ذلك ودخل فيهم التجهم والقول بقول القدرية. واستقرت بدعتهم على أصول خمسة:

١ – العدل: ويقصدون به القول بقول القدرية الذي هو التكذيب بالقدر، زعموا بذلك تنزيه الله – تعالى – عن الظلم.

٢ – التوحيد: وحقيقته التعطيل وإنكار وسلب الصفات، زاعمين بذلك تنزيه الله تعالى عن الشبيه.

٣ – المنزلة بين المنزلتين: وهي أصل بدعة الاعتزال كما سبق، وأنهم لا يحكمون لمرتكب الكبيرة بإيمان ولا كفر.

٤ – الوعد والوعيد: وفيها الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار يوم القيامة.

٥ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وحقيقته عندهم الخروج على

ائمة الجور ومفارقة جماعة المسلمين وإمامهم بمجرد تلبُّسه بأي نوع من أنواع الفسق أو الظلم.

والمتأمل في هذه الأصول الخمسة يرى أن المعتزلة قد انطوت على أكثر من بدعة وضلالة؛ فهم في الأسماء والصفات متأثرون برأي جهم وفرقته، وفي القدر بالقدرية، وفي الوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متأثرون بالخوارج. فهي ظلمات بعضها فوق بعض - أعاذنا الله منها -.

ولما كانت الفتن يجر بعضها بعضاً فإن المعتزلة لما واجههم السلف بنصوص الكتاب والسنة المفنِّدة لآرائهم والداحضة لحججهم لجأوا إلى بدعة أخرى هي أصل أصولهم الا وهي: تقديم العقل على النقل، وتأويل النص المتواتر إذا خالف عقولهم، ورد أحاديث الآحاد وعدم الاحتجاج بها في مسائل الاعتقاد.

والفتنة بالعقل من أعظم الفتن التي فتنت المعتزلة في القديم، كما فتنت المتأثرين بهم في زماننا اليوم ممن يسمون بالعقلانيين أو العصرانيين أو المتنورين... إلخ[١] وإن كان بعضهم قد لا يلتزم بالضرورة بكل آراء المعتزلة المشار إليها آنفاً إلا أنهم يتفقون معهم في المنطلق الا وهو تقديس العقل وتأويل ما يتعارض معه أو رده، ولذلك نجد في عصرنا اليوم من لا يأخذ بحديث الآحاد ولو كان في البخاري ومسلم، كما نجد من يؤول

---

(١) انظر لمعرفة هذا الفكر والرد عليه كتاب: (العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب) للاستاذ محمد حامد الناصر.

النصوص التي لا يستطيع ردها بما يوافق العقل. ونجد منهم من ينال من أصحاب الرسول ﷺ والتابعين لهم من سلف الأمة في وقوفهم مع الأثر وإخضاع العقل له.

وليس المقام هنا مقام تفصيل هذه القضايا وذكر رموز هذه المدرسة المعاصرة والرد عليهم، وإنما أردت الإشارة إلى هذه الفتنة وخطرهاوضرورة الحذر منها ومن أهلها، والوقوف مع نصوص الكتاب والسنة الصحيحة والعض عليها بالنواجذ، وتقديمها على الرأي والعقل، والاستسلام لها سواء أدركها العقل أم لم يدركها. وهذا ما كان عليه سلف الأمة في استدلالهم ومناظرتهم لأهل البدع.

فهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - عندما كان يناظر في محنته بالقول بخلق القرآن لا يزيد على قوله: لا أدري ما تقولون: إيتوني بدليل من القرآن أو السنة على ما تقولون. وبهذا المنهج حمى الله - عزل وجل - أهل السنة من الزيغ والانحراف.

وأسوق بهذه المناسبة صورة من صور المناظرة التي تمت بين عالم من علماء السلف المتبعين للأثر، وبين واحد من أئمة الاعتزال المفتونين المقدسين للعقل والمفتونين بالمنطق وعلم الكلام؛ وذلك ليبين لنا الفرق بين الحق والباطل ،وبين منهج أهل الأثر وأهل الرأي والنظر.

قال الذهبي: أخبرنا المسلَّم بنُ علان وغيره كتابةً أن أبا اليُمن الكندي أخبرهم: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، أخبرنا أبو بكر الخطيب، حدثنا محمد بنُ الفرج البزاز، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن ماسي، حدثنا جعفر

ابنُ شعيب الشاشي، حدثني محمد بن يوسف الشاشي، حدثني إبراهيم ابن أمية، سمعت طاهر بن خلف، سمعت المهتدي بالله محمد ابن الواثق، يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتُل أحداً، أحضرنا، فأتي بشيخ مخضوب مُقيد، فقال أبي: ائذنوا لأبي عبد الله وأصحابه، يعني: ابن أبي دُؤاد، قال: فأدخل الشيخ، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلم الله عليك، فقال: يا أمير المؤمنين، بئسَ ما أدَّبك مؤدبك، قال الله تعالى: ﴿ وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأحْسَنَ مِنها أوْ رُدُّوها ﴾، فقال ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم. قال له: كلِّمه، فقال: يا شيخ ما تقول في القرآن؟ قال: لم يُنصفني، ولي السؤال. قال: سل، قال: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال الشيخ: هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء الراشدون، أم شيء لم يعلموه؟ قال: شيء لم يعلموه. فقال: سُبحان الله! شيء لم يعلمه النبي ﷺ علمته أنت؟ فخجل. فقال: أقلني، قال: المسألة بحالها. قال: نعم عَلموه، فقال: علموه، ولم يدعُوا الناس إليه، قال: نعم. قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟ قال: فقام أبي، فدخل مجلساً، واستلقى، وهو يقول: شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولا الخلفاء الراشدون، علمته أنت! سبحان الله! شيء علموه، ولم يدعوا الناس إليه ألا وسعك ما وسعهم؟ ثم أمر برفع قيد الشيخ وأمر له بأربع مئة دينار، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعدها أحداً)[1].

ولا يعني ما سبق أن السلف ليسوا أصحاب استدلال عقلي ورد على

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣١٢.

المخالف بالنظر والقياس الصحيح، فلينتبه لهذا.

وإن من أخطر ما في مدرسة العقلانية من فتنة لهو فتح الباب للعلمانيين المستغربين ليدخلوا من خلاله لعزل حاضر الأمة عن ماضيها، والجرأة على أحكام الإسلام وتغييرها بحجة تغير العصر وتطور العقول!! وهكذا يتحقق للعلمانيين حلمهم على أيدي أبناء الإسلام الجاهلين والمتجاهلين.

فتنة المرجئة:

وأصل بدعة الإرجاء هو تأخير العمل عن الإيمان، وحصر الإيمان في التصديق فحسب. وأول ما ظهر الإرجاء إنما كان رد فعل لتكفير الخوارج للحكمين ولعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وليس هو الإرجاء المتعلق بالإيمان، وإنما كان فيه إرجاء أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة الشيخين: أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - إلى الله - عز وجل -.

وهم أصناف شتى: فمنهم من يزعم أن الإيمان هو المعرفة فقط، وهؤلاء غلاه المرجئة، ومنهم من يزعم أنه تصديق القلب وقول اللسان، ومنهم من يحصره في التصديق، ومنهم من يقول: من قال لا إله إلا الله فهو المؤمن ولو أتى من الأعمال ما أتى[١].

---

(١) انظر للتوسع في معرفة هذه الفرقة: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢١٢ وما بعدها.

وقد أحدثت المرجئة فتنة في الأمة يمكن إجمال أهم مظاهرها فيما يلي:

١ - التميع في أخذ هذا الدين، والتساهل في أخذ أحكامه والالتزام بها؛ فانتشر من جراء ذلك الفساد، وتجرأ الناس على المنكرات، وأصبحنا نسمع من عامة الناس إذا نُوصِحَ بأداء الواجبات وترك المحرمات من يقول: الإيمان في القلب، وربك رب قلوب... إلخ هذه الجمل المنحرفة التي سقيت بماء الإرجاء ونبتت في تربته.

٢ - وأشد من ذلك فتنةً هو ما يحصل في زماننا اليوم من تهوين لما يفعله المحادون لله - عز وجل - ورسوله ﷺ، من زنادقة وملاحدة وعلمانيين يرفضون إدخال الإسلام في شئون الحكم والاقتصاد وبقية شئون الحياة؛ فما داموا يقولون: لا إله إلا الله ويصدقون بقلوبهم؛ فهم مؤمنون لا يجوز إخراجهم عن الإسلام، ولا يجوز الإنكار عليهم ومعاداتهم. وهذا هو ما يريده المعتدون على سلطان الله عز وجل، ولسان حالهم يقول:

خلا لك الجوُّ فبيضِي واصفري ونقِّري ما شئت أن تنقِّري

ومعلوم ما في هذا من فتنة وتضليل للأمة وتخدير لها، وجعلها نهباً لكل طامع وملحد ومستعمر.

وقد أدى هذا الفكر المنحرف بدوره إلى تعطيل الجهاد، وإضعاف شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول الدكتور العلياني - وفقه الله - في مناقشته لدور المرجئة في تعطيل الجهاد:

(وعقائد المرجئة لها تأثير بالغ على إزالة فريضة الجهاد بالكلية أو إضعافها وزعزعتها في النفوس. فمن اعتقد أن الإيمان هو المعرفة فقط! كيف يُتصور منه أن يجاهد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين؟ ومن اعتقد أن العمل خارج عن دائرة الإيمان، وأن الإنسان يكون مؤمناً بمجرد التصديق أو النطق من غير عمل مطلقاً فما الذي يحمله على المخاطرة بنفسه وماله وتعريضهما للهلاك وإيمانه كامل تام؟ وما الذي يستفيده من جهاده إذا تساوى في اعتقاده إيمان من مات بين الصفوف ـ محارباً للكفار ـ مع إيمان من مات مخموراً في أحضان المومسات ـ وهو ينطق بالإيمان؟

هل يتصور عاقل أن هناك من يضحي بماله ونفسه وولده ووقته وهو يستطيع أن يكون إيمانه كإيمان جبريل عليه السلام بدون تلك التضحيات بل بمجرد كلمة ينطق بها وهو مستلق على فراشه لا تكلفه جهداً ولا عملاً؟ ومن يعتقد أن من يعلن الإسلام بلسانه لا يخرج من دائرة الإيمان مهما عمل من الأعمال هل يتصور منه أن يجاهد المرتدين والزنادقة والمنافقين الذين يعلنون الإسلام بأقوالهم ويهدمون أصوله وفروعه بأفعالهم؟...

... إن عقائد الإرجاء وسَّعت دائرة الإيمان حتى أدخلت فيه أصنافاً كثيرة من الكفار والمرتدين والزنادقة؛ وبالتالي رفعت عنهم سيف الحق الذي أمر الله إنزاله على رقابهم فخربوا العباد والبلاد، وطبقوا أصناف الكفر في ديار المسلمين باسم الإسلام حيناً، وبغير اسمه أحياناً، وانخدعت جماهير الناس بفتاوى علماء الإرجاء، واعتقدت بعقيدتهم أو تأثرت بإيحائها؛ فخلا الجو للملاحدة والزنادقة يشرعون الكفر للناس باسم

الإصلاح والتقدمية والاشتراكية، ويعارضون نصوص القرآن والسنة وهم متسربلون بسربال الإيمان في نظر علماء الإرجاء وفي نظر الجماهير المتأثرة بهم ما دام أنهم يسمعونهم في بعض المرات يقولون لا إله إلا الله. وكان من نتائج هذا قوانين وضعية تبيح انتهاك الأعراض وإفساد العقول وتهلك الحرث والنسل حتى أصبحت المادة القانونية: «إذا زنت البكر برضاها فلا شيء عليها» أشهر عند أقوام يدعون الإسلام من قول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢] وأصبحت تصاريح فتح الخمارات والملاهي والمواخير والبنوك الربوية أشهر عند أقوام يدعون الإسلام من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩])[١] ا.هـ.

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن المرجئة وموقفهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة)[٢].

---

(١) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ص٤٦٥ – ٤٦٧. (باختصار).

(٢) الآداب الشرعية ١/ ١٧٧.

٣ – من مظاهر فتنة المرجئة ومن تأثر بهم وقوفُهم في وجه المصلحين المجاهدين الذين يسعون لإزالة الشرك وإقامة شرع الله عز وجل، ووضع العراقيل أمامهم، ورميهم لهم بأنهم خوارج ومتطرفون وغلاة يجب التصدي لهم!

ومن الأمثلة الواضحة في ذلك ما تعرض له شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وأئمة الدعوة من بعده – رحمهم الله تعالى – فإنهم لما قاموا بدعوتهم وجهادهم للمشركين الذين يطوفون بالقبور ويذبحون عندها النذور، ويستغيثون بأهلها من دون الله – تعالى – ويتحاكمون إلى طواغيتهم ويستهزئون بالشرع قام في طريقهم أئمة الصوفية والمرجئة، ورموهم ببدعة الخوارج والتكفير، وقالوا: كيف يُكَفَّر من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٤ – ومن أشد آثار بدعة الإرجاء في عصرنا اليوم تأثُّر بعض الدعاة وطلبة العلم بهذا الفكر، ونسبته إلى أهل السنة والجماعة، وذلك بحصر الكفر المخرج من الملة بالتكذيب القلبي أو الاعتقاد القلبي. أما الكفر باللسان والعمل فهي دلالات على الكفر وليست مكفرات بذاتها. يقول صاحب كتاب (ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي) حفظه الله تعالى:

(ومن أفسد الأصول التي بناها المرجئة على هذا الاعتقاد ـ أي انحصار الإيمان في التصديق القلبي وحده ـ أنهم حصروا الكفر في التكذيب القلبي أيضاً حتى إنهم لم يعتبروا الأعمال الكفرية الصريحة كالسجود للصنم، وإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ إلا دلالات على انتفاء التصديق القلبي وليست مكفرة بذاتها.

وكان لهذه العقيدة آثار عميقة المدى على الأمة، بل هي في عصرنا هذا أساس للضلال والتخبط الواقع في مسألة التكفير، ومنها نشأ التوسع في استخدام «شرط الاستحلال» حتى اشترطوه في أعمال الكفر الصريحة كإهانة المصحف، وسب الرسول ﷺ، وإلغاء شريعة الله، فقالوا: لا يكفر فاعلها إلا إذا كان مستحلاً بقلبه!! واشترط بعضهم مساءلة المرتد قبل الحكم عليه، فإن أقر أنه يعتقد أن فعله كُفْرٌ: كَفَرَ، وإن قال إنه مصدق بقلبه، ويعتقد أن الإسلام أفضل مما هو عليه من الردة لم يكفروه)[١].

٥ - وقد أدى الفكر الإرجائي ببعض المتأثرين به أن ألغى مسألة تكفير المعيَّن. وهذا يلزم عليه إلغاء أحكام المرتد المعيَّن. وقد نشأ هذا التأثر ردَّ فعل لأولئك الذين يتسرعون في التكفير دون مراعاة لتوفر الشروط وانتفاء الموانع؛ فأوقعهم معالجة هذا الانحراف في انحراف آخر، فبدلاً من وضع الضوابط الشرعية لتكفير المعيَّن ذهبوا إلى إلغائه من أساسه، وهذا انحراف أيضاً.

وأهل السنة والجماعة وَسَطَ في تكفير المعيَّن بين أولئك الذين يكفرونه بلا مراعاة للشروط والموانع، وبين الذين يلغونه مهما توفرت الشروط وانتفت الموانع[٢].

---

(١) عن كتاب (الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر) ص: ١٣٤. د. علي بن بخيت الزهراني.

(٢) انظر لمعرفة الشروط والموانع: كتاب (ضوابط التكفير) للشيخ عبد الله محمد القرني ط. دار الرسالة.

ثالثاً: فتنة الدنيا وزخرفها

والمقصود بفتنة الدنيا هي كل ما ألهى عن الآخرة من متاع الأرض الزائل مما تميل إليه النفوس وتحبه وقد أجمله الله عز وجل في قوله سبحانه: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** [آل عمران: ١٤] وسيكون الحديث هنا - إن شاء الله تعالى - عن أشد مظاهر الدنيا فتنة؛ وذلك فيما يلي:

ا - **فتنة الأموال والأولاد**: وقد ورد ذكرها في الآية السابقة في قوله تعالى: **﴿وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾**.

ب - **فتنة النساء**. وقد ورد ذكرها عند قوله تعالى: **﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾**.

ج - **فتنة الجاه والشهرة وحب الرئاسة.**

أ - فتنة الأموال والأهل والأولاد

قد ورد التحذير من هذه الفتنة في أكثر من آية من كتاب الله - عز وجل - ومن ذلك قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**

رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

[التغابن: ١٤، ١٥]

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ... الآية ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

يقول الإمام البغوي عند تفسير آية التغابن:

(وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى مَن تَدعُنا؟ فيرق لهم ويقيم، فانزل الله: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم.

﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾، فلا تعاقبوهم على خلافهم إيّاكم فإن الله غفور رحيم.

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾، بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام، ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه «من» للتبعيض، فقال: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ لأن كلهم ليسوا

(بأعداء)، ولم يذكر «مِنْ» في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب)[١] ا.هـ.

وعن بُريدة – رضي الله عنه – قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملها، فوضعها بين يديه، ثم قال: صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[٢].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على آية التغابن هذه أيضاً فيقول:

(ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمداً؛ فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معاً: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.. والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً.. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية؛ ويمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء؛ فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله؛ كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير.

---

(١) تفسير البغوي عند الآيتين (١٤، ١٥) من سورة التغابن.

(٢) أبو داود في الصلاة (١١٠٩) والترمذي في المناقب (٣٧٧٦) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٧).

كما يتعرض هو وأهله للعنت. وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده. فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدواً له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وعوّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا.

كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه؛ اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله.. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات... وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن.

ومن ثَمَّ اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير من الله، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات. ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد.

وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبداً يقظين لتنجحوا في الابتلاء وتُخْلِصوا وتتجردوا لله. كما يفتن الصائغُ الذهبَ بالنار ليخلّصه من الشوائب!

والثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم تُوقِعُكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله)[1] اهـ.

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١٤، ١٥) من سورة التغابن.

أما الأحاديث الواردة في التحذير من انفتاح الدنيا وكثرة الأموال والفتنة بها فكثيرة من أصحها وأشهرها:

• قوله ﷺ: «كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم. أيّ قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال: «أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون»[١].

• وقوله ﷺ: «واللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم ،ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[٢].

• وقوله ﷺ: «بادوروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم: يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٣].

• وقوله ﷺ: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء مما أخذ المال أمن الحلال؟ أم من حرام؟»[٤].

ومن أجل ذلك خاف السلف - رحمهم الله تعالى - من الافتتان بزهرة الدنيا وأموالها وزخرفها. والنماذج التالية تشهد بذلك:

---

(١) مسلم. ك. الزهد (٢٩٦٢).

(٢) البخاري ٦/ ٢٥٨، ومسلم ٤/ ٣٢٧٤.

(٣) مسلم. ك. الإيمان (١١٨) والترمذي في الفتن (٢١٩٦).

(٤) البخاري. ك. البيوع (٢٠٨٣).

* عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - أتي بطعام، وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كُفِّنَ في بردة: إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة، وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا - أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام)(١).

* وعن أبي حازم قال: جعل عروة بن الزبير لعائشة طعاماً فجعل يرفع قصعة ويضع قصعة، قال: فحولَّتْ وجهها إلى الحائط تبكي، فقال لها عروة: كدرت علينا، فقالت: (والذي بعثه بالحق! ما رأى المناخل من حين بعثه الله حتى قبض)(٢).

* وعن ميمون بن أبي شبيب قال: كان معاذ بن جبل في ركب من أصحاب رسول الله ﷺ فمر بهم رجل فسألهم فأجابوه، ثم انتهى إلى معاذ ابن جبل وهو واضع رأسه على رجله يحدث نفسه فقال: عمَّ سألتهم؟ فقال: سألتهم عن كذا، فقالوا: كذا، وسألتهم عن كذا فقالوا: كذا، فقال معاذ - رضي الله عنه -: «كلمتان إن أنت أخذت بهما أخذت بصالح ما قالوا، وإن أنت كنت تركتهما تركت صالح ما قالوا: إن أنت ابتدأت بنصيبك من الدنيا يفتك نصيبك من الآخرة، وعسى أن لا تدرك منها الذي تريد، وإن أنت ابتدأت بنصيبك من الآخرة يمر بك على نصيبك من

(١) البخاري في الجنائز (١٢٧٤) (١٢٧٥).

(٢) المطالب العالية ٣/ ١٦٠.

الدنيا فينتظم لك انتظاماً، ثم يدور معك حيثما تدور »[١].

* (وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله لَحِرْصُ المرء على الدنيا أخوف عليَّ عندي من أعدى أعدائه، وكان يقول: يا إخوتاه لا تغبطوا حريصاً على ثروته وسعته في مكسب ولا مال، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غداً في المعاد ثم يتكبر. وكان يقول: الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع. فأما النافع: فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع: فحرص المرء على الدنيا)[٢].

والآن يمكننا إجمال أهم مظاهر الفتنة بالأموال والأولاد فيما يلي:

(١) الانشغال بها عن الآخرة والاستعداد لها والتفريط في الصالحات.

(٢) الحرص على المال والأولاد والمحبة الشديدة لهما تدفع إلى الوقوع في المحرمات وأخذِ المال من حله ومن غير حله؛ ذلك حتى يوفر الراحة والسعادة له ولأهله وأولاده، كمن يُحضر أجهزة التلفاز والڤيديو والبث المباشر والمجلات الخليعة ليسعد بها أهله بزعمه.

قال الزجاج -رحمه الله تعالى - عند آية التغابن السابقة: (أعلمهم الله - عز وجل - أن الأموال والأولاد مما يفتنون به؛ وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول

---

(١) المطالب العالية ٣/ ٢٠٤.

(٢) أورد هذه الأقوال الإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - في شرحه لحديث (ما ذئبان جائعان) ت. محمد حلاق ص٢٦.

الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى)[١].

(٣) التحاسد والتدابر والتباغض، بل والتقاتل على الدنيا وأموالها يقول الإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - في تعليقه على حديث « ما الفقر أخشى عليكم » السابق ذكره:

(فلما دخل أكثرُ الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متقاطعين متباغضين بعد أن كانوا إخواناً متحابين متواصلين؛ فإنَّ فتنة الشهوات عمَّت غالب الخلق ففُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم: لها يطلبون، وبها يَرضون، ولها يَغضبون، ولها يُوالون، وعليها يُعادون، فتقطعوا لذلك أرحامهم، وسَفكُوا دماءهم، وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك)[٢].

(٤) الوقوع في صفتين ذميمتين بسبب الأموال والأولاد هما: البخل والجبن. وقد نبه الرسول ﷺ عليهما بقوله: « إن الولد مبخلة مجبنة »[٣]. والبخل يدفع إلى الوقوع في المال الحرام، وإلى أن تمنع الحقوق الواجبة، وهذا هو الشح المذموم الذي قال الله - عز وجل - عنه: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [التغابن: ١٦]. وهو الذي حذر منه الرسول ﷺ بقوله: « اتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالقطيعة

---

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١٦٠.

(٢) كشف الكربة ت. بدر البدر ص٢٣.

(٣) ابن ماجة. ك. الأدب (٣٦٦٠) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٢٩٥٧).

فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[١].

كما أن من الفتنة بالأولاد الوقوع في الجبن والخوف والذي بدوره يصد عن القيام بواجب الدعوة والجهاد والهجرة كما مر بنا في آية التغابن السابقة؛ ذلك لما يصيبهم من العنت والمشقة بغيابه عنهم، وقد يحتمل الداعية الأذى والعنت على نفسه في سبيل الله - عز وجل - لكن القليل من يحتمله في أهله وأولاده؛ خاصةً إذا تعرض لما يبعده عنهم كالسجن والتشريد.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يُخشى عليهم أن يُصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفْعاً وقد يهتفون به ليسالم أو ليستلم، وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك)[٢].

وفي هذا فتنة واختبار للداعية؛ ولا يثبت إلا من ثبته الله - عز وجل - وعصمه بصدق التوكل عليه وحسن الظن به، والوثوق برحمته وحفظه له ولأولاده.

وأسوق بهذه المناسبة رواية ذكرها الإمام الذهبي - رحمه الله تعالى - في السِّيَر تكشف لنا أثر الأولاد في تثبيت الداعية على عقيدته.

● عن الهيثم بن خلف الدوري أن محمد بن سويد الطحان حدثه

---

(١) أبو داود ٢/ ٣٢٤ (١٦٩٨).

(٢) في ظلال القرآن. عند الآية (١) من سورة العنكبوت.

قال: كنا عند عاصم بن علي ومعنا أبو عبيد، وإبراهيم بن أبي الليث وجماعة، وأحمد بن حنبل يُضرب، فجعل عاصم يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل، فنكلمه؟ قال: فما يجيبه أحد، ثم قال ابن أبي الليث: أنا أقوم معك يا أبا الحسين، فقال: يا غلام: خفي. فقال ابن أبي الليث: يا أبا الحسين أبلغ إلى بناتي، فأوصيهم. فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال: إني ذهبت إليهن، فبكين، قال: وجاء كتاب ابنتَيْ عاصم من واسط: يا أبانا! إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل، فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله، ولا تجبه، فوالله لأن يأتينا نعيك أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت[1].

(٥) - البغي والتكبر على الناس:

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ... الآية﴾ [الشورى: ٢٧] وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] والآيات في هذا كثيرة والتجارب شاهدة بذلك؛ فإن أغلب من ينعم الله عز وجل عليهم بكثرة الأموال والأولاد يظهر عليهم البطر والتعالي على الناس إلا من رحم الله - عز وجل - وهذه من أعظم الفتن بالأموال والأولاد.

(٦) هناك من الناس من يُعذَّب بماله وولده في الدنيا قبل الآخرة، وتتحول عنده هذه الأمور التي يحبها الناس ويحرصون على تكثيرها من

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٤٤.

كونها مصدر نعمة وسعادة إلى أن تكون مصدر نقمة وشقاء وعذاب. وكم صرح كثير من أرباب الأموال والأولاد بهذه الحال، واعترفوا بما يعانونه من النكد والشقاء والعذاب بسبب أموالهم وأولادهم حتى أصبح لا يقر لهم قرار، ولا يهنأ لهم بال، ولا يخشعون في صلاة، ولا تطيب أنفسهم بإخراج الزكوات والصدقات، فهل بعد هذا من فتنة؟

نعوذ بالله من هذه الحال. وصدق الله العظيم: ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا... الآية**﴾ [التوبة: ٨٥] وهذه الآية وإن كانت في المنافقين الكافرين إلا أنه يمكن الاستشهاد بها في هذا المقام للحذر من هذه النهاية.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

* * *

ب ـ فتنة النساء

مر بنا في أول سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ... الآية ﴾ والميل إلى النساء أمر طبعي ركبه الله - عز وجل - في غريزة الإنسان، وما دام أنه في الحلال كالزوجة وما ملكت اليمين وأنه لم يصد عن طاعة الله - عز وجل - ولم يدفع إلى فعل محرم؛ فإنه أمر لا يعاب عليه الإنسان، بل هو من الأمور المطلوبة في غض البصر وتحصين الفرج وبقاء النسل، والتقوِّي بذلك على طاعة الله عز وجل. وقد قال ﷺ «حبب إليَّ من الدنيا: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة»[1].

وقد فصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى الفرق بين الحب في الله والحب مع الله تفصيلاً يكشف حقيقة المحبة ومتى تكون فتنة ومتى لا تكون. قال رحمه الله تعالى:

(والفرق بين الحب في الله والحب مع الله - وهذا من أهم الفروق، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا - فالحب في الله هو من كمال الإيمان، والحب مع الله هو عين الشرك والفرق بينهما: أن المحب في الحب تابع لمحبة الله، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله؛ فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه؛ كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه - تعالى -

---

(١) النسائي. ك. العشرة ٧/ ٦١ وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣٦٨٠).

يحبهم، ويبغض من يبغضهم لكونه - تعالى - يبغضهم.

وعلامة هذا الحب والبغض في الله: أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكره ويؤلمه، إما خطأً وإما عمداً، مطيعاً لله فيه أو متأولاً أو مجتهداً أو باغياً نازعاً تائباً.

والدين كله يدور على أربع قواعد: حب، وبغض، ويترتب عليهما: فعل وترك فمن كان حبه، وبغضه، وفعله، وتركه لله؛ فقد استكمل الإيمان؛ بحيث إذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله، وإذا فعل فعل لله، وإذا ترك ترك لله، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه. وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان: [نوع] يقدح في أصل التوحيد، وهو شرك، ونوع يقدح في كمال الإخلاص ومحبة الله، ولا يخرج من الإسلام.

(**فالأول**): كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥] وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله، فهذا محبة تألُّه وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء. وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله.

ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم؛ وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم

فيه وفي مرضاته؛ فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلهاً ووليا وأشرك به كائناً ذلك المعبود ما كان ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه.

(والنوع الثاني): محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء. فهذه المحبة ثلاثة أنواع:

فإن أحبها لله توصلاً بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته أثيب عليها، وكانت من قسم الحب لله توصلاً بها إليه ويلتذ بالتمتع بها. وهذا حال أكمل الخلق الذي حبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكانت محبته لهما عوناً له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره.

وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه؛ بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات؛ ولم يعاقب على ذلك، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه.

وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها، وقدّمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه.

(فالأولى): محبة السابقين.

(والثانية): محبة المقتصدين.

(والثالثة): محبة الظالمين.

فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق؛ فإنه معترك النفس الأمارة

والمطمئنة. والمهدي من هداه الله»[١]. ا.هـ

والحاصل: أن فتنة النساء فتنة عظيمة حذر منها الرسول ﷺ بقوله: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[٢]، وكذلك ما رواه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٣].

والآثار عن السلف في التحذير من فتنة النساء كثيرة منها ما يلي:

● عن أشعث بن سليم قال: سمعت رجاء بن حَيوة، عن معاذ بن جبل قال: ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وستُبتلون بفتنة السراء، وأَخْوَفُ ما أخاف عليكم: فتنة النساء إذا تسورن الذهب، ولبسن رياط الشام وعصب اليمن، فأتعبن الغني، وكلَّفن الفقير ما لا يجد[٤].

● وعن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَلِ النساء. وقال لنا سعيد وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: ما من شيء أخوف عندي من النساء[٥].

---

(١) الروح لابن القيم: ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) البخاري ك النكاح (٥٠٩٦) (فتح ٩ / ٤١) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٠).

(٣) مسلم ك. الذكر والدعاء (٢٧٤٢).

(٤) صفة الصفوة ١ / ٤٩٧.

(٥) صفة الصفوة ٢ / ٨٠.

● وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا إبراهيم بن الحسن الباهلي، حدثنا حماد بن زيد قال: قال يونس بن عُبيد: ثلاثة احفظوهن عني: لا يدخل أحدكم على سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلوَنَّ أحدكم مع امرأة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكِّن أحدكم سمعه من أصحاب الأهواء(١).

● وقال عباس الدوري: كان بعض أصحابنا يقول: كان سفيان الثوري كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها   من الحرام ويبقى الوزر والعارُ
تبقى عواقب سوء في مغبتها   لا خير في لذة من بعدها النارُ

والفتنة بالنساء تأخذ صوراً مختلفة أهمها ما يلي:

(١) إطلاق النظر إلى الأجنبيات من النساء، وما يعقب ذلك من السقوط في حبائلهن والإصابة منهن بسهام إبليس اللعين، وعندئذ تكون الفتنة والعشق المحرم والمحبة المحرمة التي تملأ قلب المفتون، ولا يكون فيه بعد ذلك محل لمحبة الله - عز وجل - ومرضاته وأَعْظِمْ بها من فتنة.

(٢) النظر إلى صورهن الجميلة؛ سواء في تلفاز، أو ڤيديو، أو مجلة، أو كتاب، وما يعقب ذلك من الافتتان بهذه الصور وانشغال القلب بها.

ولقد ظهر في عصرنا اليوم من وسائل عرض النساء وصورهن الخليعة وشبه العارية ما لم يظهر في أي عصر مضى، وأصبحت الفتنة بهن عظيمة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣.

وشديدة؛ لذا وجب على أهل الغيرة والإيمان أن يحموا أنفسهم وأولادهم وبيوتهم من شر هذه الوسائل المفسدة، وأن لا يفتنهم الشيطان بها مهما كان المسوغ لذلك؛ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... الآية** ﴾ [التحريم: ٦].

(٣) وقد تكون الفتنة ممن يجوز النظر إليها كالزوجة وما ملكت اليمين وذلك بشدة التعلُّق بها والافتتان بصورتها، مما يجعل الزوج أسيراً لها بل عبداً؛ عياذاً بالله. وهنا تقع الفتنة – وبخاصة إذا كانت المرأة قليلة دين وحياء – فتطلب من زوجها الأسير ما يوقعه في المحرمات أو يترك به الواجبات الدينية إرضاءً لهواها.

ولا يقع في ذلك إلا من ضعفت محبة الله في قلبه، واستولت عليه محبة الشهوات؛ فقدم مرادها على مراد الله – عز وجل – ومثل هذا يخشى عليه من الوقوع في المحبة الشركية التي قال الله عز وجل في أهلها: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ... الآية** ﴾ [البقرة: ١٦٥][1].

(٤) الافتتان بقراءة القصص الغرامية وقصص الحب والعشق والجنس؛ مما يؤدي إلى إثارة الغرائز وثوران الشهوة التي تؤدي بدورها إلى الوقوع في المحرم ومقارفة النجاسات. كل هذا من الفتن التي يجب على المسلم أن يفر

---

(١) انظر كلاماً نفيساً لشيخ الإسلام في كتاب العبودية حول استعباد المرأة لزوجها: ص٤٥. مكتبة المدني.

منها، ويعتقد حرمتها. فإن ما أوصل إلى الحرام فهو حرام.

(٥) ما يتعرض له إخواننا الأطباء أو نحوهم من مخالطة النساء - الطبيبات، أو الممرضات أو المريضات - كل هذا من الفتن التي يجب على المسلم الحذر منها والفرار منها، وأن لا يسمح المسلم لنفسه مهما كان دينه وتقواه أن يخلو بهن، أو يلين الكلام معهن، أو ينظر إليهن من غير حاجة.

٦ - ومن الفتن بهن اليوم ما ابتلي به كثير من بيوت المسلمين من الخادمات الأجنبيات اللاتي جئن بلا محارم - الكافرات منهن والمسلمات - وما نشأ عن ذلك من مصائب وجرائم، كل ذلك بسبب التساهل في جلبهن إلى البيوت، والترخص في التعامل معهن وكأنهن من ملك اليمين؛ سواء في حجابهن أو اختلاطهن بالرجال الأجانب أو خروجهن من البيوت مع أنهن أجنبيات حرائر!

٧ - التساهل في السفر إلى بلا الكفر والفحش والنجاسة من غير حاجة أو ضرورة، ومعلوم ما يتعرض له المسلم في تلك الديار من الفتن العظيمة ومنها فتنة النساء وعريهن وتهتكهن وإغرائهن. والمطلوب من المسلم أن يفر بدينه من الفتن لا أن يفر إليها.

٨ - التباغض والتشاحن بل وتقاطع الأرحام من أجل النساء، كما هو الحال في الشقاق بين زوجة الرجل وأمه أو أبيه، وميل الرجل مع زوجته لفتنته بها.

٩ - ومن صور الافتتان بالنساء في عصرنا الحاضر ما ينادي به علمانيو زماننا ممن يدعون تحرير المرأة وتبني حقوقها، وذلك بالمطالبة بمساواتها

بالرجل، والعمل جنباً إلى جنب مع الرجل، وإخراجها من منزلها، وممارستها لجميع الأعمال بدون استثناء كقيادة السيارة وأعمال الجيش والشرطة والقضاء... إلخ.

وقد تمت هذه الفتنة في كثير من بلدان المسلمين، وما زال أهل الفتنة والفساد يسعون في إخضاع بقية بلدان المسلمين لهذه الفتنة العمياء. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. كما يطرح هؤلاء المفتونون الدعوة إلى السفور وترك الحجاب كلما سنحت لهم الفرصة.

ومن المجالات التي يتبناها أهل الفتنة لإفساد المرأة وفتن الناس بها: إقامة ما يسمى بالجمعيات النسائية والنوادي النسائية والحفلات العائلية المختلطة، والمطاعم المختلطة، والحدائق المختلطة، وغير ذلك مما يغري المرأة بهجر بيتها وإهمال حقوق زوجها وأولادها، واختلاطها بجليسات السوء بل وجلساء السوء أيضاً.

١٠ - ومن صور الافتتان بالنساء أيضاً تلك الأزياء الغريبة على ديننا وعاداتنا مما تلقفه كثير من نساء المسلمين وقلدن فيها الغرب الكافر والشرق الملحد. هذه الأزياء التي تخالف الشرع وتخرم المروءة وتخدش الحياء وتفتن الرجال: من ثوب قصير، أو مشقوق، أو شفاف، أو بنطال يحجم العورة. والمرأة بطبيعتها ناقصة عقل ودين.

وقد لا يستغرب خضوعها لبيوت الأزياء وأربابها، وبخاصة تلك المرأة التي لم تنل حظاً من التربية والتقوى. ولكن المستغرب أن يرضى زوج المرأة

أو والدها أو أخوها بوقوع مولياتهم في هذه الفتنة فَيُفْتَنُ وَيُفْتِنُ.

١١ - فتنة الهاتف، وما يجر من الفتنة بالنساء وخضوعهن في القول، وما يعقب ذلك من فساد في الأعراض وخراب للبيوت. وكم من هَتْكٍ للأعراض كانت بدايته من فتنة الهاتف.

* * *

ج ـ فتنة الجاه وحب الرئاسة

وهذه أيضاً من فتن الدنيا التي لا يسلم منها إلا من رحم الله – عز وجل – وهي من الفتن الدقيقة والشهوة القلبية الخفية، أعاذنا الله – عز وجل – منها.

ويكفينا في معرفة شناعة هذه الفتنة وشرها وخطرها، ما رواه كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١].

قال الإمام ابن رجب – رحمه الله تعالى –: (هذا مثل عظيم جداً ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً؛ فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها؛ ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل... فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا)[٢].

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٥٨٨ (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٥٦.

(٢) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) للإمام ابن رجب. ت محمد صبحي حلاق ص٢٢، ٢٣.

وقسَّم - رحمه الله تعالى - الحرص على الشرف وحب الرئاسة إلى قسمين كبيرين يتضح منهما بعض مظاهر الفتنة بالجاه. قال - رحمه الله تعالى -:

● **القسم الأول:**

طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال. وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها. قال الله - تعالى -: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣].

وقلَّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيوفق، بل يوكل إلى نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنه -: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»(١). وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة»(٢).

واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم ضرراً عظيماً قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد...

---

(١) البخاري ١١/ ٥١٦ (٦٦٢٢)، مسلم ٣/ ١٢٧٣.

(٢) البخاري ١٣/ ١٢٥ (٧١٤٨).

● . . . واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي وتدبير أمر الناس إذا قصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه وذلهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته. . فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم وأدهى وأمرُّ من الشرك، والشرك أعظم الظلم عند الله.

● ومن هذا الباب أيضاً أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ويثنى عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه؛ وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر وأحب أن يمدح عليه وقصد به في الباطن شراً وفرح بتمويهه ذلك وترويجه على الخلق، وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له؛ فإن النعم كلها منه.

● **القسم الثاني:**

طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية كالعلم والزهد والعبادة، وهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد فساداً وخطراً؛ فإن العلم والعمل والزهد إنما يُطلب به ما عند الله من الدرجات والنعيم المقيم والقرب

منه، والزلفى لديه.. فإذا طُلِبَ بشيء من هذا عرض الدنيا الفاني فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة...

الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد: الرياسة على الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق له، ويخضعون له، ويصرفون وجههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم، ونحو ذلك. فهذا موعده النار؛ لأن قصد التكبر محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

- ومن هذا القبيل كراهة السلف الصالح الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها...

- ومن هذا الباب أيضاً كراهة الدخول على أصحاب الرئاسات والدنو منهم. وهو الباب الذي يدخل منه علماء الدنيا إلى نيل الشرف والرياسات فيها..

وصنَّف أبو بكر الآجرِّي – وكان من العلماء الربانيين في أوائل المائة الرابعة – مصنفاً في أخلاق العلماء وآدابهم.. فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة منها: أنه قال:

«قد فتنه حب الثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا، يتجمل بالعلم، كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ولا يجمل علمه بالعمل به ... وذكر

كلاماً طويلاً إلى أن قال:

«فهذه الأخلاق وما يشبهها تغلب على قلب من لم ينتفع بالعلم، فبينا هو مقارب لهذه الأخلاق إذ ذهبت نفسه في حب الشرف والمنزلة، فأحب مجالسة أصحاب الرئاسات وأبناء الدنيا، وأحب أن يشاركهم فيما هم فيه من رخاء عيشهم من منظر بهي ومركب هني، وخادم سري، ولباس لين، وفراش ناعم، وطعام شهي، وأحب أن يُغشى بابه، وأن يُسمع قوله، ويُطاع أمره، فلم يقدر عليه إلا من جهة القضاء، فطلبه فلم يمكنه إلا ببذل دينه، فتذلل للملوك وأتباعهم، فخدمهم بنفسه وأكرمهم بماله، وسكت عن قبيح ما ظهر له من الدخول في إيواناتهم، وفي منازلهم من أفعالهم، ثم قد زين لهم كثيراً من قبيح فعلهم بتأوله الخطأ ليحسن موقفه عندهم، فلما فعل هذا مدة طويلة، واستحكم فيه الفساد ولَّوْهُ القضاء، فذبح بغير سكين، فصارت لهم عليه منَّة عظيمة، ووجب عليه شكرهم» انتهى كلام الآجري رحمه الله تعالى.

ثم تابع ابن رجب رحمه الله تعالى قائلاً:

● ومن هذا الباب أيضاً: كراهة أن يشهر الإنسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات ليزار وتلتمس بركته ودعاؤه وتُقبَّل يده، وهو محب لذلك، ويقيم عليه ويفرح به، ويسعى في أسبابه؛ ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم: أيوب، والنخعي، وسفيان، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل، وداود الطائي. وغيرهما من الزهاد والعارفين، وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم، ويسترون أعمالهم غاية الستر.

دخل رجل على داود الطائي فسأله: ما جاء بك؟ فقال: جئت لأزورك فقال: أمّا أنت فقد أصبت خيراً؛ حيث زرت في الله، ولكن أنا أنظر ماذا لقيت غداً، إذا قيل لي: من أنت حتى تزار: من الزهاد أنت؟ لا والله. من العبّاد أنت؟ لا والله. ومن الصالحين أنت؟ لا والله. وعدّد خصال الخير على هذا الوجه. ثم جعل يوبخ نفسه ويقول: يا داود كنت في الشبيبة فاسقاً، فلما شبت صرت مرائياً، والمرائي شر من الفاسق.

وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يجالسني... وهذا باب واسع جداً، وههنا نكتة دقيقة وهي: أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس ويريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح .قال مطرف بن عبد الله الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه...

● ... وأصل محبة المال والشرف حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى. قال وهب بن منبه: «من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم».

وهذا كلام حسن فإنه حبٌّ يحمل على الرغبة في الدنيا، وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى، لأن الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا، وحب المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى وترد عن حب الدنيا قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

■ ... واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد. ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبُعده عن الله وطرده عنه. قال الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة»[١] ا.هـ كلام ابن رجب رحمه الله تعالى.

وكلما كمل علم العبد وفقهه وتقواه كلما كان أشد كراهة للشهرة والجاه وحب الرئاسة وهكذا كان شأن السلف - رحمهم الله تعالى - وأضيف إلى ما ذكره الإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - من النماذج الفريدة لكراهية السلف للشهرة والرئاسة نماذج أخرى تشهد لخوف السلف من هذه الفتنة ومن ذلك ما يلي:

● عن سفيان قال: قال الأحنف: قال لنا عمر بن الخطاب: تفقهوا قبل أن تسودوا. قال سفيان: لأن الرجل إذا فقه لم يطلب السؤدد[٢].

● وقال موسى بن عُقبة في «مغازيه»: غزوة عمرو بن العاص هي غزوة ذات السلاسل من مشارف الشام، فخاف عمرو من جانبه ذلك، فاستمد رسول الله ﷺ، فانتدب أبا بكر وعمر في سراة من المهاجرين، فأمَّر نبي الله عليهم أبا عبيدة، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم، فقال

---

(١) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) للإمام ابن رجب ص ٣٣ - ص ٧٢ (باختصار)، وتصرف يسير. ت: محمد صبحي حلاق.

(٢) صفة الصفوة ٢/ ٢٣٦.

المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأميرنا أبو عبيدة. فقال عمرو: إنما أنتم مدد أمددت بكم. فلما رأى ذلك أبو عبيدة بن الجراح، وكان رجلا حسن الخلق، لين الشيمة، متبعاً لأمر رسول الله ﷺ وعهده، فسلم الإمارة لعمرو[١].

● وقال أبو بكر الحنفي عبد الكبير: حدثنا بكير بن مسمار، عن عامر ابن سعد أنَّ أباه سعداً، كان في غنم له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه، قال: يا أبت أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب صدر عمر، وقال: اسكت؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يحب العبد التقي الغني الخفي»[٢].

● عن ابن وهب: حدثنا ابن لهيعة، عن يحيى بن سعيد، عن أبي عبيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أزهر، عن أبيه، عن جده أنَّ عثمان اشتكى رُعافاً، فدعا حُمران، فقال: اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدي، فكتب له، وانطلق حُمران إلى عبد الرحمن، فقال: البشرى! قال: وما ذاك؟ قال: إن عثمان قد كتب لك العهد من بعده؛ فقام بين القبر والمنبر، فدعا، فقال: اللهم! إن كان من تولية عثمان إياي هذا الأمر؛ فأمتني قبله. فلم يمكث إلا ستة أشهر حتى قبضه الله[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٩٠٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ١٠٢. والحديث رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٨٨.

● وقال الذهبي: من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه: سعد بن أبي وقاص(١).

● وعن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب: حدثنا عمي، حدثني عبد الله بن عياش، عن أبيه، أن يزيد بن المهلب لما ولي خراسان قال: دلوني على رجل كامل لخصال الخير، فدلَّ على أبي بردة الأشعري. فلما جاء، رآه رجلاً فائقاً، فلما كلمه رأى من مخبرته أفضل من مرآته، فقال: إني وليتك كذا وكذا من عملي، فاستعفاه، فأبى أن يعفيه، فقال: أيها الأمير! ألا أخبرك بشيء حدثنيه أبي، أنه سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: هاته. قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من تولى عملاً وهو يعلم أنه ليس لذلك العمل بأهل، فليتبوأ مقعده من النار». وأنا أشهد أيها الأمير أني لست بأهل لما دعوتني إليه. فقال: ما زدت على أن حرَّصتنا على نفسك ورغَّبتنا فيك، فاخرج إلى عهدك فإني غير معفيك.

فخرج ثم أقام فيهم ما شاء الله أن يقيم؛ فاستأذن في القدوم عليه، فأذن له، فقال: أيها الأمير ألا أحدثك بشيء حدثنيه أبي سمعه من رسول الله ﷺ؟ قال: قال: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٨٦.

ثم منع سائله، ما لم يسأل هجراً» وأنا سائلك بوجه الله إلا ما أعفيتني أيها الأمير من عملك. فأعفاه. رواه الروياني في مسنده عن أحمد[١].

● وعن عبد الرحمن بن سابط الجمحي قال: دعا عمر بن الخطاب رجلاً من بني جمح يقال له: سعيد بن عامر بن حذيم، فقال: إني مستعملك على أرض كذا وكذا، فقال: أوَ تقيلني يا أمير المؤمنين! فقال: والله، لا أدعك، قلدتموها في عنقي وتتركوني، فقال عمر: ألا نفرض لك رزقاً، فقال: قد جعلت لي في عطائي ما يكفيني دونه، وفضلاً على ما أريد، قال: وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم، وتصدق ببقيته، فتقول له امرأته: أين فضل عطائك؟ فيقول: قد أقرضته...[٢].

● وعن يوسف بن أسباط قال: سمعت سفيان يقول: ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نُوزِعَ الرئاسة، حامى عليها، وعادى[٣].

وبقي في هذا الموضوع مسألة مهمة ينبغي الانتباه إليها حتى لا يدخل الشيطان منها للتخذيل والرضى بالدون والتنصل من المسؤولية. ذلك أن بعض الطيبين قد يلتبس عليهم الأمر فيميلون إلى السلبية والخمول وترك الدعوة والتوجيه بحجة الزهد في الرئاسة وكراهية الشهرة والشرف. وهذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٥. والحديث عند الروياني (٤٩٥).

(٢) المطالب العالية ٣/ ١٦٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٢.

مدخل خفي للشيطان ينبغي الحذر منه وبذل الجهد في التوازن بين الحرص على هداية الناس وإمامتهم إلى الخير مع الزهد في المسؤولية وكراهية الشهرة والبعد عن الغرور والعجب. وعن هذه المسالة وكيف يحصل الجمع فيها بين الأمرين، وكيف يفك الارتباط بين الإيجابية وتحمل المسؤولية وبين الحرص على الجاه والرئاسة. عن هذا كله يتحدث الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - فيقول:

(والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه فقد ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلى الله فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيباً وإليهم حبيباً، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله، يحب أن يطاع ويعبد ويوحّد، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليه في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال:
﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

إمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعانون به على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطنا التي لا تتم الإمامة إلا بها، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن - جلَّ جلاله - ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة لَمَّا كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبُّد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم. فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقَّره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تُنال إلا به وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمى عن هذا،

فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغَّروا أمر الله وحقَّروا عباده)[1] ا.هـ.

* * *

(١) الروح لابن القيم ص٢٥٢، ٢٥٣.

رابعاً: فتنة المعاصي
وفشو المنكرات وترك إنكارها

والمقصود هنا بالمعاصي والمنكرات: تلك المخالفات التي يقع فيها الناس من ترك للواجبات أو فعل للمحرمات اتباعاً للهوى والشهوات، أو هي مزيج من الشبهات والشهوات يسوغ فيه المخالفات والتنازلات. ويمكن حصر الحديث عن هذه الفتنة فيما يلي:

١ - فتنة انتشار الفساد وفشو المنكرات وترك إنكارها.

٢ - فتنة إنكارها بلا ضوابط شرعية ودون مراعاة للمصالح والمفاسد.

أولاً: فتنة فشو المنكرات وانتشار الفساد وعدم إنكار ذلك:

ورد في كتاب الله - عز وجل - آيات عديدة تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحذر من خطر المعاصي وتركها بلا إنكار، فمن ذلك:

• قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

• وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. [هود: ١١٦، ١١٧].

● وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

● وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وأما الأحاديث فكثيرة ومتنوعة، من أشهرها:

● قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان»[١].

● وعن أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وتضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[٢].

ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام نفيس على الآية الكريمة يقول فيه:

(وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأدي الواجب من الأمر والنهي

---

(١) مسلم ١/ ٦٩. ك. الإيمان (باب كون النهي عن المنكر من الإيمان).

(٢) سنن أبي داود ٤/ ١٧٣ ك الملاحم. باب الأمر والنهي.

وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة:

«أحدها» أن لا يخاف المؤمن من الكفار والمنافقين؛ فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً.

«الثاني» أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم؛ فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٧].

«الثالث» أن لا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: ﴿ **لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الحجر: ٨٨] فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية. ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية. فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم إما راغباً وإما راهباً.

«الرابع» أن لا يتعدى على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم؛ بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، كما قال: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ** ﴾ [المائدة: ٢] الآية. وقال: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)** ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقال: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)** ﴾ [البقرة: ١٩٣] فإن كثيراً من الآمرين والناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم. وهذا باب يجب

التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين أو الفاسقين والعاصين.

«الخامس» أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق، والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد؛ فإن ذلك داخل في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها المعنى الآخر، وهو إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً، وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١) ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه. لا سيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة)(٢). ا. هـ.

● ـ وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال:

«إنه كان من قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل فيهم العامل الخطيئة، فنهاه الناهي تعذيراً، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر

---

(١) الترمذي في الزهد (٢٣١٧) (٢٣١٨) وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى ١٤/ ٤٨٠ - ٤٨٢.

ولتأخذن على أيدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم».[١]

● ـ وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت الظالم؛ فقد تودع منهم»[٢].

● وعن أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وهو يقول:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق تسعين، قلت: يا رسول الله ﷺ! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[٣].

● وعن العرس بن عميرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة»[٤].

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣١ وعزاه إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣١ وعزاه إلى أحمد والطبراني والبزار وقال: أحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣١ وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢٨ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

أما عن مواقف السلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحذيرهم من تركه فكثيرة نقتبس منها ما يلي:

* عن ابن أبي أويس، عن أبيه، عن الوليد بن داود بن محمد بن عُبادة ابن الصامت عن ابن عمه عبادة بن الوليد، قال: كان عُبادة بن الصامت مع معاوية، فأذن يوماً، فقام خطيب يمدح معاوية، ويُثني عليه، فقام عبادة بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاوية، فقال له عُبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة، على السَّمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم. وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في أفواههم التراب»[١].

* عن شريك عمن أخبره أن علياً - رضي الله عنه - قال: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[٢].

* وعن عبد الملك بن الربيع قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنها ستكون هنات وهنات؛ بحسب امرئ إذا رأى أمراً لا يستطيع له تغييراً أن يعلم الله أن قلبه له كاره)[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٧. وحديث (إذا رأيتم المداحين...) رواه مسلم (٣٠٠٢).

(٢) المطالب العالية ٣/ ٢١٠.

(٣) المطالب العالية ٣/ ٢١١.

* وعن خالد بن سعد مولى أبي مسعود قال: دخل أبو مسعود على حذيفة رضي الله عنه وهو مريض فأسنده إليه فقال له أبو مسعود: أوصنا قال: (إن الضلال حق الضلالة، أن تعرف ما كنت تنكره، وتنكر ما كنت تعرفه، وإياك والتلون في دين الله)[١].

* - وعن طارق بن شهاب قال: جلد خالد بن الوليد رجلاً حداً، فلما كان من الغد جلد رجلاً آخر حداً، فقال رجلٌ: هذه والله الفتنة، جلد أمس رجلاً في حد، وجلد اليوم رجلاً في حد، فقال خالد: (ليس هذه بفتنة، إنما الفتنة أن تكون في أرض يُعمل فيها بالمعاصي فتريد أن تخرج منها إلى أرض لا يُعمل فيها بالمعاصي فلا تجدها)[٢].

* - وعن عبد العزيز بن أبي بكرة:

أن أبا بكرةَ تزوج امرأة من بني علاثة وأنها هلكت، فحملها إلى المقابر، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها، فقال لهم: لا تفعلوا فإني أحق بالصلاة منكم، قالوا: صدق صاحب رسول الله ﷺ فصلى عليها، ثم إنه دخل القبر، فدفعوه دفعاً عنيفاً، فوقع فغشي عليه، فحمل إلى أهله، فصرخ عليه يومئذ عشرون من ابن وبنت له.

قال عبد العزيز: وأنا يومئذ من أصغرهم، فأفاق إفاقة فقال لهم: لا تصرخوا علي، فوالله ما من نفس تخرج أحب إلي من نفس أبي بكرة، ففزع

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢١١.

(٢) كنز العمال ١١/ ٢٣٥.

القوم، فقالوا له: لما يا أبانا؟ فقال: (إني أخشى أن أدرك زماناً لا أستطيع أن آمر بمعروف ولا أنهى عن منكر، ولا خير يومئذ)[١].

* وعن الأوزاعي: حدثني أبو كثير، عن أبيه، قال: أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل، فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه، ثم قال: أرقيب أنت عليَّ! لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا علي لأنفذتها[٢].

وهذا غيض من فيض من مواقف السلف – رحمهم الله تعالى – في إنكار المنكر وقول كلمة الحق، فيا ليتنا حين نتكلم عن صبر السلف على ولاة الجور وتحذيرهم من الخروج عليهم ـ وهذا حق ومن أصول السلف ـ ليتنا إذا تكلمنا عن هذا الجانب الحق في مواقف السلف أضفنا إليه مواقفهم الصلبة في قول الحق وإنكار المنكر لا يخافون في الله لومة لائم، وهذا من الوفاء لهم، وحجب هذه الجوانب المشرقة عن الناس فيها عقوق للسلف وتضليل للناس.

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٥٥٠ وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) سير اعلام النبلاء ٢/ ٦٤.

بعض مظاهر الفتنة الناجمة عن فشو المعاصي والفساد وإهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

في ضوء الآيات والأحاديث والآثار السابقة يتضح لنا أهم مظاهر الفتنة الناشئة من انتشار الفساد والمعاصي من غير إنكار لها أو تغييرها بعد مراعاة الضوابط الشرعية ومراعاة المصالح والمفاسد، ومن أهم مظاهر هذه الفتنة ما يلي:

(١) الفتنة والفساد الذي تتعرض له الضرورات الخمس التي جاء الشرع الحنيف للمحافظة عليها وحمايتها من الفساد، والمتأمل للمجتمعات التي يكثر فيها الفساد، ولا تحكم بشرع الله عز وجل ويقل أو ينعدم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - يرى كيف يعاني الناس من الظلم والعنت والفساد في أديانهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم ونسلهم حتى أصبح الإنسان في مثل هذه المجتمعات لا يأمن على نفسه ولا ماله ولا عرضه ولا أولاده من الشرور والفساد والظلم. وهذه سنة الله - عز وجل - التي قد خلت في عباده، فلا سياج يحمي هذه الضروريات الخمس، ولا صمام أمان يحبس عنها الشرور إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد من باب المدافعة والصراع مع الباطل وأهله والذين لو خُلُّوا وما يريدون لأفسدوا الحرث والنسل والبلاد

والعباد قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وإن الفتنة حين تشتعل وتقوم بسبب ترك المفسدين الظالمين ليفسدوا بلا أمر ولا نهي من قبل أهل الخير والصلاح فإن إطفاءها بعد ذلك يصعب جداً، بل إن الفتنة تمتد لتصيب البعيدين عنها الكارهين لها بسكوتهم عن إنكارها في بداية الأمر، وسكوتهم عن الظالمين المشعلين لها؛ ولعل هذا مما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى حول الفتنة التي حصلت بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه حيث يقول رحمه الله تعالى: (فإن الظالم يظلم فيبتلىٰ الناس بفتنة تصيب من لم يظلم، فيعجز عن ردها حينئذ بخلاف ما لو منع الظالم ابتداءً فإنه كان يزول سبب الفتنة)[1] ويقول أيضاً: (والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر رضي الله عنهم عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها. وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله)[2] ا.هـ.

---

(١) منهاج السنة ٤/ ٣٢٣. (ويقصد بالظالم هنا من خرج على عثمان رضي الله عنه، واستباح دمه.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٤٣.

وقد يكون الفساد والمنكرات والمظالم من الكثرة بحيث تصل الحال ببعض الصلحاء إلى حد اليأس من تغيير الحال وقبول الناس. وهذا من الشيطان الذي لا يألو يبث اليأس والإحباط والتخذيل حتى يصفو الجو له ولأوليائه من شياطين الإنس ليفسدوا على الناس دينهم ودنياهم. ولو لم يكن في الدعوة والأمر والنهي إلا وقاية الناس من فساد المفسدين والإعذار إلى الله – عز وجل – لكفى ولو لم يتغير الفساد. مع أن الناس لا زال فيهم الخير ولا بد أن يستجيب منهم فئة ولو كانت قليلة. وهذا ما قاله المنكرون على أهل السبت من اليهود لمن ثبطهم عن وعظ المعتدين في السبت وأنه لا ينفع فيهم. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾[الأعراف: ١٦٤].

يقول الشيخ العدوي في تعليقه على الآية:

(والآية ترينا أن الأمّة قد تسرف في العدوان، وتتمادى في الباطل، وتملك عليها الشهوات جميع حواسها ومشاعرها، فيقلّ أمل الواعظ فيها، وتتغلب عليه روح اليأس، وكثيراً ما يحس المصلح ذلك الإحساس، ويشعر ذلك الشعور، ولا سيما إذا رأى الفساد قد شمل الخاصة والعامة، ولم يدع فريقاً من الأمة بدون أن يتسرب إليه، وخاصة العلماء الذين هم من الأمة بمنزلة الرأس من الجسم...

... إذا رأى المصلح الفساد قد تغلغل في جميع طبقات الأمة ولم يدع فريقاً منها بدون أن يصل إليه ضعفت عند ذلك نفسه، وتسرب إليه

اليأس، فيأخذ في التحدث إلى نفسه: ما فائدة الوعظ، وما غاية الإرشاد؟ وما هو الأمل في ذلك العمل الذي لا يجدي ولا يفيد؟

يرينا الله تعالى بهذه الآية الكريمة أن طائفة من أهل القرية قد استولى عليها اليأس، وانقطع فيها الأمل في صلاح من معهم من الذين يعدون في السبت، فأخذت تنكر على الواعظين وعظهم وعلى المصلحين إصلاحهم وتقول لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] وما فائدة الوعظ وما قيمة الإرشاد؟ فكان جواب الواعظين: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت عن المنكر وقد أمرنا بالتناهي عنه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء في انتفاعهم بالموعظة، وحملاً لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه، أي فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق.

وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه الواعظ، ينبغي له أن لا ييأس من الإصلاح، وأن يعلم أن للوعظ أثره وغايته في النفوس، وإن كانت الغاية تتفاوت بمقدار استعداد النفوس للوعظ وتأهبها للتأثر به.

فمن النفوس ما هو مستعدّ للإصلاح استعداداً قريباً، فإذا وصل وعظ المصلح إلى ذلك الصنف، فإن النفوس تستفيد من الوعظ في الحال، ومنها ما هو مستعد له استعداداً بعيداً، ولا غنى للواعظ عن الصبر على ذلك النوع من النفوس، وإذا لم يَجْنِ هو ثمرة ذلك الوعظ فسيجنيه مَنْ بعدَه من المصلحين.

ومن الجهل أن يعتقد الواعظ أن ثمرة وعظه لا بد أن يجدها في الحال،

وما مثل الواعظ إلا كفلاح يصلح الأرض ويعدها للزراعة والإنبات، والأرض معادن، فمنها الصالح الذي يجني ثمرته بمجرد وضع البذر فيه، ومنها غير الصالح الذي يحتاج إلى زمن طويل، فإذا لم يجد الزارع ثمرة ذلك النوع الآن فسيجده من بعده، وكلّ مجهود يقوم به الزارع في الأرض لا يضيع، وكذلك الوعَّاظ والمصلحون، فكثيراً ما انتفع الواعظ بإصلاح من سبقه ومجهود من تقدمه، وكثيراً ما اصطدم الواعظ بإفساد من سبقه، وكتمان من تقدمه.

ولا أدل على ذلك من احتجاج العامة بسكوت العلماء السابقين، وغفلة فريق منهم عما أوجبه الله عليه من بيان الدين للناس، فكم سمعنا منهم: قد كان فينا الشيخ فلان والشيخ فلان ولم نسمع منهم ذلك، ولم ينكروا علينا ما تنكرون. وهل لذلك من معنى سوى تأييد ما قلنا من أن ترك الناس بدون إصلاح مدعاة لموت نفوسهم، وقسوة قلوبهم، وتسلط الشهوات عليهم، وأن تعهدهم بالوعظ يخفف من وطأة الفساد، ويقلل من قيمة الشهوات، ويضعف من سلطان الباطل، وأن تجاوب الأصوات بالوعظ والإرشاد ضرورة من ضرورات الأمة، وحاجة من حاجات البشر ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[النساء: ١٦٥].

إذا لاحظ الواعظ ذلك كله، فإن اليأس لا يجد إلى نفسه سبيلاً، وأقل فائدة للوعظ أن يكون حجة على أنصار الباطل وأصحاب الشهوات، وأن يكون قد قام بما أوجبه الله عليه من إنكار المنكر وتقبيح شأنه للناس، وأن

يكون وعظه عدة لغيره من المصلحين فيما يستقبل من الزمان...

... وقوله ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ رجاء من الواعظين في أن أولئك القوم ينتفعون بتلك الموعظة كلهم أو بعضهم، فقد يكون في الطائفة الفاسدة أفراد صالحون أو مستعدون للصلاح، فحرمانهم من الوعظ خسارة كبرى على المستعد.

وما دام هناك احتمال أن طائفة تستفيد من الوعظ فلا بأس، وهو ظاهر إذا كان الوعظ موجهاً لأمة وطائفة، أما إذا كان الوعظ موجهاً لشخص معين فإن الواعظ متى عرف بالاختبار من ذلك الشخص أنه ليس مستعداً للوعظ، ولا متأهباً للتذكر فليس عليه بأس من ترك وعظه.

ولعل ذلك هو محمل قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩]، فشرط في التذكير أن تنفع الذكرى، أما إذا لم تنفع فهي من العبث.

وهنالك من فوائد الوعظ - عدا ما تقدم - حماية المؤمنين من الفساد، ووقايتهم من الشر، فهو بمثابة الحيلولة بين السليم والأجرب حتى لا يعديه الجرب فيصبح الكل مريضاً، فإذا لم يفد الوعظ في تكثير سواد الأصحاء فهو يجدي في وقوف المرض وعدم انتشاره؛ فإن العدوى الخلقية أسرع من عدوى الأجسام، والتأثر بأرباب الشهوات والأهواء أضعاف التأثر بالمصابين بالأمراض الجسمية، وكل إنسان مستعد لأن يتأثر بالخير والشر استعداداً قريبا أو بعيدا، فإذا سمع الصنف الصالح من الأمة الوعظ، وتعهده المصلحون بالإرشاد فإن ذلك يكون وقاية له من التطلع لأرباب الشهوات

والانغماس معهم)[١] ا.هـ.

(٢) ومن فتن انتشار المعاصي والفساد بلا أمر ولا نهي التعرض لعقوبة الله عز وجل وعذابه في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا بما يصيب الناس من الكوارث والنوازل والحروب ومنع القطر من السماء والمجاعات والمخاوف، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما في الآخرة فعذاب الله أكبر لو كانوا يعلمون.

ومن هنا ندرك ونقدر ذلك العمل العظيم الشريف الذي يقوم به مصلحو هذه الأمة في الدعوة إلى الله – عز وجل – والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرحمة والشفقة على أمتهم من عذاب الله – عز وجل – في الدنيا والآخرة، فنبذل لهؤلاء المصلحين من المحبة والنصرة والدعاء ما يعينهم على هذه المهمة الشريفة التي هي مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتابعين لهم بإحسان.

---

(١) دعوة الرسل، محمد العدوي ص٢١١ – ٢١٤ (باختصار).

فهذا مؤمن آل فرعون ذلكم الناصح المشفق الأمين حذر قومه في دعوته من العقوبتين الدنيوية والأخروية فأخبر الله – عز وجل – عنه أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠ – ٣٣].

(٣) وفتنة أخرى أطلت برأسها في السنوات الأخيرة لا ندري من أين جاءتنا ومن شأنها أن تضعف شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تثبط الهمم، وتضع العراقيل في طريق المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والداعين إلى الله عز وجل. كما أن من شأنها أن تهيئ الجو للفساد والمفسدين وتخلي الجو ممن يتصدى لمدافعتهم ومقاومة فسادهم.

هذه الفتنة هي ما يرفع في وجه بعض الدعاة المصلحين الآمرين والناهين في أكثر بلدان المسلمين من تهم باطلة وإشاعات كاذبة تصفهم بالخوارج تارة، وإثارة الفتن وزعزعة الأمن تارة، وبالابتداع تارة؛ وكون هذه التهم تصدر من دعاة العلمنة والفساد فهذا أمر متوقع وغير مستغرب؛ لكن أن يصدر هذا من بعض المتحمسين للعلم والدعوة فإن هذا من العجائبِ، والعجائبُ جمة!

إن قومة لله – عز وجل – صادقة مخلصة بعيدة عن التعصب والحزبية والغوغائية لتقود صاحبها إلى صدق الدعاة المصلحين وصحة معتقدهم وأنهم خائفون على أمتهم، ومشفقون عليها من عذاب الله عز وجل، وليسوا دعاة خروج ولا فرقة ولا فتنة.

بل الفتنة، والله، في ترك الدعوة والأمر والنهي وإسلام الأمة لأهل الشر والفساد ليفسدوا دينها ودماءها وعقولها وأموالها وأعراضها؛ فأي الفريقين أحق، بالفتنة وزعزعة أمن الأمة: آلذين يواجهون الفساد والمفسدين ليسلم أمن الأمة في فكرها وأعراضها وأموالها وقبل ذلك دينها، أم الذين يسعون لزعزعة أمنها في هذه الضروريات التي هي أساس حياتها وبقائها؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فبالله: أين الفتنة والخروج فيمن يحذر الأمة من الشرك وآثاره؟ وأين الفتنة فيمن يحذر الأمة من هبوطها في وحل الرذيلة بما تبثه وسائل الإعلام والبث المباشر من قتل للأخلاق وتحريض على الفساد، وإغراء للمرأة على السفور والعري وهجر لبيتها وعشها؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من الربا والبيوع المحرمة؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من محبة الكافر وموالاة أعداء الله عز وجل؟ إن الفتنة في ترك الناس على هذه المفاسد وغيرها لا يؤمرون ولا ينهون.

وإن وصف الآمرين والناهين بالخروج على جماعة المسلمين مع براءتهم من ذلك هو في الحقيقة فتنة. وهذا شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - يبين أن لزوم جماعة المسلمين وولاة أمرهم لا يعني ترك الأمر والنهي وقول كلمة الحق. يقول رحمه الله تعالى:

(ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان. كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وكثير من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك فيرى أن الأمر

والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعا، أو يُنهى عنهما جميعا. وليس كذلك، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال عبادة رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[(١)]» فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله، وأمرهم بالقيام بالحق.

ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري ـ لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من المتروك ـ ما يفعل إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه)[(٢)].

ويقول أيضاً:

(ونهى رسول الله ﷺ عن قتال أئمة الجور وأمر بالصبر على جورهم، ونهى عن القتال في الفتنة، فأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم يرون قتالهم والخروج عليهم إذا فعلوا ماهو ظلم أو ما ظنوه هم ظلماً، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة وهؤلاء يقابلون لأولئك)[(٣)] ا.هـ.

---

(١) الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه في: البخاري ٩ / ٤٧ (كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: سترون بعدي أمورا تنكرونها)؛ مسلم ٣/ ١٤٧٠، ١٤٧١ كتاب الإمارة.

(٢) الاستقامة ١/ ٤١، ٤٢.

(٣) الآداب الشرعية ١ / ١٧٧.

ثانياً: فتنة إنكار الفساد

دون مراعاة للضوابط الشرعية والمصالح والمفاسد

كما أن في انتشار الفساد والمنكرات فتنة عظيمة إذا لم تنكر وتغير؛ وذلك كما مر بنا سابقاً؛ فإن في إنكارها أيضاً فتنة إذا لم تُراعَ المصالح والمفاسد والضوابط الشرعية المنطلقة من قواعد الشريعة ومقاصدها، كتوفر القدرة، والعلم، والرفق، والحكمة، والصبر، وأن لا تفوت بتغيير المنكر مصلحة عظيمة، أو أن الإنكار ينبني عليه مفسدة ومنكر أعظم من المنكر المراد تغييره... إلى آخر هذه الضوابط والقواعد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله ﷺ: «يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين: باباً يدخل الناس، وباباً يخرجون»[١].

وأنقل بهذه المناسبة كلاماً جيداً لشيخ الإسلام - رحمه الله - يجلي هذه الحقيقة حيث يقول:

(والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر.

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة

---

(١) فتح الباري ك. العلم ١/ ٢٧١ (١٢٦).

على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم الفساد والمفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته، لم يكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجب وفُعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله وليس عليه هداهم. وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضره ضلال الضال، وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان وتارة باليد.

فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «وذلك أدنى ـ أو ـ أضعف الإيمان». وقال: «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[(١)]. وقيل لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. وهذا هو المفتون الموصوف (بأن قلبه كالكوز مجخياً) في حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ في الصحيحين ـ: «تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير..» الحديث[(٢)].

---

(١) جزء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسلم ١/ ٦٩.

(٢) مسلم ١/ ١٢٨ ـ ١٣٠.

وهنا يغلط فريقان من الناس:

فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية. كما قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في خطبته: «يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»[١].

والفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً، من غير فقه ولا حكم ولا صبر ولا نظر في ما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يُقدر عليه وما لا يُقدر - كما في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها - أي الآية - رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به؛ فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائك أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»[٢] فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتدٍ في حدوده، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي كالخوارج والمعتزلة والرافضة، وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك، فكان فساده أعظم من صلاحه.

---

(١) سبق تخريجه ص: ١٤٧.

(٢) أبو داود ٤ / ٧٤ (ك الملاحم، باب الأمر والنهي).

ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة. وقال: «أدّوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم»(١). وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة. وأما أهل الأهواء ـ كالمعتزلة ـ فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم.

ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة: التوحيد: الذي هو سلب الصفات ـ والعدل: الذي هو التكذيب بالقدر ـ والمنزلة بين المنزلتين ـ وإنفاذ الوعيد ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الذي فيه قتال الأئمة. وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع.

وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد. فإن كلاً من الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته.

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر

(١) جزء من حديث رواه البخاري ٩/ ٤٧ ك. الفتن باب قوله ﷺ: سترون بعدي أموراً تنكرونها.

الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر؛ وقلَّ أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما. بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر:

– فإن كان المعروف أكثر: أمر به؛ وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وزوال فعل الحسنات.

– وإن كان المنكر أغلب: نهي عنه؛ وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعياً في معصية الله ورسوله... ومن هذا الباب ترْك النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور؛ لما لهم من الأعوان؛ فإزالة منكر بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكبر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمداً يقتل أصحابه)[١] ا.هـ.

ولكي يتضح لنا هذا الأمر بتمامه أسوق بعضاً من أشكال الفتنة التي عصفت بالمسلمين في الماضي والحاضر بسبب الأمر والنهي اللذين يفتقدان

---

(١) الاستقامة (٢١٠ - ٢١٩) باختصار.

الفقه أو الصبر أو الحكمة:

(١) فتنة الخوارج الذين خرجوا على جماعة المسلمين وكفروهم واستباحوا دماءهم وأموالهم وما جر ذلك من قتل وفساد وشر عليهم وعلى كثير من المسلمين واستمرت فتنتهم دهراً طويلاً؛ كل ذلك من قلة العلم والفقه بدين الله - عز وجل - ومقاصد الشريعة ووقوفهم عند النصوص التي تأمر بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون تجاوزها وضمها مع النصوص التي تدعو إلى الصبر ومراعاة المصالح والمفاسد والرفق والحكمة.

(٢) فتنة المعتزلة الذين من أصولهم: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) - وهذا أصل بلا شك - لكنهم يقصدون به قتال أئمة الجور والخروج عليهم، وهم بذلك يشتركون مع الخوارج في موقفهم وقتالهم للأئمة.

(٣) ما ظهر في عصرنا الحاضر من بعض الجماعات الإسلامية التي ساءها الواقع المرير للمسلمين وما سيطر على أكثر ديارهم من الحكم بغير ما أنزل الله وموالاة أعداء الله، ورأوا أن الكفر البواح قد ظهر وبان، فقاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي انتهى بهم إلى إعلان الجهاد والقتال ضد الحكام المفسدين في بلادهم.

لكن لما كان الفقه أو الصبر أو الحكمة أو ضعف القدرة قليلة عند هؤلاء المتحمسين المجتهدين؛ فإن مواجهاتهم تلك جرت مفاسد كبيرة عليهم وعلى المسلمين والدعاة من حولهم، فلم يتحقق ما يريدون، وترتب على ذلك تقليص دعوتهم وتصفية كثير منهم، كما تأثر بذلك الدعاة الآخرون الذين لا يرون رأيهم، وكفى بهذه المفاسد مانعاً عن العجلة.

وقد يدعي بعض هؤلاء المستعجلين في جهاد الظالمين والمفسدين في عصرنا الحاضر أن لديهم القدرة والإمكانيات لمواجهة قوى الشر والطغيان، ومع عدم التسليم لهم بذلك فيما يظهر والعلم عند الله - عز وجل - فإنا نقول لهم: على فرض صحة ما تقولون فلا تنسوا فتنة أخرى لا بد أن تواجهكم ألا وهي التضليل الذي يتعرض له المسلمون في أكثر ديار المسلمين من وسائل الإعلام التي يسيطر عليها الأعداء؛ فيصورون لهم الجماعات المجاهدة بأنهم إرهابيون ومتطرفون ويريدون الفساد بالأمة ومقدراتها، وفي نفس الوقت لم يكن هناك ما يُعدُّ بلاغاً كافياً للناس يعرفون فيه هذه الجماعات وما تدعو إليه حتى يحصل التميز فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة؛ وقبل هذا التمايز فإن في قتل الأبرياء بغي وعدوان حيث يشترط في رد البغي: القدرة وعدم البغي[1].

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى مسألة مهمة وهي أن على المسلم وهو يناصح إخوانه الدعاة وينبههم على مثل هذه المفاسد أن يحذر أشد الحذر من أن يعطي ولاءه ومحبته للأنظمة المحادة لله - عز وجل - وشرعه المطهر بحجة أن بعض الدعاة وقع في خطأ أو أكثر؛ وسبحان ربي العظيم! ماذا تساوي نسبة أخطاء مثل هؤلاء الدعاة النابعة عن اجتهاد خاطئ بجانب الانحرافات العظيمة لهذه الأنظمة التي شرعت من الدين ما لم يأذن به الله؟!

---

(١) قد يُفهم خطأً من هذا الكلام التهوينُ من شأن الجهاد ومدافعة الظالمين والرضا بالواقع المهين. وهذا فهم أبرأ إلى الله - عز وجل - منه. ولكن أردت التأكيد على ضوابط الجهاد كالقدرة ومراعاة المصالح والمفاسد ووضوح الراية وتميز الصفوف (انظر رسالة فبهداهم اقتده) للمؤلف.

كما ينبغي الحذر من أن يقدم الداعية الخدمة والمسوغات لهذه الأنظمة في ضرب إخوانه من الدعاة الذين لهم حق الموالاة والنصرة بالحق أمام أعدائهم الذين ينبغي البراءة منهم ومن ظلمهم.

(٤) وقد لا يكون تغيير المنكر بالضرورة عن طريق الجهاد والقتال بل قد يكون أيضاً في التغيير باليد أو اللسان لبعض المنكرات المتفشية في أكثر بلدان المسلمين اليوم كشرب الخمر أو الزنا أو الربا . . إلخ . فينبغي قبل إنكار مثل هذه المنكرات النظر فيما يترتب على الإنكار من مفاسد أو مصالح، فإذا كان المنكر لن يتغير لأنه محمي من سلطان الشر والطغيان، وفي نفس الوقت يلحق الضرر بمن أنكر وقد يتعداه إلى الدعوة والدعاة الآخرين؛ فإن الأمر والحالة هذه يقتضي عدم الإنكار. والنظر في المفاسد والمصالح يُبنى على غلبة الظن وليس على التوهم أو اشتراط الجزم واليقين.

(٥) والمسألة السابقة تقودنا إلى سؤال مهم ألا وهو: هل يجوز ترك الأمر والنهي إذا جر ذلك إلى مفاسد كبيرة على القائم بذلك؟

والجواب على ذلك فيه تفصيل، فأقول والله أعلم: إن كان القيام بالأمر والنهي ينبني عليه من المفاسد الكبيرة التي لا تقتصر على الآمر والناهي فحسب وإنما تتعداه إلى غيره من المسلمين ومصالحهم الدينية والدنيوية؛ فإن ترك الأمر والنهي والحالة هذه يكون متعيناً ولازماً؛ ذلك لأن مصلحة الأمر والنهي معدومة والمفسدة متحققة أو غالبة على الظن.

أما إن كان القائم بالأمر والنهي يخشى على نفسه من الأذى والضرر ما لا يطيقه من القتل أو السجن أو نحوهما، ولن يتضرر غيره بهذا الفعل فإنه

والحالة هذه يجوز له الترخص بترك الأمر والنهي، وإن كان الأفضل في حق من رأى في نفسه قوة الصبر والتحمل أن لا يترخص، وأن يقول كلمة الحق لا يخاف في الله لومة لائم، لعله أن يكون من سادات الشهداء الذين قال فيهم الرسول الله ﷺ: «سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»(١). وأسوق القصة التالية التي يتجلى فيها موقف من ترخص من السلف فأنكر بقلبه، ومن تكلم منهم وتحمل الأذى في سبيل ذلك:

(عن المعلى بن زياد قال: لما هزم يزيد بن المهلب أهل البصرة، قال المعلى: فخشيت أن أجلس في حلقة الحسن بن أبي الحسن، فأوجد فيها، فأُعرف، فأتيت الحسن في منزله، فدخلت عليه، فقلت: يا أبا سعيد كيف بهذه الآية من كتاب الله؟ قال: أية آية من كتاب الله؟ قلت: قول الله في هذه الآية: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ٦٢].

قال: يا عبد الله، إن القوم عرضوا السيف، فحال السيف دون الكلام، قلت: يا أبا سعيد، فهل تعرف لمتكلم فضلاً، قال: لا، قال المعلى: ثم حدث بحديثين قال:

حدثنا أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ بحديث قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه، أو

---

(١) الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٣/ ١٩٥ وصححه الألباني في السلسلة (٣٧٤).

يذكِّر بعظيم، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق»[١].

قال: ثم حدث الحسن بحديث آخر قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس للمؤمن أن يذل نفسه» قيل: وما إذلاله نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[٢].

قيل: يا أبا سعيد، فيزيد الضبي وكلامه في الصلاة؟ قال: أما إنه لم يخرج من السجن حتى ندم، قال المعلى: فقمت من مجلس الحسن، فأتيت يزيد، فقلت: يا أبا مودود! بينا أنا والحسن نتذاكر إذ نصب أمرك نصباً، فقال: مه يا أبا الحسن، قال: قلت: قد فعلت، قال: فما قال؟ قلت: قال: أما إنه لم يخرج من السجن حتى ندم على مقالته، قال يزيد: ما ندمت على مقالتي وايم الله، لقد قمت مقاماً أخطر فيه بنفسي.

قال يزيد: فأتيت الحسن، قلت: يا أبا سعيد غلبنا على كل شيء نغلب على صلاتنا، فقال: يا عبد الله، إنك لم تصنع شيئاً إنك تعرض نفسك لهم، ثم أتيته، فقال مثل مقالته.

قال: فقمت يوم الجمعة في المسجد والحكم بن أيوب يخطب، فقلت: رحمك الله الصلاة، فلما قلت ذلك احتوشتني[٣] الرجال يتعاورونني[٤]،

---

(١) أحمد ٣/ ٥٠.

(٢) أحمد ٥/ ٤٠٥، الترمذي في الفتن (٢٢٥٥) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦١٣).

(٣) احتوش: أحاط.

(٤) يتعاورون: يتناوبون.

فأخذوا بلحيتي وتلبيبتي[١] وجعلوا يجؤون[٢] بطني بنعال سيوفهم.

قال: ومضوا بي نحو المقصورة، فما وصلت إليها حتى ظننت أنهم سيقتلوني دونها.

قال: ففتح لي باب المقصورة.

قال: فقمت بين يدي الحكم، وهو ساكت، فقال: أمجنون أنت؟ وما كنا في صلاة، فقلت: أصلح الله الأمير، هل من كلام أفضل من كتاب الله؟ قال: لا، قلت: أصلح الله الأمير، أرأيت لو أن رجلاً نشر مصحفاً يقرؤه غدوة إلى الليل، أكان ذلك قاضياً عنه صلاته؟ قال: والله إني لأحسبك مجنوناً.

قال: وأنس بن مالك جالس تحت منبره ساكت، فقلت: يا أنس، يا أبا حمزة، انْشُدُكَ الله، فقد خدمت رسول الله ﷺ، وصحبته، أبمعروف قلت أم بمنكر؟ أبحق قلت أم بباطل؟ قال: فلا والله ما أجابني بكلمة[*]، قال له الحكم بن أيوب: يا أنس، قال: يقول: لبيك أصلحك الله، قال: وكان وقت الصلاة قد ذهب. قال: كان بقي من الشمس بقية، قال: احبسوه، قال يزيد: فأقسم لك يا أبا الحسن ـ يعني: للمعلى ـ لما لقيت من أصحابي كان أشد عليَّ من مقالي، قال بعضهم: مراء، وقال بعضهم: مجنون.

قال: وكتب الحكم إلى الحجاج: إن رجلاً من بني ضبة قام يوم الجمعة

---

(١) أعلى الصدر من الثياب. (٢) يجؤون: يضربون.

(*) ربما كان سكوت أنس رضي الله عنه خشية الفتنة أو خوف الأذى على أهله كما صرح بذلك في قصته مع الحجاج في البداية والنهاية ٩/٩٦.

قال: الصلاة، وأنا أخطب، وقد شهد الشهود العدول عندي أنه مجنون، فكتب إليه الحجاج: إن كانت قامت الشهود العدول أنه مجنون فخل سبيله، وإلا فاقطع يديه ورجليه واسمل عينيه واصلبه.

قال: فشهدوا عند الحكم أني مجنون، فخلى عني.

قال المعلى عن يزيد الضبي: مات أخ لنا فتبعنا جنازته، فصلينا عليه، فلما دفن تنحيت في عصابة فذكرنا الله، وذكرنا معادنا، فإنا كذلك إذ رأينا نواصي الخيل والحراب، فلما رآه أصحابي قاموا، وتركوني وحدي، فجاء الحكم حتى وقف عليَّ، فقال: ما كنتم تصنعون؟ قلت: أصلح الله الأمير، مات صاحب لنا فصلينا عليه ودفناه، وقعدنا نذكر ربنا ونذكر معادنا، ونذكر ما صار إليه، قال: ما منعك أن تَفِرَّ كما فروا؟ قلت: أصلح الله الأمير، أنا أبرأ من ذلك ساحة، وآمن للأمير من أن أفر. قال: فسكت الحكم، فقال عبد الملك بن المهلب وكان على شرطته: تدري من هذا؟ قال: من هذا؟ قال: هذا المتكلم يوم الجمعة، قال: فغضب الحكم وقال: أما إنك لجريء خذاه.

قال: فأُخذت فضربني أربع مئة سوط، فما دريت متى تركني من شدة ما ضربني.

قال وبعثني إلى واسط فكنت في ديماس[1] الحجاج حتى مات الحجاج)[2].

---

(١) الديماس: الحمام، وهنا السرب أي الحفرة تحت الأرض. وهو سجن الحجاج.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٥٣٦ - ٥٣٨ بغية الرائد) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

خامساً: فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين

الاختلاف والفرقة بين المسلمين شر وفتنة وقد جاء في الكتاب والسنة نصوص كثيرة في ذم الافتراق والنهي عنه والحث على الاجتماع والائتلاف ومع ذلك فقد اقتضت حكمة الله عز وجل وأراد سبحانه كوناً وقدراً أن يكون في هذه الأمة فرقة واختلاف، وتحقق ما أخبر به الرسول ﷺ في قوله «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة: كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»[1].

ولكن الله - عز وجل - الذي كتب هذا الافتراق على عباده كوناً وقدراً للابتلاء والاختبار، لم يرضَ لهم ذلك ديناً وشرعاً، بل جاء في أكثر من آية ذم الافتراق والنهي عنه ومن ذلك:

• قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا... الآية ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

• وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

---

(١) أبو داود: ح: (٤٥٩٧) وصححه الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية ص ٥٧٨ المكتب الإسلامي.

● وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

● وقوله سبحانه: ﴿...وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم ٣١، ٣٢].
والآيات في ذلك كثيرة.

● أما الأحاديث والآثار الواردة في ذم الافتراق والحث على الاجتماع والائتلاف فمنها:

* قوله ﷺ في حديث الافتراق السابق: «كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة».

* وقوله ﷺ: «واستوصوا بأصحابي خيراً، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يعجل الرجل بالشهادة قبل أن يُسألها وباليمين قبل أن يسألها؛ فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد ومن الاثنين أبعد فمن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن)[1].

* وقوله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يرضى لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا،

---

(١) اللالكائي في السنة ١/ ١١٩. وابن أبي عاصم في السنة (٨٧) وقال الألباني: إسناده حسن.

وأن تناصحوا لمن ولاه الله - عز وجل - أمركم. ويكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)(١).

* وقوله ﷺ: (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن رضي بالتحريش بينهم)(٢).

أما الآثار الواردة عن السلف في الحديث عن الجماعة ونبذ الفرقة فمنها:

* عن ثابت بن قطبة قال: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه وهو يخطب: وهو يقول: (يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنها السبيل إلى حبل الله - عز وجل - الذي أمر به وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)(٣).

* عن عمرو بن ميمون قال: قدم علينا معاذ بن جبل - رضي الله عنه - على عهد رسول الله ﷺ فوقع حبه في قلبي، فلزمته حتى واريته في التراب بالشام ثم لزمت أفقه الناس بعده: عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فذكر يوماً عنده تأخير الصلاة عن وقتها فقال: صلوها في بيوتكم واجعلوا صلاتكم معهم سبحة. قال عمرو بن ميمون: فقيل لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وكيف لنا بالجماعة؟ فقال لي: يا عمرو بن

---

(١) اللالكائي في السنة ١/ ١٣٢ ومالك في الموطأ (٢٠)، ومسلم (١٧١٥) ما عدا قوله: (وأن تناصحو لمن... أمركم).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٥٧).

(٣) اللالكائي ١/ ١٢١، الآجري في الشريعة/ ١٣.

ميمون! إن جمهور الجماعة هي التي تفارق الجماعة، إنما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنت وحدك)[١].

* إتمام عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - الصلاة أربعاً في منى عندما أتم بالناس عثمان بن عفان - رضي الله عنه - مع عدم موافقة عبد الله ابن مسعود على ذلك. قال الأعمش: فحدثني معاوية بن قرة عن أشياخه أن عبد الله صلى أربعاً قال فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعاً! قال: (الخلاف شر)[٢].

وبعد ذكر الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف التي تدل على وجوب الاجتماع والائتلاف على الحق ونبذ الافتراق والاختلاف بين أهله؛ فإن ما يثير العجب والحيرة في عصرنا الحاضر، ومما يزيد الأمر حسرة وألماً أن هذه الفرقة تحصل بين من ينتسبون إلى عقيدة واحدة ومنهج واحد: عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم، فإذا كان الجميع بهذه الصورة وهم يواجهون عدواً واحداً يحارب الإسلام وأهله أياً كان توجهه أو شيخه أو اسمه، وإذا كان الجميع يهدفون إلى غاية واحدة، وهي استئناف الحياة الإسلامية، وإقامة دين الله - عز وجل - وشريعته، ومحاربة الباطل وأهله، إذا كان الجميع متفقين على ذلك كله: فلماذا هذه الفرقة؟؟؟

لا شك أن للشيطان وحظوظ أنفسنا سبباً كبيراً في وجود هذه الفرقة،

---

(١) اللالكائي في شرح السنة ١/ ١٢٢.

(٢) أبو داود في المناسك ١٩٦٠، وهو في صحيح سنن أبي داود (٧٢٦).

وهناك سبب آخر لا يقل عن سابقيه في كونه سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف، ألا وهو الجهل بدين الله ـ عز وجل ـ وأحكام شريعته، والجهل بمواطن الاختلاف وما يقبل منه وما لا يقبل، وعدم تحرير مواضع النزاع. . .إلخ.

وإن ما سبق ذكره لا يعني أنه لا يوجد خلاف أبداً بين الأفراد أو الجماعات، لا؛ فالخلاف ـ والله أعلم ـ أمر حتمي بحكم اختلاف الطبائع والمقومات الشخصية والفكرية والميولات النفسية. . . إلخ، ولكن ليس كل اختلاف يوجب الفرقة والتنازع والتباغض، وأوضح مثال لذلك أن السلف ـ رحمهم الله ـ قد اختلفوا في كثير من المسائل، ومع ذلك كانت كلمتهم مجتمعة ولم يتفرقوا، والكلام هنا منصبٌ على من هم في دائرة أهل السنة والجماعة ولم يختلفوا في أصولها، أما المخالفون لأهل السنة من أهل الأهواء والبدع فإن خلافنا معهم أصيل ومتعين، ومثل هؤلاء ينبغي أن نفارقهم، ونتبرأ من بدعهم وضلالاتهم.

إن الأمة منذ عهد أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قد وقع بينهم اختلاف في بعض المسائل، ولم يكن هذا الاختلاف يوجب الفرقة، إلا عندما يدخل الشيطان أو أولياؤه من الجن والإنس، أو يكون المفارق لا علم عنده بالأدلة ومسائل الخلاف وما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز، وهذا أدى إلى تحول الخلاف الذي تحتمله الشريعة وتسعه أقوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم من سلف هذه الأمة وأئمتهم إلى عداوة وفرقة.

وإن أهل السنة يمكن أن يقع بينهم اختلاف حول بعض المسائل التي

يجوز الاختلاف فيها، ولكن هذا لا يؤدي إلى اختلاف القلوب وافتراق الكلمة.

● قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: (يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة)[١].

● ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد)[٢].

● ويقول أيضاً - رحمه الله تعالى -: (قد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. وكانوا يتناظرون في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين)[٢] ا.هـ.

وإن فتنة الفرقة والاختلاف لا تقف عند حد بل تبدأ من اختلاف القلوب ووجود الإحن والأحقاد وتمر على الألسن فيُتَكلَّم بلا علم ولا تثبت ولا عدل، وقد تنتهي - والعياذ بالله - إلى فتنة السيف والقتال، والمتتبع للتاريخ وأحداثه يلمس هذا بكل وضوح. والكلام الآتي يؤكد ذلك.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦.

(٢) الاستقامة ١/ ٣١.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٢.

ذكر بعض مظاهر الفتنة
الناجمة عن الفرقة والاختلاف

(١) تلوث القلوب بالحسد والأحقاد والشحناء:

وهذه من الفتن القلبية التي تهلك فيها القلوب ولا يعلم بها إلا الله - عز وجل - وأصحابها، وقد تبدو في لحن القول أحياناً. وقد تكون من الخفاء بحيث تظهر على من تلوّث بها في صورة النصح ورد الباطل والغيرة على الدين؛ والله أعلم بما في القلوب.

وعلامة ذلك: الولوع بالخلاف، وأسلوب السب، وتتبع السقطات وتضخيمها، والتفسير السيئ لمقاصد أهلها وسوء الظن بهم حتى تتحول صورة أهل الخير والإصلاح في أذهان بعض الناس إلى أنهم دعاة شر وبدعة وضلال.

ويتحدث الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن هذا الصنف من الناس الذين فتنوا بهذه الأمراض القلبية، فاظهروا حقدهم وحسدهم لأهل الصلاح في صورة الغيرة على الدين والذب عن عقيدة المسلمين، فيقول: (ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقاً، وقد رأينا فيهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه... وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه، ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر، فيظهر في هذا الباب من زخارف القول وقصده غير ما أظهر؛ والله

المستعان)[١].

(٢) تلوُّث الألسنة بالكذب، والقول بلا علم ولا عدل:

المولع بالفرقة وحب الخلاف لا يسلم لسانه في العادة من آفات كثيرة منها الكذب، والعدوان، وتتبع الشائعات، وعدم التثبت، والسعي بالتحريش والنميمة ... إلى آخر هذه الآفات المهلكة التي يهلك أصحابها بها، ويسقطون بسببها في الفتن، وقد عد كثير من السلف فتنة اللسان في أيام الفتن كفتنة السيف؛ وهذا حق؛ لأن فتنة القتال بين المسلمين لا تأتي إلا عن طريق اللسان ووقوعه في الظلم والعدوان والغيبة والنميمة واستعداء الظلمة على أهل الخير، فيؤذونهم بسجن أو تقتيل، كل هذه الأمور لا تحصل إلا عن طريق الكلام باللسان والوشاية والتحريش.

• فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف»[٢].

• وعن شريح قال: «ما أخبرت ولا استخبرت منذ كانت الفتنة» قال: فقال مسروق: «لو كنت مثلك لسرني أن أكون قدمت» قال شريح: «فكيف بأكثر من ذلك مما في الصدور، تلتقي الفئتان: إحداهما أحب إليَّ من الأخرى»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢٣٧.
(٢) أبو داود. ك الفتن، باب كف اللسان (٤٢٦٤).
(٣) المصنف لابن أبي شيبة ١٥ / ١٢٢.

• وعن ميمون بن مهران، قال: «لبث شريح في الفتنة تسع سنين لا يخبر ولا يستخبر»[١].

وعلق الدكتور رضا المباركفوري على هذه الآثار في تحقيقه لكتاب (السنن الواردة في الفتن لأبي عمر الداني) بقوله:

عقد المؤلف هذا الباب: «ذم الكلام في الفتنة» ليحذر الناس من خلاله من أهم منفذ تتطرق منه الفتنة والفساد إلى المجتمع الإسلامي ألا وهو اللسان. ولينبه المرء المسلم على أنه إذا استطاع عدم الخوض في الفتن وعدم مساعدة أصحابها بالسلاح والعتاد فاراً بدينه أو لازماً بيته؛ فإذا استطاع ذلك وجب عليه أن لا يشاركهم فيها باللسان حيث يتكلم بكلام من شأنه إشعال نيران الفساد والفتنة دون إخمادها. فينبغي له المحافظة على لسانه فيها؛ لأن أمره خطير جداً، وإذا لم يحافظ عليه الإنسان، وأطلق عنانه أحدث في المجتمع العداوة والبغضاء والتباغض والتناحر وغيرها من الآفات التي لا تحمد عقباها، ولذلك قال النبي ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٢]. وقال عندما سئل: «أي المسلمين أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٣].

وقال لمعاذ في حديث طويل: «وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»[٤].

---

(١) أبو نعيم في الحلية ٤/ ١٣٣.

(٢) البخاري ١١/ ٣٠٨ (٦٤٧٤).

(٣) البخاري ١/ ٥٣، مسلم ١/ ٦٥.

(٤) الترمذي ٥/ ١١ (٢٦١٦).

ولخطورة أمر اللسان فقد اهتمت الشريعة الإسلامية بشأنه اهتماماً خاصاً؛ حيث وردت على لسان نبيها عليه أفضل الصلاة والتسليم أحاديث عديدة تأمر بالمحافظة عليه وعدم التكلم بما لا يعود بفائدة دينية أو دنيوية، وذلك في جميع الأوقات والأزمنة، ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

هكذا الأمر في الأيام العادية، وأما إذا كانت هناك فتنة بين المسلمين ترخص فيها دماؤهم؛ فتزداد أهميته وتعظم خطورته؛ حيث يكون وقعه أشد من وقع السيف؛ لأن السيف إذا ضرب به أحد أثر فيه وحده، وأما اللسان فيمكن أن تضرب به ألف نسمة، وذلك بمجرد كلمة يتفوه بها.

ونظراً إلى ازدياد خطورته في أيام الفتن فقد عقد كل من أبي داود وابن ماجه باباً مستقلاً بذلك في كتاب الفتن من سننهما. فقال الأول: «باب في كف اللسان» ثم روى تحته حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء. من أشرف لها استشرفت له. وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف». وحديث عبد الله بن عمرو الذي تقدم ذكره(٢).

وأما الثاني فقال: «باب كف اللسان في الفتنة» وأورد تحته من الأحاديث حديث عبد الله بن عمرو وحديث أبي هريرة وأحاديث أخرى في المحافظة على اللسان(٣)؛ وقصدهما من عقد هذا الباب هو البيان بأن اللسان تزداد خطورته في أيام الفتن؛ إذ يستطيع فيها أن يثير الفتنة ويزيد

---

(١) البخاري ١٠/٤٤٥ (٦٥١٨)

(٢) انظر سنن أبي داود ٤/ ٤٦٠.

(٣) انظر سنن ابن ماجه ٢/١٣١٢.

في إضرام نيرانها بكلمة ينبس بها، وقد تكون فيها أشد من وقع السيف، أي بالكذب عند أئمة الجور ونقل الأخبار إليهم، فربما ينشأ عن ذلك من النهب والقتل والجلد، والمفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها، ثم ذكر ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[١].

وبناء على ذلك رأينا القاضي شريحاً لبث في الفتنة مدة تسع سنين لا يخبر ولا يستخبر، مخافة أن يصدر منه ما يتسبب لإثارة الفتنة وزيادة رقعتها مما يجلب على أفراد الأمة الإسلامية الشقاء والدمار، وقد روى أبو نعيم بسنده عن ابن مهدي أنه قال: «فتنة الحديث أشد من فتنة المال، وفتنة الولد تشبه فتنته، كم من رجل يُظَنُّ به الخير قد حمله الحديث على الكذب»[٢]. نسأل الله السلامة والعافية من فتنة الحديث وآفات اللسان)[٣].ا.هـ.

وإن من أخطر آفات اللسان أيام الفتن رمي عباد الله – عز وجل – بالتكفير أو التبديع والتفسيق دون بينة فيها من الله برهان. ومنشأ خطورة التكفير أنه باب لفتنة البغي والقتال واستباحة الدماء والأموال.

وهكذا يظهر لنا خطر اللسان وفتنته خاصة أيام الفتن التي تتميز بكثرة الشائعات والأقوال المريضة أو المجهولة المصادر، واستغلال اختلاف العلماء

---

(١) البخاري (١١/٣٠٨ (٦٤٧٧)، مسلم ٤/٢٢٩٠ (٢٩٨٨).
(٢) انظر الحلية ٩/٦.
(٣) السنن الواردة في الفتن ت: رضا المباركفوري ٢/٤٤٧ – ٤٤٩.

والدعاة وتحويل هذا الاختلاف إلى تحزب وتعصب وتطاحن وتدابر.

فالمتعين عليك – أخي المسلم يا من تريد لنفسك النجاة – أن تهرب من هذه الفتنة وتمسك عليك لسانك، ولا ينبغي أن يستفزك أهل الفتن المولعون بالخلاف والخصومات وتتبع السقطات؛ فلا أحسن ولا أفضل من أن تطيع الله فيمن عصى الله فيك، ولا أحسن من تجاهل العدوان والصبر عليه أيام الفتن، ولا أسلم من أن تكون عبد الله المظلوم ولا تكن عبد الله الظالم. ولنستمع إلى الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – وهو يصف مَنْ جعل الملامة بضاعته، والاستطالة على المؤمنين ديدنه وما هو الموقف منه، فيقول:

(اللهم فعياذاً بك ممن قَصُرَ في العلم والدين باعه، وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعه؛ فهو لجهله يرى الإحسان إساءة، والسنة بدعة، والعرف نكراً؛ ولظلمه يجزي بالحسنة سيئة كاملة، وبالسيئة الواحدة عشراً، قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سُلَّماً إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه، ولا يعرف من المعروف، ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه، يستطيل على أولياء الرسول وحزبه بأصغريه، ويجالس أهل البغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه، قد ارتوى من ماء آجن، وتطلع واستشرف إلى مراتب ورثة الأنبياء، وتطلع يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم في الجهالة فيظن أنه من السابقين؛ وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل، وإذا أُنزِل الورثة منازلهم منها؛ فمنزلته منها أقصى وأبعد منزل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذاً بك ممن جعل الملامة بضاعته، والعذل نصيحته؛ فهو دائماً يبدي في الملامة ويعيد، ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد. بل عياذاً بك من عدو في صورة ناصح، وولي في مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً، وتنفيره وتخذيله إسعافاً وإرفاقاً، وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تفتح، والميزان بهم يخف ولا يرجح؛ فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءاً من الالتفات، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره على الأحياء بين الأموات؛ وما أحسن ما قال القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور)[١]. ا.هـ.

ولشيخ الإسلام رحمه الله تعالى كلام نافع في هذا المقام يأمر فيه بالصبر على جهل الجهول وظلم الظالم خاصة أيام الفتن. يقول رحمه الله تعالى:

(**وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين**، سواء كان قولاً أو فعلاً، ولكن المصيب العادل عليه أن يصبر عن الفتنة، ويصبر على جهل الجهول وظلمه إن كان غير متأول. وأما إن كان ذاك أيضاً متأولاً فخطؤه مغفور له، وهو فيما يصيب به من أذى بقوله أو فعله له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور له؛ وذلك محنة وابتلاء في حق ذلك المظلوم، فإذا

(١) مفتاح دار السعادة/ ٤٩ ـ ٥٠.

صبر على ذلك واتقى الله كانت العاقبة له، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فامر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى؛ وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض؛ متأولين كانوا أو غير متأولين.

وقد قال سبحانه: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن، وإن كان ظالماً له.

فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا؛ فإن الشيطان موكل ببني آدم، وهو يعرض للجميع، ولا يسلم أحد من مثل هذه الأمور ـ دع ما سواها ـ من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور، باجتهاد أو غير اجتهاد، وإن كان هو الحق.

وقال سبحانه لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

فأمره بالصبر وأخبره أن وعد الله حق وأمره أن يستغفر لذنبه)[١]. ا.هـ.

---

(١) الاستقامة ١/٣٧، ٣٨.

وقال في موطن آخر: (والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضاً وإن كانوا فعلوه بتراضيهم)[١]. ا.هـ.

(٣) الوقوع في فتنة الاقتتال بين المسلمين:

وهذه نتيجة طبعية للوقوع في فتنة الفرقة والاختلاف بالقلب واللسان، وهي فتنة عظيمة تسفك فيها الدماء المعصومة، ويعتدى فيها على الأموال والأعراض المحترمة بجهل أو تأويل أو بدافع من هوى نفس وإغراء شيطان.

لذا يجب على المسلم الذي يرجو لقاء ربه، ويوقن بيوم الفصل والقضاء أن يفر من هذه الفتنة فراره من الأسد، وذلك بالفرار من مقدماتها التي تبدأ بتلوث القلب أو اللسان بها؛ لأنهما الطريقان إليها. ولقد كان السلف - رحمهم الله تعالى - مضرب المثل في خوفهم وفرارهم وتحذيرهم من هذه الفتن التي تأكل الدينُ ويُفتن فيها من فتن.

وأسوق فيما يلي بعضاً من أقوال المصطفى ﷺ، الحريص على أمته الرحيم بها، التي يحذر فيها من هذه الفتنة وما ينبغي أن يفعله المسلم إزاءها، وأردف هذه الأقوال الشريفة ببعض المواقف والنماذج الفريدة لسلف الأمة في أيام الفتن:

● فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥ / ١٢٨.

ملجأ أو معاذاً فليعذ به»(١).

● وعن سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – (مثله) إلى قوله: «والماشي فيها خير من الساعي» وزاد: قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي، وبسط يده إليَّ ليقتلني، قال: «كن كابنَيْ آدم»(٢).

● وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده»(٣).

أما الآثار والمواقف السلفية فمنها:

● عن عبد الله بن عبيد بن عمر، عن ابن عمر، قال: إنما مثلنا في هذه الفتنة كمثل قوم يسيرون على جادة يعرفونها، فبينا هم كذلك، إذا غشيتهم سحابة وظلمة، فأخذ بعضهم يميناً وشمالاً، فأخطأ الطريق، وأقمنا حيث أدركنا ذلك، حتى جلا الله ذلك عنا، فأبصرنا طريقنا الأول، فعرفناه، فأخذنا فيه. إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان وعلى هذه الدنيا، ما أبالي أن لا يكون لي ما يَقتُل عليه بعضهم بعضاً بنعلي هاتين الجرداوين(٤).

● وعن سلاَّم بن مسكين: سمعت الحسن يحدث قال: لما قتل عثمان، قالوا لابن عمر: إنك سيد الناس وابن سيدهم، فاخرج يبايع لك الناس. فقال: لئن استطعت لا يهراق فِيَّ محجمة. قالوا: لتخرجن أو لتقتلن على

(١) البخاري ١٣ / ٣٠ الفتح، مسلم (٢٨٨٦).
(٢) الترمذي (٢١٩٥) في الفتن وصححه الأرناؤوط.
(٣) أبو داود (٤٢٤٩) في الفتن وصححه الأرناؤوط.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٣٧.

فراشك، فأعاد قوله، قال الحسن: أطمعوه وخوِّفوه، فما قدروا على شيء منه»[١].

● وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: (نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، قلنا: من نخاصم؟ وليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم حتى وقعت الفتنة، قال ابن عمر: هذا الذي وعدنا ربنا - جل وعز - أن نختصم فيه)[٢].

● وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: لما طعنوا على عثمان، صلى أبي في الليل، ودعا، فقال: اللهم قني من الفتنة بما وقيت به الصالحين من عبادك، فما أخرج ولا أصبح إلا بجنازته[٣].

● وعن عامر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في إبله، فجاء ابنه فلما رآه سعد، قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فجاء، فنزل، فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: اسكت! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[٤].

● وعن الثوري: عن الحارث الأزدي قال ابن الحنفية: رحم الله امرأً أغنى نفسه، وكف يده، وأمسك لسانه، وجلس في بيته، له ما احتسب،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٢٣٩.
(٢) السنن الواردة في الفتن ٢/٢١٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٣٣٥.
(٤) مسلم (٢٩٦٥) في الزهد.

وهو مع من أحب، ألا إن أعمال بني أمية أسرع فيهم من سيوف المسلمين. ألا إن لأهل الحق دولة يأتي بها الله إذا شاء. فمن أدرك ذلك، كان عندنا في السهم الأعلى، ومن يمت، فما عند الله خير وأبقى[١].

● وقال أبو عقيل بشير بن عقبة: قلت ليزيد بن الشخير: ما كان مطرِّف يصنع إذا هاج الناس؟ قال: يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي[٢].

● وقال أيوب: قال مطرف: لأن آخذ بالثقة في القعود أحب إليَّ من أن التمس فضل الجهاد بالتغرير[٣].

● وقال حميد بن هلال: أتت الحرورية مطرف بن عبد الله يدعونه إلى رأيهم، فقال: يا هؤلاء، لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما وأمسكت الأخرى؛ فإن كان الذي تقولون هدى أتبعتها الأخرى، وإن كان ضلالة، هلكت نفس وبقيت لي نفس، ولكن هي نفس واحدة لا أغرر بها[٤].

وقد وردت آثار كثيرة في الحث على العزلة أيام الفتن وبخاصة فتن الاقتتال بين المسلمين، وسأورد بعضها في المبحث الأخير عند الحديث عن العزلة وأحكامها - إن شاء الله تعالى.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٢٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩١.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٩٥.

مسألة وجوابها:

هل يُفهم من الأحاديث والآثار التي تأمر بكف اليد أيام الفتن أن يستسلم المسلم لمن أراد قتله أو أخْذ ماله أو الاعتداء على حريمه؟ وكيف يجمع بين هذه الأحاديث وبين تلك التي تبيح للمسلم مقاتلة من أراد قتله أو أراد ماله وعرضه؟ كقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»(١).

وعن مخارق قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟ قال: «ذكره بالله» قال: فإن لم يذكر؟ قال: «فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين» قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين، قال «استعن عليه بالسلطان» قال: فإن نأى السلطان عني؟ قال: «قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة أو تمنع مالك»(٢).

يفصل هذه المسألة الدكتور المباركفوري في تحقيقه لكتاب: (الفتن لأبي عمرو الداني) فيقول:

(والمسألة فيها تفصيل؛ فالمدافعة عن الحريم واجب في كل حال من الأحوال، وليس في ذلك خلاف بين العلماء، وكذلك لا يوجد خلاف بينهم في وجوب المدافعة عن النفس إذا قصدها كافر، وأما إذا قصدها مسلم ففيه خلاف: فمنهم من يجيزها، ومنهم من يمنعها، وكذلك

---

(١) أبو داود في السنن (٢/٤٧٧)، الترمذي في الديات (١٤٢١) وصححه الأرناؤوط في جامع الأصول ٢/٧٤٤.

(٢) صحيح سنن النسائي (٣٨٠٣).

اختلفوا فيمن أريد ماله ظلماً: فمنهم من يجيز له المقاتلة عن ماله، ومنهم من يوجبها، ومنهم من يمنعها، ومنهم من يفرق بين القليل والكثير، فيقول: إذا طلب الشيء الخفيف لا يجوز له المقاتلة، كما أن منهم من يفرق بين حال وحال، فيقول لا يجوز له المقاتلة في الحال التي يكون فيها للناس إمام وجماعة. وأما في حال الاختلاف والفرقة فليستسلم، ولا يقاتل أحداً، وهو قول الأوزاعي، ولكن يرد عليه وعلى الذي قبله حديث أبي هريرة عند مسلم، وقد جاء فيه: «فلا تعطه» دون تفريق بين القليل والكثير، وبين حال وأخرى، ونقل عن الشافعي أنه قال: «من أريد ماله أو نفسه أو حريمه فله الاختيار أن يكلمه أو يستغيث، فإن منع أو امتنع لم يكن له قتاله، وإلا فله أن يدفعه عن ذلك، ولو أتى على نفسه، وليس عليه عقل ولا دية ولا كفارة، لكن ليس له عمد قتله»[1] .ا.هـ.

وقد فرق شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – بين المقاتلة أيام الفتن وما ورد في النهي عنها والصبر على ظلم الولاة، وبين قتال الصائل فقال: (فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله، ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور التي يكون القتال فيها فتنة، كما أذن في دفع الصائل بالقتال، حيث قال: «من قتل دون ماله فهو شهيد.. الحديث» فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة؛ إذ الناس كلهم أعوان على ذلك، فليس فيه ضرر عام على غير الظالم، بخلاف قتال ولاة الأمور فإن فيه فتنة وشراً عاماً أعظم من ظلمهم؛ فالمشروع فيه الصبر)[2] .ا.هـ.

---

(١) السنن الواردة في الفتن ٢/٣٥٣.

(٢) الاستقامة ١/٣٥، ٣٦.

والحاصل من هذه النقولات: أن كف اليد وترك المدافعة عن النفس إنما يكون في أيام الفتن التي يتأول المقاتلون فيها لقتالهم، وقد يكرهون الناس على الخروج معهم للمقاتلة؛ فحينئذ لا يستجاب لهم ولو تحت التهديد بالقتال، أما اعتداء اللصوص والصائلين فينبغي رده وعدم الاستسلام له ولو كان ذلك تحت مضلة الفتن.

(٤) فتنة الانشغال بالخلاف والفرقة عن الدعوة والجهاد وطلب العلم وتربية النفوس:

وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل؛ لأن التاريخ الإسلامي وأحداثه تشهد بذلك؛ فما من مكان أو زمان كثر فيه التفرق والاختلاف بين المسلمين إلا وينعكس هذا على انكماش الدعوة، وضعف العلم والتعليم، وتوقف الجهاد في سبيل الله - عز وجل - لأن المسلمين قد انشغلوا ببعضهم عن ذلك. ونظرة سريعة للفترة التي تلت مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وفي أول حكم يزيد بن معاوية ترينا كيف توقف الجهاد في هذه الفترة، وانشغل المسلمون بالفتن فيما بينهم.

ذكر الذهبي - رحمه الله - في السير عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما قتل عثمان - رضي الله عنه - ووقع الاختلاف، لم يكن للناس غزو حتى اجتمعوا على معاوية، فأغزاهم مرات، ثم أغزى ابنه في جماعة من الصحابة براً وبحراً حتى أجاز بهم الخليج، وقاتلوا أهل القسطنطينية على بابها ثم قفل)[1].

ونظرة أخرى إلى واقعنا المعاصر وإلى من فتنوا بحب الخلاف وأُولِعوا

---

(١) نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء ١ / ٢٤٢.

بتتبع الهفوات والزلات تؤكد هذا الأمر حيث انشغلوا بذلك عن أنفسهم وتربيتها على العلم والخير والرحمة بالمسلمين، ولم يظهر لهم أثر يذكر في دعوة الناس وتصحيح عقائدهم وتحذيرهم من البدع وملل الكفر والشرك والزندقة. وهذا شأن الفتن يجر بعضها بعضاً ويولد بعضها بعضاً ولا تقف عند حد، من تشرف لها استشرفت له.

(٥) ذهاب الريح وشماتة الأعداء وتسلطهم على المسلمين:

لا ريب أن مما يفرح أعداء المسلمين والمتربصين بهم شراً تفرق المسلمين، واختلاف كلمتهم، وتسلط بعضهم على بعض؛ مما يجعلهم يشمتون، ويغريهم هذا التفرق على مزيد من التسلط والكيد والإيذاء للمسلمين، وهذا الكيد - إذا أضيف إلى فتنة الفرقة - هو الذي يُذهب الريح، وينشأ منه الفشل، ويؤخر نصر الله - عز وجل - وتتوالى بذلك الجرائم والمحن على المسلمين. قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

(٦) ظهور التحزب وغلبة الهوى واضطراب العقول:

التحزب والتعصب لا يظهران في الغالب إلا أيام الفرقة والاختلاف بين المسلمين؛ وعند ذلك يصبح الهوى غالباً والعقول مضطربة، ويصير كل حزب بما لديهم فرحين، ويكثر في هذه الأحوال التأويل الفاسد، فيسوَّغ الظلم والعدوان، والقتل والتقتيل بحجج فاسدة، ولا ينجو من فتنة الهوى إلا من عصم الله - عز وجل - ولو أراد العقلاء بعد ذلك إخماد نار هذه الفتنة فإنهم في الغالب لن يستطيعوا ذلك ما دام أنهم فرطوا في أول الأمر، ولم يبذلوا الجهد في منعها من الاشتعال، أما بعد هيجانها

واشتعالها فإن العقلاء من أهل الدين يحتارون فيها، وقد يسقطون فيها - نسأل الله العافية.

وعن ذهاب العقول أيام الفتن يقول الرسول ﷺ: «إن بين يدي الساعة لهرجاً، قال: قُلْت: يا رسول الله، ما الهَرْجُ؟ قالَ: القتل. فقالَ بَعض المسلمين: يا رسول الله، إنا نقتل الآن في العام الواحدِ، من المشركينَ كذا وكذا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: ليْسَ بقتل المشركين؛ ولكن يقتلُ بعضكم بعضاً، حتَّى يقتلَ الرجلُ جارهُ، وابن عمِّهِ، وذا قرابته، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ومعنا عقُولنا ذلك اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: لا. تنزع عقول أكثر ذلك الزمان، ويخلفُ لهُ هباءٌ من الناس، لا عقولَ لهمْ»[١].

كما وردت أحاديث تحذر من الدعوة والقتال على العصبية، منها:

● ما رواه جبير بن مطعم - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٢].

● وما رواه عبد الله بن مسعود - رضي الله تعالى عنه - قال: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّي في مهواة، فهو ينزع بذنبه». وفي رواية قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في قبة من أدم ... فذكر نحوه»[٣].

---

(١) أحمد (٤/٤٠٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣١٩٨).

(٢) أبو داود (٥١٢١) في الأدب وحسنه الأرناؤوط في جامع الأصول (٧٥٢٢).

(٣) أبو داود (٥١١٧) في الأدب وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح (جامع الأصول ٧٥٢٤).

(٧) الحيرة والاضطراب التي تصيب العامة من جراء الخلاف:

إن عوام المسلمين بل المبتدئين في الدعوة وطلب العلم يحتارون ويضطربون وهم يرون الخلاف والفرقة يدبان في صفوف بعض أهل العلم وبعض الدعاة؛ وخاصة من هم على عقيدة واحدة ومنهج واحد؛ ومنشأ الفتنة هنا هو ما يصيب الناس من الحيرة وعدم اطمئنانهم لشيء، وإيغار صدورهم نحو بعض أهل العلم، والتجرؤ على النيل منهم، وسقوط هيبتهم من النفوس.

كما قد تؤدي هذه الفتنة إلى اليأس والتشكيك في نوايا الدعاة؛ وبذلك يتعكر جو الدعوة الذي يفرح به أهل الفساد الفكري والأخلاقي، ويتهيأ لهم المناخ المناسب والبيئة الخصبة لبذر شرهم وفسادهم؛ ذلك لأن أهل الخير مشغولون بأنفسهم وبالردود على بعضهم تاركين الناس من غير نصح وإرشاد ومن غير مدافعة لفساد المفسدين الموجه إليهم.

ثم إن الناس - بل العالمين منهم - قد تضطرب أذهانهم أيام الفتن، وتغيب عنها بعض معاني القرآن؛ كما حصل ذلك في يوم موت النبي ﷺ وغاب عن أكثر الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، حتى ذكَّرهم بها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وهذا شأن أيام الفتن حيث تتشوش فيها الأذهان، ويضعف التركيز، وتحتار العقول.

سادساً: الفتنة بالعلم

إن كون الجهل فتنة لصاحبه لا يهتدي بسببه إلى الحق والهدى فهذا معروف ومفهوم، لكن أن يكون العلم الذي هو أساس معرفة الحق وسلوك الصراط المستقيم فتنة لحامله في بعض الأحوال؛ فإن هذا هو الأمر الذي يحتاج إلى مزيد من البسط والإيضاح لنحذره ونحذر منه ومن سوء العاقبة فيه. وقد كتب سلفنا الصالح في هذه الفتنة وآفاتها كالإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – في أكثر كتبه كالمدارج ومفتاح دار السعادة وغيرها. وألّف الإمام الذهبي رسالة مفيدة في زغل العلم، والإمام الآجري في أخلاق العلماء ضمنها أخلاق علماء السوء والفتنة التي وقعوا فيها.

وقد أثنى الله – عز وجل – على العلم والعلماء العاملين به في أكثر من آية منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]

وقوله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، والأحاديث في فضل العلم وأهله أيضاً كثيرة منها قوله ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وان الأنبياء لم يورثوا

ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١]، وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢].

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه النافع: (مفتاح دار السعادة) ما يقارب المئتي دليل على فضل العلم وأهله وهو باب نافع تفرع منه إلى مسائل مهمة يحسن الرجوع إليها[٣].

ومع ما للعلم وأهله من الفضائل والمناقب والعواقب الحميدة في الدنيا والآخرة إلا أن سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - كانوا يخافون أشد الخوف من تبعات العلم وآفاته والفتنة به، فحريٌ بنا اليوم - معاشر طلاب العلم - أن نكون أشد خوفاً وحذراً، ذلك لكثرة الفتن وانفتاح الدنيا وزخرفها وكثرة المخادعين والمضللين الذين يلوحون في هذا الزمان لأهل العلم بالمال والجاه والسلطان وغير ذلك من متاع الدنيا الزائلة.

ومن أخطر مظاهر الفتنة بالعلم وآفاته ما يلي:

• ضعف العمل بالعلم، ومناقضة القول للعمل • الكبر والعجب والرياء • التلبيس وكتم الحق • طلب الدنيا وزينتها والتحاسد عليها • الجدال والمراء • التقليد الأعمى والتعصب لآراء الرجال • قلة المعرفة بواقع الناس وأحوالهم • التعالم والقول بلا علم.

---

(١) جزء من حديث طويل عند الترمذي ك العلم (٢٦٨٣).

(٢) البخاري (٧١) [فتح (١/١٩٧)] مسلم (١٠٣٧).

(٣) مفتاح دار السعادة من ص (٥٢ - ٢٠٤).

أ ـ ضعف العمل بالعلم ومناقضة القول للعمل

إن عدم العمل بالعلم أو ضعف ذلك عند طالب العلم هو الذي ينشأ عنه الآفات المذكورة سابقاً؛ فإن هي إلا نتيجة تخلُّف العمل عن العلم. وإن علماً لا يثمر لصاحبه العمل والاستعداد للآخرة وخشية الله - عز وجل - فإنه حجة على صاحبه وفتنة له، والجاهل أفضل منه وأخف حملاً. وقد وردت آيات وأحاديث وآثار كثيرة تحذر من ترك العمل بالعلم وتشنع على من لم يعمل بعلمه ولم ينتفع به في عبادة ربه - عز وجل - وذكره وشكره **ومن هذه الآيات:**

قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الجمعة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢، ٣].

أما الأحاديث فمنها:

● قوله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»(١).

● وقوله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه، فيقال: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(٢).

● وقوله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلِّم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»(٣).

● وقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(٤).

أما الآثار الواردة عن السلف رحمهم الله تعالى في التحذير من فتنة العلم بلا عمل فهي كثيرة جداً منها:

* عن حبيب بن عبيد قال قال أبو الدرداء: (لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملاً)(٥).

---

(١) الترمذي بنحوه في صفة القيامة (٢٤١٩)، وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة ٢/٩٤٦.

(٢) البخاري (٣٢٦٧) ومسلم في الزهد (٢٩٨٩).

(٣) الطبراني في المعجم الكبير ٢/١٦٧ (١٦٨٥). وقال الهيثمي في المجمع ١/١٨٥: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٤) مسلم في الذكر (٢٧٢٢)

(٥) أخلاق العلماء للآجري ص ٨١.

* وقال عمر بن قيس: حدثني عطاء قال: «كان فتًى يختلف إلى أم المؤمنين فيسألها وتحدثه، فجاء ذات يوم يسألها فقالت يا بني هل عملت بما سمعت؟ قال: لا والله يا أمه، قالت: يا بني وتستكثر من حجج الله علينا وعليك»[١].

* وقال علي – رضي الله عنه –: «هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[٢].

* وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف على نفسي أن يقال لي يا عويمر: هل علمت؟ فأقول: نعم، فيقال لي: فماذا عملت فيما علمت؟»[٣].

* وعن الحسن قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال، من قال حسناً وعمل غير صالح، رده الله على قوله ومن قال حسناً وعمل صالحاً، رفعه العلم، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]»[٤]

* وقال الفضيل بن عياض: «لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتى يعمل به فإذا عمل به كان عالماً»[٥].

* وقال الخوَّاص: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العالم من اتبع العلم و استعمله، واقتدى بالسنن؛ وإن كان قليل العلم»[٦].

---

(١) أخلاق العلماء للآجري ص ٨١.
(٢) مختصر اقتضاء العلم العمل ص١٤.
(٣)، (٤) مختصر اقتضاء العلم العمل ص ١٦.
(٥) المصدر السابق ص ١٤.
(٦) المصدر السابق ص ١٠.

* وقال الخطيب البغدادي – رحمه الله تعالى –: «العلم يراد للعمل كما العلم يراد للنجاة؛ فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً»(١).

* ويقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – وهو يعدد فضائل العلم ويحذر من آفاته:

* «قال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد: ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس: صنف لا يعملون بما يعلمون، وصنف يعملون بما لا يعلمون، وصنف لا يعملون ولا يعلمون، وصنف يمنعون الناس من التعلم. قلت: الصنف الأول من له علم بلا عمل فهو أضرّ شيء على العامة؛ فإنه حجّة لهم في كل نقيصة ومنحسة. والصنف الثاني العابد الجاهل فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله.

وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون؛ فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم؛ فإذا كان العلماء فَجَرَة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة. والصنف الرابع نواب إبليس في الأرض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين؛ فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن؛

---

(١) مقدمة اقتضاء العلم العمل.

فإنهم يحُولُون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه.

فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه. وهؤلاء كلهم على شفا جرف هارٍ وعلى سبيل الهلكة، وما يلقى العالم الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم. والله يستعمل من يشاء في سخطه كما يستعمل من يحب في مرضاته إنه بعباده خبير بصير»[١]. ا.هـ.

وبعد أن تبين لنا مما سبق آفة العلم بلا عمل وأن ذلك فتنة على صاحبه في الدنيا والآخرة، وفتنة على الناس في الاقتداء به وضلالهم بسببه؛ يحسن بنا بعد ذلك الإشارة إلى بعض صفات العلماء العاملين الربانيين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون والذين قال الله – عز وجل – في وصفهم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ومن اتقى الله – عز وجل – في علمه فعمل به مخلصاً لربه فيه متبعاً للنبي ﷺ في فعله وتركه فإنه بذلك يسلم من آفات العلم المذكورة آنفاً أي أنه يسلم من فتنة التعالم والقول بلا علم، كما يسلم من آفة الحسد والعجب والرياء والكبر، ولا تضره فتنة الدنيا وزينتها... إلى آخر هذه الآفات.

يقول الإمام الآجري ـ رحمه الله تعالى – في وصف العالم الرباني:

---

(١) مفتاح دار السعادة ص:١٦٥.

(من صفته أن يكون لله شاكراً، وله ذاكراً، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور... يعد نفسه مع شدة اجتهاده خاطئاً مذنباً، ومع الدؤوب على حسن العلم مقصراً، لجأ إلى الله - عز وجل - فقوى ظهره، ووثق بالله فلم يخف غيره، مستغن بالله عن كل شيء، ومفتقر إلى الله في كل شيء، أنسه بالله وحده، ووحشته ممن يشغله عن ربه، إن ازداد علماً خاف توكيد الحجة، مشفق على ما مضى من صالح عمله أن لا يقبل منه، همه في تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه، وفي سنن الرسول ﷺ الفقه لئلا يضيِّع ما أمر به، متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا في عزها ولا يجزع من ذلها يمشي على الأرض هوناً بالسكينة والوقار... قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] أفلا ترى - رحمك الله - كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم..»[١] ا.هـ. ثم ساق - رحمه الله تعالى - بعض الآثار عن السلف في هذا المعنى منها:

* عن أبي الأعلى التيمي: قال: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله - عز وجل - نعت العلماء وقرأ «آية الإسراء السابقة»[٢].

* قال ابن عيينة: «إذا كان نهاري نهار سفيه، وليلي ليل جاهل؛ فما أصنع بالعلم الذي كتبت؟»[٣].

---

(١) أخلاق العلماء (ص ٦٤ - ٦٧) مختصراً.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨.

(٣) المصدر السابق ص ٧٢.

* قال يحيى بن أبي كثير: «العالم من خشي الله؛ وخشية الله الورع»[١].ا.هـ.

* ويصف ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - شيخه عبد الوهاب الأنماطي رحمه الله تعالى فيقول:

«كان ذا دين وورع، وكان قد نصب نفسه للحديث طوال النهار، وسمع الكثير من خلق كثير، وكتب بيده الكثير، وكان صحيح السماع، ثقة ثبتاً، وكنت أقرأ عليه الحديث وهو يبكي، فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته، وكان على طريقة السلف، وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره، ودخلت عليه وقد بلي وذهب لحمه، فقال لي: إن الله لا يُتَّهَمُ في قضائه».

وقال أيضاً: «وما عرفنا من مشايخنا أكثر سماعاً منه، ولا أكثر كتابة للحديث، ولا أصبر على الإقراء، ولا أحسن بشراً ولقاء، ولا أسرع دمعة، ولا أكثر بكاء.

ولقد كنت أقرأ عليه الحديث في زمن الصبا، ولم أذق بعدُ طعم العلم، فكان يبكي بكاء متصلاً، وكان ذلك البكاء يعمل في قلبي، وأقول: ما يبكي هذا هكذا إلا لأمر عظيم؛ فاستفدت ببكائه ما لم أستفد بروايته.

وكان مجلسه منزهاً عن غيبة الناس، وكان - رضي الله عنه - على طريقة السلف، وكنا ننتظره يوم الجمعة ليأتي من داره بنهر القلائين إلى

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠.

جامع المنصور، فلا يأتي على قنطرة باب البصرة، وإنما يمر على القنطرة العتيقة، فسألته عن سبب هذا، فقال: كانت تلك دار ابن معروف القاضي، فلما قُبض عليه، بنيت قنطرة »[١].

وقال أيضاً: « وكانت فيه خلة أخرى عجيبة: لا يغتاب أحداً، ولا يُغتاب عنده. وكان صبوراً على القراءة عليه، يقعد طول النهار لمن يطلب العلم. وكان سهلاً في إعارة الأجزاء لا يتوقف. ولم يكن يأخذ أجراً على العلم، ويعيب من يفعل ذلك، ويقول: علِّمْ مجاناً كما علمت مجاناً »[٢].

* وحكى القاضي حسين عن القفال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس ثم يرفع رأسه ويقول: « ما أغفلنا عما يراد بنا »[٣].

* وقال عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر: بت عند أحمد بن حنبل فوضع لي ماء، فلما أصبح وجدني لم أستعمله فقال: صاحب حديث لا يكون له ورد في الليل؟ قال قلت: أنا مسافر قال: وإن كنت مسافراً!! حج مسروق فما نام إلا ساجداً[٤].

وقال مرة لأبي عصمة البيهقي وقد بات عنده ولم يقم الليل: سبحان الله!! رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل[٥].

---

(١) صفة الصفوة (٢/٤٩٨ - ٤٩٩) نقلاً عن مقدمة: سنن سعيد بن منصور للدكتور سعد الحميد ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١/٢٠٣) نقلاً عن مقدمة سنن سعيد بن منصور للدكتور سعد الحميد ص ١٥٢، ١٥٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/٤٠٧.

(٤)، (٥) مناقب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - ص ١٧٩.

* وأختم هذه النماذج بمحاسبة ابن الجوزي لنفسه في تشاغلها بالعلم عن الاجتهاد في العبادة والعمل، حيث يقول - رحمه الله تعالى -:

«وجدت رأي نفسي في العلم حسناً، فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل أني رأيت كثيراً ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم، قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر؟

أوَ ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟

أما كان الرسول ﷺ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟

أما كان أبو بكر - رضي الله عنه - شجي النشيج، كثير البكاء؟

أما كان في خد عمر - رضي الله عنه - خطان من آثار الدموع؟

أما كان عثمان - رضي الله عنه - يختم القرآن في ركعة؟

أما كان علي - رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دُنيا غرِّي غيري؟

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازماً للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة؟

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضرّ واصفرّ؟

أما قالت بنت الربيع بن خثيم له: مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟

فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات.

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطاً في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر؟

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة؟ وكان يقول: والهفاه سبقني العابدون، وقطع بي.

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم، مع ترك العمل به، فإنها حالة الكُسالى الزمنى»[١] ا.هـ

وفي ضوء ما سبق من الأدلة والآثار والمواقف التي تحث على العمل بالعلم، وتحذر من تناقض العلم والعمل أو مخالفة ما يقال مع ما يعمل: نخلص إلى خطورة هذا الأمر وضرورة تدارك النفس ومحاسبتها على كل

---

(١) صيد الخاطر ص ٧١، ٧٢

علم يحصل عليه طالب العلم: ما ذا عمل به؟ وإن لم يتحول العلم إلى عمل فما فائدة العلم إذن؟ إنه لا فائدة فيه بل فيه الضرر والفتنة لصاحبه في الدنيا والآخرة. ومن أخطر هذه الأضرار والفتن ما يلي:

(١) مقت الله - عز وجل - لمن لم يعمل بعلمه. قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] كما يمقته أيضاً ويكرهه كل من علم حاله من المسلمين، وينزع من قلوب الناس قبول كلامه.

(٢) شدة المحاسبة له يوم القيامة، فكلما ازداد علم العبد ازدادت حجة الله - عز وجل - عليه، وليس حساب العالم المخالف لعلمه كحساب الجاهل؛ فكلما شرف العبد وكثرت أنعم الله عليه بالعلم أو الجاه كلما كان حسابه أدق قال - تعالى - عن نساء النبي ﷺ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٠].

(٣) تضليل الناس العوام من قِبَلِ العلماء المقصرين في العمل بعلمهم؛ ذلك أن الجاهل من الناس يرى في العالم قدوته فإذا رآه متلبساً بمعصية أو مخالفة شرعية قلده فيها وبخاصة إذا صاحب ذلك هوى وشهوة؛ فإذا أنكر على هؤلاء العوام فعلهم كانت حجتهم أن العالم الفلاني يفعل ذلك، ويقول ذلك، فيحصل بذلك فتنة للناس وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وكم سمعنا في بعض بلدان المسلمين من يترخص من العوام في أخذ الفوائد الربوية؛ لأن فلانًا العالم يأخذها أو يتهاون في إدخال آلات اللهو

من أغان أو تلفاز أو ڤيديو وبث مباشر؛ لأن العالم الفلاني لا يخلو بيته من بعض هذه الأجهزة. أو يتساهل في استقدام الخادمات الأجنبيات ليعملن في بيته وهن بلا محارم، أو يترك السائق الأجنبي يخلو بمحارمه؛ لأن فلاناً من طلاب العلم يُرى ذلك في بيته ولا ينكره... إلى آخر هذه المنكرات والمخالفات الشرعية التي يفتن الناس بها، ومن أهم أسبابها تساهل بعض أهل العلم فيها وتلبسهم ببعضها وبهذا تبعهم العوام في ذلك فحصل لطالب العلم هذا أن فتن نفسه وفتن غيره. فاللهم عياذاً بك من أن نحمل أثقالاً مع أثقالنا ونعوذ بك من أن نحمل أوزار غيرنا؛ فظهورنا يا ربنا لا تستطيع حمل أوزارنا فضلاً عن أوزار غيرنا، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون؛ فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون: لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم؛ فهم حجة لكل مفتون»[١].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة: ص ١٤٧

ب ـ فتنة العجب والكبر والرياء

تعد هذه الأمراض الثلاثة من أشد الأمراض فتكاً بقلوب الناس وهي في الغالب متلازمة، كما تعد هذه الفتنة من أخطر آفات العلم ولا يسلم منها إلا من رحم الله – عز وجل – وهي من الشهوة الخفية التي قد تفتك بطالب العلم شعر بذلك أم لم يشعر. ويكفينا في الحذر من هذه الفتنة حديث الرسول ﷺ في أول من تسعر بهم النار يوم القيامة وقد سبق ذكره وتخريجه[١].

وكذلك قوله ﷺ: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء ويجاري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم»[٢].

وللسلف – رحمهم الله تعالى – مواقف وأقوال كثيرة تصف أحوالهم وتواضعهم للخلق وانقيادهم للحق، واحتقارهم لأنفسهم، وحذرهم وتحذيرهم من هذه الآفات الخطيرة أختار منها ما يلي:

● عن حبيب بن أبي ثابت قال: خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[٣].

● وعن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله – يعني ابن مسعود، رضي الله عنه –: لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب[٤].

---

(١) انظر ص: ٦٧ من هذه الرسالة.

(٢) ابن ماجه في المقدمة (٢٦٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠٩).

(٣) صفة الصفوة ١/٤٠٦.

(٤) صفة الصفوة ١/٤٠٦.

● وعن بسطام بن مسلم قال: كان محمد بن سيرين إذا مشى معه رجل قام وقال: ألك حاجة؟ فإن كان له حاجة قضاها؛ فإن عاد يمشي معه قام فقال له: ألك حاجة؟[١].

● وقال الحسن: وكنت مع ابن المبارك يوماً فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا. يعني حيث لم نعرف ولم نوقر.

قال: وبينا هو بالكوفة يقرأ عليه كتاب المناسك. انتهى إلى حديث وفيه: قال عبد الله: وبه نأخذ. فقال: من كتب هذا من قولي؟ قلت: الكاتب الذي كتبه. فلم يزل يحكه بيده حتى درس. ثم قال: ومن أنا حتى يُكتب قولي؟[٢].

● وقال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب[٣].

● وعن وهب بن منبه قال: احفظوا عني ثلاثاً: إياكم وهوى متبعاً، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه[٤].

● يقول الذهبي - رحمه الله تعالى -:

«فمن طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب

---

(١) صفة الصفوة ٣/٢٤٣.

(٢) صفة الصفوة ٤/١٣٥

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٧

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٩

العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠] أي: دسسها بالفجور والمعصية[١]».

● وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن! علمني كلمات جوامع نوافع. فقال له عبد الله: لا تشرك به شيئاً، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيباً قريباً[٢].

● وقال يوسف بن أحمد الشيرازي في «أربعين البلدان» له: لما رحلت إلى شيخنا رحلة الدنيا ومسند العصر أبي الوقت، قدر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمت عليه، وقبلته، وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومعولي، بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إلي من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأدرك بركة علمك، وأحظى بعلو إسنادك. فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، لو كنت عرفتني حق معرفتي، لما سلمت عليَّ، ولا جلست بين يدي، ثم بكى بكاء طويلاً، وأبكى من حضره، ثم قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا[٣].

● وعن عبد الله بن مبارك قال: قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩١.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٤١٩
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٠٧
(٤) صفة الصفوة ٤/ ١٢٢

• وعن الشافعي قال: «ما كابرني أحد على الحق ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته واعتقدت مودته»[١].

• وقال عون بن عمارة: سمعت هشاماً الدستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله – عز وجل –.

قلت ـ أي الذهبي ـ: «والله ولا أنا. فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم فجرَّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن. ثم نشروه بنية صالحة[٢].

• عن عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «إن الله – عز وجل – يحب العالم المتواضع، ويبغض العالم الجبار؛ ومن تواضع لله ورَّثه الله الحكمة»[٣].

• وذكر الإمام الآجري فتنة عالم السوء بهذه الآفات فقال رحمه الله في وصفه:

«يتفقه للرياء، ويحاج للمراء، مناظرته في العلم تكسبه المآثم. مراده

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٣
(٢) سير أعلام النبلاء ٧/١٥٢
(٣) أخلاق العلماء للآجري ص ٩٥

في مناظرته أن يعرف بالبلاغة ومراده أن يخطئ مناظره، إن أصاب مناظره الحق ساءه ذلك فهو دائب يسره ما يسر الشيطان ويكره ما يحب الرحمن، يتعجب ممن لا ينصف في المناظرة وهو يجور في المحاجة، يحتج على خطئه وهو يعرفه ولا يقر به خوفاً أن يذم على خطئه، يرخص في الفتوى لمن أحب، ويشدد على من لا هوى له فيه، يذم بعض الرأي فإن احتاج الحكم والفتيا لمن أحب دله عليه وعمل به، من تعلم منه علماً فهمَّتُه فيه منافع الدنيا، فإن عاد عليه خف عليه تعليمه وإن كان ممن لا منفعة له فيه للدنيا وإنما منفعته الآخرة ثقل عليه، يرجو ثواب علم ما لم يعمل به ولا يخاف سوء عاقبة المساءلة عن تخلف العمل به، يرجو ثواب الله على بغضه من ظن به السوء من المستورين ولا يخاف مقت الله على مداهنته للمتهوكين، ينطق بالحكمة فيظن أنه من أهلها ولا يخاف عظم الحجة عليه لتركه استعمالها، إن علم ازداد مباهاة وتصنعاً، وإن احتاج إلى معرفة علم تركه أنفاً. إن كثر العلماء في عصره فذُكروا بالعلم أحب أن يذكر معهم، وإن سئل العلماء عن مسألة فلم يُسأل هو أحب أن يُسأل كما سئل غيره، وكان أولْى به أن يحمد ربه إذ لم يُسأل، وإذ كان غيره قد كفاه. إن بلغه أن أحداً من العلماء أخطأ وأصاب هو فرح بخطأ غيره وكان حكمه أن يسوءه ذلك. إن مات أحد من العلماء سره موته ليحتاج الناس إلى علمه، إن سئل عما لا يعلم أنف أن يقول: لا أعلم حتى يتكلف ما لا يسعه في الجواب، إن علم أن غيره أنفع للمسلمين منه كره حياته ولم يرشد الناس إليه، إن علم أنه قال قولاً فتوبع عليه وصارت له به رتبة عند من جهله ثم علم أنه أخطأ أنف أن يرجع عن خطئه فيثبت بنصر الخطأ لئلا تسقط رتبته عند المخلوقين، يتواضع بعلمه للأكابر وأبناء الدنيا لينال حظه منهم

بتأويل يقيمه، ويتكبر على من لا دنيا له من المستورين والفقراء فيحرمهم علمه بتأويل يقيمه ويعد نفسه في العلماء وأعماله أعمال السفهاء، قد فتنه حب الدنيا، والثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا يتجمل بالعلم كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا ولا يجمِّل علمه بالعمل به.

قال محمد بن الحسين الآجري: من تدبر هذه الخصال فعرف أن فيه بعض ما ذكرنا وجب عليه أن يستحيي من الله، وأن يسرع الرجوع إلى الحق»[(١)].ا.هـ.

وقال ابن قدامة - رحمه الله تعالى - في مختصر منهاج القاصدين: «اعلم أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم فهو يرى نفسه خيراً من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع؛ فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر في حقه؛ فترى العالم يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم...

الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوى والمفاخر وتزكية النفس وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب؛ فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً»[(٢)] ا.هـ.

---

(١) أخلاق العلماء للآجري ص (٩٨ - ١٠٠).

(٢) مختصر منهاج القاصدين: ص ٢٣٣.

وفي ضوء كل ما سبق من الآثار والمواقف الدالة على ذم الكبر والعجب والتباهي بالعمل يتضح لنا قبح هذه الصفات وشدة خطرها وفتنتها على الناس وخاصة العلماء منهم وطلاب العلم، ومن أخطر ما في هذه الفتنة مقت الله - عز وجل - لأصحابها ويتبع ذلك مقت الناس لهم وعزوف الناس عن علمهم وعدم القبول لهم. فبئس العلم الذي لا يدفع صاحبه إلى التواضع والإخلاص وقبول الحق من أي إنسان. كما أن من فتنة هذه الأعمال أن تكون سبباً في حبوط العمل وذهابه يوم القيامة في وقت يكون العبد فيه أحوج ما يكون إلى الحسنة الواحدة فمغبون من تورط وافتتن بهذه الخلال السيئة التي تذهب بركة علمه في الدنيا والآخرة.

* * *

ج ـ التلبيس وكتم الحق

إن التلبيس وكتم الحق من أعظم الفتن التي يخشى على طلبة العلم من الوقوع فيها خاصة أيام الخوف والطمع. وكتم الحق أو لبسه بالباطل غالباً ما يقترنان أو يستلزم أحدهما الآخر؛ لأن المفتون من أهل العلم يسبر أحوال الناس: فإن كانوا جهالاً كتم عنهم الحق وإن كان عندهم شيء من العلم أو أن الحق وصل إليهم فإنه يلجأ إلى لبس هذا الحق بالباطل حتى يشتبه على الناس ويختلط الحق بالباطل. وفي هذا الصنيع من الخطورة والشر ما تحصل به الفتنة على فاعله من أهل العلم؛ وذلك من الإثم العظيم والذنب الكبير الذي يرتكبه بفعله هذا. كما تحصل به الفتنة على الناس الملبس عليهم من التضليل والخداع. وجزء عظيم من ضلال الناس يتحمله من ضللهم ولبس عليهم، وأظهر لهم الباطل في صورة الحق أو الحق في صورة الباطل قال تعالى: ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ [النحل: ٢٥] «وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه. والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يعذب بها في قبره ويسأل عنها إلى انقراضها»[١].

ويكفي في فتنة كتم الحق أو لبسه بالباطل أنها من صفات اليهود المحادين لله عز وجل ورسله وقد نهاهم الله - عز وجل - عن هذا العمل

(١) الموافقات للشاطبي ١/١٦٨.

الشنيع بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢]، وخطاب النهي يشملهم ويشمل غيرهم ممن تشبه بهم في كل زمان ومكان.

وقد سبق الحديث عن فتنة التلبيس وصورها في رسالة مستقلة من هذه السلسلة بعنوان: «ولا تلبسوا الحق بالباطل» فليرجع إليها ففيها التفصيل ولا داعي لإعادة ما كتب هنالك، وإنما المراد الإشارة إلى خطورة هذه الفتنة على صاحبها وعلى الناس وذلك بمناسبة الحديث عن الفتنة بالعلم. وتنشأ هذه الفتنة في الغالب من هوى وشهوة في نفس صاحبها يخلطها في الغالب بشبهة شرعية يتأول فيها مع عدم قناعته بها كدليل شرعي لكنه يستخدمها للتلبيس على الناس بأنه لم ينطلق من هوى وشهوة وإنما من دليل شرعي هو أول الناس علماً بعدم صلاحيته فيما استدل به عليه. نعوذ بالله - عز وجل - من الهوى والخذلان. وهنا بعض الوقفات السريعة حول موضوع التلبيس وكتم الحق يجدر الوقوف عندها:

(١) هناك من يسوّغ كتم الحق بالخوف على النفس من الأذى الذي يترتب على قول الحق أو بالخوف على الناس من تبعات قول الحق وما يجر عليهم من المفاسد والفتن. والجواب على هذا الإشكال فيه تفصيل:

فإن كان من يقول هذا القول معروف عنه التقوى والإخلاص والعلم بدين الله - عز وجل - ومقاصد الشريعة فإنه والحالة هذه مسؤول عما يقول وهو إن شاء الله تعالى مأجور مرتين إن أصاب الحق في اجتهاده هذا، وله أجر واحد إن أخطأ فيه، ولا يجوز رميه بكتم الحق أو لبس الحق بالباطل ما دام أنه من أهل العلم الورعين المجتهدين، مع عدم اتباعه في اجتهاده الخاطئ.

أما إن كان المورد لهذا الإشكال ممن يعرف عنه قلة الدين ولهثه وراء الدنيا ومناصبها وزخرفها، وقامت القرائن على أنه ما كتم الحق لمسوّغ شرعي وإنما خوفاً على دنيا فانية أو طمعاً في متاع زائل، فإن موقفه والحالة هذه يعد صورة من صور لبس الحق بالباطل، حيث أظهر طمعه وشهوته وخوفه على دنياه في صورة الحرص على مقاصد الشريعة ومراعاة المصالح والمفاسد، والله سبحانه هو المطلع على ما في القلوب وهو علام الغيوب.

وكل إنسان أعلم بحاله، وهو على نفسه بصيرة، فلنحذر هذه الدسائس الخفية ولنسد على الشيطان مداخله، ولنحذر يوم الرجوع إلى الله عز وجل ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

(٢) هناك من يتنازل عن بعض الحق أو يضعف عن حمله في بعض الظروف وذلك بمسوّغ شرعي يزعم المتنازل أنه يسوّغ له هذا التنازل حتى تزول أسبابه؛ فيعود إلى التزام الأصل والتمسك به، وقد لا يظهر للمتنازل وجه شرعي لما يفعله غير الضعف ووهن العزيمة وقلة الصبر، وسواء كان التنازل بمسوّغ شرعي أو بدونه، فإن الأمر يبقى هيناً وسهلاً علاجه ما دام أن الأصل باق على أصله وأن الضعف طارئ وليس أصلاً. لكن الخطير في مثل هذه المواقف أن يتحول الضعف والحال التي تنتج عنه إلى أصل بعد أن كانت حادثة عين، أو جزئية طارئة. أي أن بعض من يتنازل عن الحق الأصيل يسعون بشبهة أو شهوة أو بهما جميعاً إلى تأصيل ضعفهم، ويهدمون بجزئيتهم الطارئة ذلك الأصل الذي تنازلوا عنه بسبب أو بآخر، وبذلك ينخرم الأصل ويؤصل الضعف حتى يتحول مع الوقت إلى أنه الأصل وما خالفه هو الطارئ أو الشاذ. وأوضح هذه المسألة بمثالين اثنين:

المثال الأول: من المعلوم من الدين الضرورة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول هذا الدين لا يقوم إلا به بل هو من دعائم الدين القوية التي تحفظ له بقاءه وهيبته وقوته، ولكن هذا الأصل قد يتركه بعض الناس في بعض الظروف إما لمسوغ شرعي كتخلُّف بعض شروط الأمر والنهي أو لضعف وتخاذل، وفي كلا الحالين يبقى الأمر هيناً ما دام الجميع يشعرون ببقاء هذه الشعيرة على أصلها؛ فإن ترك القيام بها من قبل بعض الناس أو في بعض الأحوال طارئ سرعان ما يزول إذا زالت أسبابه.

أما لو تحول الأمر مع مرور الوقت وكثرة المنكرات وشدة الضغوط وضعف الإيمان إلى أن يصبح السكوت وترك الأمر والنهي هو الأصل الذي يبحث له عن المسوغات الشرعية التي تؤصله، ويتحول الأمر والنهي إلى حاله استثنائية لا يقام بهما إلا عند توفر الشروط التي تضخم لتصبح أقرب إلى التعجيز منها إلى الإمكان - إنه إذا آل الأمر إلى هذه الحالة؛ فإن هذا من أعظم صور التلبيس وخلط الحق بالباطل حيث انعكس الأمر فأصبح السكوت والضعف عن هذه الشعيرة هو الأصل وما خالفه من الأمر والنهي هو الطارئ والمنكر. ونعوذ بالله أن يؤول أمر المسلمين إلى هذه الصورة الشاذة المنحرفة.

المثال الثاني: لا يختلف أحد من المسلمين أن البراءة من المشركين والكفر بالطاغوت أصل من أصول التوحيد لا يصح إلا به، ولكن قد تمر بالمسلم أوقات لا يستطيع فيها أن يجاهر بعداوته للمشركين، وإنما يداريهم في الظاهر، وقلبه ممتلئ ببغضهم والبراءة منهم، وهذه رخصة من الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿ **إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وهذا كله محكوم بضوابط و شروط ذكرها أهل العلم في كتبهم.

ولكن الخطير في هذه المسألة أن يستمرئ الناس مداراة الكافر في كل حين وآن حتى يتحول الأمر إلى مداهنة وموالاة له بحجة المداراة والتقية وحتى يؤول الأمر في النهاية إلى أن تؤصَّل المداهنة الناشئة عن ضعف الإيمان ووهن العزيمة وتصبح هي الأصل وما خالفها طارئ وجزئي لا يعارض به الأصل، كمن يؤصل التسامح الديني وتقارب الأديان وتقريب الكفار بحجة المصلحة الشرعية ونبذ التعصب، وأن ما خالف ذلك من عداوة الكافر ومقاتلته والبراءة منه ومن كفره أمر طارئ في بعض الأوقات وله ظروفه الخاصة.

وأزيد هذا المثال وضوحاً بتطبيقه على واقع الأمة الإسلامية وما يراد لها من استسلام مهين مع شرذمة الخليقة وأعداء الرسل اليهود الغاصبين، حيث تحول الجهاد في سبيل الله ومعاداة اليهود والنصارى والبراءة منهم إلى أمر مستغرب بل ومستنكر أحياناً.

وأصبح التنازل عن هذا كله هو الأصل الذي لا يجوز خرمه كما أصبح التعايش السلمي واحترام حدود الغير والنظام العالمي الجديد والشرعية الدولية هي الأصول التي لا يُسمح لأحد بالتنازل عنها أو الخروج عليها، ومما يزيد الأمر أسىً وحسرة أن يوجد في بعض بلدان المسلمين من يحشد الأدلة والشبهات لتأصيل هذا الخنوع، وإضفاء الشرعية للسلام الدائم مع اليهود، وأصبحنا نرى إسهام وسائل الإعلام الماكرة في أكثر بلدان المسلمين تعمل على ترويض الأمة وتهيئتها لهذا السلام الدائم والخنوع المهين، والتعايش السلمي بين بني الإنسان في ظل النظام العالمي الجديد الذي يهدم ذروة سنام الإسلام ويبني على أنقاضه التعايش مع الكافر وموالاته وإقراره في بلدان المسلمين ومقدساتهم.

د ـ الدنيا والتحاسد عليها

إن أخوف ما يُخاف منه على أهل العلم هذه الدنيا الغرارة التي تنشأ منها أكثر الآفات والفتن. وإن لم يحذر طلاب العلم من الدنيا ومظاهرها فإنه يُخشى على علمهم أن تمحق بركته في الدنيا والآخرة ولا يبقى منه إلا المباهاة والرياء والتحاسد وطلب الدنيا به وهذا كله زائل وباطل.

قال الله ـ عز وجل ـ عن أهل الكتاب وأمثالهم الذين يبتغون بعلمهم عرض الدنيا: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ـ عز وجل ـ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة. يعني ريحها»[١].

ومن أشد فتن الدنيا التي يخشى على أهل العلم منها ما يلي:

١ ـ فتنة الأموال والتمتع بزينة الحياة الدنيا.

٢ ـ فتنة الجاه والشهرة وحب الرئاسة.

---

(١) أبو داود في باب (طلب العلم لغير الله) (٣٦٦٤)، وابن ماجه باب (باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١١٢).

وقد سبق الحديث بشكل مفصل في التحذير من فتنة الدنيا عن هاتين الفتنتين على الناس عامة، ويدخل في ذلك أهل العلم. وذُكر هنالك، الكلام النفيس للإمام ابن رجب - رحمه الله تعالى - حول هذه الفتن عند شرحه لحديث «ما ذئبان جائعان... الحديث»[1].

ولذا فلا أرى الإطالة والإعادة هنا؛ حيث يكفي الرجوع إلى ذلك المبحث؛ ففيه الكفاية إن شاء الله تعالى. ولكن يبقى أن نشير إلى فتنتين خطيرتين لم يسبق الحديث عنهما في المبحث السابق:

الأولى: فتنة التحاسد بين أهل العلم:

إن من الفتن التي تمرض القلوب وتلوثها وتمحق بركة العلم وخيره فتنة التحاسد والتنافس بين أهل العلم على الدنيا سواء كان ذلك مالاً أو جاهاً أو رئاسة. ولقد شهد التاريخ صوراً مؤسفة من سقوط بعض العلماء في هذه الفتنة الخطيرة حيث بغى بعضهم على بعض، وسعى بعضهم بالوشاية لدى السلاطين، فألحقوا ببعضهم الأذى والنكال؛ كل ذلك كان بفعل الحسد والحقد الذي يغلي في بعض النفوس المريضة والذي يظهره أهله في صورة الغيرة على دين الله - عز وجل - ودرء الشر والفساد. والله سبحانه أعلم بما في القلوب؛ قال الله - عز وجل - في وصف هذه الآفة التي توجد عند بعض أهل العلم: ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [الجاثية: ١٧]، وعند هذه الآية قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «أي بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم».

---

(١) انظر ص ١٣٣ وما بعدها.

يقول الغزالي – رحمه الله تعالى –: «اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض... ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزار إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة... ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين أما الآخرة فلا ضيق فيها؛ فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله – تعالى – وهو بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى. نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا؛ لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر»(١).

الثاني: فتنة أهل الجاه وأصحاب الرئاسات على أهل العلم:

وهذه الفتنة من أشر الفتن على أهل العلم، وقلما رُئِيَ عالم يدخل على أهل الجاه والكبراء إلا ويظهر عليه آثار هذه الفتنة من حب الدنيا والتوسع فيها ومنافسة أهلها عليها لتحصيل ملذاتها كما قد تظهر عليه آثار المداهنة والنفاق والسكوت عن المنكرات بل تحسينها أحياناً عند أهلها؛ وقد حذرنا الرسول ﷺ من هذه الفتنة بقوله: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن.. الحديث»(٢).

ولقد نقلت لنا كتب التراجم والسير أخباراً ومواقف مشرفة لسلفنا

---

(١) تهذيب إحياء علوم الدين. عبد السلام هارون ٢ / ٨٢ – ٨٣.

(٢) أحمد ٢ / ٣٧١، ٤٤٠ وصححه أحمد شاكر (٨٨٢٤).

الصالح يحذرون فيها بمقالهم وفعالهم من هذه الفتنة وخطرها على العلم والعلماء وقول كلمة الحق. وأذكر فيما يلي بعض هذه المواقف المشرفة:

● روى كثير بن يحيى، عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وعُمر بن عبد العزيز عامل عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة، واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سُليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمتاً منه. قال: صفوان، قال: يا غلام! كيس فيه خمس مئة دينار فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم، فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلم، فاقبل عليه، فقال: ما حاجتك؟ قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك، فقال صفوان: لستُ الذي أرسلتَ إليه، قال: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى. قال: فإليك أرسلت، قال: اذهب فاستثبت، فولَّى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة[1].

● قال أبو سليمان الخطابي: بعث بعض العمال إلى أبي عمر[2] صاحب أبي العباس رسولاً يقول له: أخبرني بمقدار ما يمر لك في النفقة في سنة حتى أجريه لك؟ فقال للرسول: قل له عافاك الله، أنا في جراية من إذا سخط عليَّ لم يسقط جرايتي[3].

● وعن الأعمش: عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد، قلنا لعلقمة: لو صليت في المسجد وجلسنا معك فتسأل، قال: أكره أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣٦٨.

(٢) أبو عمر: محمد بن عبد الواحد الزاهد.

(٣) العزلة للخطابي ص: ٩٥.

يقال: هذا علقمة، قالوا: لو دخلت على الأمراء، قال: أخاف أن ينقصوا مني أكثر مما أنتقص منهم[(١)].

● وقال سليمان التيمي، قال الأحنف: ثلاث فِيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر: ما أتيت باب السلطان إلا أن أُدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يُدخلاني بينهما، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير[(٢)].

● وقال عبد الرزاق: سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدث أن محمد بن يوسف، أو أيوب بن يحيى بعث إلى طاووس بسبع مئة دينار أو خمس مئة، وقيل للرسول: إن أخذها الشيخ منك، فإن الأمير سيحسن إليك ويكسوك، فقدم بها على طاووس الجند، فأراده على أخذها، فأبى، فغفل طاووس، فرمى بها الرجل في كوة البيت، ثم ذهب وقال لهم: قد أخذها، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه فقال: ابعثوا إليه، فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول، فقال: المال الذي بعث به الأمير إليك، قال: ما قبضت منه شيئاً، فرجع الرسول، وعرفوا أنه صادق، فبعثوا إليه الرجل الأول، فقال: المال الذي جئتك به يا عبد الرحمن، قال: هل قبضت منك شيئاً؟ قال: لا، ثم نظر حيث وضعه، فمد يده فإذا بالصرة قد بنى العنكبوت عليها، فذهب بها إليهم[(٣)].

● وعن أحمد بن جميل المروزي قال: قيل لعبد الله بن المبارك: إن إسماعيل بن علية قد ولي الصدقات؛ فكتب إليه ابن المبارك:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٩٢

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠

يا جاعل العلـــم له بازياً يصطاد أموال المســاكين
احتلـت للدنيا ولذاتهــا بحيلة تذهب بالديـــن
فصــرت مجنوناً بها بعدما كنت دواء للمجانـــين
أين رواياتك في ســـردها عن ابن عون وابن سيرين؟
أين رواياتك والقول فـــي لزوم أبواب السلاطـــين؟
إن قلت: أكرهت فذا باطل زل حمار العلـم في الطين

فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى(١).

● وعن سحنون قال: أُكْلٌ بالمسكنة، ولا أُكْلٌ بالعلم. محب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم. ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما دخلت على السلطان وإلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه به من الغلظة، والله ما أخذت، ولا لبست لهم ثوباً(٢).

● وأخرج ابن باكويه، عن الفضيل بن عياض، قال: «لو أن أهل العلم أكرموا على أنفسهم وشحوا على دينهم، وأعزوا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله، لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، واشتغلوا بما يعنيهم، وعز الإسلام وأهله، لكنهم استذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم، إذا سلمت لهم دنياهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا ما في أيديهم، فذلوا وهانوا على الناس»(٣).

● وعن عبيد الله بن محمد القرشي، قال: كنا مع سفيان الثوري

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٤٠ (٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٥
(٣) ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين: ص ٦٥

بمكة، فجاءه كتاب من عياله من الكوفة: بلغت بنا الحاجة أنا نقلي النوى فنأكله، فبكى سفيان. فقال له بعض أصحابه: يا أبا عبد الله! لو مررت إلى السلطان، صرت إلى ما تريد! فقال سفيان: «والله لا أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها»(١).

● وعن أبي حازم أن سليمان بن هشام بن عبد الملك قدم المدينة فأرسل إلى أبي حازم فدخل عليه فقال: فسلمت وأنا متكئ على عصاي فقيل ألا تتكلم!؟ قلت: وما أتكلم به!؟ ليست لي حاجة فأتكلم فيها وإنما جئت لحاجتكم التي أرسلتم إلي فيها، وما كل من يرسل إلي آتيه، ولولا الخوف من شركم ما جئتكم، إني أدركت أهل الدنيا تبعاً لأهل العلم حيث كانوا، يقضي أهل العلم لأهل الدنيا حوائج دنياهم وأخراهم، ولم يستغني أهل الدنيا عن أهل العلم لنصيبهم من العلم ثم حال الزمان فصار أهل العلم تبعاً لأهل الدنيا حيث كانوا، فدخل البلاء على الفريقين جميعاً، ترك أهل الدنيا النصيب الذي كانوا يتمسكون به من العلم حيث رأوا أهل العلم قد جاؤوهم، وضيَّع أهل العلم جسيم ما قُسِمَ لهم باتباعهم أهل الدنيا»(٢).

● وقال ابن الحاج في «المدخل»: «ينبغي للعالم، بل يتعين عليه أن لا يتردد لأحد من أبناء الدنيا؛ لأن العالم ينبغي أن يكون الناس على بابه، لا عكس الحال أن يكون هو على بابهم؛ ولا حجة له في كونه يخاف من عدو أو حاسد وما أشبههما بمن يخشى أن يشوِّش عليه، أو يرجو أحداً منهم دفع شيء مما يخشاه، أو يرجو أن يكون ذلك شيئاً لقضاء حوائج

---

(١) المصدر السابق ص ٦٣

(٢) المصدر السابق ص:٦٧

المسلمين من جلب مصلحة لهم أو دفع مضرة عنهم؛ فهذا ليس فيه عذر ينفعه.

أما الأول: فلأنه إذا أخذ ذلك بإشراف نفس لم يبارك فيه. وإذا كان خائفاً مما ذكر، فذلك أعظم من إشراف النفس، وقد يسلط عليه من يتردد إليه في مصلحة عقوبة له معجلة.

وأما الثاني: فهو يرتكب أمراً محظوراً محققاً لأجل محذور مظنون توقعه في المستقبل. وقد يكون، وقد لا يكون وهو مطلوب في الوقت بعدم ارتكاب ذلك الفعل المذموم شرعاً، بل الإعانة على قضاء حوائجه وحوائج المسلمين إنما هو بالانقطاع عن أبواب هؤلاء، والتعويل على الله - سبحانه - والرجوع إليه فإنه - سبحانه - هو القاضي للحوائج، والدافع للمخاوف، والمسخر لقلوب الخلق، والمقبل بها على ما شاء، كيف شاء. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] فذكر سبحانه هذا في معرض الامتنان على نبيه ﷺ.

والعالم إذا كان متبعاً له عليه أفضل الصلاة والسلام سيما في التعويل على ربه سبحانه والسكون إليه دون مخلوقاته فإنه سبحانه يعامله بهذه المعاملة اللطيفة التي عامل بها نبيه ﷺ، ولبركة الاتباع له ﷺ، ويسلم بذلك من التردد على أبواب هؤلاء كالذي يفعله بعض الناس، وهو سم قاتل. ويا ليتهم لو اقتصروا على ما ذكر لا غير. بل يضمون إلى ذلك ما هو أشد وأشنع، وهو أنهم يقولون إن ترددهم إلى أبوابهم من باب التواضع، أو من باب إرشادهم إلى الخير إلى غير ذلك مما يخطر لهم، وهو كثير قد عمت به البلوى، وإذا اعتقدوا ذلك فقد قلَّ الرجاء من توبتهم

ورجوعهم.

وقد نقل بعض علمائنا أن العدل إذا تردد إلى باب القاضي يكون ذلك جرحة في حقه وتُرد به شهادته. فإذا كان هذا في التردد إلى باب القاضي وهو عالم من علماء المسلمين، سالم مجلسه مما يجري من مجالس هؤلاء، فكيف التردد إلى غير القاضي؟ فمن باب أوْلى وأوجب المنع من ذلك»[١].

وهكذا كان خوف السلف - رحمهم الله تعالى - من هذه الفتنة وآثارها. وقد يشكل على هذه المواقف ما نقل عن بعض السلف - رحمهم الله تعالى - من الدخول على أهل السلطان ومناصحتهم، ولكن يدفع هذا الإشكال بأن من فعل ذلك من السلف أو جوَّزه كان مع ولاة العدل أو أنه مع ولاة الجور لكن كان مقيداً بقول كلمة الحق وعدم السكوت على ما يرى من المنكرات أو المداهنة في ذلك، مع الحذر الشديد من الدنيا وأعطياتها من قبل ذوي السلطان، وترك مخالطتهم إلا عند الضرورة.

يقول الإمام ابن عبد البر - رحمه الله تعالى - بعد أن أورد كثيراً من الأحاديث والآثار في النهي عن المجيء إلى السلاطين: «معنى هذا كله في السلطان الجائر الفاسق، فأما العدلُ منهم الفاضلُ فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز إنما كان يصحبه جلة العلماء، مثل عروة بن الزبير وطبقته وابن شهاب وطبقته. وقد كان ابن شهاب يدخل إلى السلطان عبد الملك وبنيه بعده. وكان ممن يدخل إلى السلطان: الشعبي، وقبيصة، وابن ذؤيب، ورجاء بن حيوة

---

(١) المصدر السابق ص٨٤، ٨٥.

الكندي، وأبو المقدام وكان فاضلاً عالماً، والحسن، وأبو الزناد، ومالك بن أنس، والأوزاعي، والشافعي، وجماعة يطول ذكرهم.

وإذا حضر العالم عند السلطان رغباً فيما فيه الحاجة، وقال خيراً، ونطق بعلم كان حسناً وكان في ذلك رضوان الله إلى يوم يلقاه، ولكنها مجالسٌ: الفتنةُ فيها أغلب، والسلامة منها ترك ما فيها»[1].

* * *

(١) جامع بيان العلم وفضله ١ /٢٢٧.

هـ - الجدال والمراء والخصومات

تعد هذه الصفات آفة خطيرة من آفات الافتتان بالعلم وهي ممقوتة ولو كان المتصف بها محقاً فكيف إذا كانت في باطل واتباع هوى؟

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال سبحانه للمؤمنين: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فإذا كان جدال الرسول ﷺ والمؤمنين معه كله للحق وبالحق ومع ذلك لم يطلق لهم جدال مخالفيهم حتى قيد بالأحسن، فكيف إذا كان الجدال على باطل وتعصب وأهواء؟

والأحاديث التي شددت في النهي عن هذه الآفات كثيرة أقتصر منها على ما يلي:

● عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الكذب وهو باطل بني له قصر في الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها»[١].

● عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند باب النبي ﷺ نتذاكر؛ ينزع هذا بآية، وينزع هذا بآية، فخرج علينا رسول الله

---

(١) الترمذي في البر والصلة (١٩٩٣)، ابن ماجه في المقدمة (٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٣).

ﷺ كأنما يفقأ في وجهه حب الرمان فقال: «يا هؤلاء بهذا بُعثتم أم بهذا أمرتم؟ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

● وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «المراء في القرآن كفر»(٢).

● وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٣) وهو المخاصم القوي بالباطل.

● وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»(٤) ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ [الزخرف: ٥٨] والفتن والآثار السيئة التي تنشأ من الجدال والمراء متنوعة من أهمها:

١ ـ دخول الهوى والتعصب للباطل ورد الحق. ومعلوم ما في هذه الصفات من الآثام والمقت عند الله – عز وجل – وعند الناس.

٣ ـ قسوة القلوب والانشغال بالجدل عن العمل وما ينفع في الآخرة.

٤ ـ فرح الشيطان بذلك ودخوله من خلال هذه الفتنة للتحريش والتفريق بين المسلمين.

٥ ـ نشوء كثير من البدع والضلالات.

---

(١) الطبراني في الكبير: (٥٤٤٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٥).

(٢) أبو داود: (٤٦٠٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٨)

(٣) البخاري (٤٥٣٣)، مسلم (٢٦٦٨).

(٤) الترمذي (٣٢٥٠) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٦)

٦ ـ الجور والبغي، والكبر والنظر إلى النفس بالإعجاب وأنها فوق الأخطاء.

والجدال والمراء مذمومان بعامة ولكنهما يقبحان وتكبر فتنتهما إذا كانا من عامة الناس وجهلتهم، أو من طويلب علم لم يتمكن بعد من العلم ولم يتمكن الإيمان والتقوى من قلبه؛ فيبدأ حياته بالجدل والمراء وهو مزجىٰ البضاعة في العلم والتقوى؛ وهذا من قلة توفيق الحدث الناشئ، ومن علامات توفيق الله - عز وجل - لعبده المبتدئ في العلم والتربية أن يجنبه الجدل في هذه الفترة من عمره حتى إذا تمكن العلم والدين من نفسه واضطر إلى الجدال في أمر مًا فإن الفتنة تكون أقل ضرراً لكسرها بسلطان العلم والدين.

السلف وموقفهم من الجدال والمراء:

كان السلف - رحمهم الله تعالى - يكرهون الجدال ويحذرون منه وبخاصة مع أهل البدع والضلال ومن ظهرت عليه علامات الهوى والتعصب. أما الأخذ والعطاء والمناقشة والمذاكرة فيما بينهم فكانت تتم في جو من المحبة والود والإخاء مهما اختلفوا بعيدين في ذلك كله عن الجدال والمراء والخصومات. وفيما يلي بعض النقولات عنهم رحمهم الله تعالى:

قال عمر - رضي الله عنه - لزياد بن جرير: (أتدري ما يهدم الإسلام؟ زلة عالم، وجدال منافق، وأئمة مضلون)[1].

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١ / ٥٩٩ ت: العزازي.

وعن علي رضي الله عنه قال: إياكم والخصومة فإنها تمحق الدين[١].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم: بالمراء والخصومات[٢].

وقال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى –: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر الشك ـ أو قال ـ يكثر التحول[٣].

وعن جعفر بن محمد – رحمه الله تعالى – قال: إياكم والخصومات في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[٤].

وعن مسلم بن يسار أنه كان يقول: إياكم والمراء؛ فإنها ساعة جهل العالم وبها يبتغي الشيطان زلته[٥].

وعن الأوزاعي – رحمه الله تعالى – قال: إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل[٦].

وعن الحسن قال: ما رأينا فقيهاً يماري. وعنه أيضاً قال: المؤمن يداري ولا يماري[٧].

---

(١) شرح أصول السنة للالكائي ١/١٤٣.
(٢) المصدر السابق ١/١٤٣.
(٣) المصدر السابق ١/١٤٤.
(٤) المصدر السابق ١/١٤٥.
(٥) أخلاق العلماء للآجري ص: ٥٧.
(٦) السنة للالكائي ١/١٦٤.
(٧) أخلاق العلماء للآجري ص ٥٨.

وقال النخعي في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة: ٦٤]. قال: الجدال والخصومات في الدين(١).

وقال معن بن عيسى: انصرف مالك يوماً إلى المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له أبو الجديرة يتهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله! اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي. فقال له: احذر أن أشهد عليك. قال: والله ما أريد إلا الحق، اسمع مني، فإن كان صواباً؛ فقل به أو فتكلم. قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعتك. قال: فإن جاء رجل فكلمناه فغلبنا؟ قال: اتبعناه. فقال له مالك: يا عبد الله! بعث الله محمداً بدين واحد وأراك تنتقل(٢).ا.هـ.

وقد يضطر طالب العلم في بعض الأحيان إلى الجدال لإحقاق حق أو إبطال باطل فهو بذلك محمود على فعله لكن ينبغي له التحلي بالآداب الشرعية أثناء الجدال حتى لا يقع المجادل في آفات وفتنة الجدال والمراء ويتحول النقاش إلى خصومات وانتصار للنفس وظلم وعدوان وشحناء.

وعن هذه الآداب يتحدث الخطيب البغدادي - رحمه الله تعالى - فيقول:

(ينبغي للمجادل أن يقدم على جداله تقوى الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] ولقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ويخلص النية في

---

(١) الاعتصام للشاطبي ١/ ٥٨٦

(٢) الاعتصام للشاطبي ١/ ٥٨٨

جداله بأن يبتغي به وجه الله – تعالى –: وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيته دون المغالبة للخصم. قال الشافعي رحمه الله: ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وتكون عليه رعاية من الله وحفظ وما كلمت أحداً قط إلا لم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه. ويبني أمره على النصيحة لدين الله والذي يجادله. وقد كان الشافعي – رحمه الله – يحلف ويقول: ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة وقال أيضاً: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ. ويستشعر في مجلسه الوقار ويستعمل الهدي وحسن السمت وطول الصمت إلا عند الحاجة إلى الكلام وإن بدرت من خصمه في جداله كلمة كرهها أغضى عليها ولم يجازه بمثلها فقد قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. وينبغي أن لا يتكلم بحضرة من يشهد لخصمه بالزور أو عند من إذا وضحت لديه الحجة دفنها ولم يتمكن من إقامتها فإنه لا يقدر على نصرة الحق إلا مع الإنصاف وترك التعنت والإجحاف ويكون كلامه يسيراً جامعاً بليغاً فإن التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار وفي الإكثار أيضاً ما يخفي الفائدة ويضيع المقصود ويورث الحاضرين الملل، ولا يرفع صوته في كلامه عالياً فيشق حلقه ويحمي صدره ويقطعه؛ وذلك من دواعي الغضب. ولا يخفي صوته إخفاءً لا يسمعه الحاضرون فلا يفيد شيئاً بل يكون مقتصداً بين ذلك ويجب عليه الإصلاح من منطقه وتجنب اللحن في كلامه والإفصاح عن بيانه؛ فإن ذلك عون له في مناظرته. وينبغي له أن يواظب على مطالعة كتبه عند وحدته، ورياضة نفسه في خلوته بذكر السؤال والجواب وحكاية الخطأ والصواب لئلا ينحصر في مجالس النظر إذا رمقته أبصار من حضر. ولا يكون رخي البال قصير الهمة؛ فإن مدارك

العلم صعبة لا تُنال إلا بالجهد والاجتهاد ولا يستحقر خصمه لصغره فيسامحه في نظره بل يكون على نهج واحد في الاستيفاء والاستقصاء؛ لأن ترك التحرز والاستظهار يؤدي إلى الضعف والانقطاع. وينبغي أن لا يكون معجباً بكلامه مفتوناً بجداله؛ فإن الإعجاب ضد الصواب ومنه تقع المعصية وهو رأس كل بلية. وإذا وقع له شيء في أول كلام الخصم فلا يعجل بالحكم به فربما كان في آخره ما يبين أن الغرض بخلاف الواقع له فينبغي أن يتثبت إلى أن ينقضي الكلام. ويكون نطقه بعلم وإنصاته بحلم ولا يعجل إلى جواب، ولا يهجم على سؤال ويحفظ لسانه من إطلاقه بما لا يعلم ومن مناظرته فيما لا يفهمه فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع فكان فيه نقصه وسقوط منزلته عند من كان ينظر إليه بعين العلم والفضل)[١].ا.هـ.

وبقيت كلمات أخيرة أوجهها إلى نفسي وإخواني الدعاة الموجهين وطلاب العلم بمناسبة الحديث عن فتنة الجدال وخطره ألا وهي:

● الحذرَ الحذرَ من فتنة الجدال والمراء وما يجران إليه من الخصومة في الدين والشحناء والفرقة والأهواء، والعجب والخيلاء، وكفى بهذه الصفات الذميمة فتنة وبلاء في دين المسلم.

● عند الاضطرار للجدال فليكن بالتي هي أحسن متحلياً بالآداب الشرعية، بعيداً عن الظلم والمفاخرة والخصومة، مقصوداً فيه وجه الله - عز وجل -.

● الحذر من الاستجابة للمجادلين والمولعين بالخلاف والخصومات

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥ - ٣١) بتصرف واختصار شديد.

وذلك بترك جدالهم وعدم الاكتراث بما يقولونه ويرومونه، وأن نتذكر بأن العمر قصير والأوقات تتصرم ولا تعود، وليس هناك عمر يتسع لأن يضيع في القيل والقال وكثرة السؤال والرد على أهل الخصومة والجدال، ثم إن هنا من الأعمال الصالحة والعبادات والدعوة وتحصيل العلم ما لو شغلنا النفوس بها لانقضت الأعمار وما أوفيناها حقها. والجدال والمراء والخلاف كل ذلك مما يشغل عن هذه العلوم والأعمال النافعة.

● ويكبر إثم الجدال ووزره عند أولئك الذين يتصدرون للدعوة والتدريس والتربية والتوجيه، ذلك لانعكاس شخصية الموجه والمربي على سلوك وأخلاق الشباب الذين يوجههم ويربيهم، فهو قدوتهم في علمه وعمله. فليتق الله أولئك الموجهون والمعلمون، وليجنبوا طلابهم فتنة الجدال بأقوالهم وأحوالهم؛ لأن الناشئ في العلم والتربية تكون فتنته بالجدل قبل تمكُّن العلم والإيمان منه عظيمة وخطيرة وقد لا يستطيع الانفكاك من ذلك بقية عمره.

ومن علامة توفيق الله – عز وجل – للطالب الناشئ أن يهيئ له مربياً يجمع بين العلم والتقوى ويكره الجدال والمراء والخصومات.

* * *

و ـ التعصب لآراء الرجال والتقليد الأعمى

وهذه الفتنة مما ابتلي بها المسلمون في تاريخهم الطويل وخاصة بعد عهد الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين لهم بإحسان، ولو أن الذي وقع فيها من عامة الناس لهان الخطب، ولكن بعض طلاب العلم والعلماء المتعصبين لمذاهبهم وشيوخهم قد وقعوا في هذه الفتنة وقلدهم فيها الجهلة من الناس، بل إن المتعصبين من أهل العلم هم الذين كرسوا التقليد الأعمى عند العامة بأقوالهم وأفعالهم وعدولهم عن الدليل الواضح من الكتاب والسنة إلى آراء الرجال وتحسيناتهم، مع أن الأئمة الأعلام المتبوعين - رحمهم الله تعالى - كانوا يشددون في اتباع الدليل من الكتاب والسنة، وينهون أتباعهم عن تقليدهم دون معرفة للدليل؛ وصرحوا أن مذهبهم هو القرآن وما صح من السنة الشريفة.

(فهذا الإمام مالك - رحمه الله تعالى - يقول: ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ، وقال: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

● وهذا الإمام أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي. وقال: إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله - تعالى - وخبر رسول الله ﷺ فاتركوا قولي.

● وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى -: (إذا وجدتم في كتابي

خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت، وقال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وقال: كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلتُ فأنا راجع عنه في حياتي وبعد موتي.

وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: لا تقلدوني، ولا تقلدوا مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذوا من حيث أخذوا، وقال: من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة)[١].

ولا يُفهم من ذم التقليد هنا سد بابه تماماً[٢]، وإنما المقصود الحذر من فتنة التعصب بالهوى لآراء الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة الصحيحة، والنظر إلى الأئمة بأنهم معصومون من الخطأ وأن كل ما خالف أقوالهم فهو مردود. إن هذا الصنيع هو الفتنة بعينها وهي التي حذرنا الله - عز وجل - منها بقوله - تعالى -: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣]. وقد بلغت فتنة التقليد والتعصب بالهوى حداً من الخطورة أن يقول أحد أهل العلم المقلدين: إذا خالف الدليل من الكتاب والسنة الصحيحة قول الإمام فلان فلا بد من تأويل الدليل حتى يتفق مع قول الإمام ورأيه.

وفي وصف هذه الفتنة وأهلها يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

---

(١) انظر صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ الألباني ص ١٤-١٩

(٢) البحث في مسألة التقليد ومتى يجوز ومتى لا يجوز ليس هذا موضوعنا وإنما المقصود التحذير من التعصب الأعمى للرجال أما لو اتبع العامي أحد العلماء ثقة في دينه واتباعه للدليل فهذا أمر سائغ لا يستغني عنه العامة بل طالب العلم أحياناً.

(ثم خلف من بعدهم ـ أي بعد الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً، وكل إلى ربهم راجعون. جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورءوس أموالهم التي بها يتجرون وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب ولسان الحق يتلو عليهم: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾.

[النساء: ١٢٣]

قال الشافعي – قدس الله تعالى روحه –: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله؛ وهذا كما قال أبو عمر – رحمه الله تعالى –: فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد.

فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من ورثة الأنبياء؛ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء؛ فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه؟ ويمضي ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟ تالله إنها فتنة عمت فأعمت، ورمت القلوب فأصمت، ربا عليه الصغير وهرم عليها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن

مهجوراً وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً.

ولما عمت بها البلية وعظمت بسببها الرزية بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ولا يعدون العلم إلا إياها فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل وبغوا له الغوائل ورموه عن قوس الجهل والعناد وقالوا لإخوانهم: إنا نخاف أن يبدل دينكم أو يظهر في الأرض الفساد.

فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألا يلتفت إلى هؤلاء ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رفع له علم السنة النبوية شمر إليه ولم يحبس نفسه عليهم، فما هي إلا ساعة حتى يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، وتتساوى أقدام الخلائق في القيام لله، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم أنهم كانوا كاذبين)[١]. ا.هـ.

ويقول الذهبي - رحمه الله تعالى -: (فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله - تعالى - فإنك لا دليل لك على ذلك، ولا لمخالفك أيضاً بل الأئمة - رضي الله عنهم - على خير كثير، ولهم في صوابهم أجران على كل مسألة وفي خطئهم أجر على كل مسألة)[٢]. ا.هـ.

ومن أخطر ما في فتنة التقليد الأعمى والتعصب لآراء الرجال ما يلي:

١ - الإثم العظيم الذي سيتحمله هذا المفتون في رده للشريعة وتقديم

---

(١) إعلام الموقعين ١/٣٣ - ٣٥.

(٢) زغل العلم ص: ٣٥.

آراء الرجال عليها.

٢ ـ تضليل الناس وبث التعصب الأعمى بينهم خاصة إذا رأوا علماءهم ومتبوعيهم هم بدورهم يتعصبون.

٣ ـ الفساد العظيم الذين ينشأ في الأمة من إبعادها عن الدليل وربطها بآراء الرجال المعرضة للخطأ والصواب

٤ ـ التحزب والتفرق في صفوف المسلمين من جراء التعصب لأقوال الرجال ومواقفهم حتى أصبحوا شيعاً وأحزاباً.

* * *

ز ـ قلة المعرفة بأحوال الناس وواقعهم والابتعاد عن قيادتهم وتوجيههم

العلماء الربانيون يعيشون هموم الأمة، ويعرفون أحوال الناس وواقعهم؛ وهم الذين تفزع اليهم الأمة بعد الله - عز وجل - في ملماتها ونوازلها، فتجد عندهم القيادة الرشيدة والتوجيه السديد والمأمن من الشرور والفتن؛ وإذا احتاج الأمر إلى المقارعة والجهاد فهم الذين يقودون الناس ويشعلون فيهم الحماس ويحرضونهم على ذلك.

والتاريخ مليء بذكر الحوادث والنوازل التي قاد العلماء فيها أمتهم ووجد الناس عندهم الجواب المطمئن لكل نازلة؛ إذ كشفوا الحيرة والاضطراب بأقوالهم السديدة التي انطلقت من فهم للشريعة ومقاصدها وفهم لواقع الناس وأحوال الأمة. كما شاركوا أئمتهم بالنضال والنزال وقادوها إلى بر الأمان. ولا يخفى على المتأمل لحياة السلف هذه الأحوال والمواقف المشرفة لهم. فهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - وكيف حمى الله به الدين في وقت عصيب قلَّ فيه النصير وقلَّ فيه المتكلم بالحق فثبته الله - عز وجل - وقاد الأمة في مواجهة فتنة الاعتزال والقول بخلق القرآن حتى انتصر الحق وزهق الباطل.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وكيف كشف الحيرة عن الناس أيام التتار وشرح الله به صدور الناس لقتال التتار فحمسهم وحرضهم على القتال بقوله وفعاله، وكان من نتيجة ذلك أن رد الله - عز

وجل - كيد الكفار في نحورهم وأعز الله دينه وعباده المؤمنين.

وكذلك الحال في الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - وكيف أنقذ الله به الأمة من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى التوحيد، وجاهد مع الإمام محمد بن سعود وأولاده - رحمهم الله تعالى - حتى مكن الله تعالى لهم في الأرض. وهكذا كان دور العلماء العاملين المجاهدين في تاريخ الإسلام الطويل. وليس هذا بمستغرب على العلماء الربانيين الصدِّيقين؛ فهم ورثة الأنبياء، وهم صمام الأمان لأمتهم، وهم مرجعها في سلمها وحربها، وفي كل شئونها. وكلما كان العالِمُ يعيش هموم أمته ويعرف أحوالها وواقعها وما يكاد لها ويُخطط من قبل أعدائها كلما كان ذلك حاجزاً لها من الانحراف والفتنة والمهانة والذلة، والعكس من ذلك؛ فما من فترة من فترات المسلمين تمر عليهم، وتكون الأمة في واد وأهل العلم والدين في واد آخر لا يعلمون إلا القليل عن الأمة وهمومها وواقعها، إلا كان من جراء ذلك فتنة وفساد كبير على الأمة بأسرها علماء وعامة، حكاماً ومحكومين.

وهل هناك فتنة على الناس أشد من أن يترك العلماء قيادة الأمة ورعايتها ليتولى أمرها وقيادتها أهل الفساد والنفاق!؟ إن هذا هو الحاصل اليوم في أكثر بلدان المسلمين. إن بُعد أكثر العلماء عن واقع الأمة ومعرفة أحوالها واستبانة سبيل المجرمين الذين يكيدون لها هو من بين الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع المرير الذي تعيشه الأمة الإسلامية في أكثر البقاع اليوم في عقائدها وشرائعها وأخلاقها.

يتحدث الشيخ علي بن بخيت الزهراني - حفظه الله - عن مكانة

العلماء في الأمة والفتنة التي تنشأ من ابتعادهم عن قيادتها وتوجيهها فيقول:

(للعلماء مكانة بارزة في الإسلام لا تعدلها مكانة أخرى؛ إذ هم حملة الشريعة، وورثة الأنبياء، والمؤتمنون على الرسالة، والقائمون بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقدوة الحسنة للناس في تطبيق تعاليم الإسلام في الواقع.

وتختلف مهمة العلماء في الإسلام عن مهمة رجال الدين في النصرانية مثلاً، ويأتي ذلك الاختلاف من طبيعة الديانتين وتباين تعاليمهما تبايناً عظيماً؛ إذ تنحصر مهمة العلماء في الديانة النصرانية فيما له علاقة بالتعاليم والطقوس المنسوبة إلى المسيح عليه السلام وحوارييه، تلك التعاليم التي تفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فصلاً يكاد يكون كاملاً؛ حيث تدعو إلى إهمال الحياة الدنيا، والاستهانة بجميع أنشطة الحياة، والإقبال الكلي على الآخرة، وينسبون إلى المسيح - عليه السلام - أقوالاً مشكوكاً في صحتها مثل: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وغير ذلك من الوصايا والتعاليم التي تدعو إلى ترك الحياة الدنيا وحرمان النفس وتعذيبها بتحريم ما أحل الله لها.

لذا أطلق على هؤلاء العلماء اسم: (رجال الدين) وهو اسم صحيح ومطابق لحال أولئك العلماء الذين حصروا نشاطهم وحياتهم في خدمة الدين النصراني وطقوسه، تاركين مسرح الحياة وما يدور بداخله لغيرهم من الناس؛ لأن ذلك على مقتضى تعاليمهم ليس من شأنهم أن يعملوا فيه.

ولكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للدين الإسلامي؛ فليس هناك رجل دين بالمعنى النصراني؛ بل يوجد العلماء الذين يتمثلون الإسلام في واقعهم، علماً وعملاً، عبادة وجهاداً، ديناً ودولة، عقيدة وشريعة، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

وكم تكون العواقب وخيمة حين ينسى العلماء مهمتهم الكبرى وينصرفون إلى حلقات العلم والدرس ظانين أنهم بذلك العلم قد أدوا كل ما عليهم من مهمة، وأخلوا أنفسهم من المسؤولية.

وكم يكون التقصير عظيماً حين ينزوي العلماء بعيداً عن الأحداث، بل حين يرى بعضهم أو كثير منهم أن النزول إلى الساحة والمشاركة في الأحداث ليس من شأن العلماء ولا من مهماتهم.

ولا نود أن نستطرد في الحديث قبل أن نطالع أحوال العلماء في الكتب التي ندرسها لنرى أن الضعف قد تطرق إليهم ولم يسلم الكثيرون منهم من وطأة الانحرافات التي طرأت على الأمة الإسلامية.

وفي تلك الفترة الحالكة كثر الانزواء من جانب العلماء والابتعاد عن المشاركة الفعالة في الأحداث والوقائع المتتابعة التي لم ينج منها أكثر البلدان، وما من شك أنه كان للصوفية دور كبير في ازدياد حجم ذلك الانزواء، الذي يتفق تماماً مع ما تدعو إليه من تجرد وزهد منحرف، فكيف إذا كان كثير من العلماء في ذلك الزمن قد غرقوا في متاهات التصوف وعقائده الفارغة؟

ومع أن بعض العلماء من المتصوفة وغيرهم كان لهم مشاركة أو دور في بعض الأحداث إلا أن ذلك لا يكاد يغير الحالة العامة التي كان عليها

العلماء من إحجام وتباعد عن الخوض في الأحداث والوقائع، وإن كانت هناك مشاركة فلم تكن على مستوى الأحداث.

ولعل أصدق مثال على تجافي العلماء عن الأحداث السياسية، ما يعبر عنه الشيخ «محمد السنوسي» (المتوفى سنة ١٣١٨هـ)، في رسالة منه إلى وزير الدولة التونسية لما منع من الهجرة إلى خارج تونس حيث كتب في رسالته: «ليعلم سيدي أني رجل بعيد عن معنى السياسة في نازلة الحال بالنظر لذاتي.

أما بالنظر لذاتي فغير خفي عن جنابكم أني من خَدَمَةِ العلم الشريف، وغاية شغلي هو تدريس التوحيد والفقه والعربية بجامع الزيتونة كل يوم تطوعاً لله، وقد قال «ابن خلدون»: «إن أهل العلم أبعد الناس عن السياسة..». فهذا مثال واضح لعالم من علماء ذلك الزمان يقر على نفسه بأنه بعيد عن السياسة وأنها ليست تعنيه؛ لأنه مشتغل بالعلم.

وأما الشيخ «عبد الرحمن الشربيني» شيخ الجامع الأزهر فيقول في لقاء مع جريدة (الجوائب المصرية) أجرته معه في محرم عام ١٣٢٣هـ، حين احتدم النقاش والنزاع حول ما سمي بإصلاح الأزهر: «وأما الخدمة التي قام بها الأزهر - ولا يزال يؤديها له - فهي حفظ الدين لا غير، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به، ولا ينبغي له!!».

ثم يقول: «وقد رأيت الكثيرين من إخواني - خَدَمَة العلم - في منصب المشيخية فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة!!، أوشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة، كانوا ينقطعون لخدمة العلم

ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر، وذكرهم العاطر».

ويقول أيضاً: «حتى إن من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرءوها أو مجلة فلان يتصفحوها».

وقد انتقد شيخ الأزهر عزوف العلماء في الأزهر عن مطالعة الجرائد والمجلات، وهو الشيخ «محمد الأحمدي الظواهري» (المتوفى سنة ١٣٦٣هـ)، وكان ذلك قبل أن يلي مشيخة الأزهر، وسيأتي مزيد من التوضيح والبيان لهذه القضية الخطرة في ثنايا الفصل.

ويقول الشيخ «مصطفى صبري»: «والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين؛ بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاءون بدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر إلا ما يعد من فضول اللسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان)[١] .ا.هـ.

وحين يبتعد العلماء عن الأمة وقضاياها الكبار ونوازلها العظام فإنهم في أغلب الأحيان يسلمونها إلى فئتين من الناس: إحداهما: توجه العامة،

---

(١) عن كتاب الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ص (٥٩٣ - ٥٩٩) (باختصار).

والأخرى: توهج شباب الدعوة والصحوة.

فالفئة الأولى: هي فئة المفسدين من المنافقين الذين يفسدون عقيدة الأمة وأخلاقها ويربطونها بأعدائها، ويزينون لها التبعية للغرب أو الشرق مجندين في ذلك وسائل الإعلام المختلفة التي تمكر بالناس بالليل والنهار، كل ذلك في غيبة الرعاة الربانيين من العلماء والدعاة الصادقين؛ مما ترك الأمة كالشياه المطيرة لترعاها الذئاب الضارية، وكفى بذلك فتنة للساكتين من أهل العلم من وزر السكوت وإسلام الأمة لأعدائها. وكفى بذلك فتنة للناس في عقيدتهم وأخلاقهم وأموالهم عندما يتولى توجيههم في ذلك المفسدون في الأرض.

والفئة الثانية: فئة المتسرعين من بعض الدعاة الذين لم يكن لهم حظ من العلم والفقه، وتصدروا في بعض البلدان لقيادة الشباب في الدعوة إلى الله - عز وجل - فوجدوا أنفسهم بمنأى عن أهل العلم، وجدَّت في واقع الدعوة والأمة قضايا كبيرة لا يتصدى لها إلا أهل العلم المجتهدون فاقتحموا هذه النوازل وتجرأوا على الإفتاء فيها؛ فكان من جراء ذلك فتنة لهم ولمن تبعهم؛ نظراً لسيطرة العواطف والحماس عليهم وليس العلم والفقه[١].

وإن كلا الفئتين على ما بينهما من فرق في النوايا والمنطلقات فإنهما يشتركان في كونهما يجران المفاسد على الأمة؛ سواء بالتميع في أخذ الإسلام والتحلل من أحكامه كما هو الشأن في مقاصد الفئة الأولى، أو

---

(١) ولا يعني هذا أن كل المتصدرين للدعوة اليوم كذلك - معاذ الله!! - فلقد رأينا في بعض بلدان المسلمين من جمع بين الدعوة والعلم والحكمة، وظهر أثرهم في استقامة الدعوة وشبابها.

في التسرع والانطلاق في اتخاذ مواقف دعوية وجهادية دون مراعاة للضوابط الشرعية كما هو شأن الفئة الثانية، وكما أن كلتا الفئتين لا تسلمان من إثم هذه المفاسد كل بحسبه، فإن من سكت من العلماء المجتهدين يشتركون في إثم هذه الفتن وذلك لبعدهم عن واقع أمتهم وما تحتاج إليه من معرفة الحق في نوازلها وقضاياها الكبار، التي لم تجد الأمة أمامها إلا هاتين الفئتين، فأسلمت لهما القياد. والله المستعان.

وتأكيداً لخطورة هذه الأمور، وتصويراً لواقع الأمة وما تحتاجه من علمائها، أسوق بعض الأمثلة من القضايا والنوازل التي تتوق الأمة وتهفو إلى سماع كلمة العلماء الربانيين فيها ومعرفة المواقف العملية إزاءها:

● كثر الحديث في السنوات الأخيرة عما يسمى بالنظام العالمي الجديد والشرعية الدولية، ولا يخفى على المسلم الواعي بحقيقة دينه وحقيقة أعدائه ما في هذا النظام من رفض لأحكام الإسلام الدولية، وتعطيل ذروة سنامه، ذلك أن الواضعين لهذا النظام والمطالبين بالتزامه من جميع دول العالم يقصدون به ترك الدين جانباً وعدم اعتباره في أي موقف دولي، وأن يُعَطَّلَ الجهاد وتحترم حدود الغير بما في ذلك حدود اليهود الغاصبين في فلسطين، وأن يتحاكم الجميع إلى شريعة هذا النظام وليس إلى شرع الله - عز وجل - وأحكامه؛ وهذا أخطر ما في هذا النظام؛ لأن الرضى به إنما هو تنكر للإسلام ورفض لأحكامه التي تتضاد مع هذا النظام وتأباه. فأين علماء الإسلام من النصح للأمة وبيان كفريات هذا النظام ومطالبة الأمة برفضه والانقياد له؟ ولا يكفي في إنكار هذا النظام إفتاء السائلين عنه، أو إنكاره في حلقات العلم الخاصة. بل إن هذا النظام الطاغوتي من الخطورة بحيث يتطلب قومة لله - عز وجل - صادقة من أهل العلم يعلنون فيها

رفضهم لنظام الطاغوت؛ بصورة جماعية تسمعه الأمة الإسلامية في كل مكان حتى لا تخدع من قِبَلِ أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج.

● ومن القضايا التي تنتظر الأمة موقفاً صريحاً من العلماء فيها قضية السلام الدائم مع اليهود وإقرارهم على احتلالهم وتطبيع العلاقات معهم. فإلى هذا الوقت لم نسمع حول هذه الفتنة إلا مواقف فردية غير معلنة ولا تاتي إلا عند السؤال والاستفتاء، وإنما الذي تسمعه الأمة وتُرَوَّض على قبوله هو مكر الليل والنهار من أعدائها ومن بني جلدتها والذي يزين هذا الاستسلام، ويلبِّس ويغالط في طرحه ومناقشته.

فأين موقف العلماء وكلمتهم المعلنة للأمة حول هذا الاستسلام المهين؟ وما حكم إقرار اليهود في مقدسات المسلمين؟ وما حكم السلام الدائم معهم وعقد المعاهدات الدائمة على وضع أوزار الحرب معهم واحترام حدودهم وفتح بلدان المسلمين لاستثماراتهم الاقتصادية، وثقافاتهم الإلحادية، وسلوكياتهم المنحرفة؟

● كما تحرص الأمة على سماع كلمة أهل العلم في قضايا المسلمين العالمية وما يواجهون في بلدانهم من محن وبلاء من أعدائهم الكفرة. ولو أن علماء الأمة كانت لهم مواقف صريحة معلنة من محن المسلمين المختلفة يعلنونها للعالم ويطالبون أعداءهم الكفرة برفع الأذى والنكال، لكان لذلك ـ والعلم عند الله عز وجل ـ أثر كبير على معنويات المسلمين من جهة، كما أنها تشكل ضغطاً على أعدائهم للتخفيف من أذاهم على المسلمين، ومن أهم هذه القضايا محنة المسلمين في كشمير المحتلة، وفي فلسطين، وفي الفلبين وبورما والبوسنة وغيرها من بلدان المسلمين التي

يُضطهد فيها الدعاة والمصلحون.

● كما كثر الحديث في الآونة الأخيرة عما يسمى بـ (الإرهاب الدولي) والمقصود بالدرجة الأولى منه المسلمون ودعاتهم ومجاهدوهم؛ حيث حصل خلط عجيب بين ما تقوم به بعض الفئات المتسرعة تحت ضغط الواقع في بعض البلدان دون مراعاة للمفاسد المترتبة على فعلهم - وهو اجتهاد خاطئ ومردود - وبين السواد الأعظم من دعاة المسلمين وموجهيهم ممن يرفضون هذه التصرفات، ولكن أعداء الملة لا يفرقون بين هذا وهذا - مع علمهم بذلك - لأن الخطر عندهم يكمن في الإسلام نفسه ومن يدعو إليه.

وقد قامت وسائل الإعلام في أكثر بلدان المسلمين بتأييد هذه النظرة وترديدها حتى تأثر بذلك فئام من الناس. فما أحوج الأمة إلى سماع كلمة أهل العلم في هذه القضية، ما أحوج الأمة إلى أن تسمع دفاع العلماء عن الإسلام ودعاته المضطهدين وأن لا يسلموهم للكفرة وأتباعهم يشوهون صورة الدعاة إلى الله - عز وجل - وقصدهم من ذلك كله الإسلام والقضاء عليه. ما أحوج الأمة إلى أن يرفع العلماء رأسها وتخاطب الكفرة أعداء الدين بنفس خطابهم وأن الإرهاب الحقيقي هو ما يقوم به الغرب الكافر أو الشرق الملحد أو اليهود الغاصبون من قتل بالمئات للأبرياء من المسلمين، ومن هتك وتشريد وسجن، يا ليتنا نسمع مثل هذا الكلام من ورثة الأنبياء من علمائنا الأجلاء في عالمنا الإسلامي، ويعلنونها صريحة مدوية يرهبون بذلك عدو الله وعدوهم، ويساهمون في رفع الظلم والاضطهاد الذي يتعرض له دعاة الإسلام في أكثر بلدان المسلمين اليوم.

● لا يخفى على علماء الأمة المخلصين ما يعيشه المسلمون اليوم من فرقة واختلاف وشحناء وعدوان وبخاصة بين بعض دعاتها وأهل الخير من أبناء السنة فيها؛ وإن الحاجة إلى تدخل أهل العلم أصبحت ملحة وضرورة ماسة للحفاظ على الدين والأنفس والأعراض من جراء هذا الاختلاف وهذه الفرقة المشينة، وإن كلمة أهل العلم في هذا الشأن مهمة وكفيلة إن شاء الله - تعالى - بحسم مادة هذا الاختلاف أو تقليل أثره في أضعف الاحتمالات.

وإن الأمة لا تكتفي من علمائها بكلمة أو كلمات يقولونها في جواب على سؤال من أحد الأطراف المختلفة وإنما المطلوب دراسة أسباب الاختلاف وأن يجتمع أهل العلم المخلصون المحايدون على بيان واضح معلن ينصحون به أهل الاختلاف، ويعلنون موقفهم فيه من مسائل الخلاف. ما يسع منها وما لا يسع، ويسعون فيه لجمع الكلمة ورد المعتدي، ولا يدعون المجال لطرف معين ليقوِّم الطرف الآخر، حيث يعز العدل ويدخل الهوى. وإنما يقطعون الطريق بموقفهم المعلن على كل طرف يريد التشهير أو النيل من الطرف الآخر بغير حق، وإنها لفتنة تستحق أن تحظى باهتمام أهل العلم بها؛ لأنها تعد من النوازل التي إن غاب أهل العلم عنها فسيزداد اشتعالها وخطرها وفي هذا فتنة وإثم على المسلمين بعامة.

● وأخيراً فإن الأمة تنتظر الموقف الحاسم المعلن من علمائها تجاه الذين يبدلون شرع الله - عز وجل - في أكثر بلدان المسلمين، ويحكمون فيها بدلاً من ذلك حكم الطاغوت من القوانين الوضعية والدساتير الكفرية.

*** نوع آخر من الفتن التي تنشأ من قلة معرفة أهل العلم بأحوال الناس ومقاصدهم:**

١ ـ الاستجابة لبعض طروحات المغالطين الملبسين وبعض استفتاءاتهم التي يريدون بها الاتكاء على رأي العالم وموقفه إزاءها في تحقيق أغراض سيئة يفتنون بها الأمة. فحين لا يتفطن أهل العلم لأغراضهم الماكرة ويجيبونهم على طروحاتهم إجابات مجردة دون معرفة بمقاصدهم ومآلات أمرهم فإن آثار فتوى أهل العلم في مثل هذه الحالات تكون غير محمودة في الغالب. وعن هذا الموضوع يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في حديثه عن فوائد تتعلق بالفتوى والمفتي:

(الفائدة الرابعة والأربعون: يحرم عليه إذا جاءته مسألة فيها تحيُّل على إسقاط واجب أو تحليل محرم أو مكر أو خداع أن يعين المستفتي فيها، ويرشده إلى مطلوبه، أو يفتيه بالظاهر الذي يتوصل به إلى مقصوده، بل ينبغي له أن يكون بصيراً بمكر الناس وخداعهم وأحوالهم، ولا ينبغي له أن يحسن الظن بهم، بل يكون حذراً فطناً فقيهاً بأحوال الناس وأمورهم، يؤازره فقهه في الشرع، وإن لم يكن كذلك زاغ وأزاغ، وكم من مسألة ظاهرها ظاهر جميل، وباطنها مكر وخداع وظلم؛ فالغر ينظر إلى ظاهرها ويقضي بجوازه، وذو البصيرة ينقد مقصدها وباطنها. فالأول يروج عليه زغل المسائل كما يروج على الجاهل بالنقد زغل الدراهم، والثاني يخرج زيفها كما يخرج الناقد زيف النقود. وكم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق! وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل! ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس، ولكثرته وشهرته يستغنى عن

الأمثلة)[١]. ا.هـ.

وقال رحمه الله تعالى أيضاً في موطن آخر وهو يتحدث عن أنواع المسائل التي ترد على المفتي:

(... وتارة تورد عليه المسألة الباطلة في دين الله في قالب مزخرف ولفظ حسن، فيتبادر إلى تسويغها وهي من أبطل الباطل، وتارة بالعكس؛ فلا إله إلا الله، كم ههنا من مزلة أقدام، ومجال أوهام، وما دعا محق إلى حق إلا أخرجه الشيطان على لسان أخيه ووليه من الإنس في قالب تنفر عنه خفافيش البصائر وضعفاء العقول وهم أكثر الناس، وما حذر أحد من باطل إلا أخرجه الشيطان على لسان وليه من الإنس في قالب مزخرف يستخف به عقول ذلك الضرب من الناس فيستجيبون له، وأكثر الناس نظرهم قاصر على الصور لا يتجاوزونها إلى الحقائق، فهم محبوسون في سجن الألفاظ، مقيدون بقيود العبارات، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾.

[الأنعام: ١١٢، ١١٣]

وأذكر لك من هذا مثالاً وقع في زماننا، وهو أن السلطان أمر أن يلزم أهل الذمة بتغيير عمائمهم، وأن تكون خلاف ألوان عمائم المسلمين، فقامت لذلك قيامتهم، وعظم عليهم، وكان في ذلك من المصالح وإعزاز الإسلام وإذلال الكفرة ما قرت به عيون المسلمين، فألقى الشيطان على

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢٢٩

السنة أوليائه وإخوانه أن صوَّروا فتيا يتوصلون بها إلى إزالة هذا الغبار، وهي: ما تقول السادة العلماء في قوم من أهل الذمة ألزموا بلباس غير لباسهم المعتاد وزي غير زيهم المألوف فحصل لهم بذلك ضرر عظيم في الطرقات والفلوات، وتجرأ عليهم بسببه السفهاء والرعاة، وآذوهم غاية الأذى، فطمع بذلك في إهانتهم، والتعدي عليهم، فهل يسوغ للإمام ردهم إلى زيهم الأول وإعادتهم إلى ما كانوا عليه مع حصول التميز بعلامة يعرفون بها؟ وهل في ذلك مخالفة للشرع أم لا؟ فأجابهم من مُنِعَ التوفيق وصُدَّ عن الطريق بجواز ذلك، وأن للإمام إعادتهم إلى ما كانوا عليه، قال شيخنا: فجاءتني الفتوى، فقلت: لا يجوز إعادتهم، ويجب إبقاؤهم على الزي الذي يتميزون به عن المسلمين، فذهبوا ثم غيَّروا الفتوى، ثم جاؤوا بها في قالب آخر، فقلت: لا تجوز إعادتهم، فذهبوا ثم أتوا بها في قالب آخر، فقلت: هي المسألة المعينة، وإن خرجت في عدة قوالب، ثم ذهب إلى السلطان، وتكلم عنده بكلام عجب منه الحاضرون، فأطبق القوم على إبقائهم. ولله الحمد)[١] .ا.هـ.

هذا هو تحذير ابن القيم في زمانه؛ فكيف لو خرج في زماننا اليوم والذي بلغ فيه المكر والخداع مداهما في كثير من بلدان المسلمين؟

٢ ـ تحديث الناس بأحاديث قد يحصل لهم بها فتنة في أنفسهم؛ وقد يفتنون بها غيرهم لقصور عقولهم عنها، وهذا معنى قول علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله؟)[٢] وقول

---

(١) إعلام الموقعين ٤ / ١٩٢ ـ ١٩٤.
(٢) البخاري في كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قوماً (١ / ٢٧٢ فتح).

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[١].

وعلق الإمام ابن حجر - رحمه الله تعالى - على ذلك بقوله: (وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة... وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة رضي الله عنه كما تقدم عنه في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس - رضي الله عنه للحجاج - بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم)[٢].

ومن ذلك ما كان يفعله أئمة السلف في التفريق في فتواهم ومسائلهم بين أناس وأناس، وما يقال في مكان خاص يعقل فيه أهله ما يسمعون لا يصلح ان يقال في مكان عام قد يكون لأهله فتنة. والمواقف التالية توضح هذا الأمر:

● عن سعد بن عبيدة قال: (جاء رجل إلى ابن عباس فقال: لمن قتل مؤمناً توبة؟ قال: لا إلا النار، فلما ذهب قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا، كنت تفتينا أن لمن قتل مؤمناً توبة مقبولة، فما بال اليوم؟ قال: إني

---

(١) مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١).
(٢) فتح الباري ١/ ٢٢٥.

أحسبه رجلاً مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك)[١].

● عن حسان بن أبي يحيى الكندي قال: (سألت سعيد بن جبير عن الزكاة فقال: ادفعها إلى ولاة الأمر. قال: فلما قام سعيد تبعته، فقلت: إنك أمرتني أن أدفعها إلى ولاة الأمر وهم يصنعون بها كذا، فقال: ضعها حيث أمرك الله، سألتني على رؤوس الناس، فلم أكن لأخبرك)[٢].

● عن الربيع بن سليمان قال: «كان الشافعي يرى أن الصناع لا يضمنون إلا ما جنت أيديهم، ولم يكن يظهر ذلك كراهية أن يجترئ الصناع»[٣].

وأخيراً:

وبعد ذكر بعض مظاهر الفتنة التي تنشأ من بُعْدِ أهل العلم عن واقع الأمة وأحوالها، وبعد ذكر الأمثلة التي تتوق الأمة إلى سماع أهل العلم ومواقفهم منها؛ فإنه لا بد من الإشارة إلى أنه لا يزال والحمد لله في الأمة وعلمائها خير كثير، ولا يزال فيها أولو بقية ينهون عن الفساد، ويعون واقع أمتهم، وقد قال بعضهم كلمته في مثل هذه القضايا المطروحة سابقاً، ولكن الأمر من الخطورة والأهمية ما لا يكفي فيه قول فردي يقال في جلسة أو استفتاء، ولا يكفي فيه قول واحد ولا اثنين، ولا عشرة، إنما الأمر من الأهمية بحيث يحتاج إلى ترابط أهل العلم وإعلان موقفهم الموحد إزاء

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٩/٣٦٢.
(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٤١٦.
(٣) الفقيه والمتفقه ٢/٤١٦.

هذه القضايا وغيرها حتى يصل إلى الأمة وتسمعه، كما يسمعه أعداء الإسلام ليدركوا أن للأمة رجالها وعلماءها الربانيين الذين قادوها في القديم ورفعوا رأسها، وسيقودونها - إن شاء الله تعالى - في هذا الزمان حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهنا لا بد من الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بالأدب مع العلماء والاعتذار لهم؛ فقد يوجد بعض العلماء المخلصين الذين يعون أحوال أمتهم وما تحتاجه وما يراد لها، ومع ذلك فلا يرى لهم أثر كبير في نصح الأمة وبيان الحق لها، مما يدفع بعض المستعجلين والمتحمسين من الدعاة أو طلبة العلم إلى رمي هذا الصنف من العلماء بالجبن أو المداهنة وحب الدنيا، وهذا غلط بل فيه فتنة وجور؛ لأن مثل هؤلاء العلماء الذين لا يُشك في إخلاصهم وغزارة علمهم قد يرون ما لا يرى غيرهم، وقد يغلب على ظنهم أن في إعلان مواقفهم فتنة، وقد يكون بعضهم قد حيل بينه وبين قول الحق، والبعض الآخر قد التبس عليه الأمر.. إلىٰ آخر هذه الأعذار والمهم أن من عُرِفَ عنه العلم والإخلاص وعدم المداهنة وله البلاء الحسن في الإسلام والدعوة إليه فلا ينبغي النيل من عرضه والتشهير به؛ بل يلتمس له العذر ما استُطِيع إلى ذلك سبيلاً.

* * *

ح ـ التعالم والفتوى بلا علم

تعد هذه الآفة من الفتن الخطيرة على من تلبّس بها؛ لأنها تدل على مرض في القلب مبعثه الرياء والمفاخرة وحب الشهرة؛ كما تعتبر فتنة على الناس وذلك بانخداعهم بأمثال هؤلاء المتعالمين والأخذ بأقوالهم ومواقفهم. وقد حذر الله ـ عز وجل ـ من هذه الصفات الذميمة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقد يصدر التعالم من شخص لا حظٌ له في العلم بشتى فروعه؛ ومع ذلك فإنه يعد نفسه من أهل العلم وهو ليس منهم، وقد يوجد التعالم في شخص له حظ في جانب من العلم، ولكنه جاهل في جوانب أخرى منه، ومع ذلك يُظهر أنه عالم بها ويقول فيها بلا علم ولا فقه!

وعن هذه الفتنة وأهلها يقول الشيخ بكر أبو زيد حفظه ـ الله تعالى ـ:

(اندلعت قضية التعالم في الوجود ـ لا سيما في صفوف المسلمين ـ وهي رمز للعدول عن الصراط المستقيم، وأضواء التنزيل، ووسيلة القول على الله العزيز الحكيم. فتجسّدت أمامنا أدلة مادية قامت في ساحة المعاصرة على ما ذرَّ قرنه من الخوض في الشريعة بالباطل، وما تولد عنه من فتن تغلي مراجلها على أنقاض ظهور الركالة لذهاب العلماء وقعود المتأهلين عن التحمل والبلاغ، وتولي ألسنتهم وأقلامهم يوم الزحف على كرامته.

فتبدت من وراء أولاء أمور دوابية، وصدود عن منهاج النبوة والصديقية؛ إذ درجوا في الطرق الجائرة، وتصيدوا من الرخص كل طريف وتالدة ونشروها

بلسان الشريعة الخالدة.

وتبنى آخرون «النظرة التبريرية» لإدباب ما جرى بين الأمة من فساد واختلال، وبدع وضلال. وتجاسر فئام على الكذب الصراح – والكذب شر غوائل العلم – وحملوا الشاذ؛ ومن حمله حمل شراً كثيراً، فربضت في قلوبهم الشقوتان: شقوة الكذب، وشقوة الشذوذ، نسأل الله السلامة والعافية:

فبقي الذين إذا يقولـوا يكذبـوا ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا

فصار الناس بين علوم الاستمتاع، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا، وعلوم جنس الخوض بالباطل. فنتج من هذا تقلص في قائمة المتحملين لأعباء العلم الشرعي على هدى مستقيم. فلا بارك الله في هذا الطراز، وتباً لهم فما هم بعلماء، ونعوذ بالله من الفتنة الصماء، وهنيئاً لمن ارعوى ولازم الصدق والتقى. وليسع المرء إلى فكاك رقبته من النار.

والمتخلص أن ظواهر الأحوال من رقة في الديانة، ووهن في الاستقامة، وضعف في التحصيل، والسعي بكل جد وراء الدنيا الزائلة، ومظاهرها الفانية، شكلت أمامنا: ظاهرة التعالم أوسع من ذي قبل؛ لما نشاهده من وقائعها الفجة، والدعاوى العريضة، والبراعة في الانتحال، واتساع الخطو إلى المحال...

وعندنا على هذا ألف شاهد.

وما هذا إلا لتسنم العلم أغمار ركبوا له الصعب والذلول، وظنوا أن العلم ينال بالراحة ولما يملؤوا منه الراحة، فتهافتوا على مناصب العلم في الفتيا، والتأليف، والنشر، والتحقيق، وصاروا كتماثيل مدسوسة بأيديهم هراوى يضربون في عقول الأمة حيناً وفي تراثها أحياناً، مكدرين ـ وحسابهم على الله

- صفو الأمة في دينها وفي علمها. وهل العلم والدين إلا توأمان لا ينسلخان إلا في حساب من انسلخ منهما؟

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ولكن يقبضه بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس: رؤوساً جهالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»(١).

قال الذهبي: حديث ثابت متصل الإسناد هو في دواوين الإسلام الخمسة ما عدا سنن أبي داود. ثم ساق طبقات إسناده بما يعز نظيره وينبغي لطالب العلم أن يقف على سياقته لها.

فرحم الله الذهبي وسقاه من سلسبيل الجنة آمين. كما تجد تخريجه بسطاً في العواصم لابن الوزير - رحمه الله تعالى -.

ومن حديث أبي أمية الجمحي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر»(٢).

وأيضاً في أحاديث الملاحم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يظهر القلم» رواه أحمد، والبزار، والطحاوي، والطبراني. وغيرهم(٣). وقد فشا القلم وارتشى. وهذا من معجزات النبوة. وقال الشافعي - رحمه الله تعالى -: إذا تصدر الحدث فاته علم كثير.. وإني في هذا لا أغمض الشاب اليافع؛ إذ العلوم والمعارف لا تقاس

---

(١) البخاري في العلم (١٠٠).
(٢) الزهد لابن المبارك ص ٢١، وصححه الألباني في السلسلة (٦٩٥).
(٣) أحمد (٥/٣٣٣، ٣٣٤) قال أحمد شاكر (٣٨٧٠): وإسناده صحيح.

بالأشبار، ولا بعظم الأجسام. وليس هو المعنى إنما المعنى الحدث في العلم، فإن الأشياخ وإن كانوا أشجار الوقار، ومعادن الاختبار، ورأي الشيخ خير من مشهد الغلام، فإن حداثة السن ليست مانعة من استقطاب الفضائل وتحمل الرسائل.. ومن هنا نصل إلى نتيجة مهمة، وهي: أن «التجنس الفكري» من انحرافات في المفاهيم، والأخلاق، وتموجات في الاعتقاد، إنما تبلغ مبلغها في الأمة، وفي عقول نشئها؛ بسبب تأخر العلماء عن أداء مهمة البلاغ، وتغذية العقول بالعلم النافع، تحصيناً لها من أي مؤثر عليها، وهذه هي الوظيفة الرئيسة لأهل العلم والإيمان.

ولهذا فإن المتخلف عن أداء واجب وظيفته هذه، يحمل من الإثم بقدر تخلفه. ومن مظاهر الصدود، أن بعض أهل العلم يبحثون في مجالسهم سبب الوفادة، والتلقي، لهذه التموجات، والاتجاهات، ولا يعرجون على هذا السبب. ثم ينقضون إلى مضاجعهم!

فكيف يهدأ لهم بال، والعدو على أبواب منازلهم بل وربما في دورهم؟

ويمكن إجمال الأسباب على ما يلي:

١ ـ قُعود المتأهلين عن البلاغ، ونزول ساحة المعاصرة.

٢ ـ ضعف الإمداد السليم «التكوين».

٣ ـ ضعف الالتفات إلى تلمس العلل وعلاجها.

٤ ـ استشراء داء «حب الشهرة» لغياب قوة: «الإيمان».

٥ ـ انفصام عروة الاتصال بين الطالب، وكتب السلف؛ إذ أن التلقي صار بالمذكرات، والمؤلفات الحديثة.

٦ - قلبُ «لغة العلم» في المصطلحات بما لا يتواطأ مع «لغة العلم» لكتب السلف.

فهذه غصص مولدة للأوجاع المذكورة. والله الموعد.

وبعد: فحرام والله ثم حرام على من لا يهتدي لدلالة آي القرآن، ولا يدري السنن والآثار: أن يتسنم جناب العلم، ويحل في حرمه، معول هدم لحماه، وخرق لسياجه وحرمته، وهذا هو المعثر المخذول، علمه وبال، وسعيه ضلال، نعوذ بالله من الشقاء.

وليعلم أن سلطان ما قيدته هنا إنما هو على من انسحب واعظ الله من قلبه، متسوراً للعلم الشرعي. وقد فاته العلم وفرط في العمل، وانسلخ من الزمن فلا ماضي، ولا حال، ولا مستقبل. فاته العلم بالتلقي، ومثافنة الشيوخ، والإمداد السليم، وكثرة الكشف، وطول البحث، وقلب عقول، ولسان سؤول»[١].

وعن تحريم القول على الله بغير علم يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

(فصل: وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها، وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريماً منه، وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريماً

---

(١) التعالم وأثره على الفكر والكتاب: ص ٢٢ - ٢٧ (باختصار)

منهما، وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه - سبحانه - بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال، وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه...

والمقصود أن الله سبحانه حرم القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، والمفتي يخبر عن الله عز وجل وعن دينه، فإن لم يكن خبره مطابقاً لما شرعه كان قائلاً عليه بلا علم، ولكن إذا اجتهد واستفرغ وسعه في معرفة الحق وأخطأ لم يلحقه الوعيد وعفي له عما أخطأ به وأثيب على اجتهاده.)[١]. ا. هـ.

ومما يتعلق بفتنة التعالم تعلقاً وثيقاً فتنة الفتوى بلا علم، أو التسرع في الفتوى قبل التأمل والدراسة. وكلما رق دين العبد وقلَّ علمه برزت عنده هذه الفتنة - والعياذ بالله عز وجل منها -. أما العلماء الربانيون الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب فكانوا يشفقون من إفتاء الناس ويودون لو كُفُوا أمر الفتوى من غيرهم. كما كانوا يكرهون التسرع في الفتوى قبل معرفة حكم الله - عز وجل - فيها وتفصيلها، ومعرفة حال المستفتي وفهم واقعته. أما في

(١) إعلام الموقعين ١ / ٧٠ - ٧٧ (باختصار)

زماننا اليوم فالمتعالمون منا كثير، حتى إن أحدنا ليحس نفسه عالماً بجمعه نتفاً من العلم.

● فهذا سحنون بن سعيد يقول: (أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه)[١].

وأُورِدُ فيما يلي أمثلة مضيئة من حال سلفنا الصالح الذين جمعوا بين العلم العظيم والخوف من الله - عز وجل - ومع ذلك كانوا يكرهون الإفتاء ولا يجيبون على كل مسألة يُسألونها؛ لعل في قراءتنا لها أكبر عظة وعبرة في الحذر من التعالم والقول بلا علم:

● عن نافع أن رجلاً سأل ابن عمر - رضي الله عنهما - عن مسألة فطأطأ رأسه ولم يجبه حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته. فقال له: يرحمك الله أما سمعت مسألتي؟ قال: بلى ولكنكم كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألونا عنه، اتركنا - رحمك الله - حتى نتفهم في مسألتك، فإن كان لها جواب عندنا وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا به[٢].

● عن سيار أبي الحكم، قال: قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «إنكُم تَستَفتوننا استفتَاءَ قَوْمٍ كأنَّا لا نُسألُ عمَّا نُفْتِيكم بِهِ»[٣].

● عن عبد الله بن بشر: «أنَّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - سُئِل عن مسألة فقال: لا عِلم لي، ثم قالَ: وَابردها على الكَبِدِ: سُئلتُ عما لا أعلم، فقلتُ: لا أعلم»[٤].

---

(١) أعلام الموقعين ١/٣٤ (٢) صفة الصفوة ١/٥٦

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/٣٥٦)

(٤) الفقيه والمتفقه ٢/٣٦٢.

● عن عقبة بن مسلم: أن ابن عمر سئل عن شيء، فقالَ: لا أدري، ثم أتبعها، فقالَ: أتريدونَ أنْ تَجْعَلوا ظُهرونا لكم جسُوراً في جهنم؛ أن تقولوا أفتانا ابنُ عمر بهذا؟»[١].

● عن محمد بن المنكدر: «إن العالم بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل عليهم؟»[٢].

● وعن أيوب قال: سمعت القاسم يسأل بمنى فيقول: لا أدري، لا أعلم. فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم كل ما تسألونا عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حل لنا أن نكتمكم. وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت القاسم يقول: ما نعلم كل ما نُسأل عنه؛ ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه خير له من أين يقول ما لا يعلم[٣].

● عن أبي يوسف قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «من تكلم في شيء من العلم وتقلده وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه»[٤]. وقال أيضاً: «لولا الفرَقُ من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحداً: يكون له المهنأ، وعليَّ الوزر»[٥].

● عن عطاء بن السائب: «أدركت أقواماً إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد»[٦].

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/٣٦٥.
(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٢٥٦.
(٣) صفة الصفوة ٢/٨٩.
(٤)، (٥) الفقيه والمتفقه ٢/٣٥٦.
(٦) الفقيه والمتفقه ٢/٣٥٣

● وعن الشعبي قال: «لا أدري: نصف العلم»[١].

● عن أبي بكر الأثرم، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يُستفتى فيكثر أن يقول: «لا أدري»[٢].

● عن عبد الله بن يزيد بن هرمز قال: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده: لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه، إذا سئل أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري»[٣].

● وعن البراء بن عازب – رضي الله عنه – قال:

«لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى»[٤].

هذه هي أحوال السلف رحمهم الله تعالى مع العلم والفتوى؛ وهم أهل العلم والفتوى والتقوى؛ فما بالنا اليوم مع قلة علمنا وتقوانا يتجرأ أحدنا على الفتيا بلا علم أو بنصف علم أو بأظن ولعلَّ، وكأن الفتوى عنده شربة ماء؟!

ألا فلنتقِ الله – عز وجل – ونحسب للوقوف بين يدي الله – عز وجل – حسابه، ولنعدَّ للسؤال جواباً.

ولو بحثنا عن أسباب التسرع في الفتوى أو القول فيها بلا علم لوجدناها أمراضاً قلبية من جنس الرياء والعجب وحب الشهرة والتصدر في المجالس، ورغبة المبتلى بهذه الأمراض في سؤال الناس له وأنفته من أن يقال علمه قليل أو

---

(١) الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٦٩

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٧١

(٣) الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٦٧

(٤) الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٤٩

ليس بعالم.

فما أخطر هذه الأمراض وأعظم إثمها وأشد فتكها في القلوب، فوق ما فيها من تحمل أوزار الذين يضلهم هذا المفتون بغير علم، وكل ذلك حتى لا يسقط من أعين الناس. فما جدوى أن يكون في أعين الناس كبيراً وهو عند الله صغير ممقوت؟ نعوذ بالله - عز وجل - من الخذلان ومن سخطه والنار.

* * *

سابعاً: الفتنة بالمصائب والمكاره

اقتضت حكمة الله – عز وجل – أن يبتلي عباده بالمصائب وأنواع المكاره ليميز الخبيث من الطيب ويمحص المؤمنين. ويمحق الكافرين. والمقصود هنا بهذه الفتنة هو ما تخلفه المصائب والمكاره في نفوس أهلها من آثار خطيرة في الدين والدنيا ذلك لمن ضعف صبره ويقينه. أما أهل الصبر واليقين فلا تزيدهم المصائب إلا قوة وصلابة وزكاة وإيماناً. ومن أشد أنواع المكاره التي تنزل بالمسلم ما ذكره الله – عز وجل – في مدح الصابرين عليها بقوله – تعالى –: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] فذكر سبحانه في هذه الآية ثلاثة أنواع من المكاره هي:

١– البأساء. ٢– الضراء. ٣– حين البأس.

وتعد هذه الأنواع الثلاثة من المصائب من أشد المكاره على النفوس والتي يكثر المتساقطون في فتنتها نسأل الله عز وجل السلامة والعافية وقد ذكر المفسرون في معنى هذه الآية قولهم: (فِي الْبَأْسَاءِ: أي الشدة والفقر، : وَالضَّرَّاءِ المرض والزمانة، وَالضَّرَّاءِ: أي القتال والحرب)[١]. فتحصل من معنى الآية أن أصول المصائب والمكاره التي يجب الصبر عليها:

١ ـ الفقر والشدة.

٢ ـ المرض والزمانة (أي الأمراض المزمنة التي لا يرجى برؤها كالعمى

---

(١) انظر تفسير البغوي ط. دار طيبة ١ / ١٨٨.

والعرج والشلل... الخ).

٣ ـ ساعات الحرب والقتال والأسر والاعتقال.

وقد ورد ذكر هذه المصائب أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وأغلب المصائب والابتلاءات تعود إلى تلك المكاره الثلاث المذكورة في الآية الكريمة.

فالجوع والجوائح التي تتلف بها الأموال، وفقد المسكن والكساء ونحوها، تعود كلها إلى الفقر والشدة.

والجبن والخوف على النفس والعيال، والسجن والتشريد والتعذيب كلها تعود إلى فتنة البأساء والقتال؛ لأنها إنما تنشأ من الصراع مع الباطل وأهله.

والأمراض وأنواعها وما تؤدي إليه من الموت وفقد الأولاد والأحبة ترجع كلها إلى مصيبة المرض والزمانة.

والمؤمن في حاجة عظيمة إلى الصبر على هذه المكاره والاستعانة بالله – عز وجل – عليها وإلا وقع في فتنتها وسقط في الابتلاء بها.

ومن أشد مظاهر الفتنة بالمصائب والمكاره ما يلي:

١ ـ تزعزع الإيمان وتسلط الشيطان مما قد يؤدي بالمصاب إلى اليأس والجزع والتسخط وسوء الظن بالله تعالى والاعتراض على قدر الله – عز وجل – وحكمته، إما بلسان حاله أو مقاله، وقد يؤدي ذلك ببعض الناس إلى النكوص

عن الإيمان - عياذاً بالله تعالى -. وتعتبر هذه الفتنة أشد مظاهر السقوط في فتنة المصائب. وفي وصف هذا الصنف من الناس يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١ - ١٣].

ذكر البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه عند تفسير هذه الآية قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء»[(١)].

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية بقوله:

(إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة، وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التي لا تتزعزع؛ وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول.

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن. ومن ثَمَّ يجب أن يستوي عليها، متمكناً منها، واثقاً بها، لا يتلجلج فيها، ولا ينتظر عليها جزاء، فهي في ذاتها جزاء؛ ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه، والسند الذي يستند عليه. أجل هي

---

(١) فتح الباري (٤٧٤٢) (٨/ ٢٩٦ الفتح).

في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور، وطلبه للهدى. ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوي إليها، ويطمئن بها. هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله، تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الزوابع، ويستبد بهم القلق. بينما هو بعقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتصال.

أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة: «فإن أصابه خير اطمأن به» وقال: إن الإيمان خير. فها هو ذا يجلب النفع، ويدر الضرع، وينمي الزرع، ويربح التجارة، ويكفل الرواج «وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة»... خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه، ولم يتماسك له، ولم يرجع إلى الله فيه. وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه، وانكفائه عن عقيدته، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسراً له.

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله «على حرف» غير متمكن من العقيدة، ولا متثبت في العبادة. يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى. ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب!

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة، ولكنه لا يصلح للعقيدة، فالعقيدة حق يُعتنق لذاته، بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقى. والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى، فهي لا تطلب جزاءها خارجاً عن ذاتها.

والمؤمن يعبد ربه شكراً له على هدايته إليه، وعلى اطمئنانه للقرب منه

والأنس به. فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة. استحقاقاً على الإيمان أو العبادة!

والمؤمن لا يجرب إلهه، فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء. وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشارٍ، إنما هي إسلام المخلوق للخالق، صاحب الأمر فيه، ومصدر وجوده من الأساس.

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب: «ذلك هو الخسران المبين».. يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى. إلى جوار خسارة المال أو الولد، أو الصحة، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده، ويبتلي بها ثقتهم فيه، وصبرهم على بلائه، وإخلاصهم أنفسهم له، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره.. ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان، فياله من خسران!)[١]. ا.هـ.

ولما كانت هذه الفتنة بهذه الخطورة وجب على العبد اتقاؤها والاعتصام بالله عز وجل في مواجهتها قبل وقوعها بكثرة ذكر الله - سبحانه - ومعرفته بأسمائه وصفاته وجلاله وكماله وأن لله - عز وجل - الحكمة البالغة فيما يقدره على عباده وأن ما يصيب المؤمن فهو خير له، إما في الدنيا وإما في الآخرة، كما يستعين على ذلك بالصبر وكثرة الصلاة والدعاء واللجوء إليه سبحانه. والاستعاذة به من شر النفس ونزغات الشيطان.

٢ ـ القلق على الأجل والرزق والخوف من المخلوق عليهما. ذلك حينما

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤١٢، ٢٤١٣ ط.الشروق.

يبتلى العبد في رزقه بالتضييق أو ما يهدد أمنه او أمن أهله من الأذى والسجن ونحوهما. فإذا بلغ هذا القلق إلى أن يخشى من المخلوق كخشيه الله - عز وجل -أو أشد فإن في هذا فتنة عظيمة للمبتلى؛ ذلك لأن المصيبة قد كشفت ما في القلب من ضعف التوكل على الله - عز وجل - والتعلق بالمخلوق خوفاً ورجاء.

ومن علامات هذه الفتنة: أن يترك المبتلى أموراً واجبة كان يقوم بها من عبادات أو دعوة أو غير ذلك ويظهر عليه كثير من التنازلات والمداهنات في ترك الحق أو قول الباطل وتزيينه. بل والوقوع في الشرك أحياناً - عياذاً بالله سبحانه -.

ومن علامات هذه الفتنة أيضاً: الوقوع في أمور محرمة شرعاً، كمن يدفع مصيبة المرض بأدوية محرمة أو أساليب محرمة كالذهاب إلى المشعوذين والسحرة.

وكمن يسعى لدفع وطأة الفقر والعوز إلى جمع المال من وجوه محرمة إما برشوة أو ربا أو بيوع محرمة أو إذلال النفس عند أهل الدنيا أو قبول الوظائف الخسيسة التي تخرم الدين والشرف والمروءة... إلى آخر الأمثلة التي تدل على السقوط في الابتلاء عافانا الله من ذلك. وعن السقوط في فتنة المخلوقين وتهديدهم وأذاهم وما ينتج عن ذلك من نكوص وانتكاس يقول الله - عز وجل -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١]، ويتحدث سيد قطب - رحمه الله - عن هذه الآية فيقول:

(ذلك النموذج من الناس، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل، هينة المؤونة، لا تكلف إلا نطقها باللسان « فإذا أوذي في الله » بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى « جعل فتنة الناس كعذاب الله » فاستقبلها في جزع، واختلت في نفسه القيم، واهتزت في ضميره العقيدة؛ وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه، حتى عذاب الله؛ وقال في نفسه: ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء، فعلامَ أصبر على الإيمان، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه.

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة:

« ولئن جاء نصر من ربك ليقولن: إنا كنا معكم »!

إنا كنا معكم.. وذلك كان موقفهم في ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوي، وسوء التصوير وخطأ التقدير. ولكن حين يجيء الرخاء تنبت الدعوى العريضة، وينتفش المنزوون المتخاذلون، ويستأسد الضعفاء المهزومون، فيقولون: « إنا كنا معكم »!

« أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين؟ ».

أو ليس يعلم ما تنطوي عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق؟ فمن الذي يخدعه هؤلاء، وعلى من يموهون؟

« وليعلمن الله الذي آمنوا وليعلمن المنافقين »..

وليكشفنهم فيُعرفون؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون.

ونقف لحظة أمام التعبير القرآني الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ في هذا النموذج من الناس حين يقول: «جعل فتنة الناس كعذاب الله»..

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين في بعض اللحظات - وللطاقة البشرية حدود - ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة في تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتنكيل، وبين عذاب الله العظيم؛ فلا يختلط في حسهم أبداً عالم الفناء الصغير وعالم الخلود الكبير، حتى في اللحظة التي يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة وجهد الاحتمال... إن الله في حس المؤمن لا يقوم له شيء، مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله.. وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان في القلوب والنفاق)[1]. ا.هـ.

٣ - ويقابل الصورة السابقة صورة أخرى من صور الفتنة أيام المصائب والمكاره ألا وهي عدم الصبر على ضبط النفس بضوابط الشرع وميزان الحق عندما يتعرض الفرد أو الطائفة للابتلاء والأذى والاعتداء، فيضعف الصبر عند أناس ولا يتحملون هذه الضغوط الشديدة فيتسرعون في رد الأذى والعدوان دون قدرة على ذلك أو أنهم يبغون في ردهم للبغي فينشأ من ذلك فتنة عليهم وقد تتعداهم إلى غيرهم. وهذا يعد من أشكال الفتنة بالمصائب والمكاره.

٤ - الفتنة بالكفار وما عندهم من التقدم في آلات الحرب وأشكالها المتطورة المدمرة، وبخاصة بعد دخولهم في المنطقة الإسلامية وما حققوا في حروبهم فيها من انتصارات على خصومهم كما هو الحاصل في حرب اليهود

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٢٤ ط. الشروق.

مع العرب سنة ٤٨م، ٦٧م، ٧٣م، وما تلا ذلك من التمكين لليهود وحلفائهم من الأمريكان والغرب عموماً، وما نتج عنه من هزيمة داخلية في جيوش المنطقة الإسلامية التي لم تتلق حظاً من فهم الإسلام والتربية في ضوء هداه؛ حتى قام في روع كثير من الأنظمة وجيوشها المهزومة والجهلة من المسلمين أن عدوهم من اليهود والنصارى لا يُهزم ولا جدوى في القتال معه وإخراجه من أراضي المسلمين ومقدساتهم؛ ولهذه الآراء الموهومة فلا بد من الاعتراف بوجوده والعدول عن لغة السلاح إلى لغة السلام ومن مجاهدته إلى معاهدته! ولو أن هؤلاء المهزومين فكروا في أسباب الخذلان والهزيمة وأنها سنة الله - عز وجل - التي لا تتبدل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، لكان خيراً لهم وأقوم.

أما أن تحصل الفتنة بالكفار وقوتهم وتُنسى قوة الله - عز وجل - وينسى واقع المسلمين وجيوشهم وما دبَّ فيهم من الفساد والانحلال وبالتالي تنهزم النفوس وتيأس القلوب وتمتلئ رعباً من الكفار وقوتهم فهذه عقوبة من الله عز وجل وفتنة للنفوس لا يرفعها إلا مراجعة أمر الله عز وجل وتحقيق أسباب نصره وتمكينه.

٥ - في المصائب التي تنشأ من الكوارث والجوائح التي يقدرها الله - عز وجل - على عباده كالزلازل والفيضانات والأعاصير وغيرها - فيها فتنة لبعض العباد الذين يعانون منها أو الذين يسمعون عنها وذلك عندما تربط هذه الحوادث بالطبيعة والتغيرات الفلكية البحتة، دون ربطها بقدر الله - عز وجل - وقهره وعلمه وحكمته، ودون ربطها بسنن الله - عز وجل - في الأحداث والغير كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ودون أن تحدث في النفوس خوفاً من الله

- عز وجل - وإنابة وتضرعاً. قال عز وجل: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] فإذا لم تنشأ هذه المعاني في النفوس فإن المصائب والكوارث تصبح فتنة لأهلها ومصيبة أكبر من الكارثة نفسها.

* * *

ثامناً: فتنة المسيح الدجال

ورد ذكر الدجال والتحذير من فتنته العظيمة في أحاديث كثيرة جمعها الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في كتابه النهاية، أقتصر منها على ما يلي:

● عن أنس رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب. ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور. وإن بين عينيه مكتوب: كافر»(١).

● عن عقبة بن عمرو قال لحذيفة - رضي الله عنه -: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: إني سمعته يقول «إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً فأما الذي يرى الناس أنها النار فماء بارد. وأما الذي يرى الناس أنه ماء بارد فنار تحرق. فمن أدرك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار؛ فإنه عذب بارد»(٢).

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال: «يأتي الدجال - وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة - بعض السباخ التي بالمدينة، فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس. فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت

---

(١) البخاري. ك. الفتن. باب ذكر الدجال (٧١٣١)، مسلم ك.الفتن (٢٩٣٣)

(٢) البخاري ك الأنبياء ـ باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٠)، مسلم. ك الفتن: (٢٩٣٤)

هذا ثم أحييته هل تشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسَلَّط عليه»[(١)].

● عن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - (في حديث طويل) أن الرسول ﷺ ذكر من وصف الدجال «... أنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف...»[(٢)].

وقال عنه أيضاً في هذا الحديث: «... ويأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له: فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت دراً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل... الحديث)[(٢)].

● عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - يحدث قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع بالدجال فَلْيَنْأَ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه بما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»[(٣)].

---

(١) البخاري. ك. الفتن، باب لايدخل الدجال المدينة (٧١٣٢)، مسلم. ك الفتن (٢٩٣٨)

(٢) مسلم. ك الفتن (٢٩٣٧).

(٣) أبو داود. كتاب الملاحم. باب خروج الدجال (٤٣١٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٢٩)

وبعد أن جمع الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - الأحاديث الواردة في ذكر الدجال وفتنته، ومنها الأحاديث المذكورة سابقاً وغيرها، قال معقباً على هذه الأحاديث:

(وقد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج، والجهمية، وبعض المعتزلة خروج الدجال بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه، فلم يضيفوا شيئاً، وخرجوا بذلك عن حيز العلماء، لردهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ، كما تقدم، وإنما أوردنا بعض ما ورد في هذا الباب، وإن كان فيه كفاية ومقنع والله المستعان.

والذي يظهر من الأحاديث المتقدمة: أن الدجال يمتحن الله به عباده، بما يخلقه معه من الخوارق المشاهدة في زمانه، كما تقدم أن من استجاب له يأمر السماء فتمطرهم، والأرض فتنبت لهم زرعاً تأكل منه أنعامهم، وأنفسهم، وترجع إليهم مواشيهم سماناً لُبْناً، ومن لا يستجيب له، ويردّ عليه أمره: تصيبهم السنة والجدب، والقحط، والقلة، وموت الأنعام، ونقص الأموال، والأنفس والثمرات، وأنه يتبعه كنوز كيعاسيب النحل، ويقتل ذلك الشاب، ثم يحييه، وهذا كله ليس بمخرقة، بل له حقيقة امتحن الله بها عباده، في آخر الزمان، فيضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، يكفر المرتابون، ويزداد الذين آمنوا إيماناً. وقد حمل القاضي عياض وغيره على هذا المعنى معنى الحديث: هو أهون على الله من ذلك، أي هو أقل أن يكون معه ما يضل به عباده المؤمنين؛ وما ذاك إلا لأنه ناقص، ظاهر النقص، والفجور، والظلم، وإن كان معه ما معه من الخوارق، فبين عينيه مكتوب: كافر، كتابة ظاهرة، وقد حقق ذلك الشارع في خبره بقوله:

ك ف ر، فقيل ذلك على أنه كتابة حسية، لا معنوية، كما يقوله بعض الناس، وعينه الواحدة عوراء، شنيعة المنظر، ناتئة، وهو معنى قوله: كأنها عنبة طافية على وجه الماء، ومن روى ذلك طافئة: لا ضوء فيها، وفي الحديث الآخر: كأنها نخامة على حائط مجصص، أي بشعة الشكل)[١] ا.هـ.

والحديث عن فتنة الدجال يستلزم معرفة ما يعصم من فتنته وشره، ومن ذلك:

١ ـ الاعتصام بالله – عز وجل – والاستعاذة به من فتنته حيث ثبت في أحاديث صحيحة أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من فتنة الدجال ويأمر بالتعوذ منه بعد التشهد الأخير كما جاء ذلك عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال»[٢].

٢ ـ الابتعاد عنه والهرب منه كما تقدم في حديث عمران بن حصين[٣] وذلك خوف الفتنة بما يبعث الله على يديه من الخوارق والشبهات.

٣ ـ سكنىٰ مكة والمدينة مع التخلي عن أسباب الكفر والنفاق لما جاء

---

(١) النهاية لابن كثير ص ١٢٠، ١٢١

(٢) مسلم كتاب المساجد (٥٨٨)

(٣) سبق الحديث ص ٢٨٧.

في حديث تميم الداري الطويل[١] من منع الدجال من دخولهما .

٤ ـ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف لقوله ﷺ : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »[٢]، ويدخل في ذلك قراءة فواتح سورة الكهف على الدجال عند رؤيته كما تقدم في حديث النواس بن سمعان: « من أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »[٣] .

٥ ـ معرفة أوصافه التي تحبط شبهاته وقد ثبت منها أنه أعور مكتوب بين عينيه (كافر) .

* * *

---

(١) أنظر تمام الحديث عند مسلم كتاب الفتن (٢٩٤٢)

(٢) مسلم كتاب : الصلاة (٨٠٩) .

(٣) سبق تخريجه ص : ٢٨٧ .

تاسعاً: فتنة الممات

● عن عائشة – رضي الله عنها – قال: كان رسول الله ﷺ يدعو في الصلاة يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم ومن المغرم»(١).

● وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال»(٢).

في هذين الحديثين مشروعية الدعاء والاستعاذة بالله عز وجل من هذه الشرور الأربعة؛ جاء ذلك مرة بصيغة الإخبار عنه ﷺ أنه كان يدعو في صلاته بهذا الدعاء كما في حديث عائشة – رضي الله عنها – ومرة بصيغة الأمر بهذا الدعاء بعد التشهد الآخر كما في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه –. والشاهد من هذين الحديثين ذِكْرُ فتنة المحيا والممات، والاستعاذة بالله – عز وجل – من شرهما.

وأحسب أن فتنة المحيا هي ما يتعرض له العبد في حياته من الفتن المتنوعة، وكل ما أوردته فيما سبق من أنواع الفتن داخل في ذلك.

---

(١) البخاري في الأذان (٨٣٢)، ومسلم، كتاب المساجد (٥٨٩)
(٢) مسلم، في المساجد (٥٨٨)

أما فتنة الممات فقد جاء في بيانها ما نقله الإمام ابن حجر – رحمه الله تعالى – عن ابن دقيق العيد في قوله :

(فتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات، وأعظمها – والعياذ بالله – أمر الخاتمة عند الموت. وفتنة الممات يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر، وقد صح – يعني في حديث أسماء الآتي في الجنائز –: «إنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال»[١] ولا يكون مع هذا الوجه متكرراً مع قوله: «عذاب القبر» لأن العذاب مرتب عن الفتنة والسبب غير المسبب. وقيل أراد بفتنة المحيا الابتلاء مع زوال الصبر، وبفتنة الممات السؤال في القبر مع الحيرة، وهذا من العام بعد الخاص؛ لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا)[٢].

وفي هذا البيان لفتنة الممات يظهر لنا أنها تكمن في صورتين خطيرتين هما :

الصورة الأولى: الفتنة التي تحصل للميت ساعة الاحتضار، وما يحصل حينها من هول المطلع، وتسلط الشيطان على العبد؛ لأنها فرصته الأخيرة، فقد يحول بينه وبين التوبة، وقد يثير الوساوس والشكوك والتسخط وغير ذلك مما يكون له الأثر في سوء الخاتمة – أعاذنا الله من ذلك – ولكن الله – عز وجل – يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة

---

(١) البخاري في العلم (٨٦)، وهو مختصر جداً في الجنائز (١٣٧٣).

(١) فتح الباري ٢ / ٣٧١.

الدنيا وفي الآخرة. ولقد كان خوف السلف مع إيمانهم وطاعتهم شديداً من ساعة الاحتضار وما فيها من تقلُّب القلوب والأبصار، وكانوا يشفقون من سوء الخاتمة، ويحرصون على التلفظ بكلمة التوحيد وتلقينها موتاهم عند الاحتضار؛ لأنها من علامات حسن الخاتمة؛ وقد قال ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[١]، ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الغرق والحرق والهدم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»[٢].

قال عبد الله ابن الإمام أحمد - رحمهما الله تعالى -:

لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحيته فجعل يعرق، ثم يفيق ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا: لا بعدُ، لا بعدُ، لا بعدُ - ثلاث مرات - ففعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبت أي شيء هذا؟ قد لهجت به في هذا الوقت تعرق حتى نقول: قد قضيت، ثم تعود فتقول: لا لا بعدُ، فقال لي: يا بني! ما تدري؟ فقلت: لا، فقال: إبليس - لعنه الله - قائم حذائي عاضٌّ على أنامله يقول لي: فُتَّني يا أحمد؟! وأنا أقول له: لا، بعدُ، حتى أموت[٣].

● ومن هول المطلع ما يحصل للعبد من حسرة عظيمة عند تذكره لذنوبه وزلاته وظلمه وإضلاله لعباد الله مما أسلف في حياته ولا يدري ما الله فاعل بها.

● ومن هول المطلع ساعة الاحتضار ما يحصل للعبد المحتضَر من شدة

---

(١) مسلم حديث (٩١٦) كتاب الجنائز، أبو داود باب (١٦) من كتاب الجنائز (٣١١٧).

(٢) أبو داود (١٥٥٢) في كتاب الصلاة، والنسائي ٨/٢٨٢ في الاستعاذة. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٧٣).

(٣) مختصر مناقب الإمام أحمد ص: ٢٥٥.

وكرب وهو يعاني من سكرات الموت، ويكفي في تصوير شدتها ما حصل لسيد الأنبياء وأفضل البشر محمد ﷺ حيث كان يقول عندما يشتد عليه الكرب: «إن للموت سكرات»[١].

● ومن هول المطلع ساعة الاحتضار: رؤيةُ ملائكة الرحمة أو العذاب والمقعد من الجنة أو النار؛ وانتظار هذا المشهد الفظيع من أشد ما يتعرض له المحتضر؛ حيث لا يدري: أتشهده ملائكة الرحمة، أم العذاب، أم أنه يرى مقعده من الجنة أو النار؟ وحقيق بمن لا يعلم عن هذا المصير شيئاً أن يقلق أشد القلق ويخاف أشد الخوف من هذه الخاتمة نسأله سبحانه اللطف والعافية وحسن الخاتمة.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ويقول سبحانه عن الظالمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وعن عنبسة بن أبي سفيان أنه لما حضرته الوفاة جزع، فقيل له: ما يُجزِعك! ألم تكن على سَمْتٍ من الإسلام حَسَن؟ قال: وما لي لا أجزع، ولستُ أدري على ما أقدم عليه، مع أن أرجى عملي عندي حديثٌ حدثتني به أم حبيبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها، حرَّمه الله على النار؛ فوالله ما

---

(١) البخاري، كتاب الرقائق (٦٠١٠).

تركتهن منذ سمعتهن إلى يومي هذا»[١].

وقد نَقَلَ الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - كلاماً نفيساً عن الخاتمة وعلامات حسنها وسوئها للحافظ عبد الحق الأشبيلي قال فيه:

(قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي - رحمه الله -:

«واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله - عز وجل -؛ وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد؛ وإن كرر عليه الداعي وأعاد..

.. ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا. وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت. فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتُضِرَ جعل يُغمى عليه

---

(١) شرح السنة للبغوي (٤٦٤).

ثم يفيق ويقرأ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب: أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقد أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله[١] .ا.هـ.

وفي قوله: «واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد»: عبرة عظيمة فإن الله عز وجل أرحم وأكرم وأعدل من أن يختم لعبدٍ هذه حاله في حياته بخاتمة سوء، وإنما سوء الخاتمة لمن انطوى قلبه على مرض شبهه أو شهوة تمكنت منه ولم يقلع عنها وقد لا تظهر للناس لكنها والعياذ بالله تظهر عند الخاتمة، فحري بالعبد ما دام في زمن المهلة والتوبة أن يفتش في باطنه وظاهره ويصلحهما قبل أن يحال بينه وبين ما يشتهي؛ فتكون النهاية البائسة.

---

(١) الجواب الكافي ص (٢٢٦ – ٢٢٨) باختصار

الصورة الثانية من فتنة الممات:

ما يحصل للميت بعد دفنه في قبره من سؤال الملكين له عن ربه ودينه ونبيه فلا يجيب على هذا الامتحان إلا من ثبته الله - عز وجل - وألهمه رشده في الدنيا ووفقه للإجابة المقبولة، فتحصل له النجاة من هذه الفتنة التي ينجيه الله - عز وجل - بعدها من عذاب القبر وشدته، أما من احتار في جوابه وغاب عنه صوابه؛ فتحصل له الفتنة العظيمة التي يعقبها عذاب القبر وسخط الله - عز وجل -.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في ذكر هذه الفتنة وشدتها من ذلك ما رواه البراء بن عازب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إذا أُقْعِدَ المؤمن في قبره أُتِيَ، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾»[1] [إبراهيم: ٢٧].

● وما رواه أيضاً البراء بن عازب - رضي الله عنه - في الحديث الطويل في ذكر أحوال الناس عند الموت وفي قبورهم ومن ذلك قول الرسول ﷺ عن العبد المؤمن:

« ... فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة وألبسوه من

---

(١) البخاري ٢/١٢٢، مسلم ٨/١٦٢، أبو داود (٤٧٥٠)

الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره،...»(١) إلى أن قال ﷺ عن الكافر:

«.. فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمُومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه...»(٢).

وهنا ينبغي أن نعلم بأن النجاة من هذه الفتنة والنطق بالجواب الصحيح فيها لا يكون إلا لمن قالها في حياته عالماً بمعناها منقاداً لمقتضاها، وإلا فما قيمة أن يقول العبد في حياته: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً؛ ثم لا يحقق مدلول هذه الكلمات في مواقفه وأعماله أو قد يأتي بما يناقضها؟ إن من هذه حاله لا يُسدَّد ولا يثبت في قبره عند السؤال، ولو كان من أحفظ الناس لها في الدنيا لأن العبرة في النجاة من هذه الفتنة عند سؤال الملكين في القبر إنما يكون بما وقر في القلب من معنى هذه الأصول الثلاثة العظيمة: محبة وإخلاصاً وانقياداً وتصديقاً وقبولاً وعملاً. ويشرح الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – هذه الأصول الثلاثة موضحاً أن سورة الأنعام قد اشتملت على ذكرها كلها فيقول:

(الرضى بالله رباً: أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره.

---

(١) أحمد ٤/٢٨٧، ٢٨٨، ابن ماجه (١٥٤٩)، أبو داود (٣٢١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٧٧).

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما «سيدا وإلهاً» يعني فكيف أطلب رباً غيره وهو رب كل شيء. وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبوداً وناصراً وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً. وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيت الحديث[١] يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً بل يوالي من دونه أولياء ظناً منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته؛ فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون،

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً و بالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤)

ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه. فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكماً، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أصل التوحيد أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً»[1].ا.هـ.

ولمزيد من العلم بهذه الأصول الثلاثة يحسن الرجوع إلى (شرح الأصول الثلاثة) للإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى -.

* * *

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٨١، ١٨٢.

المبحث الرابع

سبل الفرار من الفتن ومنارات النجاة منها

قال الرسول ﷺ: «إن السعيد لمن جنب الفتن - قالها ثلاثاً - ولمن ابتلي فصبر فواهاً»(١).

وبعد أن تبين لنا في المباحث السابقة خطورة الفتن وكثرة أشكالها وتعدد صورها وضرورة الحذر منها والفرار من شرورها، صار حتماً لمن أراد لنفسه النجاة منها أن يسعى جاهداً في اتخاذ الأسباب الواقية منها والاهتداء بمنارات النجاة التي جاءت في كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ، ومواقف سلف الأمة الذين استناروا فيها بهذه المنارات المنجية فنجاهم الله بها وسلمهم بها من غوائل الفتن. والفرار من الفتن يعني دفعها قبل وقوعها، والسلامة منها بعد وقوعها، والتوبة منها بعد التلوث بها.

فما هي أهم الأسباب المنجية من الفتن بإذن الله تعالى:

قد مر بنا في مبحث أسباب الوقوع في الفتن وشرورها أنها ترجع إلى سببين كبيرين:

١ - طريق الشبهات.

٢ - طريق الشهوات.

---

(١) أبو داود (٤٢٦٣) في الفتن باب النهي عن السعي في الفتنة، وقال الأرناؤوط: وإسناده صحيح، جامع الأصول ١٠/ ١٨.

وسبق في ذلك المبحث شرحهما. أما أساب النجاة من غوائل الفتن فإنها أيضاً ترجع إلى سببين كبيرين هما:

١ ـ سد باب الشبهات: بالعلم واليقين والبصيرة في الدين ومعرفة الحق بدليله، والإعراض عن الشبهات.

٢ ـ سد باب الشهوات: بالصبر والمجاهدة، ولزوم الحق والانقياد له، ودفع كل ما يحول بين الحق وبين اتباعه.

وتحت كل سبب من هذين السببين عدة وسائل ومنارات تساعد في تحقيقه واكتماله؛ وهذا ما سأفصله في هذا المبحث إن شاء الله – تعالى –. وسأذكرها في صورة منارات متفرقة بعضها يساعد في سد باب الشبهات وبعضها في سد باب الشهوات، مع أنه قد سبق في معرض الحديث عن أنواع الفتن ومظاهرها ذكر شيء من وسائل النجاة منها. لكنه كان على وجه الاختصار، أما في هذا المبحث فسيكون التفصيل إن شاء الله تعالى، ومن هذه المنارات ما يلي:

المنارة الأولى: اللجوء إلى الله – عز وجل – ودعائه والاعتصام به

قال الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال – سبحانه – عن نبيه نوح عليه السلام مع ابنه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. وأخبر – عز وجل – عن دعاء نبيه موسى – عليه السلام – بعدما أخذت قومه الصاعقة: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا

فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، والمقصود أن لا يغفل العبد عن هذا الباب من أبواب العصمة والنجاة من الفتن حيث لا يملك التثبيت إلا الله عز وجل ولا يعصم من شرور الفتن؛ إلا هو. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

(وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا: فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه؛ فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه؛ فتفقد في حقه أسباب العطب، فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه)[١].

والمتأمل للأدعية الواردة في الكتاب والسنة يرى فيها معاني التوحيد سواء ما تتعلق بتوحيد الألوهية أو الربوبية، أو الأسماء والصفات، والتوسل إلى الله – عز وجل بها – وكلما امتلأ القلب من توحيد الله – عز وجل – والإيمان به وصدق التوكل عليه واللجوء إليه كلما كان للأدعية ونطقها باللسان أثرها العظيم في عصمة الله – عز وجل – لعبده الداعي، ووقايته له من الفتن وشرورها وبقدر ما يكون في القلب من توحيد الله – عز وجل – يكون الأمن من المخاوف والشرور والفتن، والعكس من ذلك فيما لو تلوَّث القلب بشوائب الشرك والنفاق؛ فإن المخاوف والشرور والفتن تحيط

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٦٤.

بصاحب هذا القلب، ويفقد بذلك الأمن والاطمئنان.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

(والخوف دائماً مع الشرك، والأمن دائماً مع التوحيد. قال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم أنه قال في محاجته لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] فحكم الله - عز وجل - بين الفريقين بحكم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وقد صح عن رسول الله ﷺ تفسير الظلم فيها بالشرك وقال ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][(١)]. فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف، والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف؛ ولذلك من خاف شيئاً غير الله سُلِّطَ عليه وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه. وكذلك من رجا شيئاً غير الله حُرِمَ ما رجاه منه وكان رجاؤه غيرَ الله من أقوى أسباب حرمانه؛ فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه أقوى أسباب الفوز بما رجاه أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه، والله الموفق للصواب)[(٢)].

إذن فالإيمان الصادق والتوحيد الخالص وصدق التوجه إلى الله - عز وجل - وإخلاص الدعاء له بتفويض الأمور إليه: كل ذلك يثمر للعبد

---

(١) البخاري في الأنبياء (٣٤٢٩)، ومسلم في الإيمان (١٢٤).

(٢) مفتاح دار السعادة ص ٥٩٦.

طمأنينة وحياة طيبة سليمة من الفتن وشرورها، وسليمة من المخاوف والحيرة والاضطراب؛ فكان لزاماً على من أراد لنفسه النجاة والفكاك أن يلجأ إلى ربه - عز وجل - ويحسن الظن به - سبحانه - وأن يكثر من التضرع والدعاء في أوقات الإجابة وأماكنها ويسأل ربه سبحانه الوقاية من الفتن والثبات على الحق، والاستعاذة من شر الفتن ما ظهر منها وما بطن. فهذا باب عظيم من أبواب التوفيق، ومنارة مضيئة من منارات النجاة والسلامة من الفتن وغوائلها.

وقد جاء في السنة المطهرة الكثير من التوجيهات النبوية الكريمة لهذه الأمة في الاستعاذة من الفتن وشرورها سواء كان بأمره ﷺ أو بفعله ودعائه؛ وفيما يلي ذكر شيء من هذه التوجيهات والتعوذات لعلها تكون هجيرانا ولهجنا، وملجأنا:

● عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: حدثنا زيد بن ثابت عن رسول الله ﷺ قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن! قلنا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[١].

● وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[٢].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٣٥ وقال المباركفوري في تخريج (السنن الواردة في الفتن): إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٢/ ٣١٧ فتح). مسلم. كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٣ (١٣٤).

وفي شرح هذا الحديث قال ابن دقيق العيد: (فتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات؛ وأعظمها - والعياذ بالله - أمر الخاتمة عند الموت. وفتنة الممات يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر.. ولا يكون مع هذا الوجه متكرراً مع قوله: «عذاب القبر» لأن العذاب مرتب عن الفتنة، والسبب غير المسبب، وقيل: أراد بفتنة المحيا الابتلاء مع زوال الصبر، وبفتنة الممات السؤال في القبر مع الحيرة، وهذا من العام بعد الخاص؛ لأن عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدجال داخلة تحت فتنة المحيا.

وقال ابن بطال: هذه كلمة جامعة لمعان كثيرة، وينبغي للمرء أن يرغب إلى ربه في دفع مانزل ودفع ما لم ينزل، ويستشعر الافتقار إلى ربه في جميع ذلك.

ثم أشار إلى سبب دعائه ﷺ بما ذكر مع أنه معصوم ومغفور له، فقال: وكان ﷺ، يتعوذ من جميع ما ذكر دفعاً عن أمته وتشريعاً لهم ليعيِّن لهم صفة المهم من الأدعية. نقله عنه الحافظ ابن حجر، وذكرت في ذلك أقوال أخرى)[١].

● قوله ﷺ في دعائه الطويل: «... وأسالك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»[٢].

---

(١) انظر تحقيق المباركفوري لكتاب (السنن الواردة في الفتن للداني) ١/٣٠٤ عن فتح الباري (٢/٣٧١).

(٢) النسائي ٣/٥٤ - ٥٥ وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٢٢٧).

● وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «عائذ بالله من شرور الفتن»[١].

● وعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة - يعني في المنام - إلى أن قال: يا محمد إذا صليت فقل: (اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)»[٢].

● وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة – رضي الله عنها –: بِمَ كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة من الليل؟ فقالت: كان يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق. بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٣].

● وعن ابن أبي مليكة قال: قالت أسماء – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ قال: «أنا على حوضي، أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني. فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى»، قال ابن أبي مليكة: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن[٤].

● وعن عقبة بن عامر قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني

---

(١) البخاري. كتاب الفتن (٧٠٩١).

(٢) الترمذي كتاب التفسير (٣٢٣١) وهو في صحيح الترمذي (٢٥٨٠).

(٣) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠) ١/ ٥٣٤.

(٤) البخاري كتاب الفتن (٧٠٤٨).

أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة»(١).

● وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق)(٢).

● عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: (بينا رجل بمصر في بستان زمنَ فتنة آل الزبير، جالساً كئيباً حزيناً يبكي ينكث في الأرض بشيء معه، فرفع رأسه فإذا صاحب مسحاة قد مثل له، فقال: ما لي أراك مهموماً حزيناً؟ فكأنه ازدراه، فقال: لا شيء، فقال: أبالدنيا؟ فإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة أجل صادق، يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحق والباطل، حتى ذكر أن لها مفاصل كمفاصل اللحم من أخطأ منها شيئاً أخطأ الحق، وسل: من ذا الذي سأل الله فلم يعطه، أو دعا الله فلم يجبه، أو توكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ قال: فعلقت الدعاء فقلت: اللهم سلمني وسلم مني. قال: فتجلت الفتنة ولم تصب منه شيئاً)(٣).

● قال صالح بن أحمد بن حنبل - رحمهما الله تعالى -: كان أبي إذا دعا له رجل يقول: الأعمال بخواتيمها. وكنت أسمعه كثيراً يقول: اللهم! سَلِّمْ سَلِّمْ(٤).

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٤٥٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) مستدرك الحاكم ١ /٥٠٧. والبيهقي في الشعب (١١١٤).

(٣) حلية الأولياء ٤ / ٢٤٤ ط. دار الكتاب العربي.

(٤) مختصر مناقب الإمام أحمد ص ١٦٣.

المنارة الثانية: العلم بالشرع والفقه في الدين

يتحدث شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – عن دور الجهل في وقوع الفتن فيقول: (... لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه؛ فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن هنا يقع الشرك وتفريق الدين كالفتن التي تحدث السيف)[١]. ا.هـ.

إذن: لما كان الجهل بالشرع ومقاصده أحد الأسباب الكبيرة التي تؤدي إلى الفتن وغوائلها؛ فإن الفقه في الدين وتجريد اتباع الرسول ﷺ هما الواقيان بإذن الله – تعالى – من شر الفتن قبل وقوعها، كما أنهما الدواءان والعلاجان للفتن بعد وقوعها، كل ذلك على افتراض الإخلاص ونبذ الهوى؛ لأن دور العلم هو كشف الشبهات وبيان الغي من الرشد والحق من الباطل.

فإذا لم يصاحب العلم إخلاص وتقوى يدفع بهما الهوى لم يكن للعلم فائدة؛ لأن الحق قد يتضح لصاحبه فيتنكبه متعمداً؛ وذلك لهوى وشهوة في النفس. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى –: (إذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين، بهما سعادته وفلاحه وكماله وهما الهدى والرحمة. قال تعالى عن موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٠٧.

مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، جمع له بين الرحمة والعلم)[١].

والمقصود هنا بالعلم: هو العلم بدين الله - عز وجل - وحدوده وأحكامه كما جاءت في كتاب الله - عز وجل - وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة بفهم السلف الصالح أهل القرون الأولى المفضلة؛ وليس علم المبتدعة المناطقة الفلاسفة المحكمة لآرائهم وعقولهم.

ويفصل الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في جوانب العلم الشرعي المطلوب معرفتها فيقول:

(... فطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم؟ وهل ينال العلم إلا بطلبه؟ ثم إن العلم المفروض تعلُّمه ضربان: ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله، وهو أنواع:

النوع الأول: علم أصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن. قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٣٦]. ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر»، قال: صدقت. فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/١٦٨)، وانظر المرجع نفسه ١/١٦٥ لمعرفة أثر العلم في النجاة من فتنة الشبهات.

النوع الثاني: علم شرائع الإسلام، واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها: كعلم الوضوء، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوع الثالث: علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط؛ ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام؛ فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق.

النوع الرابع: علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته، وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس في أسباب العلم الواجب، وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول: اعتقاد وفعل وترك. فالواجب في الاعتقاد مطابقته للحق في نفسه، والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة، والواجب في الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضاة الله وأن المطلوب

منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب؛ فلا يتحرك في طلب أو كف النفس عن فعله على الطريقتين. وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان.

وأما فرض الكفاية: فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها، وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناه على عدم صحة إيمان المقلد. وكل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله؛ فيا سبحان الله! هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيباً حجاماً حاسباً مهندساً، أو حائكاً أو فلاحاً أو نجاراً أو خياطاً؛ فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض.

ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم؛ فإنه ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسباً حائكاً خياطاً نجاراً فالحاً طبيباً مهندساً، فإن قال: المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحاً؛ لأن فرض الكفاية يجب على العموم.

وأما المنطق: فلو كان علماً صحيحاً كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها؛ فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها الذهن أن يزيغ في فكره؟

ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح)[١].ا.هـ.

والعلم الذي ينفع صاحبه ويقيه الله به غوائل الفتن ليس بكثرة الرواية والحفظ فحسب وإنما هو الفقه بالأدلة ومقاصد الشريعة ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، والتريُّث في الحكم على الشيء حتى يتم تصوره من جميع جوانبه..

● قال ابن عيينة: قال عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن هو الذي يعرف خير الشرين[٢].

ولقد كان السلف - رحمهم الله تعالى - يوصون طلابهم بطلب العلم ويرون فيه عصمة من الفتن وإزالة للشبهات وطرداً لوساوس الشيطان.

● ذكر ابن عبد البر في كتاب «العلم» له: قال ابن وهب: كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، فولع بي الشيطان في ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام، كيف خلقه الله تعالى؟ ونحو هذا، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي: ابن وهب! قلت: نعم. قال: اطلب العلم! فكان سبب طلبي العلم[٣].

● وقال علي بن محمد بن أبان القاضي: حدثنا أبو يحيى زكريا الساجي، حدثنا المزني، قال: قلت: إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرت إليه، وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة

(١) مفتاح دار السعادة: ص ١٦١، ١٦٢
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٧٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٢٤.

التوحيد، فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون. أبلغَكَ أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجماً في السماء؟ قلت: لا قال: فكوكب منها: تعرف جنسه، طلوعه، وأفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألة في الوضوء، فأخطأت فيها، ففرَّعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات، تدع علمه، وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى الله، وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤] فاستدلَّ بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلفْ علم ما لم يبلغه عقلك. قال: فتُبتُ[١].

والعلم بالشرع هو الذي يورث الميزان الصحيح الذي توزن به الرايات، والطوائف، وتحدد المواقف منها ولاءً أو براءً. والمراد بهذا الميزان ميزان أهل السنة والجماعة الذي هو الحق والوسط بين الغلو والجفاء. والذي من وزن به عدل وأصاب.

ومن الفقه في الدين والعلم بمقاصد الشرع تقدير ما يقال وما لا يقال للناس حسب عقولهم وأحوالهم والنوازل التي تحيط بهم؛ لأن في تجاهل هذه الأمور فتنة للناس، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في مبحث الفتنة بالعلم[٢] وحول هذا المعنى يقول الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: (إن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٣١.

(٢) انظر ص ٢٦٢ - ٢٦٤.

للقول والعمل في الفتن ضوابط؛ فليس كل مقال يبدو لك حسناً تظهره، وليس كل فعل يبدو لك حسناً تفعله؛ لأن الفتنة قولك فيها يترتب عليه أشياء، ولأن الفتنة عملك فيها يترتب عليه أشياء... والمقصود من هذا: أنه في الفتن ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال يقال في كل الأحوال. لا بد من ضبط للأقوال؛ لأنك لا تدري ما الذي سيحدثه رأيك؟ وما الذي سيحدثه فهمك. والسلف رحمهم الله أحبوا السلامة في الفتن، فسكتوا عن أشياء كثيرة، طلباً للسلامة في دينهم، وأن يلقوا الله جل وعلا سالمين)(1) .ا.هـ.

المنارة الثالثة: الرفق والحلم والأناة

إن من أخطر الأمور على المسلم أيام الفتن عجلته وتسرعه وتركه الرفق والأناة والتؤدة، فكم من الذين تورطوا في الفتن أياً كان نوع هذه الفتن قد أقروا بندمهم على تسرعهم وتعجلهم في أمر كان لهم فيه أناة، ولكن حين لا ينفع الندم في بعضها.

وقد ذم الله عز وجل العجلة في القرآن في أكثر من موطن، منها قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] وقد مدح الرسول ﷺ أشج عبد القيس بقوله: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»(2).

ومدح ﷺ التؤدة والأناة بقوله: «التؤدة في كل شيء [خير] إلا في

---

(١) الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن ص ٣٨، ٤١ (باختصار)

(٢) مسلم في الإيمان (١٨).

عمل الآخرة »[١] . وقال عليه الصلاة والسلام: « ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه »[٢] .

وإذا كان الحلم والأناة والرفق صفات محمودة في كل آن وحال فإنها في أيام الفتن واضطراب الأحوال تكون محمودة بشكل أكبر والحاجة إليها تكون أشد .

● فعن الزهري عن رجل من بلي قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فانتجاه دوني، فقلت: يا أبة أي شيء قال لك رسول الله ﷺ ؟ قال: «إذا هممت بأمر فعليك بالتؤدة حتى يأتيك الله بالمخرج من أمرك »[٣] .

● وهذا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يصف لنا حال التأني أيام الفتن وحال المتعجل فيها، وما يؤول إليه أمر كل منهما، فعن عبد الله ابن عبيد بن عمير عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: إنما مثلنا في هذه الفتنة كمثل قوم يسيرون على جادة يعرفونها، فبينا هم كذلك . إذ غشيتهم سحابة وظلمة، فأخذ بعضهم يميناً وشمالاً، فأخطأ الطريق، وأقمنا حيث أدركنا ذلك، حتى جلا الله ذلك عنا، فأبصرنا طريقنا الأول، فعرفناه، فأخذنا فيه . إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون على هذا السلطان وعلى هذه الدنيا، ما أبالي أن لا يكون لي ما يقتل عليه بعضهم بعضاً بنعلي هاتين الجرداوين[٤] .

---

(١) أبو داود . كتاب الأدب (٤٨١٠) وصححه الألباني في السلسلة (١٧٩٤) .

(٢) مسلم في البر (٢٥٩٤) .

(٣) المطالب العالية ٣ / ٣٦ وقال البوصيري: رواته ثقات .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٣٧ .

• ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث الليث بن سعد عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذاك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّة بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك(١).

وفي تفسير عمرو بن العاص رضي الله عنه في كون الروم أكثر الناس عند قيام الساعة وذلك بتحليهم بصفات منها أنهم أحلم الناس عند فتنة دليل على أن الرفق والحلم أيام الفتن مما يجنب به الناس الشرور وهلاك الأنفس والأموال والذي هو من شأن الفتن إذا اشتعلت، ونحن المسلمين أوْلى من النصارى بهذه الصفات؛ لأن في ديننا ما يحثنا عليها ويمدح المتصفين بها؛ كما أن في سيرة سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - نماذج مضيئة للالتزام بهذه الصفات.

• ولعل من هذا الباب كراهية السلف التعجل في إفتاء الناس، أو إفتائهم في قضايا لم تقع بعدُ؛ لأن الواقعة تختلف في وصفها قبل الوقوع عنها بعد الوقوع، وقد يكون فيها من الملابسات والأحوال ما لا يظهر إلا بعد الوقوع. وهذا مما يعين المفتي على تصور الواقعة من جميع جوانبها وبالتالي الوصول فيها إلى الحق بإذن الله تعالى، والشواهد التالية تؤكد ذلك:

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن. باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس (٢٨٩٨).

● عن عامر الشعبي قال: سئل عمار - رضي الله عنه - عن مسألة فقال: كان هذا بعدُ؟ قالوا: لا، قال: دعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمنا، لك»[١].

وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - رفعه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها؛ فإنكم إن لم تفعلوا لم ينفك المسلمون أن يكون منهم من إذا قال وفق - أو قال: سدد - وإنكم إن استعجلتم بالبلية قبل نزولها ذهب بكم السبل هاهنا، وهاهنا»[٢].

وإن مما يعين على التؤدة والأناة كثرة المشاورة لأهل العلم والعقل والتجربة وعدم الانفراد بالرأي في اتخاذ المواقف وأخذ القرارات وبخاصة أيام الفتن واختلاف الآراء، واضطراب الأمور. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»[٣].

وقال مطرف بن الشخير: «من استفتح باب الرأي من وجهه وأتاه من طريقه ضمنت له النجح وتحملت عنه الخطأ، قيل: ما وجهه وأين طريقه؟ قال يبدأ بالاستخارة ثم الاستشارة، ولا يشاور إلا عارفاً حدباً عليه»[٣].

وقال عبد الله بن المعتز: (من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً)[٤].

---

(١) المطالب العالية ٣/١٠٦ وقال المحقق: رواه الدارمي عن إسحاق ص ٢٩. وفي المسندة: هذا موقوف رجاله ثقات وهو صحيح إن كان الشعبي سمع من عمار.

(٢) المطالب العالية ٣/١٠٦ وقال البوصيري: رواه إسحاق بإسناد حسن، لابن أبي شيبة.

(٣) الفقيه والمتفقه ٢/٣٩٣.

(٤) الترمذي (٢٥١٨).

ومما يدخل في العجلة أيام الفتن ما ذكره الشيخ صالح آل الشيخ – حفظه الله – في ضوابط الفتن؛ حيث قال:

(أن لا تطبق – أيها المسلم – أحاديث الفتن على الواقع الذي تعيش فيه؛ فإنه يحلو للناس عند ظهور الفتن مراجعة أحاديث النبي ﷺ في الفتن، ويكثر في مجالسهم: قال النبي ﷺ كذا؛ هذا وقتها، هذه هي الفتنة! ونحو ذلك.

والسلف علمونا أن أحاديث الفتن لا تُنزَّل على واقع حاضر، وإنما يظهر صدق النبي ﷺ بما أخبر به من حدوث الفتن بعد حدوثها وانقضائها، مع الحذر من الفتن جميعاً.

فمثلاً: بعضهم فسَّر قول النبي ﷺ: «إن الفتنة في آخر الزمان تكون من تحت رجل من أهل بيتي»؛ بأنه فلان ابن فلان، أو أن قول النبي ﷺ: «حتى يصطلح الناس علي رجل كورك على ضلع»؛ بأن المقصود به فلان ابن فلان، أو أن قول النبي ﷺ: «يكون بينكم وبين الروم صلح آمن ..» إلى آخر الحديث، وما يحصل بعد ذلك؛ أنه في هذا الوقت.

وهذا التطبيق لأحاديث الفتن على الواقع، وبث ذلك في المسلمين، ليس من منهج أهل السنة والجماعة.

وإنما أهل السنة والجماعة يذكرون الفتن وأحاديث الفتن؛ محذِّرين منها، مباعدين للمسلمين عن غشيانها أو عن القرب منها؛ لأجل أن لا يحصل بالمسلمين فتنة، ولأجل أن يعتقدوا صحة ما أخبر به النبي ﷺ (١).

---

(١) الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن ص ٥٢.

المنارة الرابعة: لزوم التقوى والعمل الصالح

العمل الصالح ثمرة التقوى التي هي القيام بما أمر الله - عز وجل - وترك ما نهى عنه بشرط الإخلاص لله تعالى والمتابعة في كل ذلك لما جاء به الرسول ﷺ. وقد بين الله - عز وجل - في كتابه الكريم أثر التقوى في تيسير الأمور والخروج من الأزمات والمضايق فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

[الأنفال: ٢٩]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

[الطلاق: ٤]

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «.. احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك... الحديث»[١].

ولا شك أن للعمل الصالح وكثرة العبادة والصلة بالله - عز وجل - وكثرة ذكره واستغفاره أثراً عظيماً في الوقاية من الفتن قبل وقوعها والنجاة

---

(١) الترمذي (٢٥١٨).

منها بعد نزولها لأن أيام الفتن أيام شغل وذهول، فمن كان له رصيد من الأعمال الصالحة قبل ذلك فإنه حري بالنجاة من الفتن إذا وقعت. ويشهد لذلك ما ذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، قال الشيخ السعدي – رحمه الله تعالى –: «فلولا أنه كان من المسبحين» أي في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوت[١]. ومن ذلك قوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٢].

ويعلق ضياء الدين المباركفوري على هذا الحديث فيقول:

(وأما معنى مبادرة الفتن بالأعمال فذكر ابن الأثير أنه الانكماش والإسراع إلى الأعمال الصالحة والاهتمام بها قبل وقوعها، وذكر النووي عند شرحه للحديث أن فيه الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، ووصف ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسي مؤمناً، ثم يصبح كافراً أو عكسه، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب.

---

(١) تفسير السعدي ٤ / ٢٧٢.

(٢) مسلم كتاب الإيمان (١١٨)

وأما كون الرجل يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً أو عكسه فذكر المباركفوري أن ذلك إما يكون حقيقة، وإما يكون مجازاً، وعلى الثاني يكون المعنى كافراً للنعمة أو مشابهاً للكفرة، أو عاملاً عمل الكافر، وقيل: إن معناه أنه يصبح محرماً لما حرمه الله ثم يمسي مستحلاً إياه وبالعكس، وقد روي عن الحسن البصري أنه قال: يصبح محرماً لدم أخيه وعرضه وماله، ويمسي مستحلاً له، ويمسي مستحلاً لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح محرماً له)[١] .ا.هـ.

ومن الآثار الواردة أيضاً في فضل العمل الصالح والعبادة زمن الفتن ما رواه معقل بن يسار – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: « العبادة في الهرج كهجرة إليّ »[٢] وفي رواية عند الإمام أحمد – رحمه الله تعالى –: « العمل في الهرج والفتنة كالهجرة إليّ »[٣].

قال الحافظ ابن رجب – رحمه الله تعالى –: (وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهلية فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربه ويتبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه)[٤] .ا.هـ.

---

(١) انظر النهاية (٢ / ٣٧) وشرح النووي (٢ / ١٣٣) وتحفة الأحوذي (٣ / ٢٢١) (عن كتاب السنن الواردة في الفتن وغوائلها لأبي عمرو الداني ت: المباركفوري ١ / ٢٦١.

(٢) مسلم كتاب الفتن (٢٩٤٨).

(٣) مسند أحمد ٥ / ٢٥.

(٤) عن كتاب إتحاف الجماعة للشيخ التويجري رحمه الله تعالى ١ / ٩٣.

وكذلك لما في العبادة من الدعاء والتضرع واللجوء إلى الله – عز وجل – والاعتصام به من شرور الفتن، وقد سبق الكلام عن أثر ذلك في المنارة الأولى.

ومن أفضل الأعمال الصالحة التي تُقاوَم بها الفتن: الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله – عز وجل – لمن قدر على ذلك حيث إن في ذلك درءاً للمفاسد والفتن، ليس عن الفرد فحسب وإنما عن الأمة التي لو تركت لأهل الفساد وأهل الفتن لكان في ذلك [illegible]

[illegible]

في الدنيا والآخرة. ولأهمية هذه الشعيرة فسأفردها بمنارة مستقلة إن شاء الله تعالى.

ومن أفضل الأعمال الصالحة التي يُتقرب بها إلى الله – عز وجل – ويعصم الله سبحانه بها عبده من الفتن والشرور كثرة ذكر الله – عز وجل – في اليوم والليلة سواء ما كان منها من الأذكار المقيدة أو المطلقة. والحديث القدسي التالي يشهد بذلك:

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

فذكر الله - عز وجل - في هذا الحديث القدسي معيته للذاكرين وقربه من المتقربين ومن كان الله معه فقد فاز وأفلح ونجا من المهلكات والفتن.

ومن الأعمال الفاضلة أيضاً التي ينجي الله سبحانه بها من الفتن والمضايق والكروب كثرة الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله عز وجل، يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله - عز وجل - واللجأ إليه واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً...)[١].

وأختم هذه المنارة بحديث قدسي آخر فيه دلالة واضحة على معية الله - عز وجل - للمتقربين إليه بالطاعات فروضها ونفلها حيث يحمي أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم من أن تعمل إلا بنوره وفي ما يحبه ويرضاه، وأكتفي بالشاهد من هذا الحديث وهو قوله تعالى: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه.. الحديث)[٢].

---

(١) إعلام الموقعين ٤ / ١٧٨

(٢) البخاري. كتاب الرقاق (٦٥٠٢) [فتح ١١ /٣٤٨].

المنارة الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى

إن من أفضل الأعمال الصالحة وأحبها إلى الله – عز وجل – الدعوة إلى الله – تعالى – والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيله – عز وجل –. وهذه المنارة وإن كانت تابعة لما قبلها إلا أنه لما كان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى أثر كبير في النجاة من الفتن آثرت إفرادها هنا للتأكيد على أهميتها.

إن الدعوة إلى الله – عز وجل – وأمر الناس بالخير ونهيهم عن الشر، ومواجهة الفساد باللسان والسنان، إن كل ذلك لمن أعظم الأسباب المنجية من الفتن وغوائلها، بل إن القيام بها يعصم وينجي من الفتن ويمنع وقوعها، ذلك لأن معظم الفتن التي مرت بنا في ثنايا البحث إنما تنشأ من تعطيل هذه الشعائر العظيمة التي هي صمام الأمان من الشرور والفتن للمجتمعات والأفراد.

ونظرة سريعة لتاريخ الأمة الإسلامية ترينا مصداق ذلك، فما من فترة أصاب المسلمين فيها الذلة والشرور والفتن إلا كان أعظم الأسباب في ذلك ضعف الأمر والنهي وتعطيل الجهاد وميل الناس إلى الدنيا قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وقال عز وجل: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، وقال سبحانه عن فتنة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقال عز وجل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقد يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنَّ القائمين به قلة لا تكفي جهودهم في مواجهة الفساد العظيم مما قد تتعرض الأمة بسببه للفتنة والعذاب، وحينئذ ينجي الله – عز وجل – القلة الذين ينهون عن الفساد في الأرض ويقيهم شر الفتنة بما قاموا به من الدعوة والجهاد. قال الله – تعالى – عن الذي أنكروا على المعتدين في السبت من اليهود: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال سبحانه أيضاً: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

إذن فالقيام بهذه الشعيرة العظيمة يعد من أكبر الأسباب الواقية من الفتن قبل وقوعها، والمنجية منها حين وقوعها سواء كان ذلك عن الأمة بأسرها أو عن القائمين بها في حالة قلتهم وعدم كفايتهم في مواجهة الشر والفساد أو عدم قبول الناس لنصحهم ودعوتهم.

المنارة السادسة: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة

إن باب الشهوات الذي تدخل منه أكثر الفتن إلى قلب المسلم إنما ينشأ من الرغبة في الدنيا والتعلق بها وزينتها ونسيان الآخرة وأهوالها وما أعد الله - عز وجل - فيها من النعيم السرمدي أو العذاب الأبدي؛ ولذا فإن أعظم ما يسد به هذا الباب هو الزهد في الدنيا والإنابة إلى دار الخلود وعدم نسيانها. وكلما قوي هذا الجانب في قلب العبد كان أبعد عن الشهوات التي هي باب خطير من أبواب الفتن، وأصل كبير من أصول الشرور والمعاصي، ويمكن إيضاح هذا الأمر بالوقفات التالية:

● مر بنا في ثنايا البحث الكلام عن فتنة الدنيا والتنافس عليها وطلب العلو والرئاسة فيها والتحاسد والتباغض بسببها... إلخ. إن كل هذا لا علاج له في قلب العبد إلا بالزهد في الدنيا والنظر إليها بأنها متاع زائل وسبيل عابر إلى الآخرة الباقية الدائمة. إن إنشاءَ هَمٍّ الآخرة وإعمالَ الفكر الدائم فيها، وخوف الوقوف بين يدي الله - عز وجل - كل ذلك من شأنه أن يخفف أو يقطع حب الدنيا والركون إليها والغرور بمتاعها الذي هو أصل فتنتها وشرورها.

● كما مر بنا في فتنة الافتراق والاختلاف بين المسلمين مظاهر عديدة من الوقوع في هذه الفتنة تعود في أصلها إما إلى شبهة تعالج بالعلم والدليل أو إلى شهوة وهوى وهذه لا يعالجها إلا التقوى والزهد في الدنيا والرغبة في ما عند الله - عز وجل - في الآخرة والرهبة من عقوبته التي أعدها للظالمين. فإن لم ينشأ هذا الهَمُّ في النفوس فإنها تميل بطبيعتها إلى

الظلم والعدوان والهوى، ومن ذلك تنشأ الفرقة وينشأ الاختلاف والتقاطع والتدابر بين أبناء الأمة.

كذلك مر بنا في الفتنة بالعلم صور عديدة من الفتنة بالعلم كالرياء والمفاخرة والكبر وطلب الدنيا والرئاسة وكتم الحق ولبسه بالباطل والتحايل على شرع الله - عز وجل -... الخ. وكل هذه الفتن والأمراض لا يكسرها ويقمعها إلا الزهد في الدنيا ومتاعها الزائل والخوف من يوم التلاق ويوم الحسرة ويوم التغابن؛ وبقدر ما يكون في القلب من تذكُّر هذه المواقف العظيمة والاستعداد لها وعدم الغفلة عنها بقدر ما ينشأ في القلب من التقوى والإخلاص والخلوص من هذه الفتن التي تهلك العبد يوم القيامة وتأكل حسناته.

إذن فلا علاج لفتنة الشهوات والأهواء إلا باليقين الجازم بالرجوع إلى الله - عز وجل - والوقوف بين يديه والتذكر الدائم للآخرة وما فيها من الحساب، والجزاء. كل ذلك من شأنه التزهيد في الدنيا ومتاعها الزائل الذي هو أصل فتنة الشهوات والأهواء. وما وقع من وقع في فتنة الدنيا وشهواتها إلا بضعف اليقين في يوم القيامة والانقلاب إلى الله - عز وجل - أو بنسيان ذلك اليوم والغفلة عنه بالانشغال بالدنيا وزينتها، وإلا فلا يمكن لعبد امتلأ بهمِّ الآخرة قلبه وأعرض عن الدنيا وزينتها أن تؤثر عليه فتنة الشهوات ومغرياتها؛ ولذلك كانت هذه المنارة من أعظم المنارات التي ينجي الله - عز وجل - بها العبد من الفتن وغوائلها.

ومن الأسباب التي تدفع الغفلة وتبعث الزهد في الدنيا والإنابة إلى الآخرة وعدم نسيانها ما يلي:

- كثرة ذكر الموت وزيارة المرضى وشهود الجنائز وزيارة القبور.

- ومنها مصاحبة الصالحين الذين تذكر رؤيتهم وأقوالهم الآخرة والاستعداد لها، والإكثار من القراءة في سير من مات منهم.

- ومنها كثرة قراءة القرآن وتدبره وبخاصة في صلاة الليل، وكثرة ذكر الله - عز وجل - ودعائه والتضرع إليه.

- تقصير الأمل والاستعداد لمباغتة الأجل في كل لحظة.

- محاسبة النفس والتفكير الدائم في غايتها في هذه الحياة ومصيرها بعد الموت.

- تقليل الخلطة بالناس إلا فيما ينفع، واختيار أوقات يخلو العبد فيها بربه بعيداً عن الناس كالاعتكاف في رمضان وما بعد العصر أو الفجر في المساجد وخاصة ما بعد عصر يوم الجمعة[١].

وعن قصر الأمل ومعناه يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

(فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز

---

(١) ارجع في تفصيل هذه الأسباب إلى رسالة (قل هو نبأ عظيم) للمؤلف ص ١٣٥ وما بعدها.

الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال. ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة؛ فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهد من شواهد اليقين. يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة. ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها. وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال. ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة. وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧][(١)].

ويزيد الأمر وضوحاً بقوله رحمه الله تعالى:

(لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.

فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال سبحانه: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧]. فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة. فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه)[١].

والحاصل مما سبق أن الزهد في الدنيا ومتاعها الزائل والرغبة فيما عند الله – عز وجل – في الآخرة وهي خير وأبقى من أعظم أسباب النجاة من الفتن؛ إذ أن معظم الفتن إنما ينشأ من حب الدنيا والركون إليها والتنافس عليها ومن ذلك ينشأ الحسد وحب الرئاسة والعلو والفرقة والاختلاف والظلم والعدوان ومجانبة العدل والإنصاف ومداهنة الخلق والتنازل عن الحق والركون إلى أهل الجاه والسلطان... الخ هذه الفتن المتعددة.

فنسأله سبحانه أن لا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، وأن يرزقنا الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله.

---

(١) الفوائد ص ١٧٧.

المنارة السابعة: لزوم الجماعة ونبذ الفرقة

يقول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

[آل عمران: ١٠٣]

ويقول سبحانه أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[آل عمران: ١٠٥]

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال:

خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال:

«أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة. من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن»[١].

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٥٨).

وعن النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – قال قال رسول الله ﷺ : « الجماعة رحمة، والفرقة عذاب »[١].

وسبق قول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: (الخلاف شر)[٢].

وقوله رضي الله عنه: (وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)[٣].

وقال الليث بن سعد وغيره: كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب إليَّ بالعلم كله. فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيفَ الظهر من دماء الناس، خميصَ البطن من أموالهم، كافًّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم، فافعل[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –:

« سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطناً وظاهراً.

وسبب الفرقة: ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤ / ٢٧٢) وصححه الألباني في السلسلة (٦٦٧).
(٢) سبق تخريجه بتمامه ص ١٧٩.
(٣) رواه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة ١ / ١٢١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٢٢.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم»[١].

والأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم التي تدل وتحث على المحافظة على هذا الأصل العظيم من أصول الدين كثيرة جداً ليس هذا مقام تفصيلها وإنما المقصود الإشارة إلى أهمية الاجتماع والوحدة والائتلاف وأثر ذلك في الوقاية من الفتن وغوائلها، والتحذير من الفرقة والاختلاف وأنها أصل كبير وباب خطير من أبواب الفتن.

ولو تتبعنا أحكام الإسلام ومبادئه لرأيناها مبنية على هذا الأصل، فكثير من العبادات تقوم على الاجتماع والترابط والتكافل، وكثير من البيوع والمعاملات المحرمة إنما حرمت لحسم مادة الفرقة والاختلاف والشحناء والبغضاء بين المسلمين، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

إذن فلزوم الجماعة ونبذ الفرقة من أكبر المنجيات والعواصم من قواصم الفتن والشرور، وما نمت بذور الفتن إلا في أرض الفرقة والاختلاف. والتاريخ أكبر شاهد على ذلك. فإن أردنا السلامة من الفتن وشرورها؛ فلنكن عوامل بناء وتأليف وجمع لكلمة المسلمين، ولنحذر من أن نكون عوامل هدم وتفريق بين المؤمنين، وما فرح الشيطان وأولياؤه من الجن والإنس بشيء أشد من فرحهم بالفرقة والتحريش بين المسلمين؛ لأنها فرصتهم الثمينة في نشر ما يريدونه من الشرور والفساد، بل فرصتهم التي

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ١٧.

لا تعوض في بسط نفوذهم على بلاد المسلمين.

ولكن ما هي الجماعة التي أُمِرْنا بلزومها وفيها العصمة من الفتن؟

ذكر الشاطبي رحمه الله تعالى أقوالاً خمسة منسوبة إلى علماء الأمة في معنى الجماعة التي ورد الحث على لزومها في الأحاديث وأقوال السلف، وبالتأمل فيها نجد أنها تنتهي إلى قولين رئيسين ذكرهما الدكتور جمال بادي حفظه الله تعالى في كتابه (وجوب لزوم الجماعة) حيث يقول:

(فيحصل لنا بذلك قولان في معنى الجماعة التي دلت الأحاديث على وجوب لزومها وهما:

الأول: جماعة العقيدة والمنهج، وذلك بأن يلتزم المسلم ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم أجمعين - من أمور الاعتقاد وأصول الدين وهذا هو الأصل والأساس.

الثاني: الجماعة - بالمعنى الخاص - وذلك بلزوم جماعة المسلمين التي لها إمام موافق للشرع وعدم مفارقتها وعدم نكث بيعة الإمام فضلاً عن الخروج عليه)[1] ا.هـ.

وعلى هذا فإن من ترك عقيدة السلف وخالفها في أصول كلية فإنه داعية فرقة وبدعة وشر على المعنى الأول للجماعة، ومن فارق جماعتهم المجتمعين على إمام شرعي فهو أيضاً داعية فرقة على المعنى الثاني للجماعة.

---

(١) وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص: ٩٧.

وقد يجد المسلم نفسه في زمان يخلو من إمام شرعي يقوم بتحكيم الشريعة وحراستها كما هو الحال في البلاد الشيوعية أو النصرانية أو أكثر بلدان المسلمين اليوم، حيث لم يقف الأمر عند تعطيل الشريعة ورفضها بل تجاوز ذلك إلى سن الشرائع والقوانين الوضعية التي يُلزم الناس بها وفيها تُستحل المحرمات ويحكم بها في الدماء والأموال والعقول والأعراض، فإن المسلم والحالة هذه يُكتفى منه في لزوم الجماعة أن يلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - وأن يتعاون مع من يجده في وقته على هذا المذهب ـ مذهب أهل السنة والجماعة ـ، حتى يظهره الله - عز وجل - وينصره ويمكِّن له في الأرض.

ولكن هل يعني لزوم جماعة أهل السنة والجماعة أن لا يحصل خلاف بينهم؟ لا؛ فهذا أمر متعذر، لكنه خلاف مقبول غايته الوصول إلى الحق بود وإخاء وتجرد وإخلاص، وموضوعه فروع الأحكام وما يتعلق بها دون العقائد وأصولها. ولقد اختلف السلف في مسائل فقهية كثيرة فما تفرقوا وما تخاصموا وكانوا عباد الله إخواناً فهلاً وسعنا ما وسعهم؟!

والخلاف الذي وقع بين السلف في ذلك له أسباب كثيرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالته النفيسة: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) فلنرجع إليها لعلنا نعذر إخواننا من طلبة العلم والدعاة فيما اختلفوا فيه من غير فرقة وشحناء.

ويحسن بهذه المناسبة التعريج على مسألة مهمة فيها طرفان ووسط، ألا وهي مسألة (الاجتماع وترك الفرقة) فما هما الطرفان فيها والوسط؟

الطرف الأول: نظر إلى أهمية الاجتماع وخطر التفرق وانطلق من حرصه

على الترابط وتقوية الصفوف، فوسَّع مفهوم الجماعة حتى أُدخِلَ فيها من ليس منها من أهل الفرق والبدع والضلالات كالرافضة والمعتزلة والمتصوفة والأشاعرة... إلخ؛ وذلك بحجة الصراع مع قوى الكفر والإلحاد. فحصل بذلك تميُّع في مفهوم الجماعة الشرعي الذي هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام. وهذا غلط وانحراف.

الطرف الثاني: ضيَّق مفهوم الجماعة حتى انتهى به الأمر إلى إخراج طوائف وأفراد من دائرة أهل السنة والجماعة بحجة وقوعهم في أخطاء بعضها يسعه الخلاف والآخر لا يسعه؛ ولكنهم لم ينطلقوا فيه من أصول أهل البدع بدليل بقائهم بالجملة على عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أدى هذا التضييق عند بعضهم إلى إخراج كثير من أئمة الفقه والحديث عن أهل السنة بحجة أنهم مبتدعة ضُلاَّل كالإمام النووي والبغوي وابن حجر والشاطبي وغيرهم رحمهم الله تعالى وهذا غلط[1]. إضافة إلى أن مضيقي مفهوم الجماعة اعتبروا ما سواهم مبتدعاً ضالاً، وهذا أيضاً غلط وانحراف.

الوسط: وهو الذي قرره الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - في كتابه النفيس: (الاعتصام) حيث حدد الضابط لكون الشخص من أهل السنة والجماعة أو مفارقاً لهم، فقال:

(المسألة الخامسة: وذلك أن هذه الفرق إنما تصير فِرَقاً - بخلافها للفرقة الناجية - في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من

---

(١) فكما أن المبتدع الضال لا يعد من أهل السنة فيما لو وافقهم في جزئية أو أكثر؛ فكذلك لا يعتبر الموافق لأهل السنة في أصولهم بالجملة خارجاً عنهم فيما لو خالفهم في جزئية أو اثنتين. وإنما يقال: وافق أهل البدع في هذه الجزئية أو تلك.

الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات نص من الجزئيات غير قليل، وشأنها في الغالب أن لا تختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

ويجري مجرى القاعدة الكلية كثيرة الجزئيات؛ فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة؛ عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة؛ كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضاً...

وأما الجزئي، فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له؛ كالزلة والفلتة، وإن كانت زلة العالم مما يهدم الدين، حيث قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: ثلاث يهدمن الدين: زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وأئمة مضلون. ولكن إذا قرب موقع الزلة؛ لم يحصل بسببها تفرق في الغالب، ولا هدم للدين، بخلاف الكليات)[١]. ا.هـ.

والمقصود أن دائرة أهل السنة والجماعة أوسع مما يراه المضيقون لها، كما أنها ليست عقيدة متميعة وغير منضبطة بحيث يدخل فيها ما هب ودب من أهل البدع والضلالات.

والمنتسبون إلى أهل السنة والجماعة يتفاوتون في تكميل صفات أهل السنة فبعضهم أكمل من بعض في العقيدة، والبعض الآخر أكمل في السلوك وأخلاق السلف، وبعضهم أكمل في الدعوة والتعليم والجهاد في سبيل الله، لكنهم يبقون بجملتهم في دائرة أهل السنة والجماعة؛ وكلما قرب المنتسب إليهم من الكمال كان أفضل، والمقصر منهم لا يزال منهم ما لم يتبنَّ أصلاً من

---

(١) الاعتصام ٢/٧١٢، ٧١٣ ت. سليم الهلالي (باختصار).

أصول أهل البدع الكلية عن علم ودراية.

والاختلاف في الاجتهادات والنوازل وأحكامها وارد بين أهل السنة، لكنه لا يؤدي إلى فرقة وشحناء، وإذا أدى إلى ذلك فلا بد أن هناك بغياً وهوى وهذا هو الخطير في الأمر. يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)[١].

وقال أيضاً: (فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ، بل مع نوع بغي)[٢] ومن هذا الكلام ندرك أن من أسباب الفرقة وجود الهوى والبغي وهذا لا علاج له إلا بتقوى الله - عز وجل - والزهد في الدنيا كما مر بنا في المنارات السابقة، كما أن هناك سبباً آخر ألا وهو الجهل بالشرع ومقاصده وعلاج ذلك العلم بالشرع والفقه في الدين، وقد أفلح من كان مفتاحاً للخير والألفة والاجتماع مغلاقاً للشر والفرقة والفتن، وخاب من كان عكس ذلك. نسأل الله العافية.

المنارة الثامنة: اعتزال الفتن وأهلها

إن المتأمل لأحاديث الرسول ﷺ ومواقف السلف أيام الفتن يجد فيها التحذير الشديد من المشاركة فيها بأي نوع من أنواع المشاركة وضرورة اعتزالها وأهلها؛ ففي ذلك النجاة بإذن الله - تعالى - وفي ذلك العافية والسلامة في الدنيا والآخرة.. والمنقول لنا من مواقف السلف ومن بعدَهم شاهدة بذلك؛

---

(١) (٢) الاستقامة ١/ ٣١.

فما من أحد اختار لنفسه العزلة أيام الفتن إلا كان محمود العاقبة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (ومن استقرأ أحوال الفتن التي تجري بين المسلمين تبين له أنه ما دخل فيها أحد فحمد عاقبة دخوله، لما يحصل له من الضرر في دينه ودنياه ولهذا كانت من باب المنهي عنه، والإمساك عنها من المأمور به)[١]. ا.هـ.

ولما كان موضوع العزلة من المواضع التي تكثر فيها الاجتهادات وتختلف فيها المواقف، رأيت بسط الكلام في هذا الموضوع والانطلاق في بحثه من حيث الإفراط والتفريط، سائلاً الله – تعالى – السداد والتوفيق.

تعريف العزلة وما جاء في فضلها من الآيات والأحاديث والآثار:

(العزلة: أصل صحيح يدل على التنحية والإمالة تقول: عزل الإنسان الشيء يعزله، إذا نحَّاه في جانب، وهو بمعزل عن أصحابه، أي: في ناحية عنهم، والعزلة ـ بالضم ـ الاعتزال . . .

. . . وقد جاءت العزلة في القرآن والسنة لمعان عديدة، تتراوح بين المفارقة الكلية المطلقة والمفارقة الجزئية، وبين الاعتزال الحسي، والاعتزال المعنوي)[٢].

وقد جمع هذه المعاني الراغب الأصفهاني بقوله:

(الاعتزال: تجنب الشيء، عمالة كانت أو براءة أو غيرهما، بالبدن كان ذلك أو بالقلب)[٣].

---

(١) منهاج السنة ٤ / ٤١٠.

(٢) عن كتاب العزلة والخلطة ص ٢١.

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٤.

ومن الآيات الواردة في مدح العزلة وأهلها:

قوله تعالى عن موسى - عليه السلام -: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١].

وقوله تعالى عن ابراهيم - عليه السلام -: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

وقوله سبحانه عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

أما الأحاديث الصحيحة فمنها:

● عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب، يتقي الله، ويدع الناس من شره»(١).

أما الآثار الواردة عن السلف في فضل العزلة وترك فضول الخلطة فهي كثيرة جداً أختار منها ما يلي.

* عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: (العزلة راحة من أخلاط السوء)(٢).

* وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: (من

---

(١) البخاري. كتاب الجهاد ٣/ ٢٠١. ومسلم كتاب الأمارة (١٢٢، ١٢٣).

(٢) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا ص٦٠.

خالط الناس لم يسلم ولم ينجُ من إحدى اثنتين: إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل، وإما أن يسكت إذا رأى منكراً أو سمعه من جلسائه، فلا يغير، فيأثم ويشركهم فيه)(١).

* وعن سعيد بن صدقة أبو مهلهل قال: (أخذ بيدي سفيان الثوري - رحمه الله - فأخرجني إلى الجبان، فاعتزلنا ناحية عن طريق الناس فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل إن استطعت أن لا تخالط في زمانك هذا أحداً فافعل؛ فليكن همك مرمة جهازك، واحذر إتيان هؤلاء الأمراء، وارغب إلى الله - عز وجل - في حوائجك لديه، وافزع إليه فيما ينوء بك، وعليك بالاستغناء عن جميع الناس؛ فارفع حوائجك إلى من لا تعظم الحوائج عنده؛ فوالله! ما أعلم اليوم بالكوفة أحداً لو فزعت إليه في قرض عشرة دراهم فأقرضني لم يكتمها علي حتى يذهب ويجيء، ويقول: جاءني سفيان فاستقرضني فأقرضته»(٢).

* وعن عبد الله بن المبارك قال: قال لي بعضهم في تفسير العزلة: «هو أن يكون مع القوم فإن خاضوا في ذكر الله، فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فأمسك»(٣).

* وعن وهيب بن الورد قال: «وجدت العزلة في اللسان»(٤).

* وعن الحسن قال: «كان رجل من أهل المصر يغشى السلطان، ويصيب منهم، فترك ذلك، وجلس في بيته، فأتاه أهله وبنوه، فقالوا: تركت السلطان

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧.
(٢) المصدر السابق ص: ٦٨.
(٣)، (٤) المصدر السابق ص ٩٨.

وحظك منه؟! فجعل لا يلتفت إليهم؛ فقالوا: والله؛ لو فعلت لتموتن هرساً. فقال: يا بني! والله لأن أموت مؤمناً مهروساً أحب إلي من أن أموت منافقاً سميناً»(١).

* وعن الفضيل بن عياض قال: (من لم يستانس بالقرآن فلا آنس الله وحشته)(٢).

* وكتب سفيان الثوري – رحمه الله تعالى – إلى عباد بن عباد فقال:

(من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد: سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله فإن اتقيت الله – عز وجل – كفاك الناس وان اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً، سالت أن أكتب إليك كتاباً أصف لك فيه خلالاً تصحب بها أهل زمانك، وتؤدي إليهم ما يحق لهم عليك، وتسأل الله – عز وجل – الذي لك، وقد سالت عن أمر جسيم الناظرون فيه اليوم المقيمون به قليل، بل لا أعلم مكان أحد، وكيف يستطاع ذلك؟ وقد كدر هذا الزمان، إنه ليشتبه الحق والباطل، ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق، فهل تعلم مكان أحد هكذا؟ وكان يقال: يوشك أن ياتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم، فعليك بتقوى الله – عز وجل – والزم العزلة، واشتغل بنفسك، واستأنس بكتاب الله – عز وجل – واحذر الأمراء، وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم؛ فإن استطعت أن تأمر بخير في رفق فإن قُبِلَ منك حمدت الله – عز وجل – وإن رد عليك أقبلت على نفسك؛ فإن

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٨.

(٢) المصدر السابق ص ٧٧.

لك فيها شغلاً، واحذر المنزلة وحبها فإن الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا، وبلغني أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان، وكان لهم من العلم ما ليس لنا؛ فكيف بنا حين أدركنا على قلة علم وبصر وقلة أعوان على الخير مع كدر من الزمان وفساد من الناس؟ وعليك بالأمر الأول والتمسك به، وعليك بالخمول؛ فإن هذا زمان خمول، وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس...)[١].

* وعن نصر بن يحيى بن أبي كثير - وكان من الحكماء - قال في فوائد الخلوة:

(فأول ما يهيج من حب الخلوة: طلب العبد الإخلاص والصدق في جميع قوله فيما بينه وبين ربه، وورَّثته الخلوة راحة القلب من غموم الدنيا، وترك معاملة المخلوقين في الأخذ والإعطاء.

ويهيج من حب الخلوة: خمول النفس، والإغماض في الناس، وهو أول طريق الصدق، ومنه الإخلاص.

ويهيج من حب الخلوة: الزهد في معرفة الناس، والأنس بالله، والاستثقال بمجالسة غير أهل الذكر.

ويهيج من حب الخلوة: شغل العبد بنفسه، وقلة اشتغاله بذكر غيره، وطلب السلامة مما فيه الناس.

ويهيج من حب الخلوة: الأعمال التي تغيب عن أعين العباد وتظهر لله،

---

(١) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص ٨٦، ٨٧.

وقليل ذلك كثير، ومخرجه من الصدق .

ويهيج من حب الخلوة التيقظ من غفلة أهل الدنيا، وفقد أخبار ما يذكر منها في الخاص والعام .

ويورث حب الخلوة : قلة الرياء، والتزين للمخلوقين، وذلك من دواعي الإخلاص، وهو محض الصدق .

ويورث حب الخلوة : ترك الخصومة والجدال، وهما ينفيان طلب الرئاسة، ويسلمان إلى الصدق .

ويهيج من حب الخلوة : إماتة الطمع ودواعيه من الحرص والرغبة في الدنيا، وفيه قوة للعمل .

ويورث حب الخلوة : قلة الغضب، والقوة على كظم الغيظ، وترك الحقد والشحناء، والعمل بسلامة الصدر .

ويهيج من حب الخلوة : رقة القلوب والرحمة، وهما ينفيان الغلظة والقسوة .

ويهيج من حب الخلوة : تذكر النعم، وطلب الإلهام لتشكر، والزيادة من الطاعة .

ويهيج من حب الخلوة : وجود حلاوة العمل، والنشاط في الدعاء بحزن من القلب وتضرع واستكانة .

ويهيج من حب الخلوة : القنوع، والتوكل، والرضى بالكفاف، والاستغناء بالعفاف عن الناس .

ويهيج من حب الخلوة : عزوف النفس عن الدنيا والشـوق إلى لقاء الله

- عز وجل - وذلك من طريق حسن الظن بالله، وخوف النقص في الدين.

ويهيج من حب الخلوة: حياة القلب، وضياء نوره، ونفاذ بصره بعيوب الدنيا، ومعرفته بالنقص والزيادة في دينه.

ويهيج من حب الخلوة: الإنصاف للناس، والإقرار بالحق، وإذلال النفس بالتواضع، وترك العدوان.

ويهيج من حب الخلوة: خوف ورود الفتن التي فيها ذهاب الدين، والشوق إلى الموت خوفاً من أن يسلب الإسلام.

ويهيج من حب الخلوة: الوحشة من الناس، والاستثقال لكلامهم، والأنس بكلام رب العالمين وهو القرآن الذي جعله الله نوراً وشفاء للمؤمنين وحجة ووبالاً على المنافقين؛ فاجعله مفزعك الذي إليه تلجأ، وحصنك الذي به تعتصم، وكهفك الذي إليه تأوي، ودليلك الذي به تهتدي، وشعارك ودثارك ومنهجك وسبيلك)(١).

وبعد هذه النقولات التي ظهر لنا منها فضل العزلة والحث عليها وترك مخالطة الناس يحسن أن نتعرف على ما يقابلها من النقولات والمواقف التي تحث على ترك العزلة وتحث على دعوة الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله - عز وجل -: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

---

(١) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا ص ١٦٨، ١٧١ (باختصار).

والآيات الواردة في الحث على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة.

* وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما ـ قال، قال رسول الله ﷺ: «المسلم إذا كان مخالطاً الناس، ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

* وعن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية»(٢).

* وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: قال: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم، ودينكم لا تَكْلَمُونه)(٣).

* وعن وهيب بن الورد قال: قلت لوهب بن منبه: إني أريد أن أعتزل الناس، فقال لي: (لا بد لك من الناس، وللناس منك إليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعاً، أعمى بصيراً، سكوتاً ناطقاً)(٤).

* وقال أكثم بن صيفي: (الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، ومعرفتهم مكسبة لقرين السوء: فكن للناس بين المنقبض والمقارب، فإن خير الأمور أوساطها)(٥).

---

(١) الترمذي. كتاب صفة القيامة (٢٥٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)

(٢) أبو داود كتاب الصلاة (٥٤٧).

(٣) ابن أبي شيبة في المصنف كتاب الأدب (١٠٣٢) والخطابي في العزلة ص: ٩٩ بلفظ: خالط الناس وزايلهم.

(٤) العزلة للخطابي ص ٩٨.

(٥) المصدر السابق ص: ٩٨.

الجمع بين من يرى العزلة ومن يرى الخلطة :

المتأمل للنقولات السابقة لا يرى بينها تعارضاً ولا تضاداً وإنما الاختلاف الظاهر لنا هو من باب اختلاف التنوع لا التضاد . أي أن كل فريق قد ذهب إلى نوع من العزلة أو نوع من الخلطة، ولذا ينبغي للباحث في أمر العزلة والخلطة أن يفصل القول فيهما ولا يعمم المدح أو الذم فيهما بإطلاق؛ وإنما الأمر مرتبط بالمصالح والمفاسد المترتبة على كل منهما فعلاً وتركاً. وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس وأحوال الزمان والمكان . ولذلك رأينا الإمام الخطابي – رحمه الله تعالى – بعد أن ساق جملة من النقولات التي تمدح العزلة وتحسنها استدرك وأفرد في كتابه العزلة باباً سماه : باب في لزوم القصد في حالتي العزلة والخلطة قال فيه :

(قد انتهى منا الكلام في أمر العزلة إلى حيث شرطنا أن نبلغه، وأوردنا فيها من الأخبار ما خفنا أن نكون قد حسَّنا معه الجفاء من حيث أردنا الاحتراز منه، وليس إلى هذا أجرينا، ولا إياه أردنا؛ فإن الإغراق في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها، والحسنة بين السيئتين . وقد عاب رسول الله ﷺ الإغراق في عبادة الخالق – عز وعلا – والحمل على النفس منها ما يؤودها ويكلها؛ فما ظنك بما دونها من باب التخلق والتكلف؟)[١] .ا.هـ.

وقال ابن قدامة – رحمه الله تعالى –: (فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل . فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل)[٢] .

---

(١) العزلة للخطابي : ص: ٩٧

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ١١٧

ويجلي شيخ الإسلام هذه المسألة بصورة أوضح فيقول:

(فهذه «المسألة» وإن كان الناس يتنازعون فيها؟ إما نزاعاً كلياً، وإما حالياً. فحقيقة الأمر: أن «الخلطة» تارة تكون واجبة أو مستحبة، والشخص الواحد قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارة.

وجماع ذلك: أن «المخالطة» إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، فالاختلاط بالمسلمين في جنس العبادات: كالصلوات الخمس، والجمعة، والعيدين، وصلاة الكسوف، والاستسقاء، ونحو ذلك هو مما أمر الله به ورسوله.

وكذلك الاختلاط بهم في الحج وفي غزو الكفار والخوارج المارقين، وإن كان أئمة ذلك فجاراً، وإن كان في تلك الجماعات فجار، وكذلك الاجتماع الذي يزداد العبد به إيماناً: إما لانتفاعه به، وإما لنفعه له، ونحو ذلك.

ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته؛ كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه. وإما في غير بيته.

فاختيار المخالطة مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد مطلقاً خطأ، وأما مقدار ما يحتاج إليه كل إنسان من هذا وهذا وما هو الأصلح له في كل حال؛ فهذا يحتاج إلى نظر خاص كما تقدم)[1] ا.هـ.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٤٢٥.

ضوابط العزلة والخلطة:

١ - الأصل في الأحوال العادية (مخالطة الناس في الخير كالجمعة والجماعات، والأعياد والحج، وتعلم العلم وتعليمه، والجهاد، والنصيحة، واعتزالهم في الشر وفضول المباحات)[١].

٢ - (إن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكن اعتزالهم: فالحذر من موافقتهم، وليصبر على أذاهم؛ فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكنه أذى يعقبه عز ومحبة وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين؛ فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً)[١].

٣ - إن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات؛ فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك؛ فليحاربه، وليستعن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه)[١].

٤ - (فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فَلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به

(١) مدارج السالكين، باختصار وتصرف يسير ١/ ٤٥٥، ٤٥٦

إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدُق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم)[١].

وهذا النوع من العزلة الذي ذكره الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - هو ما يمكن تسميته بالعزلة القلبية وهو الذي ذكر في قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم ودينكم لا تكلمونه)[٢] وبذلك يجمع بين الخلطة، والعزلة، والخلطة بالجسد، والمفارقة والعزلة بالقلب والعمل والمشاعر؛ وهذا يتأكد في حق الطائفة المنصورة التي يجب عليها دعوة الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على أذى الناس، ويكره في حقهم العزلة وترك الفساد يدب في الناس بلا نصح ولا تغيير.

٥ ـ العزلة التامة عن الناس التي وردت بعض الأحاديث في فضلها إنما تكون في الأحوال التالية:

أ ـ عند فشو المعاصي وانتشارها وحين لا يوجد المكان الصالح الذي يهاجر إليه فإنه يشرع لبعض الأفراد دون بعضهم العزلة؛ وذلك حين لا يستطيع

(١) المصدر السابق ص ٤٥٦.

(٢) سبق تخريجه ص: ٣٤٧.

الفرد الصبر على رؤيتها فيتعجل بإنكارها بصورة شديدة غير منضبطة أو أن المنكرات تعكر صفو حياته، ويعيش برؤيتها في هم وحزن، أو أنه يخاف على نفسه من الوقوع في المعاصي والفواحش خوفاً ظاهراً قوياً. وهذه عزلة مقيدة بأحوال الأفراد وليست عزلة مطلقة لكل إنسان.

ب ـ أيام الفتن واختلاف المسلمين وتفرق كلمتهم واقتتالهم:

وفي هذه الأحوال يشرع اعتزال الناس حتى تنجلي الفتنة، ومن أراد لنفسه السلامة في الدنيا والآخرة فليعتزل الناس بقلبه ولسانه ويده وأن لا يتلوث بشيء من كدرها وغبارها؛ وهذا ما وجه الرسول ﷺ أمته إليه عند هيجان الفتن.

قال عثمان الشحام: انطلقت أنا وفرقد السبخي إلى مسلم بن أبي بكرة وهو في أرضه، فدخلنا عليه، فقلت: هل سمعت أباك يحدِّث في الفتن حديثاً؟ فقال: نعم، سمعت أبا بكرة يحدث قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة: القاعد خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت، أو وقعت، فمن كان له إبل فَليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ومن لم يكن له شيء من ذلك فليعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة. اللهم! هل بلغت؟ اللهم! هل بلغت؟ اللهم! هل بلغت؟»[1].

---

(١) مسلم كتاب الفتن باب نزول الفتن (٢٨٨٧).

وهذا ما كان عليه سلف الأمة أيام الفتن:

● فعن ابن سيرين قال: لما قيل لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -: ألا تقاتل؟ إنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك، قال: (لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد)(١) وسبق في (فتنة الافتراق والاختلاف) ذكر اعتزال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - بعد مقتل عثمان - رضي الله عنه - بإبل له في خارج المدينة(٢).

● وعن ثعلبة بن ضبيعة قال: دخلنا على حذيفة - رضي الله عنه - فقال: (إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتنة، قلنا: من هو؟ قال: صاحب ذلك الفسطاط، قال: فخرجنا، فإذا فسطاط مضروب، فدخلنا، فإذا فيه محمد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك؟ فقال: ما أريد أن يشتمل عليَّ من أمصاركم شيء، حتى تنجلي عما انجلت)(٣).

● وكان محمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وأبو بكرة نفيع بن الحارث، وأبو مسعود الأنصاري، وغيرهم - رضي الله عنهم - قد اعتزلوا الناس بعد مقتل عثمان - رضي الله - عنه فمنهم من اعتزل اعتزالاً كلياً كسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة - رضي الله عنهما - ومنهم من اعتزل الفتنة ولم يعتزل الناس كأسامة - رضي الله عنه -.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٨٤ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٢) انظر ص: ١٩٢.
(٣) أبو داود (٤٦٦٣) (٤٦٦٤) وقال الأرناؤوط: هو حديث صحيح ١٠/ ١٧ جامع الأصول.

● وعن يزيد بن أبي عبيد – رضي الله عنه – قال: «لما قتل عثمان خرج سلمة بن الأكوع إلى الربذة، وتزوج هناك امرأة، وولدت له أولاداً، فلم يزل بها، حتى قبل أن يموت بليال نزل المدينة، فمات بها» أخرجه البخاري، وأخرج هو ومسلم «أن سلمة دخل على الحجاج، فقال: يا ابن الأكوع، أرتددت على عقبيك، تعربت؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ اذن لي في البدو»[١].

● وعن عامر الشعبي قال:

(لما قاتل مروان الضحاك بن قيس، أرسل إلى أيمن بن خُرَيم الأسدي فقال: إنا نحب أن تقاتل معنا، فقال: إن أبي وعمي شهدا بدراً، فعهدا إليّ أن لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله؛ فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك، فقال: اذهب، ووقع فيه، وسبه، فأنشأ أيمن يقول:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي ... على سلطان آخرَ من قريشِ
له سلطانُهُ، وعليَّ إثمي ... معاذ الله من جهل وطيشِ
أقاتل مسلماً في غير شيء؟ ... فليس بنافعي ما عشت عيشي)[٢].

● وسئل يزيد بن الشخير: (ما كان مطرف يصنع إذا هاج الناس؟ قال: يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة، ولا جماعة حتى تنجلي)[٣].

● وعن إبراهيم بن محمد قال: قلت للأوزاعي: أرأيت إن وقعت الفتنة

---

(١) البخاري. في الفتن باب التعرب في الفتنة. مسلم (١٨٦٢).
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٥٧٩ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير زكريا بن يحيى زحمويه وهو ثقة.
(٣) انظر: ص: ١٩٣.

بثغر: أترى لأحد أن يبيع منهم شيئاً؟ قال: (لا، ولا مخلاة من تبن إلا ممن يثق به)(١)؛ وذلك لإضعاف مواردهم المادية التي يستعينون بها على إضرام نيران الفتنة فيما بينهم.

وبمناسبة الحديث عن العزلة أيام الفتن فإني أنصح نفسي وإخواني الدعاة ونحن نعيش اليوم طرفاً من فتنة الفرقة والاختلاف بين المسلمين بأن نقتدي بسلفنا الصالح، فنعتزل هذه الفتن، وأن نحذر أشد الحذر من التورط فيها بألسنتنا أو كتاباتنا أو أيدينا؛ فإن السلامة في ذلك. ولم نجد أحداً من السلف ندم على مسك لسانه ويده أيام الفتن، بل كانوا موضع غبطة وثناء من إخوانهم الذين شاركوا فيها متأولين، كما أثنى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على اعتزال سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - بقوله: (لله منزل نزله سعد بن مالك وعبد الله بن عمر. والله لئن كان ذنباً إنه لصغير مغفور، ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور)(٢).

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: (إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافٌّ اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم فافعل)(٣).

ج - عند فساد الزمان وفساد الناس ومروج عهودهم وأماناتهم؛ وذلك حين يتعذر الإصلاح في الناس لاختلافهم وتناحرهم ورقة أديانهم. أي حين يطبق الانحراف التام العام والغربة الشاملة؛ فحينئذ يشرع للمسلم أن يعتزل

---

(١) السنن الواردة في الفتن وغوائلها ١/ ٤٢٤

(٢) الطبراني ١/ ١٠٦ ج (٣١٩)

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٢٢

الناس ويعتني بنفسه كما يعتني بأمر الخاصة من أصحابه وخلصائه، ويهتم بصلاح شئونهم، ويذر أمر العامة. وهذه الحالة إما أن تكون في مكان دون مكان كما هو الحال في بعض الأماكن اليوم، وإما أن يشمل الانحراف العام كل الأرض وتستحكم الغربة والجاهلية فيها كلها وهذا لا يكون إلا قرب قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

(ففي الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم وبزمان أو: يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم»[1].

ويعلق صاحب كتاب (العزلة والخلطة) - حفظه الله تعالى - على هذا الحديث فيقول:

(ومحصل هذه الصفات كلها: أن لا فائدة من الأمر والنهي والإصلاح في مجال العامة وهم الدهماء والجمهور، وإن ترأسوا وسادوا، بل ربما ترتب على الأمر والنهي ضرر بأن يتضاعف المنكر ويزداد، أو يؤذى الآمر في نفسه، أو أهله، أو ماله.

ولعل هذا هو الضابط العام لتلك الحال: ألا يكون ثَمَّ فائدة ترجى من الدعوة والأمر والنهي بين هؤلاء المسمين بـ «العامة»، وفي مقابل التحقق من عدم النفع، هناك توقع لحصول الضرر الديني والدنيوي للآمر ولغيره، ولا شك

---

(١) أبو داود، كتاب الملاحم (٤٣٤٢)، ابن ماجه كتاب الفتن (٣٩٥٧).

أن الأصول العامة تقتضي ترك الأمر والنهي ـ حينئذ ـ دفعاً للمفسدة المتوقعة التي لا توجد مصلحة تكافئها في فصل الأمر والنهي، فيكون الحديث مطرداً مع القاعدة العامة في المصلحة والمفسدة)(١).

٦ ـ هناك نوع من العزلة لا غنى للمسلم عنه في أي زمان أو مكان أو حال وهي عزلة جزئية مؤقتة يخلو المسلم فيها بنفسه مع ربه عز وجل يحاسب فيها نفسه ويناجي فيها ربه كالاعتكاف في شهر رمضان، وذكر الله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وغيرها من الأوقات الفاضلة التي يشرع فيها الذكر والدعاء.

المنارة التاسعة: الأخ الصادق، والصاحب الصالح العاقل

مما لا شك فيه أن للأخ الصادق صاحب الدين والعقل والعلم أثراً واضحاً في العصمة من الفتن، والنجاة من الشرور، والثبات على الدين وقوة التمسك به وعدم التنازل عنه. ومن وفقه الله – عز وجل – إلى أخ صادق ذي علم وعقل فقد وفق إلى خير عظيم، كيف لا وهو سنده بعد الله – عز وجل – عند الشدائد ومن عوامل الثبات والطمأنينة عند اضطراب الأمور وحلول الفتن.

وهذا الصاحب قد يكون أباً أو ابناً أو أخاً قريباً أو زوجة أو أخاً صفياً من المسلمين، فإذا وجد من هؤلاء من يدعو إلى الثبات والتعقل ويحذر من الفتن والدخول فيها أو التنازل عن المبدأ عند الشدائد – إذا وجد مثل هذا الصاحب فليعض عليه بالنواجذ؛ فهو كنز عظيم ومنارة مضيئة من منارات النجاة والفلاح.

---

(١) انظر كتاب العزلة والخلطة ص: ٧٠.

وأذكر فيما يلي بعض النماذج المضيئة التي يظهر فيها دور الصاحب في التثبيت والنجاة من الفتن وشرورها:

● عن الهيثم بن خلف الدوري أن محمد بن سويد الطحان حدثه قال: كنا عند عاصم بن علي ومعنا أبو عبيد، وإبراهيم بن أبي الليث وجماعة، وأحمد بن حنبل يُضرب، فجعل عاصم يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل، فنكلمه؟ قال: فما يجيبه أحد، ثم قال ابن أبي الليث: أنا أقوم معك يا أبا الحسين، فقال: يا غلام: خُفِّي. فقال ابن أبي الليث: يا أبا الحسين أبلُغُ إلى بناتي، فأوصيهم، فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال: إني ذهبت إليهن، فبكين، قال: وجاء كتاب ابنتَيْ عاصم من واسط: يا أبانا إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل، فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله، ولا تجبه؛ فوالله لأن يأتينا نَعِيُّك أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت(١).

● وعن أبي جعفر الأنباري قال: لما حُمِل أحمد إلى المأمون، أُخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنيت. فقلت: يا هذا أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبتَ إلى خلق القرآن، ليجيبن خلقٌ، وإن أنت لم تُجب، ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لا بد من الموت، فاتق الله ولا تجب. فجعل أحمد يبكي، ويقول: ما شاء الله. ثم قال: يا أبا جعفر، أعد علي فأعدت عليه، وهو يقول: ما شاء الله(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ٢٦٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ٢٣٩.

● وقال صالح بن أحمد: حمل أبي ومحمد بن نوح من بغداد مقيَّدين، فصرنا معهما إلى الأنبار. فسأل أبو بكر الأحول أبي: يا أبا عبد الله، إن عُرِضْتَ على السيف، تجيب؟ قال: لا. ثم سُيِّرا، فسمعت أبي يقول: صرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد ابن حنبل؟ فقيل له: هذا، فقال للجمَّال: على رِسْلِك، ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتل هاهنا، وتدخل الجنة؟ ثم قال: أستودعك الله، ومضى. فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشَّعَر في البادية، يقال له: جابر بن عامر، يذكر بخير[1].

● وعن أحمد بن أبي الحواري: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، قال: قال أحمد ابن حنبل: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق. قال: يا أحمد، إن يقتلك الحق، مت شهيداً، وإن عشت، عشت حميداً. فقوي قلبي[2].

● وقال حنبل: قال أبو عبد الله: ما رأيت أحداً على حداثة سنه، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير. قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي. أنت رجل يقتدى بك. قد مد الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله واثبت لأمر الله، أو نحو هذا. فمات، وصليت عليه، ودفنته. أظن قال: بعانة[3].

---

(١) المصدر السابق ١١/ ٢٤١.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٢٤١.

(٣) المصدر السابق ١١/ ٢٤٢.

من خلال النماذج السابقة يبرز لنا أثر الصاحب الصالح العاقل في الثبات على الأمر وتقوية القلب وعدم الوهن والاستكانة والضعف. وهذا بدوره يحذرنا من أهل الدنيا أو ضعاف العلم والعقل، فليس وراء هؤلاء إلا الخذلان، والإرجاف، والمسارعة إلى الفتن إما بعلم، أو بجهل وحمق وطيش؛ فأمثال هؤلاء لا يصاحبون ولا يشاورون.

ويلحق بهذه المنارة من باب أوْلى مصاحبة السلف الصالح في سيرتهم وقراءة أخبارهم ومواقفهم من الفتن والتأسي بهم في ذلك، وهذا ما حرصت على الإكثار منه في هذه الرسالة؛ ولله الحمد.

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشكره سبحانه على ما أولاه من فضل وعون وتوفيق؛ حيث يسَّر لي في هذه العُجالة أن أتناول هذا الموضوع المهم في حياة المسلمين أفراداً وجماعات والذي هو جدير بالاهتمام والمعالجة والكتابة الموسعة؛ فهو قضية الساعة، وموضوع المواضيع، ولا أدعي أني أحطت به من جميع جوانبه، فكم من الصور والمسائل التي تتعلق بالفتن وفقهها لا زالت بحاجة إلى تجلية وتأصيل، ولعل إخواني من طلاب العلم المهتمين بفقه النوازل والفتن يكملون النقص ويسدون الخلل. والله عز وجل هو وحده الموفق والمسدد والهادي إلى سواء السبيل.

وسأحاول - إن شاء الله تعالى - في هذه الخاتمة تلخيص النتائج المهمة التي خرجت بها من هذا البحث، والتي يمكن أن تعطي لقارئها تصوراً سريعاً عن موضوع هذه الدراسة، وذلك في الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

لقد تبين لنا من هذه الدراسة خطورة موضوع الفتن وأهميته، وضرورة الحذر من شرورها، وأن لا يغفل المسلم عن نفسه ومحاسبتها والتفتيش عن مواطن الفتن فيها؛ فقد يكون متلبساً ببعضها وهو لا يشعر بذلك.

ومن خلال الصور الكثيرة للفتن وأشكالها يتضح لنا خطورة الأمر،

وضرورة الحذر الشديد من غوائل الفتن ومنافذها، وخاصة في هذا الزمان الذي تتلاطم فيه الفتن وتموج كموج البحر حيث يحار المسلم من كثرتها فلا يدري من أيها يفر وأيها يقاوم ويحاذر؟ ويخشى إن سلم من بعضها أن يصيبه البعض الآخر. لكن الشعور بخطورة الفتن وعدم الغفلة عنها أو التغافل يجعل المسلم يبدأ بالمقاومة والمدافعة، معتصماً بربه - عز وجل - متضرعاً إليه، مفوضاً أمره إليه، متخذاً الأسباب التي جعلها الله - عز وجل - منجية من الفتن التي سبق ذكر بعضها في المبحث الأخير.

الوقفة الثانية:

إن وقوع الفتن سنة من سنن الله - عز وجل - يختبر بها عباده ليميز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، وليمحص بها عباده المؤمنين ويمحق بها الكافرين، فكم لله - عز وجل - من الحِكَم في ذلك، ولا بد منها لكل عبد مكلف قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وأخبر الرسول ﷺ بأن الفتن تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً.

إذن فلا يسلم عبد من التعرض للفتن ولكن الله - عز وجل - الذي قدر هذه الفتن لم يترك عباده دون عون ومساندة؛ بل شرع لهم ما يتقون به الفتن وغوائلها، وأمرهم بفعلها؛ فمن أخذ بها سلم ونجا، ومن أعرض عنها وتركها أحاطت به الفتن فوقع في شرورها ومهالكها.

الوقفة الثالثة:

أصل الفتن ومصدرها من الشيطان الرجيم الذي سأل الله - عز وجل - أن ينظره إلى يوم الدين ليفتن العباد ويضلهم، وقد حذرنا الله - عز وجل - من فتنه وعداوته وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وكقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ولكن الشيطان له أعوان من ذريته من الجن ومن شياطين الإنس يتعاونون في فتنة العباد وإضلالهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

[الأنعام: ١١٢]

وقد ظهر لنا في هذه الدراسة خطر المنافقين وأضرابهم من شياطين الإنس في فتنة الناس وتضليلهم.

كما ظهر لنا أيضاً في أسباب الفتن أن للشيطان بابين يدخل منهما على قلوب العباد ليفتنهم: باب الشبهات، وباب الشهوات. وسبق التفصيل فيهما، ولكن العبد المنقاد لأمر ربه - عز وجل - يسد هذين البابين على الشيطان بما أرشده إليه ربه - سبحانه - من أسباب المقاومة

للشبهات والشهوات - والذي سبق تفصيله في منارات النجاة في المبحث الأخير - وبذلك يعود كيد الشيطان في نحره، ويعجز عن فتنة عباد الله المؤمنين؛ حيث وصف الله سبحانه كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ولكنه يكبر ويتعاظم عند المعرضين عن ذكر الله - عز وجل - وشرعه ممن يتولون الشيطان وحزبه من الذين قال الله - عز وجل - فيهم: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

الوقفة الرابعة:

لقد مرت بنا في ثنايا البحث صور عديدة من الفتن وأشكالها؛ بعضها ناشئ عن تفريط وتقصير، وبعضها عن غلو وإفراط؛ والشيطان لا يبالي من أيهما يدخل على قلب العبد، ولا ييأس من فتنة العبد ما دام على قيد الحياة.

وأعظم الفتن التي مرت بنا في هذا المبحث الفتنة في العقيدة وهي التي تهون عندها بقية الفتن، وإن كان بعضها قد يؤول في نهاية الأمر إلى أن يكون فتنة في العقيدة.

وشياطين الإنس والجن يسعون في فتنتهم - بادئ ذي بدء - في أن تكون في العقيدة كالإشراك بالله - عز وجل، عياذاً به سبحانه - أو في النفاق والبدع المكفرة، وقد مضى تفصيل أنواع الفتن في ذلك؛ والمقصود الحذر من هذه الفتنة الكبرى، وأن يسعى المسلم جاهداً في عمره القصير على نظافة معتقده، وسلامة قلبه من أن يتلوث بشيء من ذلك؛ فإذا سلم

من أنواع الشرك والنفاق والبدعة فهو على خير – إن شاء الله تعالى – .

الوقفة الخامسة:

ظهر لنا في هذا البحث فتنة عمَّت وطمت في هذا الزمان الا وهي فتنة الفرقة والاختلاف؛ فما أشدها من فتنة تأكل الدين وتلوث القلوب وتمزق الأمة، وقد سبق الحديث عن خطرها وآثارها المدمرة وكيف السبيل إلى علاجها ووضع حد لاستفحالها. ولكن هذا لا يكفي إن لم يصاحبه قومة صادقة من أهل العلم والعقل والحكمة في هذه الأمة يخشون ربهم ويشفقون على أمتهم فينصحون لله – عز وجل – ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويذكرون المختلفين بالله – عز وجل – وبالنهاية الخطيرة للتفرق والتحزب، فإن لم تحصل هذه القومة فلا فائدة إذن من الكلام والكتابة. فاللهم ألف بين قلوب المؤمنين، واجمع كلمتهم على الحق، وأعذهم من شرور أنفسهم وشر الشيطان وشركه.

الوقفة السادسة:

كما ظهر لنا في هذه الدراسة أيضاً الخطورة على أهل العلم من زغل العلم والفتنة به، وأن هناك من الفتن الشديدة التي يجب على طالب العلم أن يحذر منها أشد الحذر؛ فهناك فتنة العلم بلا عمل، وفتنة الدنيا والتسلق إليها عن طريق العلم والشهادات، وهناك التحاسد بين أهل العلم، وفتنة كتم العلم وتلبيسه، وفتنة الفتوى بلا علم، وفتنة ترك الأمة في جهلها يقودها أهل الفساد والشر، ويخططون لها، ويوجهونها كما يريدون في غيبة عن العلم وأهله. كل هذه الفتن يتعرض لها طلاب العلم وأهله؛ فهلاً

شعرنا بخطورة الأمر؟! إن الأمر جد خطير فإن فتناً كهذه الفتن التي تحيط بأهل العلم من كل جانب لجديرة بالخوف واليقظة والحذر، ولو نجا طالب العلم من بعضها لكان على خطر من بقيتها.

الوقفة السابعة:

تبين لنا من خلال البحث خطورة فشو المعاصي والمنكرات وما يترتب على ذلك من الفتن إذا ضعف إنكارها أو تلاشى، وذلك من العقوبات التي تحل بالناس في الدنيا في أديانهم ودمائهم وأموالهم وعقولهم وأعراضهم، وكفى بذلك فتنة في الدنيا، فكيف إذا أضيف إلى ذلك العقوبات في الآخرة لأهل المعاصي والمفسدين والساكتين؟ كما تبين لنا في المقابل خطورة الأمر أو النهي بلا مراعاة للمفاسد والمصالح والضوابط الشرعية وما يجر ذلك من الفتن والمفاسد.

إذن: فالأمر بالغ الحساسية والحرج، ويحتاج إلى توازن وانضباط؛ بحيث لا يميل الأمر إلى إحدى الكفتين؛ والله – سبحانه – هو الموفق والهادي إلى الصواب.

الوقفة الثامنة:

من خلال البحث وما تم فيه من استعراض كثير من الفتن وأشكالها ومظاهرها يظهر لنا مدى الغربة التي يعيشها المسلم في هذا الزمان حيث تحقق فيه خبر النبي ﷺ أن القابض على دينه كالقابض على الجمر، ولكن العاقبة للمتقين الصابرين.

وقد سبق التنبيه في فتنة الغربة إلى بعض المحاذير التي ينبغي للمسلم أن يحذرها ويتجنب السقوط فيها ومن أهمها: اليأس من تغير الحال وعودة العزة للإسلام والمسلمين، ومنها العجلة تحت ضغط الواقع وكثرة الفساد، والقيام ببعض الممارسات التي ينقصها الدليل الشرعي كما ينقصها العقل والحكمة، ومنها الضعف أمام ضغط الواقع والتساهل في أخذ هذا الدين بقوة، والتنازل عن ثوابته الأصيلة سواء على مستوى الفرد أو الطائفة.

الوقفة التاسعة:

في المبحث الأخير كان الكلام فيه عن أسباب النجاة من الفتن وعلى رأسها التوكل على الله - عز وجل - ودعاؤه وذكره والاعتصام به وحده فهو - سبحانه - الذي لا مفر منه إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه، وهو وحده الذي يعصم من أسباب الفتن: شبهاتها وشهواتها.

ولما كانت أسباب الوقوع في غوائل الفتن لا تخرج عن كونها شبهات أو شهوات صار العلاج والدواء في مقاومة الشبهات بالعلم والبصيرة والفقه في الدين، والتأني والحلم، ومقاومة الشهوات بالصبر والعمل الصالح والعبادة، والزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة وخوف الوقوف بين يدي الله - عز وجل - والفرار من الفتن واعتزالها من أعظم أسباب النجاة منها وخاصة تلك التي تكون أيام الفرقة والاقتتال بين المسلمين، ولو أدى اعتزالها إلى العزلة عن الناس في شعف من الجبال ليسلم القلب واللسان واليد من التلوث بها.

والعزلة وترك فضول الخلطة ممدوحة في هذا الزمان لكن بضوابطها المذكورة في بحث العزلة حيث إنها تدور مع المصالح والمفاسد والترجيح بينهما، كما أن دراسة أحوال السلف ومواقفهم من الفتن من أعظم منارات النجاة لمن اقتدى بهم، وهذا ما حاولت الإكثار منه في هذه الدراسة . . .

الوقفة الأخيرة:

وبقي أن أنبه في هذه الوقفة على أن الكلام عن الفتن وكثرتها في هذا الزمان وضرورة اعتزالها والفرار منها لا يعني أبداً ترك الناس على ما هم عليه من المفاسد والمنكرات لا يعلّمون ولا يؤمرون وينهون، بل إن الواجب على أهل الدعوة والإصلاح في مثل هذه الظروف أن يبذلوا جهدهم في مقاومة الفساد والدعوة إلى الله - عز وجل - ونشر الخير والسنن، ومقاومة البدع وشرور الفتن، وتحذير الناس منها.

ولو ترك الناس وما يراد لهم من قِبَلِ أهل الفساد والفتن لفسدت الأرض ومن فيها، ولم يسلم من شرور الفتن أحد بما في ذلك الصالحون، فالله - عز وجل - يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فلننتبه لهذا الأمر، ولا يُفهم من هذه الرسالة الدعوة إلى اعتزال الناس مطلقاً وترك الحياة تأسن وتفسد بفعل المفسدين والمفتونين، لا، بل المطلوب مضاعفة الجهد في إزالة الشرور وأسباب الفتن حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، أما وقت الاعتزال التام للناس فأحسب أن زمانه لم يأت بعدُ، وقد سبق تفصيل ذلك في مبحث العزلة.

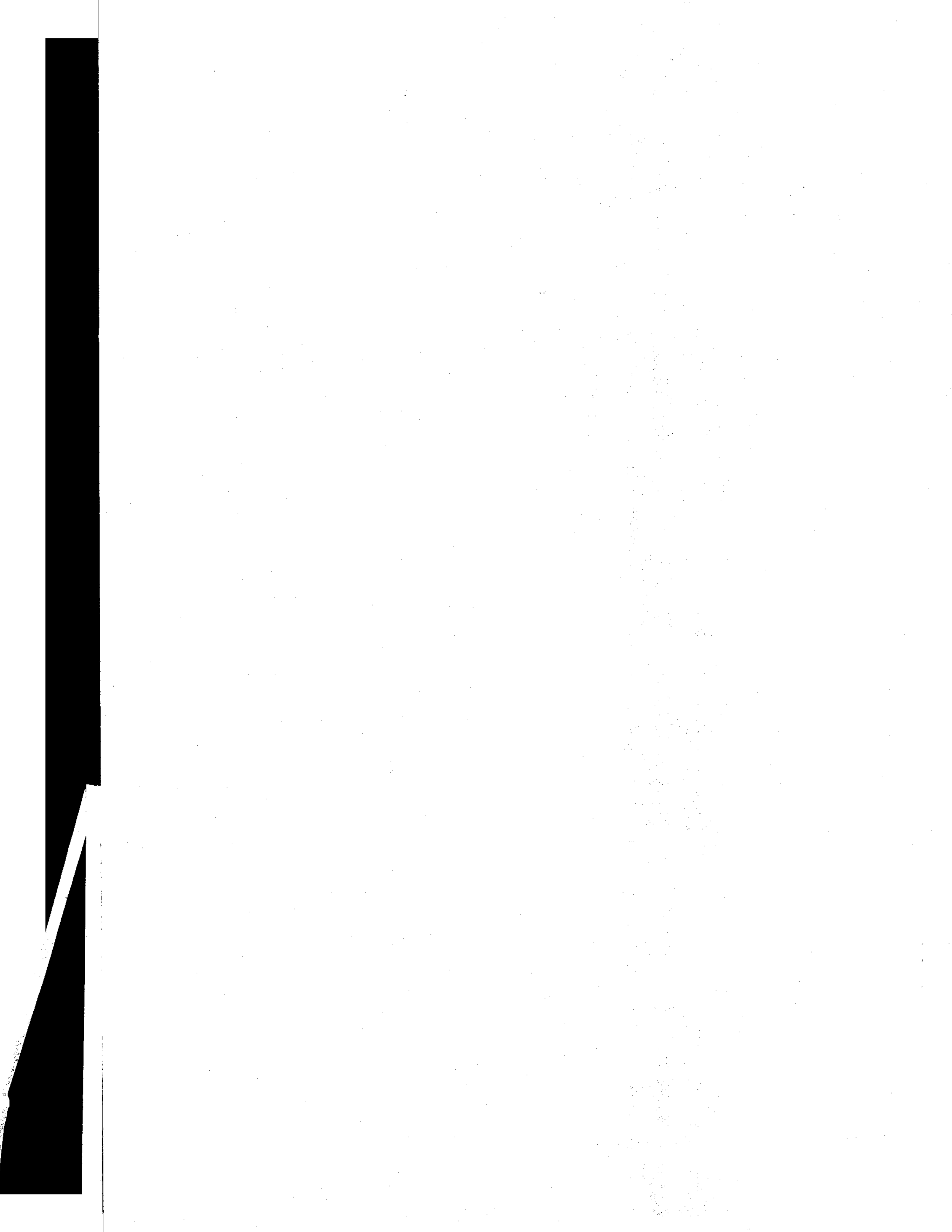
وبعد... فهذا ما يسَّره الله سبحانه من كتابة حول هذا الموضوع المهم في ضوء قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فإن أردنا لأنفسنا النجاة فلنمتثل أمر ربنا - عز وجل - ونفرَّ من معصيته إلى طاعته، ومن سخطه إلى رضاه، ومنه إليه سبحانه؛ حيث لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفر لنا من شرور الفتن إلا إليه؛ فنعم المولى ونعم النصير.

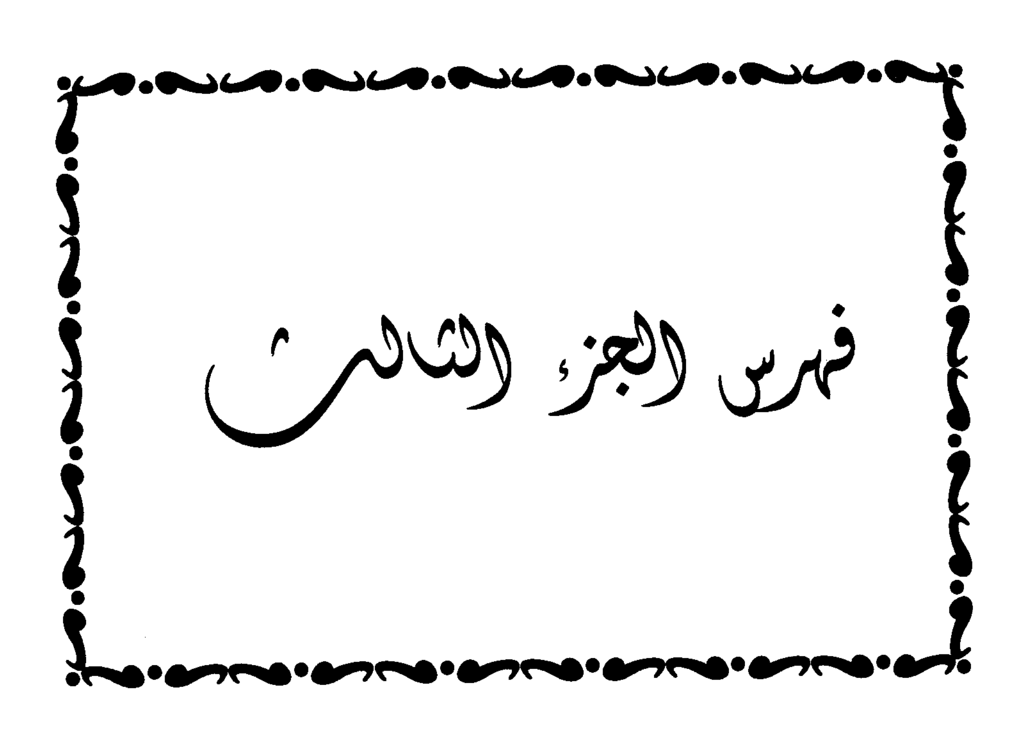
اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

اللهم إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لنا، وترحمنا، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عصر يوم السبت ١٩/١٢/١٤١٧هـ.




فهرس الجزء الثالث

فهرس الرسالة الحادية عشرة

(فبهداهم اقتده)

الموضـــوع **الصفحة**

المقدمة ٥

○ **المبحث الأول:**

لماذا ندرس حياة الأنبياء عليهم السلام ١٥

○ **المبحث الثاني:**

خصائص الأنبياء عليم الصلاة والسلام ٢٧

○ **المبحث الثالث:**

دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحد ودعوتهم واحدة .. ٤١

○ **المبحث الرابع:**

من جوانب الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٥١

□ **الجانب الأول:**

هديهم في قوة العلم بالله وأثر ذلك في صدق الإيمان وكمال التوحيد ٥٣

١- شدة تعظيمهم لله عز وجل وخوفهم منه ٥٦

٢- كثرة ذكرهم لله وشدة تضرعهم ودعائهم له وقوة عبادتهم ٦٩

٣- كمال توكلهم على الله واستعانتهم به وحده ورضاهم

بحكمه وشجاعتهم ٨٠
أ- أمثلة في الشجاعة والثبات ٨١
ب- أمثلة في حسن الظن بالله والرضا بحكمه ٨٥
جـ- أمثلة في الاستعانة بالله عز وجل والتبرؤ من الحول
والقوة ٩٤

❑ **الجانب الثاني:**

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في السلوك والأخلاق ٩٧
١- النصح والرحمة بالناس والشفقة عليهم من عذاب الله ٩٨
٢- الصبر والتقوى ١٠٦
٣- الكرم والوفاء والشجاعة ١١٧
٤- التأسي بهم في الهدي الظاهر ١٢٥

❑ **الجانب الثالث:**

من هديهم عليهم الصلاة والسلام في الدعوة والتبليغ ١٢٧
- المعْلَم الأول: العقيدة أولاً ١٢٨
- المعْلَم الثاني: الولاء والبراء على أساس العقيدة ١٤٣
- المعْلَم الثالث: الإخلاص وابتغاء الأجر من الله ١٥٦
- المعْلَم الرابع: التعرض للأذى ١٦١
- المعْلَم الخامس: التدرج في الدعوة ومراعاة المصالح والمفاسد . ١٨١
- المعْلَم السادس: مراعاة السنن الربانية ٢٠٣
○ الخاتمة ٢١٩

* * *

فهرس الرسالة الثانية عشرة
(ففروا إلى الله)

الموضوع الصفحة

المقدمة ٢٢٧
المبحث الأول: تفسير قول الله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾ ٢٣٣
المبحث الثاني: الفتن وأسباب السقوط فيها ٢٤٢
المبحث الثالث: ذكر بعض أنواع الفتن التي يجب الفرار منها إلى الله - عز وجل - ٢٥٤
أولاً: فتنة الغربة ٢٥٥
ثانياً: الفتنة في العقيدة ٢٧٥
أ - فتنة الشرك ٢٧٥
ب- فتنة النفاق والمنافقين ٢٩٢
ج- فتنة البدعة والمبتدعين ٣١٣
ثالثاً: فتنة الدنيا وزخرفها ٣٣٥
أ - فتنة الأموال والأولاد ٣٣٥
ب- فتنة النساء ٣٤٦
ج- فتنة الجاه وحب الرئاسة ٣٥٥
رابعاً: فتنة المعاصي وفشو المنكرات وترك إنكارها ٣٦٨
أ - فتنة فشو المنكرات وعدم إنكار ذلك ٣٦٨
ب- فتنة إنكار الفساد دون مراعاة للضوابط الشرعية والمصالح والمفاسد ٣٨٦
خامساً: فتنة الاختلاف والفرقة بين المسلمين ٣٩٨

سادساً: الفتنة بالعلم ٤٢٢
أ - ضعف العمل بالعلم ٤٢٤
ب- فتنة العجب والكبر والرياء ٤٣٦
ج- فتنة التلبيس وكتم الحق ٤٤٣
د - فتنة الدنيا والتحاسد عليها ٤٤٨
هـ- فتنة الجدال والمراء والخصومات ٤٥٨
و- فتنة التعصب لآراء الرجال والتقليد الأعمى ٤٦٦
ز- قلة المعرفة بأحوال الناس وواقعهم والابتعاد عن قيادتهم وتوجيههم ٤٧١
ح- التعالم والفتوى بلا علم ٤٨٨
سابعاً: الفتنة بالمصائب والمكاره ٤٩٨
ثامناً: فتنة المسيح الدجال ٥٠٨
تاسعاً: فتنة الممات ٥١٣
المبحث الرابع: سبل الفرار من الفتن ومنارات النجاة منها ٥٢٣
المنارة الأولى: اللجوء إلى الله عز وجل ودعائه والاعتصام به ٥٢٤
المنارة الثانية: العلم بالشرع والفقه في الدين ٥٣١
المنارة الثالثة: الرفق والحلم والأناة ٥٣٧
المنارة الرابعة: لزوم التقوى والعمل الصالح ٥٤٢
المنارة الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله عز وجل ٥٤٧
المنارة السادسة: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ٥٤٩
المنارة السابعة: لزوم الجماعة ونبذ الفرقة ٥٥٤
المنارة الثامنة: اعتزال الفتن وأهلها ٥٦١
المنارة التاسعة: الأخ الصادق والصاحب العاقل ٥٧٩
الخاتمة ٥٨٣
الفهرس ٥٩٥

* * *